

نظرات

محمد هلال الخالدي

نظرات

محمد هلال الخالدي



النظرة الأولى

كورونا.. وعبقرية ألبير كامو في "الطاعون"

أعدت قبل أيام قراءة رواية "الطاعون"، رائعة الفيلسوف والأديب الفرنسي الوجودي الكبير ألبير كامو والتي حاز عليها جائزة نوبل للأدب عام 1957.

وياللعجب من عمق هذا الرجل وإبداعه ليس في تصوير المعاناة فقط، وإنما في نظرتة الشمولية لأبعاد الوباء وعلاقته بالنزعة الفردية التي هيمنت على الحضارة الغربية، وتأكيديه أن نجات البشرية تكمن في التواصل والتضامن الاجتماعي، لا في الأناية والجشع.

كامو يتحدث في الرواية عن مدينة وهران الجزائرية، وهي رمز للمدن الأوروبية كما سيتبين من مسار الرواية.

يقول "هناك طريقة سهلة للتعرف على مدينة ما، وهي أن نعرف كيف يشتغل فيها سكانها وكيف يحبون وكيف يموتون".

ثم يصف وهران - وهو يقصد حتما كل المدن الغربية - بأن "أهلها يعملون كثيرا من أجل الثراء، ويوجهون عنايتهم للملذات، فهم يحبون النساء والسينما والاستحمام في البحر، ورغبات شبابها عنيفة وعابرة".

وهو هنا ينتقد النزعة الفردية في هذه الحضارة، القائمة على الجشع والأناية وعدم الاكتراث للآخرين، ثم يظهر خطر هذا كله بعد أن تصاب المدينة بالطاعون، وكم تبدو الرواية عجيبة في أحداثها كأنه يتحدث عن حالنا اليوم مع انتشار وباء "كورونا"!

يروى كامو كيف تصرفت السلطة في البداية بلا مبالاة من ظهور جرد هنا ونفوق عدد من الجرذان هناك، ثم يستمر في نقد النزعة الفردية من خلال شخصيتي الطبيب "برنار ريو"

والغريب "جان تارو"، اللذان بذلا جهودا كبيرة لحث الناس على التطوع لحماية المدينة من الوباء القاتل.. إلا أن الطاعون كان قد استشرى، وبدأ يحصد الأرواح بلا تمييز، أطفالا وشيوخا، رجالا ونساء، حتى أصبح مقتل الرجل مثل قتل الذباب، والجثث ترمى في المحارق بالأكوام!

ألبير كامو في رواية "الطاعون" يطرح الكثير من المسائل المهمة، منها إمكانية تصور المعاناة كتجربة إنسانية مشتركة لا كعبء فردي خاص، وهذا ما نلاحظه اليوم مع وباء كورونا الجديد، حيث أصبحت المعاناة عامة ومشتركة، والرعب صار عالميا وواحدا، فكل فرد فينا يشعر اليوم بأن حياته مهددة بالخطر، وحياة الآخرين كذلك بنفس الدرجة، يخرج أحدنا ليشتري كيس خبز وهو لا يعرف إن كان سيعود حاملا للفيروس والموت أم لا!

كما يناقش كامو قضية أخلاقية مهمة تتمثل في مسؤولية الانسان عن بقية البشر، والتشابك الغريب بين السعادة الفردية وبين الالتزام الأخلاقي تجاه الآخرين، ويصور كامو كيف أن من يسهمون في تخفيف المعاناة عن غيرهم، هم أكثر الناس سعادة وراحة، بينما الأشرار هم الأثانيون الذين لا ينظرون للوباء على أنه خطر مشترك.

ومن الأفكار العميقة التي يطرحها كامو في "الطاعون" فكرة تتعلق بالنظام الاجتماعي وكيف تجعله الكوارث ينقلب رأسا على عقب، فيصبح التفكير والتركيز على اللحظة الحالية، (هنا والآن) فحسب، إذ تجبرنا حقيقة حضور الموت واقترابه على نطاق واسع، على تركيز اهتمام كل واحد منا على متطلبات حياته اليومية، والبقاء على قيد الحياة، الذي يصبح الهدف الأهم، وهنا تتجلى روعة وعمق ألبير كامو حين يربط كل ذلك بقيمة وأهمية التضامن الاجتماعي، فالنجاة مرهونة بالتعاون والعمل المشترك ومساعدة بعضنا البعض.

وربما لا نحتاج الى ذكاء خاص لنذكر ما أصاب دولا متقدمة وغنية اليوم من هلع وانهيار نتيجة "النزعة الفردية"، في مقابل صمود دول صغيرة وبإمكانات متواضعة بسبب التضامن الاجتماعي.

جيرمي بنتامو دمار العالم

في السبعينيات من القرن العشرين ظهرت على أحد موديلات سيارة مشهورة في أميركا مشكلة خطيرة بسبب عيب بالتصنيع، حيث كان خزان الوقود ينفجر بسرعة عند اصطدام السيارة من الخلف مخلفا قتلى وجرحى. ماذا فعلت الشركة مع هذه المشكلة؟ تعاملت بالعقلية الأميركية الكلاسيكية التي تنطلق من فلسفة جيرمي بنتام (فيلسوف انجليزي توفي عام 1832، مؤسس الفلسفة النفعية في الأخلاق، والتي تنكر وجود القيم وترد كل شيء للمنفعة، بحيث يكون الخير هو ما يحقق المنفعة، والشر هو الذي يسبب الألم)، قامت الشركة بعملية "تحليل للخسائر والمنافع" والتي تشكل عصب فلسفة بنتام النفعية وبموجبها يتحدد ما هو الخير وما هو الشر، فوجدوا أن تكلفة وضع قطعة حديد لحماية خزان الوقود عند الاصطدام سيكلف 11 دولارا لكل سيارة، وكان عدد السيارات المتضررة حينها 12 مليون سيارة، وبالتالي فالتكلفة ستكون 132 مليون دولار. في حين لو تركوا السيارات بلا إصلاح، وبحسب التقديرات والاحصائيات لعدد الحوادث، جاءت التقديرات انها ستكون 180 حالة وفاة و180 إصابة بجروح، قدروا لكل حالة مبلغ تعويض 200 ألف دولار للوفاة، و67 ألف دولار للإصابة، إضافة لمبلغ 700 دولار تعويض إصلاح لعدد 2000 سيارة المحتمل تعرضها للحوادث. والمحصلة، ستكون مجموع خسائر الشركة في هذه الحالة حوالي 49 مليون دولار فقط، وبالتالي - ووفقا للفلسفة النفعية - قررت الشركة عدم إصلاح المشكلة وانتظار مقتل وإصابة الناس ثم تعويضهم لأن التكلفة حينها ستكون أقل!

الفلسفة النفعية حقيقة وليست خيال، نعم هذا التفكير المرعب الذي يشمئز منه أي إنسان لديه حد أدنى من الضمير هو واقع وهو الذي تسير عليه أميركا وأوروبا وهم يتفاخرون به ويتفاخرون بجامعاتهم التي تخرج أفضل العقول "النفعية" المختصة بتحليل الخسائر والأرباح، والمثال السابق مجرد مثال بسيط لما يجري في أميركا وأوروبا فعليا كل يوم، فضلا عن المثال الصارخ الذي يتكرر كل عام مع مجموعة شركات فيليب موريس لصناعة السجائر، والذي يقول للعالم كله بكل تبجح، الفلسفة النفعية بحسابات الربح والخسارة

ستبقى تحتقر البشر وتحدد لكل إنسان قيمته بالدولار. الخطير، أن الفلسفة النفعية التي تهيمن على الرأسمالية الجشعة في الاقتصاد، هي ذاتها التي تعمل من خلال الفلسفة البراجماتية في عالم السياسة. ولذلك، لا تستغربوا ما يجري في سورية ولماذا تستمر آلة القتل بحصد أرواح آلاف البشر وتشريد الملايين للعام الخامس في ظل وجود أمم متحدة وموثيق ومحاكم جنائية دولية..؟! والسبب بوضوح أن "صناع القرار" البراغماتيين في السياسة والنفعيين في الاقتصاد أجروا عمليات تحليل للخسائر والأرباح، ووجدوا أن استمرار القتال بهذه الصورة "أفضل" وأكثر ربحاً لهم. وتذكروا، أن المتخصصين بتحليل الخسائر والأرباح بهذه الطريقة المتوحشة يسمونهم "خبراء" ويتقاضون أعلى الأجر مقابل ما يقدمونه من "تسعيرة" لحياة البشر وبما يوفره من ملايين على أصحاب الشركات ومكاسب ديبلوماسية للسياسيين. نعم هكذا تجري الأمور في هذا العالم القبيح الذي هدمته فلسفة جيرمي بنتام النفعية وما قدمته للرأسمالية الجشعة والبراغماتية البشعة من مفاهيم متوحشة حتى غدا عالماً ميتاً لا قلب له ولا روح !

قضية الطفلة "م"

في مارس 1984 استجابت ماري بيث وايتهايد لإعلان منشور في إحدى الصحف الأمريكية يطلب سيدة بصحة جيدة تقبل بتأجير رحمها لزوجين يعانون من العقم مقابل مبلغ كبير من المال، ماري بيث كانت شابة صغيرة وفقيرة تعاني مشاكل مالية.

تم الاتفاق بين الطرفين على أن تخضع ماري بيث لعملية زرع أجنة مخصبة من الزوجين إليزابيث ووليام ستيرن وقاموا جميعا بتوقيع "عقد" يتضمن شروطا عديدة، أهمها أن تقوم السيدة ماري بيث بتسليم الطفل بعد الولادة للزوجين ستيرن، ولا يحق لها المطالبة بأي حقوق تتعلق بالطفل.

مضت الأيام والتزم الجميع بالشروط إلى أن جاء يوم الولادة في مارس 1986، حيث رفضت ماري بيث تسليم الطفلة وقالت انها طفلتها.

كانت هذه الحادثة جديدة كلياً على المحاكم الأمريكية - والعالم - فقبلت محكمة نيو جيرسي القضية المرفوعة من الزوجين ستيرن، وبدأت رحلة طويلة مع واحدة من أغرب القضايا المتعلقة بتحديد نسب الطفل، فالأمر يتعلق هنا بتحديد "جوهر" النسب، هل هو يرتبط بالأجنة أم بالرحم؟!

استند الزوجان ستيرن في مطالبتهما بنسب الطفلة لهما بالعقد الذي تم توقيعه، قائلين انه عقد ملزم وتم بالاتفاق بين طرفين عاقلين ودون وجود أي نوع من الاكراه، والعقد نص صراحة على نسبة الطفل للزوجين ستيرن وأن السيدة ماري بيث لا يحق لها المطالبة بالطفل بعد الولادة، وأنها وافقت على ذلك قبل البدء بأي إجراء وأنها كانت على دراية واضحة بكل تفاصيل العملية، وبالتالي، يمثل تراجعها انتهاكا للعقد ولحقهما بالطفلة.

أقرت ماري بيث بأنها وقعت العقد وهي على دراية بكل التفاصيل فعلا، باستثناء علمها بمشاعر الأمومة التي تكونت بعد ولادة الطفلة، حيث إن هذا الأمر كان غائبا عنها تماما، ولم تشعر به إلا بعد الولادة.

ورغم أن هذا الدفاع كان سببا مقنعا للمحكمة، ومع ذلك، قررت المحكمة الحكم بأحقية الزوجين ستيرن بـ "رعاية" الطفل، مع حق للسيدة ماري بيث بزيارة الطفلة وقضاء وقت معها (حق زيارة).

مع التأكيد على أن الحكم اختص بحق الرعاية وليس النسب، إذ لا تزال حتى اليوم قضية تحديد جوهر النسب محل خلاف، إن كان مرتبطا بالأجنة أم بالرحم (القضية لها ثلاثة أطراف، الحيوان المنوي، البويضة، الرحم.. من له الأولوية في الحق بالطفل؟

هذه القضية المعروفة باسم قضية الطفلة "م" baby m case (لأن ماري بيث أطلقت على الطفلة اسم "م"، وبعد حكم الرعاية قام الزوجان بتسميتها "ميليسا") فتحت الباب لعشرات القضايا المشابهة التي أغرقت المحاكم الأميركية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت ثورة علمية في تطوير تقنيات أطفال الأنابيب والحمل عن طريق الحقن المجهرى.

بل فتحت الباب واسعا لحقل جديد في فلسفة الأخلاق يتعلق بالمشكلات الأخلاقية الناتجة عن التقدم العلمي والطبي تحديدا، وللمهتمين أنصح بقراءة رسالة الماجستير المتميزة للباحثة الكويتية ناهدة البقصي بعنوان "الهندسة الوراثية والأخلاق" المنشورة ضمن سلسلة عالم المعرفة، وقد كان من حسن حظي أن درست هذا الفرع الجديد على يدي أستاذي د. ميشيل متياس الذي كان أحد الأعضاء المشاركين في لجان تشريع القوانين الجديدة المتعلقة بأخلاقيات الثورة العلمية الحديثة في أميركا، كالاستنساخ والأم البديلة

والموت الرحيم (حق المريض أو أهله في طلب رفع الأجهزة عنه ليموت) وغيرها من المشكلات التي تبين خطورة انحطاط الإنسان إذا لم تردعه قيم أخلاقية عليا.

التحول للسيارات الكهربائية

في عام 2013 وضعت الحكومة الألمانية خطة مستقبلية للتحول إلى السيارات الكهربائية في ألمانيا، كان الهدف آنذاك استبدال مليون سيارة كهربائية بدلا من سيارات محركات الاحتراق بحلول عام 2020.

قبل أيام شاهدت برنامجا وثائقيًا على التلفزيون الألماني (دويتشه فيله) يتحدث عن فشل الحكومة في تنفيذ تلك الخطة، واستمعت للمذيع وهو يتحدث بإعجاب عن تجربة النرويج الرائدة في هذا المجال، ويندب حالهم ويقول: النرويج سبقتنا بمراحل، العالم ينتقل للسيارات الكهربائية ونحن في ألمانيا لا نزال نصنع محركات الديزل والبنزين، العالم من حولنا يتقدم ونحن جامدون !

هذا ما يقوله الألمان عن ألمانيا.. فماذا نقول نحن ؟

النرويج دولة نفطية، ومع هذا تعمل منذ تسعينيات القرن الماضي على إلغاء الاعتماد على النفط في دخلهم القومي وكذلك في سياراتهم، وهي منذ التسعينيات تستثمر معظم مداخيل النفط في صندوق استثماري ضخم أصبح اليوم الأعلى ربحا على مستوى العالم.

وفي النرويج تحول هو الأسرع عالميا من سيارات محركات الاحتراق إلى السيارات الكهربائية، يسير في شوارعها اليوم أكثر من 70% سيارات كهربائية، والنرويج نشطة ليس فقط في التحول للسيارات الكهربائية، وإنما أيضا في صناعة محركات السفن الكهربائية، وهي اليوم رائدة في هذا المجال.

الغريب أن النرويج لم تكن رائدة في صناعة السيارات الكهربائية، وإنما ألمانيا. ففي عام 1975 قامت شركة "مرسيدس بنز" بصناعة أول سيارة بلا انبعاثات كربون، وفي العام التالي 1976 قامت "فولكس فاجن" بصناعة أول سيارة كهربائية من نوع "جولف".

وضمن خطة الحكومة الألمانية للتحويل للسيارات الكهربائية كانت تقدم مبلغ 4500 يورو هدية لكل مواطن يشتري سيارة كهربائية، إضافة إلى إعفائه من رسوم استخدام الطرق والضرائب على السيارة وتوفير محطات شحن كهربائية بأسعار أقل كثيرا من الديزل والبنزين. ومع ذلك، فشلت ألمانيا في خططها، بينما نجحت النرويج.

في الحقيقة، من يعرف طبيعة الشعب الألماني، ويعرف ما الذي تعنيه الطرق السريعة ذات السرعات غير المحددة (Autobahn) سيعرف لماذا فشلت ألمانيا.

قبل أيام.. تمكنت شركة "تيسلا" (رائدة السيارات الكهربائية في العالم) من صناعة سيارة ببطارية متطورة قطعت مسافة 645 كلم متواصلة بشحنة واحدة.

ومن يسافر إلى هولندا فسيصاب حتما بحالة عشق كما أصبت أنا بهذه السيارة التي تنتشر في شوارع أمستردام كسيارة أجرة.

الآن.. أعلم أن الحديث هنا ضرب من الخيال وصرخة في واد، لكنها صرخة مكبوتة في الصدر تحتاج أن تخرج.

الكويت بلد نفطي تماما، ونحن نشهد تدهور النفط بأعيننا، لا نريد التحول إلى السيارات الكهربائية، فهذا حلم بعيد المنال، ولندع مصانعنا الضخمة تستمر بصناعة محركات الاحتراق وسيارات البنزين والديزل.. لا مشكلة!

لكن علينا أن نفهم أن العالم المتقدم الذي يشتري نفطنا، هو الذي يتحول، قريبا سيتم التخلي عن نصف كمية النفط المطلوبة نتيجة لهذه التحولات.

نحن في حالة يرثى لها ونمد أيدينا إلى صندوق الأجيال القادمة وحكومتنا تشتكي عدم وجود سيولة لدفع الرواتب في ظل أزمة عابرة انخفضت معها أسعار البترول. فماذا سنفعل عندما تتخلى الدول الصناعية عن نصف حاجتها من البترول!؟

آآه.. رحم الله بدر شاكر السياب الذي قال: ماتت الشكوى على ثغر تمادى في الشكاة.

تناقضات عالمنا العربي

يدخل شاب إلى السوق في أحد الأحياء القديمة في القاهرة، "ياخذ ويدي" في الكلام مع شخص آخر، ويتطور الموضوع إلى خناقة شخصية بينهما، لكن بمجرد ما يبدأ الضرب بين الشابين، فجأة يشتبك كل من في السوق، وكل اثنين يضربان بعضهما البعض، بالكراسي والطاولات وكبايات الشاي والقهوة والشوم والمطاوي.. تتكسر عربيات الكارو ويمتلئ الشارع بالخضار وتتطاير أقفاص الفراخ ويصبح السوق ساحة معركة بين الجميع دون أن نفهم لماذا !

هذا المشهد المؤلف في السينما المصرية يحدث فعليا في الشرق الأوسط، فالجميع ماسك بزمامة رقبة الآخر وهاتك يا ضرب، تحت الحزام وفوق الحزام ووسط الحزام، لماذا؟ لا أحد يفهم ما يجري، نتفرج كل يوم على بشر يتطايرون في قصف هنا وانفجار هناك، وسط خريطة تحالفات تتجاوز قدرة العقل البشري على فهمها وفك طلاسمها.. لا أحد يعرف من مع من، ومن ضد من، ما يجري تحت الطاولة أكبر مما يجري فوقها، والمستقبل مجهول تماما، لكن وسط هذا الركام الهائل تبقى حقيقة واحدة تبرز فوق كل التكهنات والطلاسم، وهي أن عالمنا العربي مليء بالثروات الطبيعية، وغني جدا بالموارد البشرية، لكنه عالم بأس يعج بالفوضى والفقر والجوع والتشرد والتخلف والجهل والدمار !

"لا يستحق الحرية ولا الحياة سوى الذي يأخذهما عنوة كل يوم".

الشاعر الألماني الكبير يوهان غوته، على لسان بطل مسرحيته "فاوست".

في بداية القرن العشرين قامت العديد من حركات التحرر الوطني، في كوبا وأميركا اللاتينية، في افريقيا وفي آسيا وفي العالم العربي. نجح بعضها، وتخبط البعض الآخر، والقاسم المشترك لحركات التحرر في العالم العربي هو تحولها من مشروع بناء وطن حر، إلى مشروع صراع على السلطة !

تقول نكتة عراقية.. لما تكون طفل يقولون لك راح ترتاح لما تكبر، ولما تكبر يقولون لك راح ترتاح بعد الثانوية، ولما تخلص ثانوية يقولون لك راح ترتاح بعد الجامعة، ولما تخلص جامعة يقولون لك راح ترتاح بس تشتغل، ولما تشتغل يقولون لك راح ترتاح بس تتزوج، ولما تتزوج يقولون لك راح ترتاح بس يصير عندك أطفال، ولما يصير عندك أطفال يقولون لك راح ترتاح بس يكبرون أولادك، ولما يكبرون يقولون لك راح ترتاح بس يتزوجون أولادك، ولما يتزوجون يقولون لك راح ترتاح بس يصير عندك أحفاد، ولما يصير عندك أحفاد تموت.. ولما تموت يقولون "الله يرحمه، هسة ارتاح".

مجزرة كاتين.. 22 ألف رصاصه في الرأس

كان هتلر قد احتل عددا من الدول الأوروبية، وتوجهت أنظاره إلى بولندا لمواصلة مشروع التوسع النازي.

أدرك ستالين خطورة الوضع، فقام بتوقيع اتفاقية عدم اعتداء (معاهدة مولوتوف - ريبنتروب) مع ألمانيا في أغسطس 1939، اتفق فيها الطرفان على اقتسام بولندا بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي.

بعدها بأيام تحركت جحافل الجيش الألماني (فيرماخت) واحتلت غرب بولندا، وبعدها بأيام تحركت دبابات الجيش الأحمر السوفييتي واحتلت المناطق الشرقية من بولندا.

اقترح لافريني بيريا رئيس "المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية" - وهي جهاز الشرطة السرية في الاتحاد السوفييتي آنذاك - على ستالين ضرورة التخلص من الضباط والنخبة المثقفة في بولندا للحفاظ على الأمن، ووافق ستالين على ذلك وأعطى بيريا الضوء الأخضر، ولم يتأخر بيريا في تنفيذ المهمة، فبدأ سلسلة اعتقالات واسعة شملت أكثر من 25 ألف بولندي بين ضباط وجنود وسياسيين وأكاديميين ورجال دين، وأشرف بنفسه على عملية إعدام 22 ألفا منهم في غابات مدينة كاتين غرب روسيا في ابريل 1940.

وعندما هاجم هتلر الاتحاد السوفييتي عام 1943، وجد الألمان مقابر جماعية تحوي رفات آلاف البولنديين، تم إعدامهم جميعا بطلقة في مؤخرة الرأس، وعندما أعلنوا عن ذلك واتهموا ستالين بارتكاب هذه المجزرة المروعة، سارع ستالين إلى الإنكار واتهم الألمان بارتكابها، وبقيت التهمة ملاصقة للنازيين سنين طويلة، إلى أن اعترف الرئيس السوفييتي السابق ميخائيل غورباتشوف بالجريمة وبمسؤولية ستالين عنها عام 1990.

وفي عام 2010 وخلال تولي الرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف الحكم، أمر بنشر الوثائق المتعلقة بمجزرة كاتين والتي كانت محفوظة لسنوات طويلة في "أرشيف الحزب الشيوعي" في موسكو.

وفي ابريل 2010 شارك رئيس الوزراء آنذاك فلاديمير بوتين لأول مرة في ذكرى إحياء المجزرة في بولندا، وكرر اعتراف بلاده بالجريمة وبمسؤولية ستالين عنها، لكنه رفض الاعتذار، ودعا البولنديين إلى طي صفحة الماضي والنظر للمستقبل إن كانوا يريدون علاقات طيبة مع روسيا.

لم ينج من تلك المجزرة الرهيبة سوى 583 بولنديا، روى بعضهم كيف كانت تتم عمليات الإبادة الجماعية لرفاقهم، والتي تطابقت مع ما جاء في وثائق الحزب الشيوعي التي تحررت مؤخرا من السرية.

كان رجال الشرطة السرية يصطحبون بشكل يومي عددا كبيرا من المعتقلين البولنديين بحجة الاستجواب، ويدخلونهم الواحد تلو الآخر في غرفة لها باب أمامي وباب خلفي، محاطة بأكياس الرمل على جدرانها من الداخل، وما إن يدخل المعتقل حتى يوجه له الشرطي السوفييتي رصاصة في مؤخرة الرأس، فيحمل جثة هامة عبر الباب الخلفي إلى شاحنة تنتظر، وهكذا يتكرر الأمر طوال النهار، وتؤخذ الشاحنات المكدسة بالجتث مع بزوغ الفجر إلى حفرة كبيرة في غابات كاتين، ويلقى بها أكواما تلو أكوام.

كان فازيلي ميخايلوفيتش بلوخين من أشرس الجلادين الروس في تلك المجزرة، قام وحده بإعدام أكثر من 7 آلاف بولندي، بعضهم لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره !

في عام 1993، تم إنشاء "متحف كاتين" في العاصمة البولندية وارسو، يضم صورا ووثائق وبعض المتعلقات الخاصة بضحايا المجزرة، إضافة إلى عدد من النصب التذكارية للضحايا في مقبرة بوفيسكي وكاتوفيتش وخاركيف، لتبقى شاهدا هي وأمثالها على وحشية من يقودون اليوم عمليات "السلام" في عالمنا البائس !

كيف يُرتجى إصلاح من خراب؟!

تعاني مدينة مومباي الهندية من اختناق مروري، مثلها مثل غيرها من المدن حول العالم اليوم، وبسبب الازدحام الشديد عند إشارات المرور، يستخدم السائقون أبواق السيارات بكثرة وعشوائية، حتى وإن كانت الإشارة حمراء وعداد الوقت يشير للمدة المتبقية بالثواني، وكأن الإشارة ستخاف منهم وتتحول للأخضر بسرعة! ماذا عملت إدارة المرور لإجبار السائقين على احترام الناس والكف عن نشر الضوضاء بهذه الطريقة المزعجة؟ قاموا بتركيب جهاز يقيس درجة الضوضاء الصادرة عن أبواق السيارات، وربطوها بعدادات الوقت الخاصة بالإشارات الضوئية، وكلما زادت درجة الضوضاء نتيجة الاستخدام المفرط لأبواق السيارات، كلما زاد وقت الانتظار عليهم.. هكذا حتى وجد السائقون أنفسهم مضطرين لاحترام القانون والتوقف عن إزعاج المارة.

يردد كثير من الناس مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تولى الخلافة "لو عثرت بغلة في طريق العراق لسألني الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر؟"، لكنهم يستخدمونها فقط مع كبار المسؤولين، وكأن صغار الموظفين غير معنيين بالأمانة ومخافة الله عز وجل في حقوق البلاد والعباد، ولهذا تجد أجدنا ينتهك كل القوانين ويفرط بكل حقوق المراجعين دون أن يشعر بألم الضمير، لكنه يثور ويهيج إذا صدر ذلك عن مسؤول كبير، ولا أعرف كيف تسلت هذه الثقافة البائسة في نفوس المسلمين اليوم، كيف ربطوا الأمانة وإتقان العمل بالمناصب العليا فقط!؟

أحد أهم مصادر تشكل القيم الأخلاقية في المجتمع هو أن يكون هناك قانون صارم يعاقب من يرتكب فعلا مخالفا، فيصبح الالتزام بالسلوك المرغوب "قيمة" أخلاقية يحترمها الجميع.

لدينا خلل كبير في هذا الأمر لا شك، لدينا تخمة في القوانين لكن ليس لدينا حد أدنى من الالتزام بتطبيق تلك القوانين، والعجيب أن الناس الذين يفترض أنهم المستفيد الأول من تطبيق القانون هم عادة أول من ينتهك القانون بل ويطالبون بعدم تطبيقه.. ألم يعترض الناس عندنا على وضع كاميرات المراقبة عند إشارات المرور؟ ألم يعترضوا على ربط الإجازات الطبية بحركة الخروج والدخول للبلاد؟ لماذا يفعلون هذا؟ هل هناك سبب آخر غير أنهم "يريدون" انتهاك القانون دون رقابة ولا محاسبة؟! ثم بعد ذلك نجلس ونتذمر من الفساد والفضوضى ونريد أن نصبح مثل أوروبا.. ولكن دون أن نقوم بواجباتنا، نريد "سوبرمان"، رجلا خارقا، "القوي الأمين" الذي يأتي من السماء ويملا الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا ونحن نحتسي القهوة في مقاهي الأفنيوز! نريد برلمانا قويا أميننا لكننا حين ننتخب نختر ضعيف النفس الذي يخدم مصالحه الخاصة على حساب مصالحنا نحن.. ثم نعود لنتذمر.

يقول الشاعر الفلسطيني محمود درويش مخاطبا الشعب العربي المهاجر.. تهاجرون إلى أوروبا هربا من بلدانكم، وهناك ستلتزمون بلبس حزام الأمان، وتضعون مقعدا خلفيا للأطفال، وستقفون في الطابور بكل احترام حتى وإن كان طوله كيلومتر، وسترمون النفايات في أماكنها المخصصة بكل أدب، وستوزعون الابتسامات على الجميع، وستعبرون من الأماكن المخصصة للعبور، وعندما تحصلون على الجنسية الأوروبية، ستنتخبون الأصح والأكثر كفاءة لتمثيلكم وخدمتكم بعد أن تبحثوا في تاريخه ومنجزاته، ستلتزمون بالقانون دائما هناك، ولو فعلتم ذلك في أوطانكم، لما احتجتم للهجرة!

العالم بعينون رحمانينوف

قبل أيام، حقق حزب البديل من أجل ألمانيا، وهو حزب يميني شعبي متطرف معاد للأجانب بصورة عامة، وكاره للمسلمين بصورة خاصة، حقق انتصارا جديدا في الانتخابات البرلمانية في ولايتي سكسونيا وبراندنبورغ شرق ألمانيا، والغريب أن هذا الحزب المتطرف يزداد قوة وانتشارا مع كل انتخابات منذ تأسيسه في برلين عام 2013، يقابله تراجع ملحوظ في شعبية الحزب المسيحي الديموقراطي (ميركل) والحزب المسيحي الاشتراكي (شولتسه) حليف الحزب المسيحي الديموقراطي الأقوى. واضح أن ألمانيا تسير باتجاه إنتاج هتلر جديد، ولذلك حذر وزير الداخلية الألماني هورست تسيهوفر قبل أيام من خطورة الوضع ومن صعود اليمين المتطرف، داعيا الجميع إلى العمل المشترك لمنع وصول ممثلي هذا الحزب المعادي للأجانب إلى السلطة قبل فوات الأوان، وقال صراحة، إن خطر الأحزاب اليمينية المتطرفة في أوروبا لا يقل عن خطر "الإسلام الراديكالي"، لكن مع الأسف لا تحظى هذه الأحزاب اليمينية المتطرفة بنفس درجة الاهتمام الذي يوجهه للتطرف الإسلامي. صعود الأحزاب اليمينية المتطرفة ليس حكرا على ألمانيا وحدها، فهناك مكاسب تحققها هذه الأحزاب في فرنسا وهولندا أيضا، الأمر الذي يوحي بأن أوروبا مقبلة على تغير كبير في السنوات القليلة القادمة.. نحو الأسوأ بالتأكيد، هذا ما توصل إليه استطلاع للرأي أجرته مؤسسة "يوجوف" مؤخرا، حيث أعرب أكثر من 53% من الألمان عن تخوفهم من صعود اليمين المتطرف وتأثير ذلك على مستقبل ألمانيا وأوروبا.

هناك تحول اجتماعي كبير في عالمنا العربي، تحول من جيل "التذمر" المطالب بالإصلاح، إلى جيل "الغضب" المطالب بالتغيير. العالم كله يشهد تحولات كبرى في تحالفاتها وسياساتها الخارجية، والأنظمة التي لا تقرأ الواقع، ولا تتجاوب مع متغيراته.. ستخسر.

كل الدول التي تدخلت بشكل مباشر في محاولة عرقلة ثورات الربيع العربي ومنع التحول الديمقراطي في العالم العربي، تعاني اليوم من آثار هذا التدخل وتشهد خلافا واضحا في علاقاتها الدولية وتحالفاتها السياسية وحتى وضعها الاقتصادي، وانظروا للدول الاسكندنافية (السويد، النرويج وفنلندا خاصة) وسويسرا والتي حافظت على حيادها ومبادئها بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى كيف حافظت على استقرارها وازدهارها بعيدا عما تشهده بقية الدول من توتر واضطرابات وخلل واضح في اقتصاداتها. ان محاولة عرقلة مسيرة التاريخ والتطور الطبيعي لشعوب عانت الكثير من الديكتاتوريات له ثمن بلا شك.

يقال عن سيمفونيات الموسيقار الروسي الكبير سيرجي رحمانينوف إنها من أصعب وأعقد المقطوعات الموسيقية على الإطلاق، بما تحمله من تقلبات سريعة ومتناقضة في المشاعر والحالة النفسية، من أقصى حالات الهدوء إلى قمة الاضطراب، ومن أشد حالات الفرح إلى أقصى حالات الحزن.. وما أشبه ما يجري في عالمنا اليوم بموسيقى رحمانينوف !

هابرماس.. من الدفاع عن الحداثة إلى الدفاع عن الدين

يوصف الفيلسوف الألماني المعاصر يورغن هابرماس بأنه وريث الفلسفة الألمانية بعد كانط وهيغل، وهو لا يزال حيا، ويعد من أهم وأكبر الفلاسفة في ألمانيا بل وأوروبا عموما اليوم. لم أدرسه ولم أسمع عنه في فترة دراستي الجامعية الأولى، ولم أسمع باسمه إلا في فترة الماجستير عام 1996، وقتها كان من أهم وأكبر المدافعين عن الحداثة (العقلانية بديلا عن الدين)، ومؤخرا، قرأت تقريرا عن تحوله عن الحداثة، ودفاعه القوي عن الدين.

هذا يعني أنني شهدت ولادة فيلسوف كبير بقامة كانط وهيغل، ثم تحوله من الدفاع عن الحداثة إلى الدفاع عن الدين، وهذا مؤشر مهم على ديناميكية عالمنا السريع.

المهم.. هابرماس كان يقول إن الأديان في طريقها إلى الانقراض، وأن الحداثة (العقلانية المستغنية عن الله) سوف تقضي على الدين في المستقبل. والحقيقة ان انتاجه الفلسفي منذ ستينيات القرن الماضي، وهو الذي يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية التي تبنت الحداثة والترويج لها، يتعلق بالدفاع عن الحداثة واستبدال الأديان بها، مثل "التحولات البنيوية للأوضاع الاجتماعية"، "نحو مجتمع عقلاني"، "التكنولوجيا والعلم كأيديولوجيا"، "نظرية الفعل"، "الخطاب الفلسفي للحداثة"، "التفكير ما بعد الميتافيزيقا"، "العقلانية والدين" وغيرها من الكتب التي تعد بمنزلة المراجع الكلاسيكية للحداثيين حول العالم.

ومع هذا، وفي بدايات الألفية الثانية تحديدا، بدا واضحا على هابرماس تحوله الكبير من نقد الدين والمطالبة بهدمه وتبني العقلانية بديلا عنه، إلى مدافع كبير عن الأديان ومنظرا مهما لأهميتها في حياة البشر، خاصة بجانبها الأخلاقي. نجد هذا بوضوح في كتابه "مستقبل الطبيعة البشرية" الذي صدر عام 2003، وما تلاها من كتب في نقد الانقسامات وأمراض المجتمع الأوروبي، مثل كتاب "الغرب المنقسم"، وكتاب "جدل العلمانية".

ربما نتساءل ما الذي حدا بهذا الفيلسوف الكبير أن ينقلب على تاريخه الفكري بهذا الشكل؟ يجيب هابرماس نفسه بالقول إن هناك ملايين البشر المسحوقين ممن تعرضوا للاضطهاد والتشريد والقتل وأصناف لا تحصى من الظلم، فماذا بإمكان العقل (الحدائثة) أن تقدم لهم؟! لا شيء على الاطلاق. يضيف.. وحده الدين يستطيع أن يقدم لهم العزاء والوعد بعدالة إلهية من خلال تصور حياة آخرة وحساب وعقاب ينتظر الطغاة.

الحدائثة تقف عاجزة هنا، ولذلك نادى هابرماس بضرورة مراجعة الحدائثة ونقد الأديان، وطالب صراحة بأن يتوقف أتباع الحدائثة عن اقضاء الدين، وأن يستفيدوا من الأديان بما تتضمنه من منظومة أخلاقية ووعد بالعدالة الإلهية، كونها الضمانة الوحيدة لاستمرار الحياة واستقرار المجتمعات، وإلا - والحديث لهابرماس - فإن الحدائثة ستؤدي إلى تدمير المجتمعات الإنسانية تماما.

ما يشغلني كثيرا في موضوع الحدائثة، أن الغرب الذي أنتجها، هو نفسه يقوم بمراجعة ذاتية وانتقاد رصين لمخاطرها ويدعون بكل تواضع إلى الاعتراف بآثارها المدمرة، وبضرورة إعادة الاعتبار للأديان كونها مرجعا أعلى للقيم الأخلاقية وضمانة حقيقية لاستمرار الحياة، في حين يبدأ أشباه المثقفين عندنا - كالعادة - من بداية الطريق، وينادون اليوم بضرورة التخلي عن الدين واعتناق الحدائثة.

ينطبق على أشباه المثقفين هؤلاء المثل "رايح للحج والناس راجعة"!

شعب الله "المحتال"

في معتقل أوشفيتز النازي في بولندا، تدخل مجموعة جديدة من اليهود القادمين من مختلف بلدان أوروبا، ينتظرهم حارس شرس يمسك عصا غليظة، يستقبلهم بالضرب والركل والسباب، ثم يمسك بأحدهم ويصرخ في وجهه: هل ترى هذه العلامة؟ (حلقة معدنية عليها نجمة داوود وكلمة Sonderkommando، زوندر كوماندو - بالألمانية تعني القائد الخاص)، ويصرخ بهم: "هذا يعني أنني مجرم حقير، فماذا أنتم؟ علماء، محامون، أساتذة، أطباء.. في الخارج تستطيعون أن تبصقوا علي، لكن هنا في المعتقل، أنا الملك، أنا القائد، أنا الإله، أستطيع أن أرسلكم إلى الموت، أو أترككم أحياء! لقد هزمكم النازيون، ولهم الحق في أن يفعلوا بكم أيها اليهود ما يريدون".

"زوندر كوماندو" هم اليهود الذين تعاونوا مع النازيين، وكانوا ينفذون الأعمال القذرة ضد أهلهم اليهود في معسكرات الاعتقال. يروي أحد المعتقلين: عندما وصلت إلى أوشفيتز وبمجرد نزولي من القطار، صفعني جندي ألماني على وجهي بقوة وبلا سبب، طأطأت رأسي، ولحت على حزامه العسكري قطعة معدنية مكتوب عليها "Gott mit Uns" (بالألمانية تعني "الله معنا")، عندها تساءلت في نفسي: هل حقا نحن اليهود شعب الله المختار؟!

زرت معظم المتاحف الخاصة بالفترة النازية، وزرت معظم معسكرات الاعتقال النازية في ألمانيا وبولندا والتشيك، واطلعت في أحد متاحف برلين على بعض الخطابات والأوامر المكتوبة لهتلر وهملر وآيخمان وبقية ضباط "الحل النهائي" Endlösung der Judenfrage (مشروع هتلر للقضاء على كل اليهود في العالم). وكم هالني حجم العنف والقتل والتعاون الكبير من قبل مئات الآلاف من شباب روسيا وليتوانيا وأوكرانيا وبولندا وغيرهم، وتطوعهم لخدمة النازيين في تصفية اليهود في هذه البلدان، فقد أثبتت الوثائق

أن أكثر حملات القتل الجماعي ضد اليهود نفذها هؤلاء المتطوعون بأيديهم تحت إشراف الجيش الألماني النازي Wehrmacht "فيرماخت".

كان النازيون والمتطوعون لخدمتهم من الدول التي احتلوها يجبرون اليهود على حفر مقابر جماعية ضخمة، ثم يجبرونهم على التعري والاصطفاف على حافة تلك المقابر، ثم يرمونهم بالرصاص، رجال ونساء وأطفال، فيسقطون مباشرة في الحفرة، ثم يجبرون من بعدهم على دفع من لم يسقط ثم الاصطفاف مثلهم على حافة الحفرة، ثم يرمونهم بالرصاص.. في مشهد تكرر يوميا في مختلف الدول الأوروبية، حتى بلغ عدد القتلى من اليهود قرابة 6 ملايين شخص خلال أقل من عامين!

في عام 1787 وصف أحد أهم الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية بنيامين فرانكلين اليهود في أحد خطاباته بأنهم "أكبر خطر يهدد أميركا، وأنهم طفيليات يقتاتون على غيرهم، وهم لا يملكون حدا أدنى من الأخلاق، فاسدون منحطون خلقيا، وإذا لم نبعدهم عن أميركا، سيدمرونها وستلعننا الأجيال القادمة..".

في أواخر القرن التاسع عشر، قام الجيش القيصري في روسيا بأكبر حملة إبادة وتهجير قسري لليهود، وفي عام 1881 أباد البولنديون اليهود فيما عرف باسم "مجزرة وارسو"، بعدها بأشهر وفي "يوم كييبور" (يوم الغفران المقدس عند اليهود) شن الأوكرانيون أكبر مجازر إبادة وقتل جماعي ضد اليهود.. وغيرها وغيرها الكثير.. فماذا فعل اليهود تجاه كل هذه المجازر والجرائم البشعة ضدهم كشعب بالكامل؟ هل انتقموا من شعوب تلك الدول؟ كلا.. توجهوا إلى الشعب الفلسطيني وقاموا منذ 1948 بنهب أرضهم وسرقة بيوتهم وقتلهم وتشريدتهم وادعاء إقامة "وطن" لهم في فلسطين - ويا للسخرية - بمساعدة من ارتكب في حقهم بالأمس كل أنواع القتل والتعذيب وسرقة الممتلكات !

يا له من عالم بائس بلا قلب ولا روح.

مكافحة الإسلاموفوبيا بالتاريخ

لوس فريير باحث بلجيكي قام بتأسيس منظمة "الجنود المنسيين" عام 2012، بهدف التعريف بالدور الكبير الذي لعبه الجنود المسلمون خلال مشاركتهم الفعالة ضمن جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى.

يقول فريير: رغم أن عدد الجنود المسلمين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى لصالح بريطانيا وفرنسا وروسيا قد بلغ أكثر من 2.5 (اثنان ونصف) مليون جندي، إلا أن هذه المشاركة الكبيرة لم تتلق ما يكفي من الدراسة والبحث، بل والتقدير الذي يستحقه هؤلاء الجنود الأبطال.

وشرع فريير في دراسة جديدة أعدها خصيصا تكريما للجنود المسلمين المشاركين في الحرب العالمية الأولى، وبهدف معلى حسب تصريحه بأن تساهم هذه الدراسة في مواجهة العداء المتزايد ضد المسلمين في الغرب، ولرد على كثير من ادعاءات مروجي "الإسلاموفوبيا" (التخويف من المسلمين) في أوروبا.

في مدينة "يبرس" البلجيكية، مقبرة ضخمة تضم قبور أكثر من 54 ألف جندي مجهول الهوية ممن قتلوا في الحرب العالمية الأولى في بلجيكا وحدها، كثير منهم مسلمون كما يقول فريير ممن شاركوا في معركة يبرس الأولى والثانية عامي 1914 و1915، وهذا ما تقوله شواهد تلك القبور، حيث نقشت عليها عبارة باللغة العربية "هنا يرقد المرحوم".

كما يذكر فريير في دراسته الرائعة نماذج من العلاقات الطيبة التي كانت تجمع جنود الحلفاء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، على الرغم من بشاعة الحرب، يقول: "وجدنا في المذكرات الشخصية للجنود الكثير من القصص المؤثرة لجنود مسلمين ومسيحيين ويهود يحاربون جنبا إلى جنب ويتشاركون معا الخبرات والثقافة والطعام والموسيقى وحتى الممارسات الدينية".

في فرنسا.. تحتضن مقبرة "نوتردام دي لوريته"، أكبر مقابر قتلى الحروب في فرنسا رفات 576 من الجنود المسلمين المشاركين في الدفاع عن فرنسا، تتجه تلك الشواهد نحو الكعبة، ولكنها تعرضت مؤخرًا للتدنيس والتخريب عدة مرات من قبل عصابات اليمين المتطرف المعادي للإسلام والمسلمين، في واقعة تدل على منتهى الجحود والنكران، وهو ما يحاول لوس فريير مواجهته بتتوير أبناء بلاده وأوروبا حول الدور الكبير الذي لعبه المسلمون في الدفاع عن بلدانهم وحماية شعوبها.

يقول فريير: لولا الجنود المسلمون الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى، لخسر الحلفاء الحرب لا محالة.

ويتساءل: طالما تقبل هؤلاء الجنود بعضهم بعضا خلال أصعب الظروف، فما الذي يمنع اليوم أن نتقبل نحن بعضنا بعضا ونتعايش بسلام؟!

جينياالوجيا الحمض النووي وخرافة الأعراق

على مر التاريخ قامت حروب مدمرة حصدت ملايين البشر، ولا تزال الحروب تطحن الملايين، وهي وان كانت في حقيقتها تقوم على اعتبارات اقتصادية وأطماع في نهب الثروات، إلا أن أكثر الحروب تحركها دعاوى عرقية.

غزا هتلر نصف أوروبا، وتسبب في قتل أكثر من 70 مليون إنسان تحت ذريعة تفوق العرق الآري، والحقيقة التي تؤكدتها دراسات وتحاليل علم الجينياالوجيا الحديثة هي أن من يحملون جينات العرق الآري، أو ما يسمى علميا المجموعة الفردانية R1a في ألمانيا لا يشكلون 10% من الشعب الألماني، بل إن هتلر نفسه يحمل المجموعة الفردانية E-M35 وهي التي ترتبط بالساميين تحديدا، وكثير من قادة الحزب النازي ليسوا آريين أصلا.

أكثر من هذا، في سلطنة عمان مثلا نسبة من يحملون المجموعة الفردانية الآرية مساوية لنسبتهم في ألمانيا، وكذلك في الهند وشمال روسيا وپولندا وغيرها.. هذا يعني أن الحرب العالمية الثانية التي طحنت الملايين من البشر قامت على مزاعم عرقية خاطئة.

يكشف لنا علم جينات الأنساب الحديث أن اليهود مثلا لا يجمعهم عرق واحد، بل الغريب فعلا أن كثير من اليهود اليوم يحملون جينات العرق الآري، بمن فيهم رئيس وزراء الكيان الصهيوني بنيامين نتنياهو، وكم يبدو الأمر مضحكا وهزليا حين يتبين أن هتلر "السامي" قتل اليهود، وكثير منهم آريون وليسوا ساميين، بحجة دفاعه عن العرق الآري الذي اعتبره هتلر العرق الأعلى تطورا وكمالات بين البشر.

جينياالوجيا الحمض النووي علم صلب، يقوم على تحاليل دقيقة ووفقا لـ 110 معايير يتم على أساسها تصنيف المجموعات الفردانية التي تصنف الأعراق بين البشر، ونتائج هذا العلم تمثل حقائق مثبتة لا تقبل الشك.

صحيح ان هناك فرضيات مختلفة وغير مثبتة حول كيفية انتقال تلك الأعراق من منطقة إلى أخرى، أو متى ظهرت هذه المجموعة أو تلك هنا ومتى انتقلت، لكن الثابت علمياً أن هناك انتقالاً حدث أدى إلى اختلاط الأنساب والأعراق حتى أصبح العالم اليوم كله مختلطاً، ولا توجد بقعة واحدة تضم مجموعة عرقية صافية.

على سبيل المثال، يلتقي العرب مع الروس بمجموعات فردانية واحدة ومشاركة لسلالة بشرية عاشت قبل 5 آلاف سنة، وبالتالي سنجد تشابهاً جينياً وراثياً بين عربي في شبه الجزيرة العربية وروسي في أطراف جبال الأورال، أكثر مما بين هذا العربي وعربي آخر في مصر أو سورية أو المغرب مثلاً. وهنا تسقط "خرافة" الأعراق علمياً ولا تعود لها أي قيمة حقيقية.

يقول البروفيسور الروسي أناتولي كليوسوف، وهو مؤسس علم جينيات الحمض النووي الحديث، وهو بالمناسبة أستاذ في جامعة هارفارد الأميركية، يقول ان الحديث عن الأعراق والتفوق العرقي - كما نجده عند اليهود والفرس مثلاً - ما هو إلا خرافة ووهم كبير.

بالمناسبة، يشترك الكيان الصهيوني المحتل والنظام الإيراني الحالي في منع الدراسات الجينية والوراثية وتحريم إجراء التحاليل الوراثية على مواطنيهم، والسبب واضح بالتأكيد، لأن حقائق هذا العلم ستكشف بوضوح زيف خرافة التفوق العرقي التي تقوم عليها مشاريعهم الاستيطانية والتوسعية.

وكم سيكون مفاجئاً ومحرراً حين يكتشف كثير من دعاة تفوق العرق الفارسي على العرق العربي اليوم أنهم يحملون جينات عربية أصلاً.

من هنا نفهم جيداً حديث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى".

عن "الإنسان الأحمر"

في عام 1919 كتب كوزنتسوف، أحد منظرّي الشيوعية المخضرمين للثائر المتحمس تروتسكي: موسكو تموت جوعاً. رد عليه تروتسكي: هذا ليس جوعاً، عندما استولى الامبراطور تيتوس على أورشليم، أكلت النساء اليهوديات أولادهن، وعندما ترغم أمهاتكم على أكل أولادهن، عندها يمكنك أن تقول لي "نحن جائعون" !

قرأت قبل أيام رائعة الأديبة البيلاروسية سفيتلانا أليكسييفيتش "زمن مستعمل.. نهاية الإنسان الأحمر"، ويا لها من رواية ساحرة، تعج بتفاصيل الحياة اليومية في زمن الحرب وزمن الوصاية الحكومية وزمن القبضة الأمنية خلال محاولات النظام الشيوعي السوفييتي صنع "إنسان أحمر"، بمواصفات ثورية خاصة، تسميه سفيتلانا Homo Sovieticus (هومو سوفييتيكوس - الإنسان السوفييتي) على طريقة علماء الانثروبولوجيا حين يتحدثون عن تطور الإنسان عبر التاريخ عن هومو اريكتوس (الإنسان المنتصب) وهومو هابيليس (الإنسان الماهر) وهومو سابينز (الإنسان العاقل).. الخ

تقول سفيتلانا: خلال ما يزيد على سبعين سنة، تم تصنيع نموذج إنساني فريد في مختبرات اللينينية الماركسية، يسمونه "السوفييتي"، يراه البعض شخصية مأساوية، أعرفه جيداً وعشت معه سنوات طويلة، إنه أنا، معارفي، أصدقائي، والداي.. جميعنا اشتراكيون نشبه ولا نشبه الأشخاص العاديين، لدينا قاموسنا الخاص، وتصوراتنا الخاصة عن الخير والشر، عن الأبطال والآلام، ومواقفنا المتميزة تجاه الموت، والتي تتردد في عبارات نعرفها جيداً "أطلق النار"، "دمر".. أو تلك الأشكال السوفييتية للاختفاء مثل "الحكم بالحبس عشر سنوات دون حق المراسلة".. حتى أصبحنا مترعين بالكراهية والخرافات، وكلها من هناك، حيث كانت معسكرات العمل والحرب الرهيبة، ومن عمليات نشر التعاونيات بالقوة، وتفكيك الاقطاعيات وتهجير الشعوب تحت وقع الرصاص.. تلك كانت الاشتراكية، تلك كانت حياتنا !

بعد "البيريسترويكا" (حركة الإصلاح التي قادها الرئيس غورباتشوف في الثمانينيات وانتهت بانحيار الاتحاد السوفييتي عام 1991).. وخلال حرب الشيشان الأولى بين روسيا والشيشان عام 1994، تهيم عجوز روسية قادمة من قرية تامبوف، نحتت سنوات الشقاء على وجهها ويديها الكثير من التجاعيد، تسأل العابرين في محطة قطارات موسكو عن الطريق إلى الجبهة مع الشيشان، فتسألها سيدة: وماذا تريد من تلك المنطقة الخطرة؟ ترد العجوز: أريد أن أسحب ابني من هناك، "لا أريده أن يُقتل أو أن يقتل أحدا".

تقول سفيتلانا.. بعد البيريسترويكا، تبين أن الحرية في روسيا هي إعادة الاعتبار للبرجوازية الصغيرة، التي كانت ملجومة عادة في الحياة الروسية، لقد أرغمتنا على معايشة التاريخ ونموذج الإنسان الأحمر، لكننا لم نحياه أبدا.

قرأت روايات سفيتلانا أليكسييفيتش، آخر الشهود، صلاة تشيرنوبل، فتیان الزنك، ليس للحرب وجه أنثوي، وزمن مستعمل، وبتأثير منها ومن الأديب الألماني الكبير بول هاينريش الذي سرد لنا تفاصيل الحياة في ظل الحكم النازي وزمن الحروب، حاولت أن أكتب على خطاهما شيء من تفاصيل الحياة اليومية في بلادي الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي عام 1990، كتبت رواية صغيرة بعنوان "من ذاكرة الاحتلال"، ولكن مع الأسف رفضت 8 دور نشر كويتية طباعة ونشر الرواية دون ذكر الأسباب. كم شعرت بالخذلان وأنا أشاهد مئات الكتب على أرفف المكتبات لقصص مليئة بالأخطاء النحوية، وبكلام رديء لشباب يحدث فتاة بالهاتف محاولا إقناعها أن تخرج معه من وراء علم أهلها.. لم أحزن أبدا، لكنني أشعر بالحسرة على نشر مثل ذلك الكلام الرديء. ليت سفيتلانا أليكسييفيتش ترى إلى أين ستأخذهم إعادة الاعتبار للبرجوازية الصغيرة في نهاية المطاف.. فبالنهاية، سيكون لديهم "إنسان أزرق" بدلا من الإنسان الأحمر!

محاولة خروج

قرأت قبل أيام تقريراً رائعاً حول أبرز الأحداث العلمية التي سيشهدها عام 2020، ومنها هبوط 3 مركبات على سطح المريخ، حيث ستطلق ناسا الأميركية في يوليو القادم "مسبار مارس 2020"، كما ستطلق وكالة الفضاء الأوروبية بالتعاون مع وكالة الفضاء الروسية مسبار "أكزومارس"، بينما سترسل الصين مسبار "هيوكسنغ 1" الذي يحمل عربة متحركة ستنزل على سطح المريخ وتتجول فيه وتجمع عينات مختلفة من الصخور والمواد وتعود بها إلى الأرض لدراستها. كما سيشهد هذا العام مهام تصوير جديدة وبدقة أعلى لأحد الثقوب السوداء العملاقة في درب التبانة، وهو حدث في غاية الأهمية في فهم هذا الكون الشاسع.

في أوروبا، سيتم بناء أكبر مصادم نووي بطول 100 كلم وبتكلفة حوالي 21 مليار يورو، وسيكون أكبر بستة مرات من مصادم هادرون الكبير والذي قدم للعلم معلومات هائلة لفهم حركة الجزيئات داخل النواة.

وفي مجال البيولوجيا الحيوية، سيتم الانتهاء من تصنيع أول "خميرة خبز" التي جرى استبدال الحمض النووي فيها في مشروع سابق، الأمر الذي سيفتح باباً جديداً في مجال تصنيع منتجات عديدة مثل الوقود الحيوي وبعض الأدوية.

في اليابان، متوقع أن تنتهي أبحاث عالم الخلايا الجذعية الياباني هيروميتسو ناكوتشي ومن ثم الاقتراب أكثر من "تصنيع" أعضاء بشرية في المختبر وتكون قابلة للحياة في جسم الإنسان، لتنتهي مأساة ملايين البشر ممن يعانون فشلاً في بعض الأعضاء التالفة.

وفي الصين، هذه الأمة العظيمة الصاعدة من الفقر والبؤس قبل أقل من خمسين سنة فقط، ستنتهي هذا العام من تشغيل أول مفاعل نووي اندماجي في العالم، سينتج طاقة بنفس الطريقة التي تنتجها الشمس، أي بدمج ذرات الهيدروجين وتحويلها إلى هيليوم، علماً بأن علماء الصين يخططون لتسخين جزيئات الهيدروجين لدرجة 200 مليون درجة مئوية، في حين أن درجة الحرارة في قلب الشمس لا تتجاوز 15 مليون درجة، أي أنهم

سينتجون حرارة أعلى من الشمس بـ 185 مليون درجة.. هل تتصورون هذا، من دولة لم يكن فيها سوى صناعة غزل ونسيج بدائية حتى عام 1977؟!

التقرير يتحدث عن عشرات الأحداث الأخرى المهمة في مجال الطاقة والبيئة والبيولوجيا الحيوية والفلك والفضاء وغيرها، لكن لا مجال لسردها كلها.

الآن.. من بين هذه الأمم المتحضرة التي تهبط على الكواكب البعيدة وتصور بدقة عالية ثقباً أسود يبعد عنا ملايين السنوات الضوئية، وتصنع أعضاء بشرية وتصرف المليارات على بناء مختبر علمي وتمويل أبحاث علمية وتخترع منتجات جديدة وبدائل جديدة للطاقة.. أين موقعنا نحن؟ ما هي أخبارنا في عام 2020؟ داعش وسليمانى وسنة وشيعة وتفجير مساجد ومجالس عزاء وقتل على الاسم والهوية وجدل طويل عريض لا ينتهي حول بديهيات وخرافات وتفاهات لا حد لها.. امتداد مستمر لمعارك داحس والغبراء!

للنحات الكويتي المبدع سامي محمد عمل فني في غاية الروعة والعمق، تمثل اسممه "الاختراق"، يصور شاباً يستجمع كل قواه وينطلق بأقصى طاقته ليخترق جداراً، لكنه بعد اختراق الجدار، يصطدم بعمود من الحديد يدمره ويوقف تقدمه. عمل في منتهى الروعة والإبداع، أجده يلخص - بصمت - واقعنا العربي المرير، فنحن أمة منكوبة، كلما اخترقنا جداراً، اصطدمنا بعمود!

ألمانيا وجدل الإسلام والمسلمين

يدور في ألمانيا حاليا جدل قديم متجدد حول كون الإسلام أو المسلمين جزءا من الثقافة الألمانية، تعود جذوره إلى العام 2010 عندما أعلن الرئيس الألماني آنذاك كريستيان فولف "أن الإسلام جزءا من ألمانيا"، وفي استطلاع للرأي بعدها بأيام قال 49% من الألمان انهم يؤيدون تصريح رئيسهم فولف.

وفي مارس 2018، اعترض وزير الداخلية آنذاك هورست تسيهوفر، وقال ان "الإسلام ليس جزءا من ألمانيا"، بعدها بأيام ردت عليه المستشارة انجيلا ميركل في البرلمان (بوندستاغ) بتصريح شهير سترده كثيرا قائلة "بل الإسلام جزء من ألمانيا".

قبل أيام وعلى وقع تجدد النقاش، قامت مؤسسة دويتشه فيله الإعلامية بإجراء استطلاع للرأي حول الموضوع، وكانت النتيجة 60% من الألمان عارضوا مقولة ان الإسلام جزء من ألمانيا، مقابل 34% أيدها. وكحل وسط، يلجأ كثير من المعتدلين، من سياسيين ومتقنين إلى مقولة أخرى تقول ان "المسلمين وليس الإسلام جزء من ألمانيا". لكن هذا الكلام لم يعجب المؤرخ الألماني الكبير ميشائيل بورغولته، الذي قال قبل أيام "الإسلام هو أحد أسس الثقافة الألمانية بل والأوروبية، والنهضة التي عرفها الغرب في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر لم تكن ممكنة لولا التراث الإسلامي، ونحن نستفيد حتى يومنا هذا من العلماء المسلمين".

الحقيقة ان المسلمين في ألمانيا لم يدخلوها غزاة ولا فاتحين، بل دخلوها بطلب من حكومات ألمانيا المتعاقبة بعد الحرب العالمية الثانية حين أفرغت ألمانيا من شبابها واحتاجت لقوة عمل تعيد بناء ما هدمه هتلر وجماعته الألمان. وهم يشكلون أكثر من 5% من السكان اليوم، أي أكثر من 5 ملايين مسلم، يعيش معظمهم في الولايات الغربية الأكثر

انفتاحا وتسامحا، على عكس الولايات الشرقية وخاصة درزبن عاصمة ولاية ساكسونيا، معقل جماعة "بيغيدا" اليمينية المتطرفة. وألمانيا التي توصف بأنها ذات أغلبية مسيحية بروتستانتية، يشكل البروتستانت فيها 34%، يليهم الكاثوليك 31%، ما يجعل الإسلام في ألمانيا ثاني أكبر ديانة بعد المسيحية.

من عجائب ألمانيا أنها تفرض "ضريبة تدين"، ولا أعرف دولة أخرى تفعل هذا، إذ تفرض الحكومة على كل من ينتمي للكنيسة (كاثوليكية أو بروتستانتية) ضريبة دخل إضافية بواقع 8%، ولا يعفى منها الفرد إلا إذا قام بالخروج من الكنيسة، بإجراء يسميه الألمان Kirchnaustritt (كيرشن أوستريت)، حيث يطلب المتقدم شطب اسمه من سجلات المعمودية في الكنيسة مقابل رسوم قدرها 50 يورو، في حين لا تفرض مثل هذه الضريبة على المسلمين ولا أصحاب الديانات الأخرى. ربما نفهم الآن لماذا يوجد في ألمانيا أكثر من 60% من "اللادينيين" (أي الذين يسجلون أنفسهم بأنهم لا ينتمون لأي دين)، ونفهم أيضا عمق مقولة كارل ماركس حين اعتبر العامل الاقتصادي هو الأساس المحرك لكل ما يجري من أحداث.

صحيح ان الإسلام لم يكن جزءا من تاريخ ألمانيا البعيد، لكنه أصبح اليوم جزءا من ثقافتها، فهناك أكثر من 206 مساجد كبيرة موزعة على المدن الرئيسية، وأكثر من 2600 مسجد صغير، إضافة إلى مراكز إسلامية متنوعة، والإسلام يدرس في معظم المدارس الحكومية الألمانية. قبل أيام، دخلت كلمة "إن شاء الله" قاموس دودن Duden الشهير، وهو أهم وأكبر قواميس اللغة الألمانية، وتكتب بالألماني Inschallah. والحق ان كل الأديان اليوم أصبحت جزءا من ثقافة كل الشعوب حول العالم رغما عنها في ظل العولمة الثقافية، وهذا أمر إيجابي باعتقادي.

وتترك حزنك بين المقاعد.. ترجوه يُسرق

يقول الفيلسوف الفرنسي الوجودي جان بول سارتر: نحن لا نكتشف أنفسنا في عزلة ما، وإنما في وسط المدينة، بين الناس، شيئاً بين الأشياء، أفراداً بين البشر.

أحلم منذ سنين بتأليف كتاب، لدي آلاف القصاصات ومخطط جاهز منذ فترة طويلة.. لا أبالغ إن قلت إنها تعود لأيام الدراسة الجامعية في بداية التسعينيات من القرن الماضي. هل تتخيلون حلماً بهذه البساطة كيف يمكن أن يأخذ كل هذا الوقت.. دون أن يتحقق؟!

الغريب أنني كتبت خلال بضع سنوات عدة مقالات وأخبار وتقارير ولقاءات صحافية ما يكفي لملء 10 كتب مما أحلم بتأليفه.

يوماً ما سأحقق حلمي.. بإذن الله.

في قهوة صغيرة بشارع "لودفيج شتراسه" وسط ميونخ، ومن أمام جامعة لودفيج ماكسيميليان العريقة، هذا المكان الذي يحتل في نفسي مكانة وحنينا لا يوصف، جلست أقرأ كتاب "الشعر الشعبي للنساء البشتون" للشاعر والأديب الأفغاني سعيد بهاء الدين مجروح، والذي تم قتله غدراً بسبب هذا الكتاب.

يصف مجروح شعر "اللانداي" بأنه شعر شعبي، ابتكرته المرأة الأفغانية للتنفيس عن مشاعرها المكبوتة، في مجتمع ذكوري يقمع المرأة في كل حالاتها، فتجد العزاء في ترديد أبيات قصيرة تغنيها بمواويل حزينة حين يشتد عليها غضب الذكور. قصائد اللانداي تتكون من بيتين من الشعر غير المقفى، أشبه بتنهيده أو زفرة أنفاس حارة تطلقها الأفغانية عن قسوة واقعها.. وكلمة "الانداي" بالأفغانية تعني حرفياً "الموجز" أو "القصير".

تقول إحداهن في نبرة سخرية:

هل يمكنك أن تموت في ساحة الشرف، يا حبيبي!

كي تتغنى الفتيات بنصرك كلما ذهبن لجلب الماء من النبع؟

وتخاطب أخرى قبرها فتقول:

أيها اللحد الخراب، أيها القرميد المشتت، لم يعد حبيبي سوى رماد

وريح السهل تذروه بعيدا عني.

ناديا أنجمن الصحافية والشاعرة الأفغانية التي قتلها زوجها عام 2005 بمجموعة من اللكمات الوحشية على وجهها وهي ابنة الخمسة والعشرين عاما، ربما تعطينا تصورا كافيا عن هذا الشعر وذاك الواقع. تقول أنجمن:

ها قد وصلن،

فتيات خلقن بأرواح مكسورة،

أجساد مجروحة،

وجوه لم تذق طعم السعادة،

قلوب شاخت وتهشمت،

شفاه لم تعرف الابتسامة،

وعيون جافة لا تذرف الدموع.

في ذلك المكان، قال لي صديقي.. ما الذي يمنعك من الكتابة وأنت "حر" بلا عمل ولا قيود؟

قلت له: بعض الناس يبذون مثل ساعة سويسرية، بسيطة وهادئة من الخارج، لكنها تحمل في داخلها آلاف التروس الصغيرة، تتحرك وتعمل بكل تعقيد.

في أعمال الفنان التشكيلي الفرنسي برونو كاتالانو وصف مرعب لواقع الإنسان المعاصر.. حيث تنتصب تماثيله البرونزية التي تجمع الكتلة والفراغ على سواحل كثير من المدن، تحكي بصمت ما تتركه الهجرة والترحال المستمر من فراغ في قلوب الأهل والأحباب.

ما أكثر النصوص التي تعلق في الذاكرة.. مقولة لفيلسوف أو مثل شعبي ملهم، أو بيت شعر حزين يلامس الجروح. بالنسبة لي، قصيدة "البقاع.. البقاع" للشاعر العراقي مظفر النواب حين يقول:

لم يعد في المحطة إلا الفوانيس خافتة،
وخريف بعيد.. بعيد،
كأنك كل الذين أرادوا الصعود،
ولم يستطيعوا، أو انتظروا،
وتترك حزنك بين المقاعد.. ترجوه يُسرق!

الطريقة الألمانية في العمل

تعود علاقتي بألمانيا إلى عام 1993، عندما تتلمذت على يد أستاذي الألماني، ثم زرتها معه ودخلت جامعاتها والتقيت بطلابها ودرست لغتها وأحببت كل شيء فيها.. شوارعها وثقافتها وأدابها وفلاسفتها وشعراءها وصناعاتها، وسياراتها بالتأكيد. أحب كانط وهيكل وماركس وهييجر، أحب شليجل وشيلنج وغوته وهيلدورن، أحب عمق الألمان ونفاذهم لروح الأديان والقيم، أحب التزامهم وطريقتهم في العمل. والغريب، أنني أحب في ألمانيا ما يكرهه كثير من الناس، وأعني الانضباط والدقة والاتقان. هذا ما أواجهه مع كثير من الأصدقاء أو ممن أتحدث معهم حديثاً عابراً عندما أعبّر عن إعجابي بألمانيا، فيقولون لي غالباً انها كئيبة وشعبها جاد يمثل لهم العمل أهم ما في الحياة.

أتابع التلفزيون الألماني "دويتشه فيله" وأقرأ الكثير من التقارير في موقعهم الإلكتروني يوميا، وإذا كان لي بعد هذه العشرة الطويلة أن أتحدث عن ألمانيا، فسأتحدث عن طريقتهم في العمل كما شهدتها وتعرفت عليها عن قرب.

الطريقة الألمانية في العمل بسيطة، لكنها عميقة وعقلانية تستمد قوتها من الفلسفة الألمانية المعروفة بالعمق والمثالية. بداية كل عمل يحتاج لمعايير محددة أولاً، ومتطلبات ثانياً، وتحديد مهام وإجراءات بخطوات واضحة ثالثاً. فهم لا يؤمنون بالمحاولة والخطأ أو التجارب خلال العمل. من هنا نفهم التقارير اليومية التي تتحدث عن المشاكل الكثيرة التي يواجهها المهاجرون العرب خاصة في ألمانيا في الاندماج والدخول إلى سوق العمل، فرغم تعطش سوق العمل الألماني للعمال الأجانب، وبذلهم الكثير من الجهد والمال في تهيئة بعض اللاجئين للعمل في المصانع والشركات، إلا أن الفشل واضح في هذا الجانب، والسبب الأكبر كما تتحدث كثير من التقارير الألمانية، يكمن في عدم قدرة كثير من اللاجئين على استيعاب الطريقة الألمانية في العمل، فهم معتادون على الكسل وإنجاز المهام بأقل جهد وبطرق ملتوية وثقافة "مشي حالك"! هذا لا يعجب الألمان ولا يقبلون به أبداً، ولذلك تجد في ألمانيا برامج تدريب خاصة بكل حرفة أو وظيفة، تتضمن تدريباً نظرياً على مبادئ

العمل وقيم الانضباط واحترام المواعيد والتنظيم، وجانبا عمليا يتضمن توضيح انجاز العمل خطوة بخطوة يجب الالتزام بها وتنفيذها كما تعمل الروبوتات. لم يستطع كثير من المهاجرين العرب تقبل هذه الطريقة أو تحملها بسبب صرامتها ودقتها. من هنا أيضا نفهم لماذا نجح الأتراك والإيرانيون مثلا في ألمانيا وأصبحوا من أهم الجاليات العاملة هناك، ذلك أنهم يحملون بذرة تلك القيم.. أعني الالتزام والإتقان والجدية.

اللحظات الأولى لخلق الكون

في كتاب "الشامل في أصول الدين" لإمام الحرمين أبو المعالي الجويني المتوفى سنة 478 للهجرة، نجد فيه كلاماً علمياً دقيقاً ومفصلاً لقضايا الزمان والمكان والحركة والمقاومة والكون والطبيعة وعشرات المسائل والمفاهيم الفيزيائية الدقيقة التي تملأ أكثر من 400 صفحة، بكل عمق وعبقورية، كل هذا وعنوان الكتاب "الشامل في أصول الدين"! كيف نفهم هذا؟ ببساطة لأن أصول الدين الإسلامي قائمة على العلم، وفهم العالم والطبيعة أحد أهم مفاتيح الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ففهم الحركة والزمان والتغير والاتصال والتجدد والمطلق والنسبي وغيرها من مفاهيم الطبيعة توصل بلا أدنى شك لمعرفة الله عز وجل، والإيمان يقينا بقدرته المطلقة وحقيقة وجوده وخلقه لهذا العالم من العدم.

وما تخلفنا وضياع هويتنا وهواننا على الأمم اليوم إلا بسبب تفريطنا في العلم والفلسفة.

يروي د.محمد باسل الطائي، أستاذ الفيزياء الكونية الكبير حادثة جرت معه، يقول عندما أكملت دراسة الدكتوراه وعدت لوطني ومدينتي "الموصل" (شمال العراق، تبعد حوالي 460 كلم عن بغداد) سألتني إحدى طالبات الدراسات العليا في قسم الفيزياء: ما عنوان رسالتك للدكتوراه؟ قلت لها: اللحظات الأولى لخلق الكون.

فردت باندهاش وقالت: أووف، يا لطيف، باطل.. ما هذا الذي تقوله يا دكتور؟ أنت تبحث في مسألة لا يجوز البحث فيها!

قال لها: لماذا؟

قالت: هذا عمل الله.. كيف تبحث موضوع "اللحظات الأولى لخلق الكون"؟!

قال لها بهدوء.. ألم تقرئي قول الله عز وجل في سورة العنكبوت (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)؟

قالت وهي مصدومة.. والله يا دكتور، مع أنني أقرأ القرآن وأستمع إليه دائماً، لكن كأنني أسمع هذه الآية لأول مرة في حياتي.. أرجوك أعد الآية.

يكمل د. الطائي حديثه ويقول.. ذهبت الطالبة ويبدو أنها ذهبت لمراجعة الآية الكريمة، ثم عادت إلي بعد فترة وقالت: هل تعرف يا دكتور لماذا قال الله عز وجل (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق).. لماذا أمرنا أن نبحث في "بدء الخلق" ؟

قال لها: حتى نزداد يقينا وإيماننا على ما أعتقد.

فقالت: ولكن كيف؟ كيف يفيدنا البحث في بداية الخلق في الإيمان تحديداً ؟

قال لها: ماذا تريد أن تقول؟

قالت: تأملت في الآية ويا سبحان الله، فجأة بزغ هذا النور في قلبي وفهمت.. الله أمرنا أن نبحث في بداية الخلق، حتى نفهم ونؤمن بالبعث والحياة الآخرة، لذلك قال في تكملة الآية: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ الآخرة، إن الله على كل شيء قدير) العنكبوت 20. أي أن الله يعلمنا، يقول لنا انظروا وتأملوا في بداية خلق الكون، لتفهموا أن الله القادر على هذا الخلق والإيجاد من العدم في الحياة الدنيا، قادر كذلك على خلق وإنشاء حياة آخرة. لذلك أيقنت الآن أنه لا ينبغي علينا أن ننظر لبداية الخلق على أنه من "علم الغيب" ونتجنب بحثه، بل من ضروريات الإيمان.

يقول د. الطائي.. تعلمت من هذه الطالبة فعلاً ما كان غائباً عني طوال سنين دراستي.

د. محمد الطائي يعمل منذ سنوات على مشروع إعادة إحياء "علم الكلام"، في الجانب العلمي منه تحديداً والذي يسمى "دقيق الكلام"، والذي يختص بمسائل الكون والطبيعة، ويدعو إلى تجاوز البحث في "جليل الكلام"، أي مسائل الأسماء والصفات والقضايا النظرية الأخرى والتي تعيد اجترار قضايا خلافية لا ينتج عنها سوى التكفير المتبادل !

ظاهرة "المتقف الوطني"

في عام 2002 أصدر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي تقريراً في غاية الأهمية عن "التنمية الإنسانية العربية"، شخّص فيه نخبة من المفكرين أهم مشكلات العالم العربي والتي حددها في ثلاث: عدم احترام حقوق الإنسان والحريات العامة، عدم تمكين المرأة والسماح لها بلعب دور في البناء والنهضة، وأخيراً خلل واضح في المعرفة وطرق اكتسابها (خلل في النظم والمناهج التعليمية). وذكر التقرير صراحة أن العالم العربي سيعاني من مشاكل حقيقية تتطور من سيء لأسوأ ما لم يتم إيجاد حلول حقيقية لهذه المشكلات وهذا الخلل. بعد 9 سنوات من صدور هذا التقرير، في عام 2011 تحديداً، انطلقت ثورات الربيع العربي والتهمت الأخضر واليابس ولا تزال منطقتنا على كف عفريت !

هذه العقلية ليست جديدة.. في عام 1917 كتب اللورد آرثر بلفور رسالته الشهيرة التي عرفت لاحقاً باسم "وعد بلفور"، وفيها يدعو بلاده بريطانيا صراحة بإعطاء فلسطين لليهود لتكون وطناً قومياً لهم، ووضع خطة معلنه لتحقيق ذلك. وفي عام 1948 (أي بعد 31 عاماً) أصيب الإنسان العربي بالصدمة والذهول من إعلان قيام "دولة إسرائيل" !

من هو المتقف الحقيقي؟ يمكن أن نقضي ساعات وأياماً في نقاش فلسفي حول هذا المصطلح لا شك، لكنني ماركسي جداً هنا. فالمتقف بالنسبة لي يتعلق بالسلوك أكثر من التنظير. المتقف الحقيقي كما يقول الفيلسوف الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي هو من يقوم بدور فاعل في إصلاح المجتمع، وليس من يتفلسف أو من يحمل الشهادات العليا. الفيلسوفة الماركسية الكبيرة روزا لوكسمبورغ كانت تنتقد المتقفين التنظيريين الذين لا يتجاوزون التنظير إلى الفعل، فما بالكم بمعظم من يعتبرون أنفسهم مثقفين في عالمنا العربي البائس اليوم وهم يقومون بأسوأ من هذا بكثير.. حيث تحول كثير منهم

لـ"مبرراتية" يدافعون عن قرارات بعض المسؤولين لا أكثر؟! هذا كثير.. لدينا واقع سيء، سيفرز بالضرورة صراعات مدمرة تستنزف الموارد البشرية والمادية وتحيل دولنا إلى خراب ينعق فوقها البوم. هذا ليس قراءة فآل ولا مثل توقع نتيجة مباراة، هذا حديث علمي تتحدث عنه تقارير رسمية تصدر من الأمم المتحدة وهيئات دولية يضعها خبراء وعلماء أفنوا أعمارهم في البحث والعلم.

العالم العربي مريض جدا، الشعوب جائعة وعطشى بلا عمل ولا مصدر رزق ولا سكن ولا حتى أمل في حياة كريمة مستقبلا. هذا وضع شاذ ينتج بالضرورة ثورات تنتهي غالبا بالدمار بسبب غياب أي مشروع تنموي وسياسي حقيقي وفي ظل واقع اجتماعي متشردم، يتقاتل فيه الناس طائفا وقبليا ومناطقيا بل وحتى على اللهجة وتشجيع المنتخبات الرياضية. وفي واقع سيء كهذا، تتضاعف مصيبتنا في غياب نخب مثقفة حقيقية، تمتلك رؤية بعيدة النظر وتتجاوز التفاصيل الهامشية. واقع مرعب يتصدر فيه المطبلون والمهيجون وصانعي الانتحاريين، ممن لا يمانعون من تفجير أنفسهم في حشد من بشر لا يعرفونهم دون أن يقفوا لحظة تأمل وتساءل.. لماذا؟! لدينا مشكلة كبيرة، وأكبر ما فيها أن يتحول المثقف إلى "وطنجي" يبرر أخطاء ويدافع عن حماقات ويسوق ذلك على أنه "وطنية".

الحرب العالمية الثالثة

من مبادئ الاقتصاد، أن عجزا في ميزانية دولة ما يعني مباشرة فائضا في ميزانية دولة أخرى، ينطبق هذا على الاقتصاد الأميركي مقابل الاقتصاد الألماني والصيني بشكل خاص.

صادرات ألمانيا ضعف وارداتها، بينما العكس في أميركا، فهي تستورد أكثر بكثير مما تصدر، وتراكم الديون على نفسها بسبب ذلك.

ولهذا، سجلت ألمانيا في عام 2017 فائضا بقيمة 250 مليار يورو، بينما سجلت أميركا عجزا بقيمة 500 مليار يورو.

من هنا نفهم لماذا يتحدث الرئيس الأميركي ترامب عن "حرب تجارية" مع الاتحاد الأوروبي عموما، وألمانيا بشكل خاص، ومع الصين، ويسميتها البعض بـ "الحرب العالمية الثالثة"، السبب أن ضعف اليورو واليوان الصيني أمام الدولار الأميركي جعل استيراد البضائع الأوروبية والصينية تقضي على كثير من الأعمال والصناعات داخل الولايات المتحدة، فما الحل؟ هل بمنع الاستيراد؟ لا تستطيع أميركا ذلك لأنه سيؤدي لمنع التصدير أيضا.

ما الحل إذن؟ الحل بالنسبة للرئيس ترامب كان بفرض "عقوبات جمركية" على البضائع الأوروبية والصينية بدرجة تجعلها في نهاية الأمر مساوية في قيمتها للبضائع الأميركية.

ولاحظوا أنها تسمى "عقوبات" وليس رسوما جمركية، والسبب أنها تتجاوز مفهوم الرسوم والهدف منها جعل السلعة المستوردة تساوي نفس السلعة المصنعة داخل أميركا، ولذلك اعتبرتها الصين والاتحاد الأوروبي إجراء عدائيا.

مثلا، صاحب مصنع دراجات هوائية في أميركا يبيع الواحدة بمبلغ 400 دولار تقريبا، لكن الصينيون لديهم أكبر مصانع دراجات هوائية، ويصدرون معظمها للولايات المتحدة

ويبيعونها بمبلغ 100 دولار فقط، هذا قضى على المنافسة وقضى على صناعة صاحبنا الأمريكي وتسبب في اغلاق مصنعه وتسريح عماله، وجعلهم يطلبون مساعدة اجتماعية من الحكومة بعد أن كانوا منتجين ويدفعون الضرائب.

لذلك، يريد ترامب فرض عقوبة جمركية على الدراجات الهوائية المستوردة من الصين بقيمة 300 دولار حتى تصبح قيمتها في السوق الأمريكي بنفس الدراجات الأمريكية، أي 400 دولار، وبهذا يحمي مصالح أصحاب المصانع الأمريكيين من الانهيار، وينطبق هذا على بقية السلع المستوردة، ومنها السيارات والأجهزة الإلكترونية والمواد الغذائية وغيرها.

قد يبدو ذلك للوهلة الأولى أنه حل واقعي، لكن الحقيقة أن هذا الإجراء - والذي يسمى في الاقتصاد بـ "الحماية" - يتعارض مع مبادئ وقوانين التجارة العالمية الحرة، ولذلك اضطر الرئيس ترامب إلى الإعلان عن عزمه الانسحاب من اتفاقيات التجارة الحرة، الأمر الذي قابلته الصين والاتحاد الأوروبي باتخاذ موقف مشابه انطلاقاً من مبدأ "المعاملة بالمثل"، فقاموا بفرض "عقوبات جمركية" عالية على البضائع الأمريكية، ما أدى لكسادها وتوقف بيعها، وبالتالي توقف حركة استيراد البضائع الأمريكية.

أدى ذلك بالتأكيد لخلل كبير في اقتصاد الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والصين كذلك، لكن الصين تملك معظم سندات ديون أميركا، ما يجعلها في موقف تجاري أقوى، في حين تمتلك أميركا أوراق قوة سياسية وسيطرة على النظام الاقتصادي العالمي أكثر، فالنظام الاقتصادي العالمي مركزه في أميركا، والتعاملات الاقتصادية العالمية تجري بالدولار الأمريكي، ومؤسسات النقد العالمية مقرها في أميركا، ولذلك تملك وحدها حق فرض عقوبات اقتصادية على أي دولة في العالم.

الوضع إذن أشبه بمجموعة من البلطجية الأقوياء يمسك كل منهم برقبة الآخر ويخنقه، وكل منهم بانتظار إشارة استسلام من الآخر، أو على الأقل أن يقول "سيب وأنا أسيب".

حول كتاب "الإسلام الديموقراطي المدني"

في عام 2003، نشرت مؤسسة راند للأبحاث (وهي منظمة غير ربحية تتلقى دعماً مالياً مباشراً من وكالة المخابرات الأميركية والپنتاغون، تأسست عام 1948 لتكون بمنزلة خلية تفكير Think Tank تقدم تقاريرها واستشاراتها لصانع القرار الأميركي) كتاباً بعنوان "الإسلام الديموقراطي المدني"، من تأليف رئيسة المؤسسة آنذاك اليهودية النمساوية شيريل بينارد، وهي بالمناسبة زوجة زلمي خليل زادة، أحد أقطاب جناح الصقور في الحزب الجمهوري، وأحد المساهمين الأساسيين في تدمير العراق وأفغانستان بعد أحداث 11 سبتمبر، رغم أنه مسلم ومن أصل أفغاني ومن قبيلة البشتون !

بداية الكتاب وإن كان مكتوباً بلغة علمية ومنهجية، إلا أنه ليس كذلك في حقيقة الأمر، بقدر ما هو تقرير استخباراتي وقح يمتلئ بالتحريض على قتل المسلمين وتصنيفهم وتشجيع القتال فيما بينهم.

أطروحة شيريل بينارد تقوم على أساس أن الإسلام يشكل خطراً على العالم، ولكنه دين واسع الانتشار، وراسخ في قلوب أتباعه، وبالتالي ليس من السهل محاربته بطرق تقليدية، وإنما لمصلحة أميركا وأوروبا تغييره من الداخل بإسلام جديد يتماشى مع القيم الأميركية والغربية عموماً، وأهمها الديموقراطية وحقوق الإنسان ومبادئ السوق العالمية الحرة (الرأسمالية الجشعة).

وهي ترى أن هذا ممكن وأن الفرصة مواتية بسبب وجود صراع ديني نشط بين التيارات الإسلامية وبسبب التكفير المتبادل بينهم، وهو صراع قديم حول تحديد ما هو "الإسلام الصحيح"، فالمسلمون أنفسهم منقسمون ومختلفون حول ذلك، ومن هنا تدعو بينارد إلى دعم التيارات الفكرية القريبة من الفكر الغربي، مثل العلمانيين والحدائين حسب تصنيفها.

شيريل بينارد تصنف المسلمين في تقريرها "الاستخباراتي" إلى 4 فئات، أولاً الأصوليون: وتقسّمهم إلى أصوليين نصوصيين وتعتبرهم متطرفين وإرهابيين، وأصوليين تقليديين أقل تشدداً، لكنهم بالنهاية أيضاً إرهابيون.

ثانياً التقليديون: وهم أقل تشدداً من الأصوليين، لديهم بعض المرونة في التعامل مع النصوص الدينية، لكنهم في النهاية يريدون مجتمعات محافظة ولا يقبلون بالنموذج الأميركي، وبالتالي فهم مثل الأصوليين لا يمكن للغرب التعامل معهم أو قبولهم.

ثالثاً: الحداثيون: وهم الذين يريدون "تحديث" الإسلام وتطويره ليتماشى مع القيم الأميركية.

رابعاً العلمانيون: وتقسّمهم إلى نوعين، النوع الأول: علمانيون رافضون للدين على الطريقة السوفييتية وهم العسكر تحديداً، والنوع الثاني: علمانيون يريدون فصل الدين عن الدولة على الطريقة الغربية.

وبعد فرز وتصنيف المسلمين إلى هذه الفئات الأربعة، تقول بينارد بوضوح لصانع القرار الأميركي، إن النوع الأول والثاني من المسلمين (الأصوليين والتقليديين) لا يمكن التعامل معهم ولا قبولهم ولا التسامح معهم، بل يجب ضربهم وتدميرهم بكل الوسائل.

أما النوعان الثالث والرابع (الحداثيون والعلمانيون) فهم من يجب الاستثمار بهم ودعمهم وفتح المنابر ووسائل الإعلام لهم، وإبراز ممثليهم بوصفهم رموزاً وأبطالاً ومثالاً يحتذى.

ثم تشرع في بقية التقرير في تحديد ما ينبغي على الإدارة الأميركية وأوروبا فعله لتدمير المسلمين من النوع الأول والثاني، وتضع نقاط محددة وبرامج مدروسة وخطاً واضحة لكيفية فعل ذلك، من خلال تشجيع القتال بينهم بشكل خاص، وكيفية تهيئة الفرصة لصعود العلمانيين والحداثيين بعد ذلك. وهي تقدم في تقريرها أسماء محددة لما تعتبرهم من النوع الثالث والرابع، أي حداثيون وعلمانيون، ومنهم محمد شحرور ود. خالد أبو الفضل وشريف مارين وفتح الله غولن، وتدعو صراحة لدعمهم بكل الوسائل.

نقد أطروحة شيريل بينارد "الإسلام الديموقراطي المدني"

عرضنا في المقال السابق ملخصاً لأطروحة شيريل بينارد "الإسلام الديموقراطي المدني"، والتي تقسم المسلمين إلى 4 فئات وتدعو إلى قتل وتدمير الفئتين الأولى والثانية (الأصوليين والتقليديين المتمسكين بالنصوص الدينية)، مقابل دعم وتشجيع الفئتين الثالثة والرابعة (الحدائثيين والعلمانيين المتماشين مع القيم الأميركية والأوروبية).

بداية شيريل بينارد تنطلق في أطروحتها أو مشروعها لتغيير الإسلام إلى إسلام جديد مدني وديموقراطي مقبول غربياً من أطروحات فلسفية هي في الأساس مثار جدل، بعضها تخلى عنها أصحابها مثل أطروحة "نهاية التاريخ" التي تبرأ منها صاحبها الأميركي من أصل ياباني فرانسيس فوكوياما، وكذلك تبني مشروعها على أطروحة صموئيل هنتنغتون المعروفة باسم "صراع الحضارات"، وهي أطروحة جدلية نالت الكثير من النقد، ومع هذا تتعامل معهما بينارد كمسلّمات وحقائق نهائية.

بالنسبة لأطروحة نهاية التاريخ، وملخصها أن فوكوياما وهو تلميذ هنتنغتون، كان يعتقد بصحة نظرية صراع الحضارات، وطوّرها بالقول إن الصراع انتهى بعد سقوط كل الامبراطوريات الكبيرة والحضارات القديمة، اليونانية والصينية والفارسية والرومانية والعثمانية وأخيراً السوفييتية، ولم يتبق سوى الحضارة الأميركية بركنيتها الديموقراطي في نظام الحكم، والرأسمالي في الاقتصاد، وبذلك أسدل الستار على حركة التاريخ. إلا أنه تراجع عن هذه الأطروحة، وأقرّ بخطئها بل وانسحب من الحزب الجمهوري بعد أن كان يوصف بالمنظر الأول لجناح الصقور فيه. والأطروحة نالت ما نالت من نقد علمي من الغربيين تحديداً والذين بينوا سذاجتها وافتقارها للتحليل الفلسفي وكونها لا تعدو أحلاماً وتفكيراً رغبوا.

كما أن شيريل بينارد تتحدث عن "النموذج الأميركي" كما أنه حقيقة ثابتة ونهائية، وبأنه النموذج الأكمل والوحيد الصالح لكل زمان ومكان وعلى الجميع أن يتقبله ويتبعه دون نقاش. في حين أنه نموذج فاشل يعاني فيه معظم المجتمع الأميركي من مشكلات لا حصر لها، مجتمع رأسمالي جشع خالٍ من الرحمة وفيه عنصرية وتفاوت اجتماعي بشع

بين قلة تملك كل شيء وكثرة تعاني الفقر والحرمان من أبسط الحقوق وأهمها الرعاية الصحية الأدمية، بل وحتى الديمقراطية التي تتبجح بها بينارد هي ديموقراطية النخبة التي تملك المال والنفوذ ووسائل الاعلام.. ويكفي النقد الموجه للديمقراطية الأميركية وهيمنة أصحاب النفوذ عليها بعد احتلال العراق عام 2003 ومقتل آلاف الأميركيين بحجة وجود أسلحة دمار شامل التي أقنعوا الشعب بها ثم تبين كذبها من الأميركيين أنفسهم. كما أن بينارد تتحدث عن أميركا وأوروبا وكأنهما كيان واحد ومنسجم فكريا واجتماعيا، في حين أن ما بينهما من اختلافات أكبر مما بين السماء والأرض، بل إن هناك تفاوتاً حتى بين المجتمع الأميركي نفسه، الذي يضم جماعات كثيرة لها خصوصيتها وتشريعاتها مثل البروتستانت والكاثوليك والاييميش والسكان الأصليين (الهنود الحمر) وغيرهم، وأوروبا بدورها تضم كذلك مجموعات مختلفة ومتنوعة، والاختلاف واضح بين أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية، بل حتى على نطاق البلد الواحد مثل شرق ألمانيا وغربها على سبيل المثال.

رغم العداة الواضح والتحريض الفج على قتل المسلمين وإشعال الحروب فيما بينهم والذي تمتلئ به صفحات تقرير شيريل بينارد، إلا أن هذا لا يعني أن المسلمين أبرياء وضحايا مؤامرات خارجية، فالحق أن مراجعة فهمنا للإسلام أمر مستحق، وأن كثيراً من النقد الموجه للفهم المتطرف عند بعض التيارات الإسلامية هو نقد صحيح، لكن على المسلمين أن يراجعوا أمرهم بأنفسهم وأن يصلحوا شؤونهم على طريقتهم ووفقاً لمصلحتهم، وإلا فالآخرون سيفعلون ذلك لمصالحهم هم ووفقاً لرؤيتهم.

من الصلابة إلى السيولة.. مع زيجمونت باومان

أبرز ملامح العصور السابقة على الحداثة أنها كانت تملك نصيباً من الصلابة في مفاهيمها، والصلابة هنا تعني شيئاً من الثبات والاستقرار، وأبرز ملامح الحداثة وما بعدها أنها فقدت تلك الصلابة لصالح سيولة مشوهة لم يعد فيها لأي شيء أي قيمة ولا معنى.

فقدت مؤسسات المجتمع بنيتها، فالأسرة ضاع مفهومها مع دخول نماذج مشوهة من حالات الزواج المثلية أو مع الحيوانات والتي اعترفت بها الدول الغربية.

كما فقد المجتمع بنيته لصالح الفردية التي تشوهت بدورها هي الأخرى، فاستحالت لعزلة قاتلة ازدهرت معها عيادات الطب النفسي التي تبيع الوهم لإنسان هذا العصر البائس.

يقول باومان: إن من أبرز عوامل صلابة العصور السابقة على الحداثة أنها كانت تتضمن مفاهيم "النضج" والتدرج والتقدم.. فكانت المفاهيم تتشكل عبر زمانية طويلة وترسخ وتثبت، ولكن المجتمعات "الحديثة" فقدت هذه الميزة مع الحداثة، أي بعد تخليها عن مرجعياتها القيمية، ويلقي باللوم الأكبر على الرأسمالية الجشعة التي ساهمت في تشيئ الإنسان وتمجيد حياة السرعة والاستهلاك.

فما يعيشه إنسان هذا الزمن السائل المشوه من دمار وتشرذم ومجاعات ما هو إلا نتيجة طبيعية للرأسمالية الجشعة.

كما أصبح الخوف والهلع حالة ملازمة لإنسان عصر الحداثة، ويرى باومان أن الأنظمة الديمقراطية جميعها استثمرت في الخوف للفوز بالانتخابات والبقاء أطول مدة ممكنة في السلطة والاستفادة من تجارة السلاح !

أكثر من هذا، في كتابه "الحدائث والهولوكوست" يعتبر زيجمونت باومان أن ما تعرض له اليهود من قتل وتنكيل على يد النازيين مجرد نتاج طبيعي للحدائث، وينفي أن تكون الهولوكوست حكرا على اليهود، فطبيعة الحدائث ذاتها تنتج دائما مذابح وإبادة جماعية، وهو ما حصل فعلا لكثير من الشعوب (مذابح الجزائريين على يد الفرنسيين، مذابح الأرمن على يد الأتراك، مذابح الفلسطينيين على يد الصهاينة، مذابح قبيلة التوتسي على يد قبائل الهوتو في رواندا، مذابح المسلمين على يد الصرب في البوسنة والهرسك، مذابح المسلمين على يد البوذيين في بورما، مذابح التطهير العرقي في بوروندي وبنغلاديش... إلخ)، فالمذابح والإبادة ليست حالة فريدة ضد اليهود كما يقول باومان، ولذلك شن الصهاينة عليه هجوما لاذعا، ورموه بالتهمة الجاهزة "عدو السامية" رغم أنه يهودي !

ومن أبرز ملامح هذا العصر السائل أيضا ما يسميه باومان "حركة الإنسان الدائبة"، فإنسان عصر الحدائث شبه مشرد، يتنقل دائما إما بسبب ارتفاع الإيجارات أو بسبب متطلبات البحث عن عمل.

تقول عالمة الاجتماع الهولندية المعاصرة ساسكيا ساسن على خطى باومان بأن إنسان المدن الحديثة أو المدن العالمية Global City يعيش حالة "بداوة جديدة" New Nomadism حيث التنقل والترحال هي السمة الغالبة على أغلب سكان هذه المدن البائسة التي أصبح - حسب باومان - التشرذم جزء من كينونتها، فأينما ذهبت ستجد أحدهم في زاوية أو تحت جسر أو بجانب صندوق القمامة.

في كتابه "الأزمة السائلة" كتب زيجمونت باومان "الكوكب وصل الآن إلى حالة الامتلاء، وهذا يعني أن العمليات المعهودة مثل بناء النظام والتقدم الاقتصادي باتت تنتج "نفايات بشرية" في كل مكان، وتتصاعد معدلاتها كل يوم، ولكن سلات القمامة "الطبيعية"

المناسبة لتخزينها أو إعادة تدويرها ليست موجودة في هذا الزمن، وهكذا فإن الأزمات التي استشرفتها روزا لوكسمبورغ منذ قرن من الزمان قد وصلت إلى منتهاها".

باختصار، المدن الحضرية أصبحت اليوم ترتبط بالخطر والتنقل أكثر من ارتباطها بالأمان والاستقرار، فالحدثة التي بشرتنا بالرخاء، عاجزة تماما وأدخلتنا في حالة هلع وخوف دائم!

استراحة العيد

عيدكم مبارك..

أمضى ليوناردو دافنشي ١٨ عاما في رسم لوحة "العشاء الأخير" في كنيسة مريم العذراء في ميلانو، والتي تظهر السيد المسيح جالسا مع حوارييه الاثنى عشر على مائدة الطعام.

شعر رئيس الكنيسة بأن دافنشي تأخر كثيرا في إنجاز العمل، فكتب له رسالة فيها الكثير من التعنيف واللوم القاسي..

رد عليه دافنشي: إنني أجتهد في البحث عن وجه قبيح يناسب وجه يهوذا الخائن لتكتمل اللوحة، وإذا لم تتأدب معي، فسأرسم وجهك مكانه.

فصمت رئيس الكنيسة للأبد).

في ألمانيا يسمون الواسطة "فيتامين بي".

قرأت قبل أيام تقريرا في دويتشه فيله الألمانية يقول بأن ثلث التعيينات في الوظائف تتم عبر هذا الفيتامين، ذي المفعول السريع، وليس عبر الإعلانات الرسمية أو وكالة العمل المعتمدة.

إذا في ألمانيا ثلث، إذن كم في بلداننا؟!

يقول الأديب البريطاني جورج أورويل: "السياسيون في العالم كالقروذ في الغابة، إذا تشاجروا أفسدوا الزرع، وإذا تصالحوا أكلوا المحصول".

أصبح للجهل علم خاص اسمه "علم الجهل" Agnotology، بدأ في التسعينيات من القرن الماضي على يد باحث أميركي اسمه روبرت بروكتر، والذي عرفه بأنه "العلم الذي يدرس صناعة الجهل بطرق علمية رصينة" .. يا سلام، حتى جهلهم علمي ورصين، مو مثل جهلنا همجي وأهبل!

كان الأديب الفرنسي أندريه جيد يكره فيكتور هيغو ولا يطيقه، وذات مرة، سأله صحافي عن أعظم شعراء فرنسا، فأجاب: فيكتور هيغو مع الأسف.

بعد تحرير الكويت من الاحتلال العراقي عام 1991، ألقى عالم الاجتماع العراقي الكبير د.علي الوردى محاضرة صاعقة أمام حشد كبير من الجمهور في منتدى أمانة بغداد، فقبل أن يبدأ حديثه فوجئ بأمين بغداد يتقدم للمنصة ويضع جهاز تسجيل أمامه، فدار بينهما هذا الحوار:

الوردى: هاي ليش التسجيل ؟

الأمين: السيد الرئيس يريد يسمع محاضرتك.

الوردى: لعاد خل يسمع.. وبدأ بنقد لاذع للحكومة، ومما قاله: احنا مو فئران تجارب تدخلونا كل يوم بتجربة جديدة، وبعدين هاي شنو معنى انكم تستحدثون وظيفة "شرطة

الأخلاق؟" بالله عليكم، هم الشرطة عندهم أخلاق أصلاً؟! لكن ما يليق بهذا الشعب "..."
إلا حكومة "... مثل هاي.

يومها، أطلق الجمهور على المحاضرة اسم "قنبلة الورد الانتحارية"، لكن الغريب، أنه لم
يسجن ولم يتعرض له أحد.

كتب الشاعر العراقي الجميل كامل العامري:

جاوبني تدري الوقت، بوقاته سكتاوي

موش انت نبعة عشق، وبالحسن متغاوي

ليش المعاتب كلف، والشوق سكتاوي

چا وين أودي الحچي.. وأتعاتب ويا من؟!

من بين المضحكات المبكيات في ليبيا زمن القذافي ما يرويهِ عبدالرحمن شلقم في كتابه
"أشخاص حول القذافي" عن هوس العقيد بالأسماء، فكان يطلب أي شخص باسم معين
ليعيه سفيراً في بلد ما يحمل فيها الرئيس نفس الاسم، فعين مثلاً رجلاً أمياً لا يقرأ ولا
يكتب اسمه معاوية الصويعي سفيراً في موريتانيا لمجرد أن اسم الرئيس فيها معاوية ولد
الطايح.

وعين شخصاً يحمل شهادة ابتدائية اسمه رمضان بشير سفيراً في السودان ليطلق اسم
الرئيس عمر البشير، وبالصدفة في اجتماع إحدى اللجان الشعبية سمع بشخص اسمه

محمد بيت المال، فقرر تعيينه وزيرا للمالية، بل وأمر بتغيير اسم الوزارة من وزارة المالية إلى "بيت المال" !

أما الأغرّب، فتم اختيار شخص اسمه الزناتي وآخر اسمه أبوزيد كأعضاء في المؤتمر الشعبي، فأمر القذافي بالبحث عن أي سيدة ليبية اسمها "الجازية" ليعينها معهم، فقط لتكتمل الثلاثية المشهورة في الملحمة البدوية "تغريبة بني هلال" التي أبطالها الزناتي وأبوزيد والجازية.. وبلا مؤهلات بلا كلام فاضي !

كان رئيس الوزراء البريطاني الأسبق ونستون تشرشل يخطب في البرلمان عن حرية المرأة والقوانين الخاصة بحقوق النساء، وتحامل كثيرا على المرأة وشن عليها حملة شعواء، فصاحت إحدى الحاضرات: لو كنت زوجي لوضعت لك السم في القهوة، فرد عليها تشرشل مباشرة: لو كنت زوجك لشربت القهوة فوراً (يا السلوة).

في أوائل العام 1963 أُلقت قوات الأمن العراقية القبض على شاب عراقي من قيادات الحزب الشيوعي اسمه علي حسين الوردى، وكان التلفزيون يذيع طوال اليوم اعترافات هذا الشاب. وفي المساء، مر عالم الاجتماع الكبير د.علي الوردى بجانب أحد المقاهي، وإذا به يسمع الجالسين يتغامزون عليه ويسبون الشيوعيين ويقول أحدهم "أني من أول كنت شاك ان هذا علي الوردى شيوعي، ومسوي نفسه استاذ". المضحك في الأمر - كما يقول الوردى - أنه سمع أحدهم يرد على صاحبنا ويقول له: يا با هذا مو هو الدكتور علي الوردى، هذا شاب ضعيف والدكتور متين، فرد عليه صاحبنا: غير من البسط (الضرب) صار ضعيف !

أندريه ستاندر ضابط شرطة في جنوب افريقيا، كان خلال فترة استراحة الغداء من عمله يقوم بسرقة البنوك، ثم إذا انتهت استراحته يرجع لعمله ويحقق في هذه السرقات. استمر هكذا لأكثر من عشر سنوات.. هذا التطبيق العملي لمقولة "حاميا حراميا".

يذكر ويل ديورانت في "قصة الحضارة" أنه في يونيو 1594 تم اعدام رديغو لوبيز، طبيب الملكة اليزابيث الأولى، وذلك بتهمة قبوله رشوة ليدس السم للملكة، ولأنه يهودي، استعرت مشاعر الكراهية والغضب ضد اليهود وعمت في أرجاء المملكة المتحدة، فتأثر شكسبير بهذه الحملة، وكتب على إثرها مسرحيته الشهيرة "تاجر البندقية"، والتي أبرز فيها حقارة اليهود وانتهازياتهم وخصالهم الدنيئة، وذلك من خلال شخصية اليهودي شايوك.. المرابي الحقير. وهناك من المؤرخين من يقول ان البلاط الملكي هو الذي كلف شكسبير بكتابة هذه المسرحية.

في أزمة جزر الفوكلاند مع الأرجنتين عام 1982، سألوا رئيسة وزراء بريطانيا آنذاك مارغريت تاتشر، والتي حركت الجيوش والأساطيل البحرية: لماذا لم تتجهي للأمم المتحدة والاحتكام للقانون الدولي ؟ فقالت بكل هدوء مع ابتسامة صغيرة: الأمم المتحدة للعرب فقط !

قال المتنبي:

وأعظم ما تكلفني به الليالي..

سكوت عندما يجب الكلام

وأعظم منه في البلوى كلام..

تطول به العداوة والخصام !

في إحدى زيارته في الثمانينيات، اجتمع القذافي مع رئيس الاتحاد السوفييتي آنذاك ليونيد بريجنيف، والذي يبدو أنه كنوع من المجاملة ولإضفاء جو عام لطيف على اللقاء، أشاد بالاسلام وبما يحمله من قيم إنسانية، وأنه معجب بطريقة التحية في الاسلام "السلام عليكم"، حيث فيها تأكيد على السلام. القذافي لم يفوت الفرصة، فعرض عليه الدخول في الاسلام مباشرة. ليس هذا غريبا، الغريب أن القذافي عرض على بريجنيف أن يعطيه 2 مليار دولار إذا أعلن إسلامه. هذا ما كتبه د. أناتولي يغورين في كتابه "القذافي المجهول"، والرجل شغل منصب مستشار في سفارة بلاده في ليبيا فترة طويلة.

اندماج المسلمين في أوروبا

قرأت مؤخرا دراسة أجراها معهد برتلسمان الألماني المتخصص بالقضايا الإسلامية والعربية وشؤون اللاجئين، تخلص الدراسة إلى أن المسلمين في أوروبا عموما، وفي ألمانيا بشكل خاص، مندمجون في مجتمعاتهم بشكل جيد، إلا أن هناك رفضا اجتماعيا لهم من قبل الآخرين، وترجع الدراسة أهم أسباب هذا الرفض الاجتماعي إلى التشويه الاعلامي المتعمد.

وامتدحت الدراسة ما أسمته "قدرة المسلمين على الاندماج في مجتمعات جديدة ومختلفة"، وأكدت أن اندماجهم يشهد تقدما في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وسويسرا والنمسا بشكل خاص.

يقول شتيفان فوبل وهو مدير معهد برتلسمان إن الاندماج بدأ فعليا مع الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين، أي مع أبناء المهاجرين ممن ولدوا في أوروبا ودرسوا في مدارسها.

والدراسة مليئة بأرقام وإحصائيات مهمة، لكن قبل ذلك يحق لنا أن نتساءل: وما هو الاندماج أصلا؟ لأن البعض يعتقد أن على المسلم القادم من بيئة محافظة أن يتخلى عن كل معتقداته وعاداته الاجتماعية، ويتحول لشخص أوروبي تماما، وهذا خطأ.

ليس هذا مطلوبا من أحد، وإنما هناك "فضاء عام" بثقافة وقوانين وعادات محددة هي التي يجب مراعاتها في المجتمع الذي يعيش فيه، دون الاضطرار للتخلي عن "الفضاء الخاص" للمهاجرين.

حسب دراسة معهد برتلسمان، تم وضع عدة معايير ومؤشرات لتحديد معنى الاندماج، من بينها مستوى التعليم والتوظيف والراتب وطريقة الهجرة وأسلوب الحياة التي يتبعونها في بلدانهم الجديدة.

علما أن المسلمين في أوروبا يمثلون حوالي 5% من مجموع السكان (أي حوالي 25 مليون مسلم).

فالاندماج يعني باختصار قبول هؤلاء المهاجرين لنمط الحياة الأوروبية، مقابل تقبل أهل هذه البلدان لخصوصياتهم الاجتماعية والدينية.

من الأرقام المهمة التي توصلت إليها الدراسة أن 96% من المهاجرين المسلمين في أوروبا عبروا عن ارتباطهم بالدول الأوروبية التي احتضنتهم، حتى مع وجود رفض اجتماعي من قبل بعض المتطرفين والعنصريين والشعوبيين.

وتوضح الدراسة أن 67% من أبناء المهاجرين يكملون دراستهم الثانوية.

يقول عبدالصمد اليزيدي وهو الأمين العام للمجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا إن الدراسة تعبر بصدق عما يشعر به أبناء الجالية الاسلامية وما يقولونه دائما، فالمسلمون في أوروبا مندمجون ويحترمون القانون ويحبون بلدانهم ويشعرون بالولاء والانتماء لها ويعيشون بصورة فعالة ويشاركون بإيجابية.

الأوروبيون عموما لديهم نظرة عقلانية في مسألة الاندماج، فهم يعرفون أن من الطبيعي جدا أن يكون للمهاجرين حنين وارتباط عاطفي مع أوطانهم الأولى، وهم ليس لديهم أي حساسية في ذلك، وكثير منهم لا يمانع ازدواجية الجنسية ولا يرون أنها تتعارض مع مسألة الولاء على الاطلاق، فالقانون موجود ويطبق على الجميع وسيحاسب المهاجر إذا ارتكب ما يضر مصلحة بلده الثاني.

وأنا تعاملت مع كثير من العرب المهاجرين في أوروبا، وكنت أشاهد في التشيك وألمانيا وفرنسا كثيرا منهم يضعون في مكاتبهم أعلاما وصورا لزعماء بلدانهم الأوروبية التي

يحملون جنسيتها ويعيشون فيها، وصور وأعلام أوطانهم الأصلية التي ينتمون إليها، تجد هذا على سياراتهم ومكاتبهم ومنازلهم بلا حرج ولا خوف ولا شعور بالتناقض.

أن تحب داغستان قبل أن تراها

خلال فترة الاتحاد السوفييتي السابق، تلقى أديب داغستان وشاعرها الفذ رسول حمزاتوف رسالة من إحدى المجلات الأسبوعية المشهورة في موسكو، تطلب منه كتابة رسالة "مختصرة" عن بلاده، على ألا تتعدى 10 صفحات وخلال مدة لا تزيد عن أسبوعين.

وقف حمزاتوف حائراً أمام الرسالة، شعر بالضيق وقرر أن يرد على المجلة بطريقته الخاصة، فقام بتأليف أشهر كتبه على الإطلاق وهو كتاب "بلدي"، والذي يتكون من 550 صفحة، استغرق في كتابتها عدة سنوات.

يذكر حمزاتوف هذه الحكاية في بداية الكتاب ويقول عن سبب تأليفه أنه لا يمكن اختصار بلاده داغستان في بضعة أسطر يكتبها خلال بضعة أيام.

كتاب "بلدي" تحفة أدبية لا توصف، تجعل من يقرأه يحب داغستان حتى وإن لم يرها.. هذا ما حدث معي، فأن تقرأ لرسول حمزاتوف يعني أن تحب داغستان، تحب جبالها ووديانها وتعشق شعبها وتقدر عاداتهم وتقاليدهم.. أن تتخيلها كأنك فيها.

كتب حمزاتوف في "بلدي": قريتي تسادا، سبعون موقدا دافئاً، سبعون خيط دخان أزرق يرتفع في سماء جبلية عالية وصافية، بيوت بيضاء فوق أرض سوداء.

أمام القرية، أمام البيوت البيضاء حقول خضر منبسطة، ووراء القرية تنتصب الصخور، لقد تزاومت الصخور الرمادية فوق قريتنا كأنها أطفال اجتمعوا على سطح لينظروا إلى أسفل، إلى الحوش حيث يجري العرس..

وعن شعب داغستان الطيب كتب حمزاتوف: تشعل الجبلية (نسبة لسكان الجبال) في الصباح الباكر النار في الموقد، إنها تستعد لتسخين بقايا غداء الأمس الذي يكفي لإشباع العائلة، وفجأة يلوح في عتبة الباب ضيف، عندئذ يجب رفع القدر وما فيها من غداء الأمس عن النار، وإعداد طعام جديد.

وعندنا في الجبال ليس هناك ضيوف صغار وضيوف كبار، مهمين وغير مهمين، فأصغر ضيف هام بالنسبة لنا لأنه ضيف فحسب، وأصغر ضيف يصبح أكبر من أكبر رب بيت.

حمزاتوف كاتب عجيب، وشاعر ملهم، في أوائل الستينيات من القرن الماضي زار مدينة هيروشيما، ووقف مذهولاً أمام تمثال "السلام" في حديقة هيروشيما العامة، هذا التمثال الذي يخلد ذكرى الطفلة "ساداكو" التي أصبحت رمزا لضحايا القنبلة النووية، هي وقصاصات الورق التي كانت تطويها على شكل طائر الكركي الأبيض لحظة سقوط القنبلة.

سحرتة الأسطورة والتمثال ومأساة الفتاة اليابانية الصغيرة، فكتب على إثرها قصيدة "الكركي الأبيض" تحية للجنود الذين سقطوا قتلى في المعارك، ولم يعودوا لأوطانهم ولم يدفنوا كما يدفن الناس، يقول حمزاتوف في قصيدته:

أحيانا يبدو لي أن الجنود

الذين لم يعودوا من أرض المعركة

ولم يدفنوا في أرض الوطن

إنما يتحولون لطائر كركي أبيض

حين ترجم الشاعر الروسي نعيم غريبنيوف قصيدة حمزاتوف، قرأها الفنان الروسي الشهير مارك بيرنيس، وشعر أنه خلق لغنائها، ورغم أنه كان طريح الفراش في آخر أيامه بسبب السرطان المنتشر في جسده، ومع هذا، لم يهدأ له بال حتى أنجز غناءها، ومات بعد تسجيلها بأيام قليلة، قبل أن يشهد انتشارها في جميع الاتحاد السوفييتي والعالم، حتى غدت رمزا وطنيا يرددتها الجميع تخليداً لذكرى أبطالهم الذين قتلوا بعيداً عن أهلهم وديارهم.

مراجعة صغيرة لتاريخنا المعاصر

أنور شأوول شاعر وأديب عراقي يهودي، من مواليد الحلة عام 1904، كان ضمن اليهود الذين تسلط عليهم صدام حسين عندما كان نائباً للرئيس أحمد حسن البكر في سبعينيات القرن الماضي، وتحت تأثير المد الناصري الذي اجتاحت المنطقة آنذاك، تم إيداع شأوول وبقيّة العراقيين اليهود السجن، لا لشيء، سوى أنهم يهود، في سيناريو تكرر في معظم الدول العربية في تلك الفترة مع الأسف.

ولا أفهم الآن لماذا تم طردهم ونفيهم إلى الكيان الصهيوني المحتل (إسرائيل)؟!

في السجن، كتب الشاعر أنور شأوول قصيدة مؤثرة أرسلها لوزير الداخلية العراقي آنذاك صالح عماش، والذي تأثر بها كثيرا وساعده وتم بالفعل اخراجه من الحبس ثم أجبر على الهجرة إلى إسرائيل بعدها بأيام.. يقول شأوول:

إن كنت من موسى قبست عقيدتي
فأنا المقيم بظل دين محمد
وسماحة الإسلام كانت موئلي
وبلاغة القرآن كانت موردي
ما نال من حبي لأمة أحمد
كوني على دين الكليم تعبدي
سأظل ذياك السموأل في الوفا
أسعدت في بغداد أم لم أسعد

الآن.. لماذا أُجبر المواطنون اليهود في بلداننا العربية على الرحيل إلى الكيان الصهيوني المحتل؟ كانوا مواطنين عاديين لم يصدر منهم أي جرم أو خيانة. واليهودية دين سماوي مثلها مثل المسيحية، فلماذا لم يجر مع اليهود من التسامح مثلما جرى مع المسيحيين؟! أيضا لا أفهم هذا، إلا على أنه جزء من العبث والفوضى التي سادت تلك الفترة، وهي فترة انتقال من كيانات محتلة إلى دول مستقلة تبحث لنفسها عن موطئ قدم وتحاول تأسيس نفسها وتقيم أركانها.

لم تفعل المغرب ولا تونس ولا اليمن ما فعلته بقية الدول العربية مع مواطنيها اليهود، فإذا تأملنا في دور هؤلاء المواطنين في بلدانهم إلى اليوم، نجد أنهم مواطنون عاديون لم يضرُوا أوطانهم بشيء، وبالتالي نستطيع أن نحكم على عمليات الترحيل القسري التي تمت ضد المواطنين اليهود في بلداننا بأنها عمليات همجية وتطهير عرقي واضح، وخطأ استراتيجي بالتأكيد، حيث ان هؤلاء المواطنين تحولوا من خدمة أوطانهم إلى خدمة الكيان الصهيوني المحتل بعد أن احتضنهم وأصبحوا مواطنين لدى هذا الكيان.

كنت في لندن العام الماضي، وقرأت هناك كتاب "أعلام اليهود في العراق الحديث" لمؤلفه مير بصري، الذي كان رئيسا للطائفة الموسوية في العراق قبل أن يطرد هو الآخر. والكتاب يضم أكثر من مائة شخصية عراقية يهودية من الشخصيات العامة، في الفكر والأدب والسياسة ومن رجال الدين.

يستعرض في الكتاب سيرة كل منهم، وتاريخ أسرته وجهودهم ومساهماتهم الوطنية. يكفي أن نعرف أن أول وزير للمالية في أول حكومة عراقية كان ساسون حسقيل الذي شغل المنصب عام 1920، والذي يؤكد مؤرخو العراق على نزاهته ودوره الوطني الكبير. والمرء يشعر بالغصة والألم حين يراجع هذا التاريخ الملتخ بالدماء والمظالم والتخبط في التعامل مع البشر.

ولا أسوأ من طرد المواطنين اليهود من أوطانهم وتهجيرهم قسراً إلى بلاد لا يعرفونها ولا ينتمون إليها، إلا محاولة اقتلاع ذكراهم وتاريخهم الوطني أيضاً.. ففي "الأعمال الكاملة" للشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي، أزيلت كل القصائد التي يمتدح فيها مواطنيه اليهود، ومنها رثاؤه للوزير ساسون حسقيل وكذلك للمحسن الكريم مناحيم دانيال، الذي بنى على نفقته الخاصة داراً حديثة للميتم الإسلامي عام 1928، وفيه قال الرصافي:

شاد ابن دانيال الكريم لذا البنا

بالمال بأبي الأيتام كل الثناء

رجل علمنا اليوم من إحسانه

ان ليس للإحسان دين في الدنى

وداعاً زيجمونت بومان

توفي في الأسبوع الماضي الفيلسوف وعالم الاجتماع البولندي الكبير زيجمونت بومان، وهو من مواليد نوفمبر 1925، تم طرده من بولندا عام 1971 بتهمة "معاداته للسامية" (رغم انه يهودي!) من قبل الحكومة الشيوعية، والتهمة ملفقة كما هو واضح وذلك بسبب تحوله من تأييد الشيوعية وانتقاداته العلمية للصهيونية، بل انه اضطر لمخاصمة والده وقطع علاقته به بعد قيام والده بالتوجه الى سفارة الكيان الصهيوني المحتل في بولندا وتقديمه طلب هجرة إلى إسرائيل.

باومان درس في البداية علم الاجتماع في أكاديمية وارسو للعلوم الاجتماعية، لكنه لم يكمل وتحول لدراسة الفلسفة في جامعة وارسو بعد قيام حكومة بولندا بإلغاء تدريس علم الاجتماع تنفيذاً لأوامر موسكو التي اعتبرته "حقلاً من حقول المعرفة البورجوازية" - حصل هذا فعلاً!

تركزت اهتمامات باومان وأبحاثه حول نقد العولمة، العلاقة بين الحداثة والهولوكوست، المذهبية المادية (الاستهلاكية)، ما بعد الحداثة، ونقد الصهيونية.

نشر مقالا مهما في مجلة "بوليتيكا" البولندية هاجم فيه الكيان الصهيوني المحتل، واتهم إسرائيل بأنها لا تريد السلام اطلاقاً، وأنها استخدمت موضوع المحرقة النازية (هولوكوست) كذريعة لتبرير أفعالها المتوحشة ضد الفلسطينيين.

كما شبه جدار الفصل العنصري الذي وضعته إسرائيل لفصل الضفة الغربية بالجدران النازية التي وضعها هتلر في وارسو لعزل آلاف اليهود في معزل (غيتو) قبل قتلهم بوحشية.

يصنف زيجمونت بومان بأنه أقرب للمذهب الماركسي، وهو لا ينكر اعجابه بالماركسية وتأثره بالفيلسوف الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، ربما يفسر هذا النزعة الانسانية والأخلاقية عنده.

قبل أشهر استمعت لمحاضرة ألقاها هذا الفيلسوف وعالم الاجتماع العظيم وهو ينتقد التصرفات الوقحة والانسانية ضد المهاجرين واللاجئين في أوروبا، سمعته يقول.. لطالما كان الأوروبيون مقتنعين بأن ثقافتهم هي الأعلى والأكثر تطورا، ولذلك يتوقعون من بقية البشر أن (يرتقوا) بأنفسهم إلى مستوى الثقافة الأوروبية، ولذلك نرى السكان المحليين في مختلف المدن الأوروبية يتصرفون مع المهاجرين واللاجئين بعقلية متعالية ويطلبون منهم أن يتخلوا عن هوياتهم الأصلية وثقافتهم التي عاشوا وتربوا عليها، وأن يتقمصوا ثقافة الانسان الأوروبي.. هكذا بكل صلافة! يصف بومان ذلك بأنه "النسخة الحديثة من أكلي لحوم البشر" (هو يشير إلى أن أجداد الأوروبيين كانوا فعلا من أكلي لحوم البشر، لذلك يعتبر ممارسات أحفادهم النسخة الحديثة من هذه الوحشية).

في نقده الحاد للفوقية الغربية اعتبر زيجمونت بومان أن التحدي الأكبر الذي يواجه جميع القارات هو تعلم كيف نتعايش مع بعضنا بسلام كأفراد وجماعات مختلفة لكل منها ثقافتها.

رحل زيجمونت بومان الذي ظل إلى آخر يوم في حياته ناقدا للتعصب والكراهية والتعدي على حقوق الشعوب المستضعفة، رحل وحيدا وغريبا عن وطنه الأم، وغريبا عنا نحن أيضا.. حيث لم يذكره أحد ولم تنعه أي جهة في عالمنا العربي البائس، رغم مواقفه المشرفة تجاهنا!

حتى الأساطير تجمعنا

كتب عالم الانثروبولوجيا الاسكتلندي الكبير جيمس فريزر في كتابه المهم "الغصن الذهبي" : كم سيكون مفاجئا أن تكتشف الأجيال القادمة مدى سيطرة الخرافات على العلم، ومدى تعنت الأساطير وجبروتها في الدفع والتحكم في حركة التاريخ.

أنهت قبل أيام قراءة كتاب "مدخل لدراسة الفلكور والأساطير العربية" للباحث المصري شوقي عبدالحكيم، خرجت منه بعدة استنتاجات أهمها أن الخرافة لاتزال تحتل جزءا كبيرا جدا من ثقافتنا العربية.

والأهم أن هناك - حسب المؤلف - أساسا أسطوريا وفلكوريا عقائديا ولاهوتيا (= دينيا) مشتركا لأغلب الشعوب العربية، بل والسامية كلها منذ أكثر من ألفي عام قبل الميلاد، فيما بين النهرين والجزيرة العربية والشام ومصر وشمال افريقيا، أي في منطقة الشرق الأوسط بمصطلحات اليوم، وهو ما تؤكد الدراسات الفلكورية والأسطورية المقارنة، والتي تشير إلى أن الميثولوجيا (= الأسطورة) العربية تضرب بجذورها إلى 6 آلاف عام مع السومريون.

يكشف لنا شوقي عبدالحكيم التجانس والتشابه الكبير بين أساطير وفلكور (الفلكور هو الأدب الشفاهي غير المكتوب) شعوب هذه المنطقة بشكل لافت، من جنوب الجزيرة العربية في اليمن والحجاز إلى مصر الفرعونية إلى الأشوريين في سورية إلى السومريين في العراق إلى السودان وليبيا وغيرها، بكل ما فيها من "خزعات" الجن وقوى الطبيعة الخارقة "التي ما تزال متواترة، تفتك في عضد العقل الغيبي والأسطوري العربي، بما يعوق كل محاولات الأخذ بشعارات "العقلنة" وبناء طاقات الانسان العربي الذي أصبح يعاني أزمة حضارية محققة".

مخطئ من يظن أن الأساطير والفلكلور مجرد حكايات من بقايا الماضي، بل هي "ماض حي" كما يقول شوقي عبدالحكيم، تخبرنا عن "شعب ما" كيف كان يعيش ويتفاعل بكل ما فيه من مكونات وأنساق ومنطلقات: لغة، عادات، علاقات قرابة، محرمات (تابو)، ذاكرة جمعية، روحانيات، فنون، تقاليد، ألعاب أطفال، رموز وطوطم.. الخ.

كتب شوقي عبدالحكيم "خلاصة القول انه قد تعارف علماء الفلكلور والانسانيات على النظر ودراسة عالمنا العربي كمنطقة متجانسة التراث، تعرف بمنطقة الفلكلور والأساطير السامية، والسامية هنا تعريف لغوي - اثنولوجي - أكثر منه تعريف جنسي، بمعنى أنه يتمثل في الأصول اللغوية المتجانسة أو الواحدة التي تصل روافدها المبكرة إلى عشرات ومئات اللهجات، والتي اكتملت اليوم في العربية والعبرية وبعض السريانية".

ما بين السويد والتشيك وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا من الفوارق ما بين السماء والأرض، في اللغة والدين والعرق والعادات والفنون وغيرها، ومع هذا تجمعهم مصالح العيش المشترك بسلام في الاتحاد الأوروبي، بينما تجمعنا نحن الشرق أوسطيون عموماً، والعرب خصوصاً عشرات العوامل، من لغة ودين وعرق وعادات.. وحتى فلكلور وأساطير، لكننا لا نزال نتقاتل على كل شيء، على سباق خيول قديماً ومباراة كرة قدم حديثاً، على طوطم قديماً وعلى معصومين حديثاً.. فأبي بؤس هذا!؟

الأقليات.. وجهة نظر فلسفية

يتحدد معنى "الأقلية" Minority كمقابل لمفهوم الأكثرية Majority. معظم المجتمعات فيها أكثر من أقلية واحدة، والسيادة في المجتمع لا تكون بالضرورة للأكثرية، فكل الدول القمعية تحكم فيها أقلية رغما عن الأكثرية وبقية الأقليات. أما حكم الأكثرية فهو من أهم خصائص المجتمعات الديمقراطية.

يطرح عالم الاجتماع الأميركي المعاصر ألبرت هيرشمان تمييزا كلاسيكيا لوجود الأقليات والأكثرية وعلاقتها بوحدة أو انقسام المجتمع، ويقول في ذلك ان الأقليات في أي مجتمع تواجه بثلاث استراتيجيات ممكنة: فهي إما أن تخضع لإرادة الأكثرية وهنا يحافظ المجتمع على وحدته وفقا لمفهوم "الولاء"، وإما ألا تقبل الأقلية بحكم الأكثرية فتتخذ دور "المعارضة"، وهنا نكون بإزاء فريق ينتظر دوره لتسلم السلطة يوما ما. والمعارضة تلعب دورا مهما في الحفاظ على مكتسبات الأقلية التي تمثلها، والحد من تفرد الأكثرية بالقرار وابتلاع الثروات، وتتقاسم معها السلطة حتى لا يقع المجتمع فريسة ما يسميه توكفيل وليبراليو القرن التاسع عشر بـ "طغيان الأكثرية". كلا النوعين - الولاء والمعارضة - نجدهما في المجتمعات الديمقراطية تحديدا، والتي استطاعت أن تبلور تصورا واقعيا للتعايش السلمي بين مكونات المجتمع المتعدد.

الاستراتيجية الثالثة الممكنة حسب هيرشمان هي "الانفصال"، وهو النموذج السائد في المجتمعات ذات النظم الديكتاتورية التي لا توجد فيها أحزاب سياسية (حقيقية) تمثل الأقليات المتعددة في المجتمع، وتنحصر فيها السلطة والثروة بيد من يحكم، وتوابعه ممن يخدمون مشروع الحكم، ولا يهم هنا العدد، فالغلبة للهيمنة وامتلاك وسائل القمع. يقول الفيلسوف الفلسطيني المعاصر د. عزمي بشارة بعمق: "الأكثرية غير المنظمة، أقلية".

رغم أن تاريخ البشرية في مجمله هو تاريخ حروب في محاولات القضاء على إحدى الأقليات، إلا أن الواقع أثبت استحالة تحقيق هذا الهدف، إذ لم تتمكن أي أقلية من سحق أي أقلية مهما بلغت الخسائر في الأرواح. أراد هتلر القضاء على اليهود لكنه فشل رغم أن عددهم لم يتجاوز حينها سبعة ملايين كما تؤكد الموسوعة البريطانية. لم يتمكن البوذيون من التخلص من المسلمين في إقليم شينغيانغ أو في بورما وغيرها، لم يتمكن البيض من سحق الهنود الحمر أو السود في أميركا، لم يتمكن الشيوعيون من القضاء على الأديان والمتدينين في الاتحاد السوفييتي.. لم تتمكن أي جماعة مهما كان عددها وقوتها من إفناء جماعة أخرى مهما كان ضعفها وقلة أفرادها. ولذلك، ما تشهده بعض الدول العربية من محاولات "تطهير طائفي" ما هو إلا عبث وهدر في الأرواح والثروات بلا طائل، ولن ينتج عنه سوى معاناة لعدد كبير من البشر الأبرياء بلا مبرر، بل انه سيتترك أثرا سيئا ورغبة شرسة في الانتقام تنتقل من جيل إلى جيل.

في الغرب مساوئ كثيرة، لكن فيه أيضا الكثير مما يستحق التقدير والإشادة بوصفه نموذجا يحتذى، منها مسألة تجاوز الصراعات الدينية والقومية والاستقرار على مبدأ التبادل السلمي للسلطة والاعتراف بالآخر واحترام حقوقه، هذا المبدأ الذي يعد من أهم المكتسبات الأساسية للمفهوم الدستوري للديموقراطية هو سر تقدم الغرب. صحيح أنهم لم يصلوا إليه إلا بعد تاريخ مرعب من الحروب الأهلية المتوحشة، لكن هل علينا أن نمر بذات الطريق وندفع نفس الثمن؟!

يشهد عالمنا اليوم ردة واضحة عن قيم التعايش السلمي، والحق أن جوهر المشكلة ليس أن العنصريين أكثر عددا، فهم أقلية، لكن المشكلة في صمت الأكثرية المتسامحة. نحتاج أن نستنكر العنصرية علناً.

ميركل واللاجئون.. حكاية مبادئ

قرأت قبل أيام في موقع "دويشته فيله" الاخباري تقريراً صادراً عن وزارة المالية في ألمانيا يؤكد أن الحكومة الألمانية صرفت مبلغ 22 مليار يورو على اللاجئين في عام 2016، وهو ضعف المبلغ المصروف عام 2015، كما رصدت الحكومة مبلغ 27 مليار يورو لعام 2017 حسب تقديراتها لهذا العام، ورغم صرف هذه المبالغ الضخمة على اللاجئين، ومع هذا تشهد الميزانية العامة للحكومة الفيدرالية فائضاً يتجاوز 8 مليارات يورو، وذلك نتيجة العوائد الاقتصادية الضخمة الناتجة عن زيادة حركة السوق والاستهلاك، خاصة في مجال السكن والرعاية الصحية وقطاع المواد الغذائية. بكلام آخر.. الاقتصاد الألماني استفاد من اللاجئين بقدر ما أفادهم.

حسب آخر استطلاع للرأي، سجل مارتن شولتس زعيم الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي ينافس السيدة انجيلا ميركل على منصب المستشارية لأول مرة تقدماً ملحوظاً قد يضع حداً لقيادة ميركل للبلاد التي استمرت منذ 2005. ويرجع كثير من المراقبين للشأن الألماني السبب في ذلك إلى سياسة ميركل تجاه اللاجئين تحديداً، فهي ناجحة بكل المقاييس في مختلف الملفات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية وغيرها، والألمان يدركون هذا جيداً، إلا أن خطاب اليمين المتطرف والنزعة الشعبوية التي اجتاحت العالم مؤخراً بدأت بتحويل مسار التأييد الكاسح لها وجعله يتراجع قليلاً. على أن مارتن شولتس ليس شعبويًا ولا متطرفاً، فهو زعيم الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي يعد من أقدم الأحزاب في ألمانيا وأكبرها عدداً، ومنه خرج المستشار السابق غيرهارد شرودر الذي تولى منصب المستشار منذ 1998 لغاية 2005، ويبدو تقدم شولتس في سباق الانتخابات راجع لكونه الخيار الأفضل بالنسبة للألمان بين ميركل المحافظة جداً وبين حزب البديل من أجل ألمانيا الذي تتزعمه اليمينية المتطرفة فراوكة بيترى، فهو يمثل الوسط المقبول في الفترة الحالية. وشولتس سياسي مخضرم، شغل عدة مناصب مهمة آخرها رئيس البرلمان الأوروبي في 2012 وأعيد انتخابه عام 2014.

قبل أيام كررت المستشارة انجيلا ميركل تأكيدها على أنها ستستمر بسياسة "الباب المفتوح" بالنسبة للمهاجرين، فهي ترفض تماما - رغم كل الخسائر السياسية لها شخصيا ولحزبها "المسيحي الديموقراطي" - فكرة اغلاق ألمانيا في وجه طالبي اللجوء، وهي تقول بكل وضوح وصراحة إنها تنطلق في ذلك من قيمها ومبادئها المسيحية (بينما أصبحنا نحن نخاف من تحديد أنفسنا كمسلمين!). يكفي أن نعرف أن فولفغانغ شويبله، وزير المالية وذراع ميركل الأيمن والداعم الأكبر لها في الحزب والحكومة صرح مؤخرا بأنه يعتبر سياسة ميركل المنفتحة تجاه اللاجئين خاطئة.. هذه ضربة قاسية بالتأكيد.

انتخابات البرلمان الألماني (بوندستاغ) ستعقد في 24 سبتمبر القادم، وبحسب النظام الدستوري الألماني فإن الحزب الذي يحصل على أغلبية هو الذي يقوم بتشكيل الحكومة، والتي تكون عادة حكومة ائتلافية من رئيس الحزب الفائز ووزراء من بقية الأحزاب حسب قوة تمثيل كل حزب. لا يزال الوقت مبكرا للتنبؤ بما سيجري، فالمتغيرات كثيرة جدا، لكن الأهم أن اللاجئين وطالبي اللجوء سيخسرون كثيرا في حال خسارة السيدة ميركل.

الأرضية المشتركة بين المختلفين

وضع عالم الاجتماع البولندي الكبير زيجمونت بومان مصطلحين لردات الفعل المختلفة التي يثيرها وجود "الغرباء" في معرض تحليله لمشكلة الشعبوية والعنصرية في أوروبا والتعامل السيئ مع المهاجرين، المصطلح الأول هو Mixophilia ويعني "حب التنوع"، ويرى أن هذا الميل فطري في الإنسان، فالجميع يحبون التنوع وتعدد الاختيارات، وهذا ما يكون عليه الإنسان في الوضع الطبيعي قبل أن تشوّهه خطابات الكراهية والعنصرية.

المصطلح الثاني هو Mixophobia ويعني "الخوف من التنوع" بمعنى الخوف من الآخرين والغرباء وما قد يحملونه من قيم ومفاهيم وطريقة تعامل مختلفة.. الشخص المصاب بالخوف من التنوع يشعر بالاضطراب تجاه الغرباء، فبالنسبة له هو لا يعرف بماذا يفكرون وكيف سيتصرفون في المواقف المتعددة في الحياة.. الخ، لكنه بدلا من الاختلاط بالناس ومحاولة الاقتراب منهم والتعرف على أسلوب حياتهم المختلف عنه وتفهمه وتقبله والتعايش معه والاستفادة منه (وهو ما يفترض أن يحدث بين البشر)، يفضل تجنبهم والانعزال عنهم، وفي حالات متطرفة يعبر عن كراهيتهم ورغبته في اقصائهم بمختلف أشكال التعبير.

يقول بومان بأن الشعبويين والعنصريين المصابين بـ "الميكسوفوبيا" (الخوف من التنوع) يروجون أن سبب المشاكل الاقتصادية هو وجود بعض المهاجرين في البلد، لكن هذا غير صحيح، ويؤكد أن السبب الحقيقي للانهيئات الاقتصادية عبر التاريخ هو النظام الرأسمالي الجشع، فالبطالة على سبيل المثال سببها أن الرأسماليين الجشعين يتجهون لدول فقيرة حيث العمالة أرخص ولا توجد نقابات عمال وبالتالي لا توجد اضطرابات ولا مطالبات بحقوق وامتيازات.. فالرأسمالي الجشع يهمله أولا وأخيرا زيادة الربح، هذا هو سبب البطالة الحقيقي وليس وجود المهاجرين.

بل انه يؤكد أن كثيرا من دول أوروبا ستتهار تماما لو تم التخلي عن المهاجرين فيها مثل ألمانيا وبريطانيا، كونها تعتمد اعتمادا كبيرا على العمالة الأجنبية التي تمثل عصب اقتصادها.

يرى بومان أننا مطالبون ببذل جهود أكبر لمواجهة الشعبوية والعنصرية ونزعات الخوف من التنوع (ميكسوفوبيا)، ومحاولة إيجاد ما يسمى Modus Vivendi وهي عبارة لاتينية تعني الاتفاق المؤقت أو "أرضية مشتركة للمختلفين"، وهي عبارة تستخدم كثيرا في السياسة للتعبير عن تسوية الخلافات المعقدة والتناقضات غير القابلة للحل بهدف الوصول لأرضية مشتركة تقوم على تقبل وجود تلك الاختلافات ومواصلة العيش دون التأثير بها والسماح لها بتدمير حياتنا كلها. والحق أن المسلمين اليوم بحاجة لثقافة التسوية المؤقتة أو الأرضية المشتركة بين المختلفين أكثر مما تحتاجه أوروبا مع المهاجرين.

لدينا مذاهب فقهية مختلفة وطوائف دينية متعددة، بعضها يكفر بعضا - والتكفير يتبعه استباحة دماء بالضرورة! - ولذلك نحن بحاجة إلى اتفاق عام بين المسلمين ينص على التوقف عند هذا الحد، وترك مسألة الحكم على معتقدات الآخرين لله عز وجل.

اتفاق يؤكد على حرية الاعتقاد بشرط عدم الإساءة للآخرين، وهذا موجود في القرآن الكريم ولا نحتاج لاستيراده أو تصنيعه: (لا إكراه في الدين..). - البقرة: 256، (لكم دينكم ولي دين) - الكافرون: 6، (.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) - الكهف: 29، وغيرها من الآيات الصريحة الواضحة، وفي النهاية هناك تأكيد إلهي على أن (كل نفس بما كسبت رهينة) - المدثر: 38.

اتفاق الأرضية المشتركة بين المختلفين لا يعقده الناس بالتأكيد، وإنما يعقده "رجال الدين" ممن يتبعهم الناس ويأخذون بكلامهم، ونحن لدينا منظمة اسمها منظمة العالم الإسلامي التي تضم كل الدول الإسلامية، وبالتالي فالمهمة سهلة وعمليا توجد امكانية واقعية لتحقيق هذا الاتفاق.

علاقة أميركا بالصهيونية

في جوابه عن سؤال: لماذا تدعم أميركا إسرائيل؟ قال الفيلسوف الأميركي المعاصر نعوم تشومسكي (فيلسوف أميركي - يهودي من أكبر المعادين للصهيونية والهيمنة الأميركية والرأسمالية المتوحشة): ان هناك تاريخا طويلا يقف وراء ذلك، يبدأ أولا مع "الصهيونية المسيحية" والتي هي أقدم وأكثر قوة وشراسة من "الصهيونية اليهودية"، ويؤكد أن الصهيونية المسيحية ازدهرت في انجلترا تحديدا بين النخبة السياسية في أوائل القرن العشرين، وكان "وعد بلفور" أحد نتائجها حيث قدمت بريطانيا الدعم الكامل للحركة الصهيونية لاحتلال فلسطين عام 1948.

ويشير تشومسكي إلى استشهادات السياسيين البريطانيين والأميركان من الانجيل حول "أرض الميعاد" (باللغة العبرية كلمة "إرتس يسرائيل" تعني "أرض إسرائيل" وهي عندهم أرض الرب التي اختارها لبني صهيون حيث تفوق قدسيتها أي قدسية أخرى، وهي بالمناسبة حدودها من نهر النيل في مصر إلى نهر الفرات في العراق!)، ويؤكد أن "الرئيس الأميركي الأسبق وودر ويلسون كان مسيحيا متدينا يقرأ الانجيل كل يوم، وكذلك الرئيس الأسبق هاري ترومان.."، ولذلك كان هارولد ديكي (أحد القيايين الكبار في إدارة الرئيس الأميركي الأسبق روزفلت) يردد أن "عودة اليهود إلى فلسطين هي أعظم حدث في التاريخ، وتحقيق فعلي لتعاليم الانجيل!"، ويضيف تشومسكي أن هناك سببا آخر يتعلق بثقافة الاستعمار التي تمثل جزءا أصيلا من تاريخ وتكوين الغرب الأميركي والأوروبي، ويرى أن تمكين الصهاينة من احتلال فلسطين "هو المحطة الأخيرة من رحلة الاستعمار الغربي".

كما يؤكد تشومسكي أن الدول التي تدعم الكيان الصهيوني المحتل "إسرائيل" ليس فقط أميركا وبريطانيا، وإنما أيضا استراليا وكندا، ويشير بذلك إلى أن هذا الاستعمار الجديد لا يشبه استعمار البريطانيين للهند أو الفرنسيين للجزائر، وإنما يتخذ شكلا أكثر عدوانية وعنصرية وإرهابا حيث يقوم المستعمر هنا (الصهاينة) بمحاولة طرد السكان الأصليين من أرضهم.

ويستمر تشومسكي في تحليل أسباب دعم الغرب للكيان الصهيوني المحتل ويقول بأنه في عام 1948 كان هناك انقسام حاد بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع في الولايات المتحدة حول كيفية التعامل مع "دولة إسرائيل"، حيث لم تكن وزارة الخارجية ملتزمة بقوة تجاه الاحتلال وتأسيس دولة إسرائيل، وإنما كانت مهتمة أكثر بقضية اللاجئين، بينما كان جنرالات البنتاغون معجبين جدا بالجيش الإسرائيلي وبما يحققه من نجاحات عسكرية، ولذلك لطالما اعتبرت إسرائيل ذراعا عسكرية لأميركا وبريطانيا في الشرق الأوسط، ويؤكد أن الكيان الصهيوني قدم لأميركا خدمات جليلة منذ البداية، منها تدمير مشروع القومية العربية الذي كان "العدو الأول للولايات المتحدة آنذاك"، كما أن هذا الكيان الصهيوني دعم "الإسلام المتطرف" حسب خطة أميركية محكمة بهدف تدمير الإسلام نفسه بعد وصمه بالإرهاب وهو ما يجري بكل نشاط هذه الأيام.

في كتابه المهم "اليهود انثروبولوجيا" الصادر عام 1967، أثبت المفكر والجغرافي المصري العبقري د. جمال حمدان أن 95% من اليهود المعاصرين ليسوا فعليا أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين، وهذا يهدم الحجة الصهيونية الكبرى التي يدعونها بأن دماءهم لم تختلط مع أي شعوب أخرى وأنهم هم النسل المباشر لبني إسرائيل (شعب الله المختار)، كما أثبت بالدليل التاريخي أن عداة هتلر لليهود لم يكن لأسباب دينية وإنما بسبب طريقتهم في الحياة والتي تتسم بالحق والتعالي والكذب والخداع واستغلال معاناة الآخرين وكأنهم طفيليات تقتات على البقايا.

هاتان الحجتان هما أهم حجج الصهاينة التي هدمها جمال حمدان.. لذلك لا غرابة أنهم قاموا باغتياله عام 1993.

حديث في الزمن السائل !

يتحدث المختصون عن "أزمة علم الاجتماع"، كونه من أقل العلوم الإنسانية والاجتماعية إنتاجاً، مرد ذلك لطبيعة الظاهرة التي يدرسها هذا العلم البائس، وأعني المجتمع، فهي ظاهرة شديدة التعقيد والتركيب وسريعة التغير. إلا أن كتابات عالم الاجتماع البولندي الكبير زيجمونت باومان أخرجت هذا العلم من مأزقه كما يقول المختصون. باومان اهتم أساساً بنقد الحداثة وما بعدها، وسك مصطلح "الحداثة السائلة" لوصف حقيقة هذا المفهوم المخادع، إذ لاحظ بعمق منذ ستينيات القرن الماضي أن مفهوم الحداثة Modernity يحمل الكثير من الغموض والتدليس، إذ توحي الكلمة بأن الأمر يتعلق بالتحديث والتطور والتقدم، مقابل القديم والمتخلف، وكأن في الحديث أو الجديد الخير كله للبشرية، بعد طرح الشر والدمار الموجود في القديم. غير أن حقيقة الحداثة كانت وما زالت خلاف هذا تماماً، فالبشرية تسير من سيء إلى أسوأ بسبب قيم الحداثة تحديداً.

باختصار، تقوم الحداثة على أسس أهمها التخلي عن كل مصدر آخر غير العقل في تحديد ما هو الخير وما هو الشر، ما هو الصواب وما هو الخطأ، ما هو الأصلح وما هو الأسوأ للناس. وهي الدعوة التي انطلقت مع فلاسفة عصر التنوير وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني الكبير امانويل كانط. ثم اختار العقل الحداثي الرأسمالية كنظام اقتصادي، والديموقراطية كنظام سياسي، وراح الحداثيون يبشرون الناس بالحريات والرخاء في العيش. إلا أن تاريخ البشر منذ ذلك الحين لم يعرف سوى الدمار والحروب والانقسام الفاحش بين فئة قليلة تملك كل شيء، مقابل فئة كبيرة لا تملك أي شيء. وهنا تبرز جهود زيجمونت باومان في نقده للحداثة، وعبقريته حين استخدم مصطلح "السائلة" Liquid لتأكيد حقيقتها، فالسائل لا شكل له ولا ملامح، ومن طبيعته التحرك الدائم وعدم الثبات.

أصدر زيجمونت باومان سلسلة كتب ناقدة للحداثة وما بعدها تحمل مصطلح السيولة، أهمها كتاب "الحداثة السائلة"، وكتاب "الحب السائل"، وكتاب "الحياة السائلة"، وكتاب

"الخوف السائل"، وكتاب "الأزمة السائلة"، وكتاب "الشر السائل" وغيرها من الكتب والمقالات التي تحمل في مضمونها نفس الجوهر، وهو وصف الحداثة وما بعدها بأنها سائلة ومشوهة أهدرت كرامة الإنسان ولم تقدم له أي شيء من الوعود الكثيرة التي نادى بها الحداثيون. فالإنسان كان أول ضحايا الحداثة، حيث فقد قيمته وأثيرت حول "ماهيته" هو التساؤلات والشكوك بعد أن نادى الحداثيون بإعلاء قيمة العقل ورفض كل مرجعية أخرى. بل إن العقل ذاته ناله ما نال الإنسان وتعرضت "ماهية العقل" للسؤال والتشكيك، لذلك ضاعت كل القيم وتداخلت كل المفاهيم ولم يعد لأي شيء أي قيمة أو معنى.. وكأننا بإزاء حوض ماء ذابت فيه عدة عناصر، ومن هنا تأتي عبقرية باومان في توظيفه لمصطلح السيولة.

الحداثة وعدت البشرية منذ القرن السابع عشر بالنعيم إذا قبل بالتخلي عن مرجعياته الدينية والتزم فقط بمرجعية العقل. إلا أن الحياة كلها أصبحت بائسة وغير جذيرة بالعيش عند ملايين البشر بعد ذلك، وها هو الإنسان يعاني اليوم الفقر والجوع والوحدة والضياع والخوف من الدمار الشامل والموت سدى بلا مبرر ولا خطيئة. الحداثة فعليا حولت البشر لأدوات، ومزقت كل الأسس التي عاشوا عليها لقرون طويلة، مزقت مفهوم الأسرة النووية التي كانت تجمع الجد والأب والأبناء والأحفاد، فتحوّلت إلى كيان مشوه يجمع رجالا برجل وامرأة بامرأة، بل يجمع امرأة تتزوج من كلب أو قطة.. كل هذا أخذ مفهوم الأسرة بتشريع قانوني نافذ في الغرب! وللحديث بقية.

الشرق الأوسط العنيد

لعشرات السنين حذرّ الكثير من المثقفين من خطورة تدهور الأوضاع في منطقتنا نتيجة شيوع الظلم الاجتماعي والفساد المالي والإداري في معظم الأنظمة، ولعشرات السنين حذرّ كثير من المنصفين من خطورة الخطاب الطائفي والتكفير المتبادل بين السنة والشيعة، ولعشرات السنين حذرّ العقلاء من خطورة المشروع التوسعي الإيراني الذي ينوي ابتلاع دولنا وتدميرها والسيطرة عليها، ولعشرات السنين حذرّ الخبراء وأهل الحكمة من خطورة اعتماد دولنا على مصدر وحيد للدخل ونادوا بضرورة تنويع مصادر الثروة وعدم الاعتماد على النفط كونه سلعة معرضة للنضوب واضطراب الأسعار والتخلي عنه في أي لحظة من لحظات التقدم التكنولوجي الهائل الذي يمكن أن يعلن في أي وقت عن إيجاد بديل أو بدائل كثيرة تغني العالم عن مصدر رزقنا الوحيد.. لعشرات السنين تم التحذير من كل ما نعاني منه اليوم في عالمنا البائس.

لذلك، كل ما يجري في منطقتنا اليوم لا يمكن أن يفاجئ إلا الحمقى والجهلة والمغفلين وتجار الدين والفاستدين !

نحن متشددون ولا نعرف المرونة والحلول الوسط، ولا نعتزف إلا بالانتصار الساحق الماحق الذي يلغي الخصم تماما، أو الموت.

لا يشبهنا في التشدد وتصلب المواقف سوى الصهاينة، لذلك صراعنا معهم أبدي، لن ينتهي إلا بقتل آخر عربي أو آخر صهيوني !

أميركا خسرت أكثر من 6 تريليونات دولار في حربها في أفغانستان والعراق دون تحقيق أي مكاسب، لذلك من المعقول جدا بل ومن الحكمة أن يتجاهل الرئيس أوباما

الشرق الأوسط بكل تناقضاته ومشاكله غير القابلة للحل، ويركز على وضع بلاده الاقتصادي ويعمل على إصلاحه وعلى حل مشاكلهم الداخلية، فهذا الشرق الأوسط متخلف وعنييد لا يقبل الحلول الوسط ولا يبدي أي استعداد للانتظام في العالم الجديد، فعالمنا بالنسبة لهم عالم متوحش لا يعرف طريقة لحل الخلافات إلا بالقتل وإقصاء الآخر، عالم متخلف لا ينتمي لعالمهم الحر والمتحضر.. ترى، هل يحق لنا أن نغضب من نظرتهم لنا بهذه الطريقة؟!

كتب المفكر الفرنسي "المضطهد" باسكال بونيفاس كتابا مهما بعنوان "المتقفون المزيفون: النصر الإعلامي لخبراء الكذب" بهدف فضح أساليب "تجار الفكر" ممن يستحذون على الخطاب الإعلامي ويزورون الحقائق ويخدعون الرأي العام.

باسكال بونيفاس مفكر حر كرّس حياته للدفاع عن المظلومين وفضح أكاذيب ذوي "الخطاب الأحادي" الذي يتجنى على المسلمين والعرب وغيرهم من الأقليات في فرنسا خاصة وأوروبا عموما، رفضت 14 دار نشر طباعة وتوزيع كتابه وتعاملوا معه كما تعاملوا مع الفيلسوف روجيه غارودي من قبله بعد إعلان إسلامه، حيث تم تجاهله ومنع تداول كتبه وبيعها.

انتقده بعض أصدقائه على اعتبار أنه قدم "دعاية مجانية" لهؤلاء المزيفين الأفاقين من أمثال هنري ليفي وجماعته، فقام بتأليف كتاب آخر بعنوان "المتقفون المتقفون"، بمعنى المتقفين الحقيقيين.

قرأت الكتاب الأول وأنصح بقراءته لأنه يساعد على تطهير العقول من شوائب التضليل المتعمد الذي تشربناه ولانزال في عالمنا المريض.

أما الكتاب الثاني فهو لا يزال باللغة الفرنسية ولم تتم ترجمته للعربية بعد مع الأسف.

حول "تشريح التدميرية البشرية"

في كتابه القيم "تشريح التدميرية البشرية" الصادر عام 1973، يميز الفيلسوف وعالم النفس الألماني العظيم إريك فروم بين نوعين من العنف: الأول هو العنف الدفاعي غير الخبيث، ويشترك فيه الانسان مع بقية الحيوانات، وفيه يلجأ الكائن إلى العنف بهدف الدفاع عن النفس والمصالح الحيوية، ويرى أنه عنف مبرمج وفقا للنشوء والارتقاء بمفاهيم التطور الدارويني.

الثاني هو العنف العدوانى الخبيث، وفيه يكون العنف غير مبرر وغير ضروري، وهو ما لا نجده في أي كائن آخر غير الإنسان.

يقول فروم ".. ما هو فريد في الإنسان هو أنه يمكن أن تدفعه الدوافع إلى القتل والتعذيب وأن يشعر بالشهوة لدى فعله ذلك، وهو الحيوان الوحيد الذي يمكن أن يكون قاتل نوعه ومدمره من دون أي مغنم معقول أو مبرر سواء كان بيولوجيا أو اقتصاديا!".

فروم يتناول في كتابه المذكور النزعة التدميرية لدى البشر، يتقصى مختلف أنواع العنف والعدوان في سلوك الانسان عبر التاريخ، وهو كتاب علمي ضخم في جزأين يمثلان أحد أهم المراجع العلمية في هذا المجال.

في عشرينيات القرن الماضي قدم سيجموند فرويد أول نظرية تحاول تفسير العنف والعدوان البشري، أكد فيها أن "الرغبة في الموت والتدمير جزء أصيل من الإنسان يتعذر استئصاله، وهي رغبة غريزية مساوية لغريزة الحياة".

يصعب جدا فهم مسألة صرف مليارات الدولارات وقتل ملايين البشر في حروب عبثية يدعي من يقف خلفها أنها بهدف تحقيق "مصالح" ما، فأى مصالح يمكن أن تبرر هذا العنف المجنون؟! بمفاهيم الاقتصاد، الحروب استثمار خاسر، إذ يتجاوز سعر "صاروخ توماهوك" مثلا 1.5 مليون دولار، بينما يتجاوز سعر صاروخ ترايدنت 65 مليون دولار للقطعة الواحدة.. فأى هدف يمكن أن يعوض هذه التريليونات التي تهدر في قتل الناس وتحطيم المدن وتدمير الحياة؟! لا يمكن فهم هذا العبث بمنطق المصالح المزعوم بالتأكيد، وإنما بمنطق العنف التدميري الخبيث الذي يتحدث عنه إريك فروم، والذي نحت له مصطلحا سيرتبط باسمه بعد ذلك هو "نيكروفيليا"، أي "الانجذاب العاطفي إلى كل ما هو ميت، متفسخ، متعفن، وسقيم.

إنها الشغف بتحويل ما هو حي إلى شيء غير حي. هي التدمير من أجل التدمير، والاهتمام الحصري بما هو ميكانيكي خالص، والشغف بتفكيك كل البنى الحية".

(يقابل مصطلح نيكروفيليا = حب التدمير، مصطلح "بيوفيليا" والذي يعني حب الحياة والبناء، وهنا يخالف فروم استاذة فرويد).

إريك فروم في كتابه "تشريح التدميرية البشرية" يقدم نموذجا لحالة نيكروفيلية واضحة وهو أدولف هتلر، فماذا عن الرئيس هاري ترومان الذي أمر بإطلاق القنبلتين النووييتين على هيروشيما وناجازاكي؟ ماذا عن هولوكو خان المغولي الذي أباد أمما ودمر حضارات؟ ماذا عن ستالين، عن ماو تسي تونغ وعن الصهاينة وعن ملايين البشر ممن يقتلون ويتلذذون بالقتل ويتفننون بابتكار طرق قتل وحشية في عالمنا المنحط كل يوم؟!

كم هي قصيرة الرحلة من الرحم إلى القبر.. كم هي مليئة بالعذابات والأحزان والشر!

ميلغرام والانصياع للسلطة

في عام 1960 بدأ عالم النفس الأميركي د. ستانلي ميلغرام أبحاثه القيمة حول "الانصياع للسلطة" بهدف فهم أسباب السلوك العدواني للجنود النازيين والذي برره أكثرهم "بأنهم مجرد جنود يطيعون الأوامر"، فقام ميلغرام بتصميم تجربة ستصبح بعد ذلك علامة فارقة في تاريخ علم النفس.

التجربة باختصار تقوم على وضع مشارك متطوع أمام جهاز صعق كهربائي موصول بيد شخص آخر (ممثّل) في غرفة منفصلة، ثم يطلب المشرف (ممثّل أيضا) من المتطوع أن يوجه أسئلة محددة للشخص، وإذا أخطأ يقوم بصعقه بشحنة كهرباء مؤلمة، ثم تتضاعف الشحنة الكهربائية أكثر في كل مرة يخطئ الشخص بالإجابة.. في البداية، يتم صعق المتطوع بشحنة كهربائية مقدارها 45 فولت فقط ليتمكن من تقدير درجة الألم، وهي بالمناسبة الصعقة الوحيدة الحقيقية في التجربة.

الغريب والمؤلم أن أكثر من 75% من المشاركين في هذه التجربة وصلوا إلى الصعقة القصوى وهي 450 فولت، كانوا متضايقين وخائفين من سماع أصوات الألم وصرخات التعذيب من الأشخاص الموصولين بجهاز الصعق الكهربائي، وبعضهم كان يصرخ بأنه مريض بالقلب ويعاني ذبحة وعلى وشك أن يموت.. ومع هذا، كان 75% من المشاركين ينظرون للمشرف ويستأذنون في التوقف لكنهم يواصلون التعذيب بعد أن يطلب منهم المشرف الاستمرار بالتجربة !

يقول ميلغرام: نتائج هذه التجربة مقلقة حقا، وهي ترجح أن الطبيعة البشرية غير جديرة بالاعتماد عليها في إبعاد الانسان عن القسوة والعنف والمعاملة غير الإنسانية، عندما تتلقى الأوامر من سلطة فاسدة، فإن نسبة كبيرة من الناس مستعدون لتنفيذ ما يؤمرون به دون أخذ طبيعة الأمر ونتائج المؤلمة بعين الاعتبار، وبلا قيود يفرضها الضمير.. تأملوا في هذا، إذا تمكن "مشرف" مجهول من أن يوجه الأوامر لمجموعة من البالغين لتعذيب

رجل في الخمسين من عمره يصرخ ويتألم، ويخضعونه لصعقات كهربائية مؤلمة رغم احتجاجه ومرضه، فلا يسعنا إذن إلا أن نتساءل ما الذي تستطيع عمله الحكومات بما تملكه من سلطات أوسع وأجهزة وأدوات تشرعن الأوامر والعنف !

من النتائج المؤلمة أيضا التي كشفتها تجارب ميلغرام ما يتعلق بارتباط الطاعة بعقلية القطيع، إذ كشفت أبحاث وتجارب أخرى عن زيادة درجة الطاعة والخضوع للسلطة بين المجموعات أكثر مما هي عليه بين الأفراد، ومرد ذلك أن الفرد ضمن الجماعة يتصرف بمشاعر أقل بالمسؤولية ويجد أفعاله مبررة طالما أن "الجميع يفعل هذا..".

لاحظوا.. حديث ميلغرام ودراساته كانت موجهة أساسا لفهم العنف المفرط من قبل الجنود النازيين ضد اليهود تحديدا، فما الذي يمكن أن يقوله علم النفس وعلم الاجرام عن العنف والقسوة والوحشية التي تحدث في الشرق الأوسط اليوم على يد أبناء البلد الواحد والدين الواحد؟! أعدت قراءة الكثير من أدبيات الحرب العالمية الثانية، وشاهدت معظم الأفلام الوثائقية حول تلك الفترة، وزرت تقريبا كل معسكرات الاعتقال النازية من داخاو وميونخ وبرلين في ألمانيا، إلى أوشفيتز وبيركناو في بولندا، إلى تيريزين في التشيك وغيرها، وأستطيع أن أقول بكل ثقة أن العنف والوحشية التي تمارس بيننا اليوم، أكبر بأضعاف المرات من وحشية النازيين.

كيف نفهم وحشية رجل يوجه عدة طعنات لجثة قتيل.. يفعل هذا وهو يبتسم للكاميرا؟ بأي تفسير يمكن أن نتحدث عن رجل يقطع رأس إنسان ويركلها برجله وهو يضحك؟! هذه ليست سادية، لأن السادية مرض يصيب عدد محدود من الأفراد، أما هذا العنف الجماعي الذي "يتحجج" بالدين فهو يتجاوز بمراحل أبشع صور السادية.

بين الوطنية والعنصرية

بين مفهوم الوطنية Nationalism ومفهوم العنصرية Racism منطقة رمادية، تختلط فيها المعاني وتضيع فيها الكثير من الحقوق وتوزع فيها الإساءات للناس بالجملة. هذا الوضع البائس رافق الإنسان منذ نشأة الدولة، فكان دائماً ثمة تمييز للمواطن عن بقية السكان.

على أن التمييز لا يقتصر فقط على الحقوق والامتيازات، وإنما يشمل أيضا الواجبات، وهو ما يتم تجاهله - عمدا - غالبا !

رغم أنني مواطن كويتي إلا أنني لا أستطيع أن أحصل على علاج مجاني في المستشفيات العسكرية، كونها مقتصرة على العسكريين وأنا مدني، فهل في هذا تمييز عنصري؟ كلا بالتأكيد، فهذه خدمة إضافية تقدمها المؤسسة العسكرية لمنتسبيها، مثلها مثل كثير من مؤسسات الدولة التي تقدم خدمات إضافية لمنتسبيها كشركات النفط والطيران وجامعة الكويت وغيرها.

باختصار.. هناك حقوق للمواطن في بلده أكثر من حقوق بقية السكان في جميع دول العالم، هذا الوضع طبيعي جدا، لكنه لا يبرر بالتأكيد الإساءة للوافدين أو المقيمين وغيرها من التسميات، ويجب ألا يسمح بالتعسف ضد حقوقهم والتجاوز على كراماتهم.

المسألة هنا تتعلق بتحديد نطاق الحقوق، ونحن لا نحتاج لاختراع العجلة والبدء من الصفر في هذا الأمر، فالكويت دولة عضو في الأمم المتحدة ولديها التزاماتها الدولية حسب معاهدات حقوق الإنسان التي تتحدث عن حق التعليم والعلاج وحرية التنقل وغيرها.

هذا لا يعني أن تكون هذه الخدمات مجانية بالضرورة، وبالتالي فتخصيص مستشفى حكومي يقدم خدماته المجانية حصرا للمواطنين لا يمثل انتهاكا لحقوق غير المواطنين

بالتأكيد، فهو ميزة إضافية تنسجم مع نصوص الدستور التي تفرض على الحكومة توفير الرعاية الصحية المجانية للمواطن، دون الإخلال بحقوق غير المواطن الذي تبقى أمامه بقية المستشفيات الحكومية مفتوحة إضافة للمستشفيات الخاصة، وهو واقع موجود في كل دول العالم ولا يمثل أي تمييز عنصري بلا شك.

للمواطن في بلده حقوق أكثر لأن عليه التزامات وواجبات تجاه بلده ليست على الوافد، أهمها واجب الدفاع عن البلد والموت من أجله.. لا أحد ممن يستكثر تخصيص مستشفى حكومي للمواطنين يطالب الوافدين بالدفاع عن البلد لأن هذا واجب على المواطن وليس الوافد. هنا نتحدث عن مفاهيم الوطنية التي يجهلها كثير ممن يحاولون لعب دور مالكوم اكس ومارتن لوثر كنج بسذاجة !

كنت أتمنى لو كانت هذه "الفرعة المضرية" ضد تخصيص مستشفى جابر للكويتيين لتكون ضد نظام الكفيل الذي يمثل نظام سخرة ظالم، وضد حجز جوازات سفر العاملين الذي ينتهك حق الوافد كإنسان في حرية التنقل، وضد حرمان مئات الآلاف من "البدون" من حق العمل والعيش بكرامة.. وغيرها من الانتهاكات الحقيقية والتقصير الواضح والفساد الفاحش الذي تضاعف في البلاد، وليس ضد قيام الحكومة بواجبها الدستوري تجاه المواطن من خلال توفير رعاية طبية له. من يرى أن هذه الخدمة تمييز عنصري، فعليه إذن أن يشرح لنا: هل تقديم الدولة الدعم الغذائي (التموين) للمواطن دون الوافد عنصرية أيضا؟ لماذا لا ترسله في رحلة علاج بالخارج مثل المواطن إذن؟ ولماذا لا تعطيه قرض زواج، ولا تمنحه بعثة دراسية وسكن.. الخ ؟

الوافد مواطن بلد آخر له فيها حقوق وعليه واجبات، وهم شركاء في بناء الدولة وأصحاب فضل علينا لا شك في ذلك، ونحن ضد كل أشكال التمييز العنصري وضد كل تعسف وظلم يرتكب في حق أي إنسان، على أن ذلك يجب ألا يجعلنا نخجل من المطالبة بمزيد من الامتيازات الإضافية لنا كمواطنين، لنا في ثروات بلدنا حقوق.

عالم جديد يتشكل

الورقة التي لم تسقط في فصل الخريف، خائنة بعيون أخواتها، وفيّة بعيون الشجرة، ومتمردة بعيون الفصول.. كل يرى الموقف من زاويته.

مكسيم غوركي - فيلسوف وأديب روسي ماركسي

كتب إيمانويل ريكوتشي: "أصبح يبدو للمرء في أوروبا كأنه يعيش في مزبلة دولية"، ويتهم هذا الصحافي الإيطالي المعادي للأجانب - والذي يمثل تيارا يمينيا متطرفا عاد ليجتاح أوروبا من جديد - يتهم حكومات أوروبا بالكسل وسوء تقدير الخطر الحقيقي، الذي باعتقاده يتمثل باللاجئين والمسلمين عموما، ويتهكم عليهم بأن اهتماماتهم ضيقة تنحصر في كتب تعليم الجنس في المدارس الابتدائية وكيفية طرد الرب من الأرض وسبل تحويل الكنائس إلى مطاعم وجبات سريعة على الطريقة الأميركية !

يبدو أن جهود سبعين عاما في محاولة التغلب على الشعبوية التي أنتجت هتلر على وشك أن تذهب سدى.. أوروبا اليوم تصارع لتثبيت هويتها الانسانية أكثر مما تصارع لتحقيق مصالحها الاقتصادية.

بعد تنصيب ترامب رئيسا للولايات المتحدة الأميركية بيوم واحد، احتضنت مدينة كوبلنز الألمانية مؤتمر "أوروبا الجديدة" والذي نظمه قادة أحزاب اليمين المتطرف وأهمهم فرواكه بيتري زعيمة حزب "البديل من أجل ألمانيا"، ومارين لوبان زعيمة اليمين المتطرف الفرنسي، وغيرت فيلدرز زعيم اليمين المتطرف الهولندي، إضافة لزعماء اليمين المتطرف في التشيك وپولندا وغيرها.. تجمعهم كراهية الاسلام ووجود الأجانب في بلادهم وغضبهم من الاتحاد الأوروبي ورغبتهم في تحطيم هذا الاتحاد والعودة للدول القومية - والتي لم تعرف

يوماً شيئاً آخر غير الحروب فيما بينها - دون أن يقدموا أي تصور لمشروع اقتصادي أو سياسي بديل.

الغريب أنهم رفعوا شعار "الحرية لأوروبا" في مؤتمركم المتطرف، وبشروا على لسان الشعبوية الأكبر مارين لوبان بخروج المزيد من دول الاتحاد الأوروبي بعد اكتمال خروج بريطانيا، وذلك تحت "تأثير الدومينو". أما المؤلم، فهو تزايد شعبية هذه الأحزاب اليمينية المتطرفة قبيل الانتخابات لمعظم دول أوروبا (برلمان هولندا في مارس القادم، الرئاسة في فرنسا إبريل القادم، برلمان ألمانيا في سبتمبر القادم).. ترى، أي عالم سيشكله أمثال هؤلاء الحمقى؟!

رئيس جمهورية الصين "الشيوعي" شي جين بينغ دافع بشراسة عن العولمة والتجارة الحرة - وهي أهم مظاهر الرأسمالية المتوحشة - وذلك في كلمته التي ألقاها قبل أيام في مؤتمر دافوس الاقتصادي، في حين قام "الرأسمالي الملياردير" رئيس الولايات المتحدة "الرأسمالية" دونالد ترامب قبل أيام بتوقيع قرار انسحاب أميركا من اتفاقية التجارة الحرة مع دول المحيط الهادئ (يضم 12 دولة)، وهو اليوم من أكبر منتقدي العولمة والسوق الحرة ومن أخطر من يهددهما بشروطه التعجيزية التي أرعبت الشركات والبنوك الرأسمالية حول العالم.. اننا حقا نعيش وضعا غريبا، في عالم جديد يتشكل!

رغم عودة روسيا كقطب قوي لينهي تفرد أميركا بالعالم منذ سقوط الاتحاد السوفييتي، ومع هذا.. الصراع القادم باعتقادي سيكون بين الولايات المتحدة والصين أكثر من أي دولة أخرى.

الرجل الذي لم يحرق بباريس

كتب الفيلسوف الألماني المضطرب فريدريش نيتشه قصيدة "إلى الإله المجهول"، تكشف جانبا آخر من شخصيته المحيرة، فهو رغم كونه فيلسوف العدمية والإلحاد الأكبر، إلا أن القصيدة تكشف حجم الفراغ الروحي في داخله والخوف من الموت بلا إيمان، فهو يبحث عن إله يريد أن يعرفه ويخدمه.

وفي القصيدة ثراء وعمق لا يمكن أن نجدهما في فلسفة نيتشه نفسه ولا في غيرها، مرد ذلك إلى تحرر الشعر من قيود التسلسل المنطقي والبناء العقلاني التي تتطلبها الفلسفة.. في الشعر جموح لا تحتمله الفلسفة.

يقول نيتشه:

أيها الإله المجهول،

لمرة واحدة قبل أن أرحل

أود لو أعرفك

أريد أن أدير عيني إلى القادم

في وحدتي، أرفع اليدين نحوك

نحو من أبحث عنده عن ملاذ

أنت يا من أقمت له في أعماق قلبي

الهيكل الفخمة

فليناديني في أي وقت صوتك

..

أيها المجهول.. أريد أن أعرفك

أنت يا من تدخل أعماق روحي

أنت يا من تعبر قلبي مثل عاصفة

يا من يتعذر الإمساك به

أيها القريب!

أريد أن أعرفك
أريد أن أخدمك

أعتقد أن متابعة الأخبار في أغلب بلداننا العربية تسبب السطحية وسذاجة الفكر..

الخليج صحراء مبلطة وخيام أسمنتية، لا جديد على مستوى القيم.. ندير شؤوننا بـ
"فزعة"، ونختار نوابنا بـ "رفعة عقال".. بلداننا حزن عميق !

قرأت في "تويتر" ولا أعرف من القائل:

"يمكن لحضارة أن تزدهر من جذور كثيرة، ويمكن للآلهة أن تحمل أسماء متعددة".

يا لها من بلاغة وعمق.

كتب الشاعر المبدع بدر شاكر السياب:

ذكريات، كما يترك الصوت من ميت

في خيال رنينه،

مثل ناي تشظى، وأبقى أنينه !

عندما اقترب الحلفاء من تحرير فرنسا في صيف 1944، أصدر هتلر أوامره للجنرال شولتز بإحراق باريس وتدمير كل آثارها الحضارية، ورغم أن هتلر كان يحتجز عائلات جنرالاته وكانت أوامره تقتضي بقتل جميع أفراد عائلة أي جنرال يستسلم أو لا ينفذ الأوامر الصادرة إليه، ومع هذا، خاطر شولتز بحياته وحياة أسرته بما فيهم من أطفال صغار، واتخذ قراره التاريخي بـ"لا ينفذ أوامر قائده ولا يحرق باريس ولا يدمر مبانيها".

في ربيع 1966 قام الجنرال شولتز بزيارة باريس بدعوة من مخرج سينمائي كان يعمل على إنتاج فيلم حول تلك الفترة وأراد الاستعانة بشهادة الجنرال، وعندما وصل شولتز إلى باريس، احتفت به الصحافة ونشرت صورته مع تعليق سيظل يلازمه مدى الحياة "الرجل الذي لم يحرق باريس".

ليت عندنا الرجل الذي لم يحرق بغداد، والذي لم يحرق صنعاء، والذي لم يحرق بيروت، والذي لم يحرق طرابلس ولم يحرق دمشق !

النظرة الثانية

ماركسيات.. من ذكريات الجامعة

ولد كارل ماركس لأسرة يهودية في مدينة ترير بألمانيا، كان والده تاجرا ناجحا، لكنه اضطر للانتقال إلى مدينة أخرى يسيطر عليها أعضاء الكنيسة اللوثرية، ولضمان استمرار أعماله، قرر والده التحول للمسيحية والانضمام لهذه الكنيسة، فكان لهذا الموقف تأثير عظيم على عقل الصبي كارل، سيظهر لاحقا بمنزلة العمود الفقري في فلسفته كلها، من خلال تأكيده على أن "العامل الاقتصادي" هو المحرك الأساسي لكل شيء في حياتنا، ليس الدين ولا المثل العليا ولا الأفكار ولا القيم الأخلاقية ولا غيرها، وإنما الاقتصاد، ولذلك رفض ماركس تعريف الإنسان الذي كان سائدا قبله لعصور بأنه "الإنسان العاقل" Homo Sapiens واستبدله بتعريف جديد هو "الإنسان العامل" Homo Faber (باللغة الألمانية يسمى المصنع Fabrik "فابريك"، ومنه اشتق ماركس تعريف الإنسان بأنه الصانع أو العامل لتأكيد البعد الاقتصادي في المسألة كلها)، ولذلك كان يقول "تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام".

الآن.. لو كنا في القرن الثاني للهجرة، حيث الحرية الفكرية مكفولة بوجود المعتزلة والأشاعرة وغيرهما من مدارس الفلسفة التي كانت تناقش كل شيء بلا خوف، لتجرات على القول بأنني - إلى حد ما - أتفق مع ماركس في هذه النقطة.

عند ماركس.. الإنسان في المجتمع الريفي مكتف بذاته، فهو يملك أدواته الخاصة بالإنتاج ويعمل لنفسه ويجني ثمرات جهوده لصالحه هو، في حين أن الفرد في المجتمع الصناعي "مغترب" عن ذاته، يعمل مقابل أجر، ولا يملك شيئا من أدوات الإنتاج ولا من عوائده، واعتبر ماركس هذا التحول من المجتمع الريفي إلى المجتمع الصناعي بمنزلة "عبودية جديدة".

كان هذا التحليل كافيا لتحريك أكبر ثورات التاريخ البشري تأثيرا، أعني الثورة البلشفية التي أطاحت بالقيصر وأقامت المجتمع الاشتراكي الجديد في الاتحاد السوفييتي عام 1917. الآن نفهم لماذا ترتعب الأنظمة القمعية من الأفكار !

افترض ماركس أن في المرحلة الشيوعية النهائية (وهي مرحلة متخيلة) سيعمل الأفراد بحسب طاقاتهم، وسيأخذون بحسب حاجاتهم مبدأ: من كل حسب طاقاته، لكل حسب حاجاته (حرفيا هذا النص كتبه لينين، لكنه كتبه بروح وفكر ماركس). تلك المرحلة الخيالية (يوتوبيا) التي كان "يحلم" بها ماركس عرفها المسلمون واقعا حقيقيا لسنوات عدة، خاصة في حكم الخليفة الخامس عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، حيث كان المناادي ينادي بتوزيع المال، ولا يتقدم سوى المحتاج حقا.

يرى ماركس أن المجتمعات الرأسمالية في جوهرها مبنية على أساس المكتسبات الاقتصادية، التي هي في يد الطبقة المسيطرة، وأن القيم العليا والمنظومة الأخلاقية والدينية والقانونية كلها محتكرة بيد الطبقة المسيطرة تسخرها لخدمة مصالحها، فعلى مر التاريخ كان القانون مجرد وسيلة سيطرة وتحكم بيد الرأسماليين، فالقانون دائما يساند الغني ويحرم الفقير، يدعم الرأسمالي ويسحق العامل، وأما الصورة الجميلة التي تعرضها وسائل الإعلام عن عدالة القانون بتصويرها كسيدة بريئة ومعصوبة العينين أو ميزان متساوي الكفتين فما هو إلا خداع وتضليل (طبعا هو يضيف لانتقاد القانون انتقادا آخر.. لكن أيضا لا أجرؤ على ذكره لأننا لسنا في القرن الثاني للهجرة) !

احتكموا لضمائركم

قد يصح أن نصاب بالاضطراب تجاه ما يجري في عالمنا العربي من فوضى ودمار، فلا ندري من المجرم ومن الشريف، أو لا نتمكن من التمييز بين التنظيمات الإرهابية المتطرفة وبين حركات التحرر الوطنية، قد نصاب بالحيرة والشك لأبعد مدى، لكن رغم هذا، يبقى الخطأ خطأ والجريمة جريمة مهما كان فاعلها.. نستطيع أن نميز هذا فقط إذا تخلصنا من تعصبنا لمذاهبنا وايدولوجياتنا، واحتكمنا لضمائرننا، للجانب المشرق في إنسانيتنا التي تميزنا عن بقية الحيوانات، والذي يزول بمجرد محاولة تبرير القتل والتعذيب الوحشي لأن الفاعل "منا".

يقول نيتشه "التسمية سلطة". يا للبلاغة والعمق، تأملوا في مصطلحات مثل إرهابي، تكفير، وهابي، رافضي، ناصبي.. الخ، تأملوا في تأثيراتها وخطورة استخداماتها، انها تجعل المتطرفين أدوات قتل وتعذيب بدم بارد، دون أي شعور بالأسف أو الندم. فإذا أردنا أن نعالج هذه الآفة بصدق، فعلينا إذن أن نتجه لمن يستغل هذه السلطة، سلطة إطلاق الأسماء على الناس وتصنيفهم ووضعهم في زوايا مهملة ومنبوذة يتقبل الناس الإساءة لمن فيها دون حرج.

التسمية سلطة، والسلطة تحتاج لرقابة ومحاسبة وسلطة أخرى تحدها وتوقف جنوحها، هذا منطوق بسيط وواضح ومن أبجديات فلسفة القانون.

في نقده للعقل، حدد الفيلسوف الانجليزي العظيم فرنسيس بيكون أربعة أصنام اعتبرها أكبر المعوقات التي تمنع العقل من التطور بالاتجاه الصحيح، أطلق عليها باللاتيني اسم idola mentis أي "أصنام العقل"، أولها "أصنام القبيلة" (idola tribus) وهي من

طبيعة الإنسان ومشاركة بين جميع الأفراد، تجعلهم ميالين للتعميم وتجاهل الحالات المعارضة، وإسباغ صفات في أمور ليست فيها، إنه صنم التعصب بكلام آخر.

ثانيها "أوهام الكهف" (idola specus) ومردّها للنزعة الفردية عند البشر، والتي تجعلهم مقيدين بأغلال حب التميز وافتراس تفضيلات وهمية على حساب الحقيقة.

ثالثها "أوهام السوق" (idola fori) وهي مرتبطة بتكوين الألفاظ والمصطلحات، فيغلب على لغتنا وبالتالي تفكيرنا مفاهيم غير علمية يكتنفها الغموض والشواش، وهذا منبع كثير من النزاعات.

رابعها "أوهام المسرح" (idola theatri) وتأتي من السلطة والنفوذ لكثير من التصورات والنظريات المتوارثة عن شخصيات لها مكانة في نفوس الناس. لاحظوا.. أصنام العقل عند بيكون ليست أخطاء منطقية في الاستدلال العقلي كالتي نبه عليها أرسطو في المنطق الصوري، وإنما هي عيوب في تربية العقل تجعلنا نخطئ في فهمنا وأحكامنا على الأمور.

هذه الأصنام هي بمنزلة أغلال تكبل عقولنا عن رؤية الحق بموضوعية.

تقول الفيلسوفة الماركسية البولندية روزا لوكسمبورغ "الذين لا يتحركون، لن يلاحظوا السلاسل التي تقيدهم".

هذا يفسر بالتحديد لماذا نحن واقعون تحت نير التخلف والتعصب الأعمى والاقنتال، فنحن غالباً جامدون نجتز الماضي، بصراعاته الجاهلية البغيضة.

كتب المبدع بدر شاكر السياب في "لأني غريب" :

حجار..

حجار وما من ثمار

حتى العيون حجار

وحتى الهواء الرطيب

حجار ينديه بعض الدم

حجار ندائي وصخر فمي

ورجلاني ريح تجوب القفار

في فلسفة الدين

قال مونتسكيو: "في العقل ثقب لا يملؤه إلا الله".

ربما تفسر هذه العبارة العميقة سر انشغال البشر بوجود إله، حتى النفاة أو الملحدون مشغولون بوجود الله، وإلا لما تكبدوا عناء محاولة نفي هذا الوجود ولما شكلت هذه الفكرة محور اهتمام يقض مضاجعهم.

كتب الأديب الانجليزي كولن ولسون: "في الساعة الثالثة فجرا أنهيت كتابة مقال أنكرت فيه وجود الله، وحين ذهبت لأنام، لم أستطع أن أطفئ النور خوفا مما سيفعله الله بي".

هذا ما يصيب كل البشر في حالات الضعف وعند مواجهة الموت، نذكر مثلا كبير الملحدين الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر الذي حين حضره الموت طلب القسيس وراح يبكي بين يديه.

والحق ان الدراسات الاجتماعية أثبتت أن المجتمعات البشرية كلها عرفت الله، لكنها عبرت عن ذلك بطرق مختلفة، حتى الديانات غير السماوية كالطاوية والكونفشيوسية التي بدأت على يدي رجال أتقياء وضعوا مجموعة من النصائح الأخلاقية، فما كان من أتباعهم إلا أن حولوهم لألهة وعبدوهم هم أنفسهم بعد وفاتهم.. نعم، انه الثقب الذي لا يسده سوى فكرة وجود إله عظيم يهيمن على هذا الكون ويحفظ له توازنه.

الغريب، أن كل المجتمعات البشرية لديها فكرة متشابهة عن الله، وكلهم ينظرون للأعلى حين يتحدثون عن الله، وكل المعابد ترتفع مناراتها للأعلى متجهة إلى السماء، يختلفون في التفاصيل، ويتقاتلون بسبب هذه التفاصيل أيضا.. انه الثقب الذي لا يملؤه سوى الله.

كتب الجواهري..

تجري على رسلها الدنيا ويتبعها،

رأي بتعليل مجراها ومعتقد.

يشكل موضوع "الشر الوجودي" أو الشر الانطولوجي صلب فلسفة الدين، وينطلق من تساؤل أو شك بالأحرى حول معنى وجود هذا الكم الهائل من الشر وكيف يسمح الله بوجوده؟ حتى بلغ ببعض الفلاسفة إلى انكار وجود الله ذاته لأنهم لم يستطيعوا أن يجدوا مبررا لوجود الشر في العالم.

وتعد الفلسفة الوجودية واحدة من أهم المدارس التي تطرقت لهذا الموضوع، وانتهى المطاف بمعظم- إن لم يكن- فلاسفتها بالنفى أو الالحاد.

أطرح هذا الموضوع هنا لأنني أقرأ كل يوم نفس تلك التساؤلات حول مغزى الشر ووجوده بهذه الكمية المفرطة، من شباب حائر وعاجز عن فهم ما يجري، في سياق تبريرات دينية من "رجال دين" تتسم معظمها بالسذاجة واليأس.

فلا توجد إجابات سهلة ولا وصفات بسيطة بالتأكيد، لكن أذكر بأن الفلسفة الوجودية اندثرت ولم يعد لها سوى قيمة تاريخية في الفكر الفلسفي، وأن معظم أطروحاتها الإلحادية تم الرد عليها بحجج فلسفية قوية، والمسألة لا تتعدى بكثير مقالات صحافية.

لكن بأمانة ومسؤولية.. أعتقد أن الخطاب الديني عند معظم رجال الدين لم يعد صالحا لهذا الزمان، فالأسئلة والشكوك في عقول الشباب خاصة، أكبر بكثير من الطيبة الساذجة والمصطنعة أحيانا التي يحاول بعض "المشايخ" الظهور بها، ظنا منهم أنها تفعل شيئا. صدقوني، انها لا تفيد بل تضر، ولا تعولوا على صمت الناس ومجاراتهم لكم، فهو صمت المحبط اليأس لا أكثر!

من يتجاوز تجربته الذاتية إلا العظماء؟!

معظم البشر يصدرون أحكامهم تبعا لتجارب شخصية في حياتهم، يكرهون ويحبون ويعممون بسبب مواقف شخصية، ولا يتجاوز ذلك إلا شخص عظيم، فهذا شأن العظماء.

إيلي فيزيل يهودي ولد في رومانيا عام 1928، كان ضمن المعتقلين هو وأسرته كلها في معتقل أوشفيتز النازي في بولندا، وشاهد يوما بعد آخر موت والده ثم والدته ثم شقيقته في غرف الغاز، وحرق جثثهم في ساحات أوشفيتز، وكان هو الناجي الوحيد من هذه العائلة البائسة. يروي فيزيل حادثة أثرت فيه كثيرا في أوشفيتز، يقول: في أحد الأيام أجبرنا الجنود النازيون في المعتقل على حضور عملية اعدام طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره شنقا، وقفنا ننظر للطفل وهم يقتادونه للمنصة، والعجيب أن الطفل ذا الوجه الملائكي الجميل كان يسير بهدوء وسكينة لا يمكن وصفها، صعد للمنصة وكان في حالة استسلام تام والجنود يجهزونه للموت، يلفون الحبل على عنقه الصغير ويغطون وجهه بقطعة قماش.. يقول فيزيل، استمرت عملية الاعدام أكثر من ساعة كاملة، إمعانا منهم في إذلالنا وبث الرعب في قلوبنا. حينها وبهمس وحزن وانكسار قال لي الرجل بجانبني: أين الله؟ كيف يسمح بهذا؟! ويضيف فيزيل: في ذلك الموقف المؤلم تزعزع إيمان معظم الحاضرين، وأنكر معظمنا وجود الله.

نحن نعرف أن الأطفال يموتون كل يوم، وأن كثيرا منهم يموت ميتة بشعة، لكن خوض تجربة مشاهدة قتل طفل أمامك أمر مختلف تماما بالتأكيد، وأكبر منه أن يكون الطفل طفلك. لذلك تأملوا فيما يجري في سورية والعراق واليمن وفلسطين المحتلة وغيرها.. كيف بربكم هي حال الأمهات والآباء الثكالي؟! كيف هو إيمانهم بعد كل هذه الآلام والرعب الذي يعيشون مأساته كل لحظة؟! ثم تأملوا في خطاب معظم رجال الدين واهتماماتهم

وقضاياهم التي يناقشونها على المنابر وشاشات التلفزيون.. لتدركوا حجم البؤس الذي يكابده المسلم اليوم !

بعد مشاهد القتل الجماعي المرعبة التي مارسها النازيون في معتقل أوشفيتز، عقد عدد من اليهود المعتقلين ما أطلقوا عليه "محاكمة الله"، فشكّلوا محكمة اختاروا لها من بينهم قضاة وهيئة دفاع وهيئة اتهام، وراحوا يحاكمون ربهم الذي- بحسب اعتقادهم- اختارهم ليكونوا شعبه المختار، وكيف تخلى عنهم ولماذا تركهم فريسة سهلة للنازيين. وقد نشر الأديب الانجليزي فرانك بويس روايته الشهيرة "محاكمة الله" God on trial والتي تحولت لفيلم سينمائي بنفس الاسم لاحقا حول ذلك اليوم، فيها من العمق والفكر ما يسحر العقول ويهز الضمائر.

إيلي فيزيل كان في ذلك كله استثنائيا، شأنه شأن العظماء وهم قليلون، فقد تجاوز محنته الشخصية وتجربته خاصة بكل ما فيها من آلام ومعاناة، لم يفقد إيمانه ولم يستسلم للكراهية، وقد استحق جائزة نوبل للسلام عام 1986، وفي عام 2006 رفض قبول منصب رئيس الكيان الصهيوني المحتل (إسرائيل) بعد توصية من رئيس الوزراء الصهيوني ايهود أولمرت.

يقول ايلي فيزيل: "نقيض الحب ليس الكراهية، إنما عدم الاكتراث. نقيض الجمال ليس القبح، إنما عدم الاكتراث. نقيض الإيمان ليس الهرطقة، إنما عدم الاكتراث. نقيض الحياة ليس الموت، وإنما عدم الاكتراث". ما أحوج هذا العالم القبيح للخروج من حالة اللامبالاة وعدم الاكتراث التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا تجاه ما يجري للبشر من قتل وتشريد.

ويح الذكريات

القانون في ألمانيا يعطي الناشر حق امتلاك الحقوق الفكرية لمدة سبعين عاما فقط، بعد ذلك تصبح الكتب مشاعا من حق أي دار نشر إعادة طباعتها وبيعها. هذا القانون - ذو الرائحة الاشتراكية الجميلة - ينطلق من فلسفة إنسانية مفادها أن الكتاب حق لجميع الناس بعد أن يستفيد منه صاحبه ونشره لفترة من الزمن، وهم يرون أن سبعين سنة كافية وعادلة لتحقيق مكاسب جيدة ثم بعد ذلك تحرر الكتب للناس.

كانت الأمور على ما يرام، إلا أنه مؤخرا اصطدم المجتمع الألماني مع كتاب "كفاحي" Mein Kampf لأدولف هتلر، والذي كتبه خلال فترة حبسه في سجن ميونيخ قبل وصوله للسلطة، إذ من المقرر أن تنتهي حقوق ملكيته التي تملكها ولاية بافاريا مع بداية يناير 2016 (أي بعد أيام قليلة)، فانقسم الألمان بين مؤيد ومعارض لإعادة طبع وتوزيع هذا الكتاب الذي لا يختلفون على خطورته وخطيئة مؤلفه في حق ألمانيا والعالم.

شاهدت في التلفزيون الألماني "دويتشه فيله" تقريرا حول هذا الموضوع، استمعت لسيدة تقول بحزن انها لا تستطيع أن تتفهم فكرة السماح بنشر هذا الكتاب الخطير، واستمعت لنانبة في البرلمان (بوندشتاغ) وهي تدافع عن فكرة السماح بنشره وتؤكد أن الكتاب متوافر في الانترنت ولا يمكن منع الألمان من قراءته، وأنه من الأفضل تقديمه لهم مع نقد علمي وموضوعي يوضح مواطن الخطر والأكاذيب والدعاية وغيرها.. الأکید أن معظم دور النشر الألمانية قد استعدت لهذا الحدث الكبير، وقامت بالفعل بطباعة ملايين النسخ. الغريب، أنني قرأت كتاب "كفاحي" قبل 25 سنة بالمصادفة، وبسببه أحببت ألمانيا !

كتب الجواهري :

أعاتب فيك الدهر لو كان يسمع،

وأشكو الليالي لو لشكواي تسمع،

أكل زمانني فيك هم ولوعة،

وكل نصيبي منك قلب مروع!؟

"قطاع الطرق في الليل، هم تجار المدينة في النهار!"

تشارلز ديكنز - قصة مدينتين

أتذكر في بداية التسعينيات من القرن الماضي (أكره هذه العبارة.. من القرن الماضي،
تسعرني وكأنني ديناصور!) مع دخولي للجامعة، أدمنت قراءة "أدب الحروب"، والحرب
العالمية الثانية بشكل خاص، كنت "أفهمها"، أما الآن.. فـ"أشعر" بها وأعيش ألامها
وبؤسها وشقاءها.. ويح الذكريات.

جرافيتي

يقول المفكر الإسلامي المستنير محمد مختار الشنقيطي: "من أعظم التزييف للقيم السياسية جعل فقهاء السلطان حقوق الحاكم معجلة في الدنيا، وحقوق المحكوم مؤجلة إلى الآخرة".

"إذا رأيتني ضللت الطريق، فخذ بمجامع ثيابي وهزني هزا عنيفا وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت..".

ال خليفة الخامس عمر بن عبدالعزيز لأحد أصحابه.

الناطق الرسمي لوزارة الخارجية الألمانية حاليا شابة صغيرة اسمها سوسن شلبي، من أصل فلسطيني حصلت على الجنسية الألمانية حديثا. عالم آخر.

يذكر نوبواكي نوتوهارا في كتابه "العرب، وجهة نظر يابانية" حكاية صغيرة تختصر واقعنا المؤلم.. يقول: "في متحف عربي بإحدى المدن الشهيرة ظهر أمامي فجأة شخص عرفت فيما بعد أنه موظف في المتحف، وبلا مقدمات عرض علي "همسا" أن أشتري قطعة أثرية نادرة من مقتنيات المتحف.. صعقت ولم أصدق كيف برجل اختاره وطنه ليحرس آثاره ثم يخون ضميره وشرفه وتاريخه ويبيع آثارا تركها أجداده منذ آلاف السنين"؟!

يقول صاحب أحد المصانع الصينية: أصابني الذهول عندما رفضت مجموعة من التجار الخليجيين أن يأكلوا اللحم في الوليمة التي أعدتها لهم بحجة أنه ليس مذبوحة على الطريقة الإسلامية، مع أن الوليمة بمناسبة إتمام صفقة كبيرة من البضائع التي اشتروها مني وطلبوا أن أكتب عليها "صنع في ألمانيا" !

"الحرية هي أول خمس دقائق لي في الحياة بعد الولادة، حيث أبكي فيها عاريا، بلا اسم، بلا خطيئة، وبلا حقد بشري".

مكسيم غوركي - أديب روسي ماركسي.

تطبيق خرائط غوغل للهواتف (google map) أضاف مؤخرا الحوائط المرسومة عليها أعمال جرافيتي (فن الرسم على الجدران) على اعتبار أنها معالم سياحية، بدأ بجدران برلين الجميلة التي تنتشر عليها أجمل الأعمال من هذا الفن الإنساني الرائع. الجرافيتي هو فن البسطاء، يناقش هموم الناس وأحلامهم بلا تكلف وبلا ذلك التصنع الزائف الذي يهيمن على أغلب معارض الفنون "الراقية". قبل أيام انتشرت صورة لحائط في مخيم كاليه للاجئين في فرنسا، رسم عليه فنان الجرافيتي الأشهر عالميا بانكسي صورة لمؤسس شركة أبل ستيف جوبز بهيئة لاجئ.. ليذكر هذا العالم العنصري القبيح بأن هذا الرجل العظيم ابن لاجئ سوري.

من أروع الكاريكاتيرات التي رأيتها مؤخرا، مديعا يسأل مواطنا حافي بملابس مرقعة: هل أنت مع التيار الليبرالي أم التيار الإسلامي؟ الرجل يرد: أنا مع التيار الكهربائي.

(الراجل يا عيني غلبان وهريان وكحيان يحلم برغيف العيش ووصول الكهرباء والماء
النظيف.. ماله هو ومال الليبرالية والترف المخملي هذا؟!).

لماذا نشعر بأن الزمن يسير بسرعة ونشكو دائماً أننا لا نملك الوقت الكافي لفعل أي
شيء.. رغم ان في الماضي كان الرجل يقضي ثلثي يومه في المزرعة أو المشغل لتوفير
أساسيات الحياة؟ وتقضي المرأة ثلثي يومها في انجاز أعمال المنزل، ومع هذا، كان
لديهم الوقت الكافي دائماً للجلوس وتبادل الحديث والتواصل الإنساني المباشر، بينما
نعاني نحن في هذا الزمن الطاحن خلف أسماء مستعارة وشخصيات مشوهة، ممسكين
بشاشات صغيرة، نتذمر من الجفاف العاطفي وسرعة مرور الوقت. يقول كارل ماركس..
ولد رأس المال، وولد معه نزيف الدم والبؤس !

تحشيد الجماهير بالحق والانتقام

أنا ماري شيميل مستشرقة ألمانية عاشت سنين طويلة من عمرها في تركيا وبلدان عربية، كانت منذ طفولتها شغوفة بكل ما هو روحاني، أحبت الشرق، وأعجبها التراث الصوفي الإسلامي كثيرا، لدرجة أنها تعلمت اللغة العربية والتاريخ الإسلامي وهي في سن الخامسة عشرة، وتخصصت بعد ذلك في الأديان الشرقية لتقرأ كتابات ابن عربي وأبو بكر الشبلي وأبو يزيد البسطامي والفضيل بن عياض ورابعة العدوية وغيرهم من أعلام التصوف. لها إنتاج علمي غزير معظمه ترجمات من العربية والتركية لأهم الكتب إلى اللغة الألمانية، أهمها مقدمة ابن خلدون والكثير من قصائد المبدع بدر شاكر السياب. حين حضرها الموت، أوصت بأن يكتب على شاهد قبرها مقولة سهل التستري بالعربية والألمانية "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا"

(Die Menschen schlafen, Und wenn sie sterben, erwachen sie).

لماذا انطلقت الثورة الكبرى في فرنسا عام 1789 م دون غيرها من دول أوروبا؟ بالتأكيد هناك عدة أسباب وعوامل، لكن من المهم جدا فهم مستوى الحريات في تلك البلدان قبل اندلاع الثورة. كانت ألمانيا وهولندا مثلا من أكثر الدول انفتاحا وتسامحا، في حين كانت فرنسا من أكثر الدول تشددا وتضييقا للحريات، كانت فرنسا الوحيدة من بين دول أوروبا آنذاك التي تمسكت بكل تشدد بـ "قائمة الكتب الممنوعة" (باللاتيني: Index Librorum Prohibitorum) التي كانت تنشرها الكنيسة بين فترة وأخرى منذ بدايات العصور الوسطى المسيحية. هذا مؤشر مهم حول ارتباط مستوى الحريات بقيام الثورات، والذي لا يعرف التاريخ، محكوم عليه بتكراره" كما يقول ماركس !

من جاسوس صغير يكتب تقارير أمنية عن زملائه في أحد مقاهي ميونيخ، إلى زعيم الحزب الاشتراكي الوطني الذي نشأ حديثاً آنذاك، هكذا قفز هتلر بسبب قدرته "الفائقة" على الخطابة التي كان يسحر بها الجماهير المتعطشة للنصر والانتقام من فرنسا، استمعت لكثير من تلك الخطب الحماسية وأعجب كل العجب كيف كان يحركهم بمثل هذا الكلام السخيف والسادج، لكن وكما كان هتلر نفسه يقول: "الحشود أنثوية وغبية، تحركها بالحد، وتسيطر عليها بالعواطف". في إحدى خطبه "الحماسية" وقف على منصة وتحتته ملايين الشباب وقال وهو يلوح بيديه بحركات عنيفة: "الألماني يجب أن يكون سريعاً مثل الأرنب، ورشيقاً مثل النمر، وقويًا مثل قضيب من الفولاذ.." وإذا بالجموع تصرخ وتهتف بكل قوة وحماس "هايل هتلر.. هايل هتلر" (عاش هتلر).

تأملوا فيما يحرك الجماهير العربية اليوم، ما هو الخطاب السائد في معظم الدول العربية لفهم كيف يحشد "داعش" وحزب الله وأمثالهما جموع الشباب وتحرق بهم الأخضر واليابس. ليس العقيدة وليس الدين كله أصلاً، وإنما بالحد والانتقام.

كتب السياب:

ونحن في بغداد من طين

يعجنه الخزاف تمثالاً

دنيا كأحلام المجانين

ونحن ألوان على لجها المرتج

أشلاء وأوصالاً..

من يدرك سر ذلك الأئين؟!

يقول جلال الدين الرومي، رحمه الله، في رائتته "أئين الناي" وعلى لسان الناي نفسه:

"منذ اقتطعت من الغاب، الرجال والنساء لأئيني بيكون

فكل من قطع عن أصله، يحن لوصله

وهكذا غدوت مطربا في كل المحافل

أشدو للسعداء، ولليائسين

وكل يظن أنني رفيق له

ولكن من منهم يعرف حقا ما أنا فيه،

من منهم يدرك سر هذا الأئين؟!"

يقول الشراح، إن جلال الدين الرومي، رحمه الله، يرمز للناي بالأنبياء والقرآن، فكل يدعي أنه يفهمهم ويعرف مقصودهم بالتحديد، ومثما يسمع الحزين صوت الحزن في الناي، ويجد السعيد الفرح بذات الصوت من الناي، كذلك يعتقد من يدعي فهم القرآن والحديث بحسب هواه ومزاجه، فمن لديه نزعة شر، سيفهم القرآن كدعوة للقتال وذبح الناس، ومن يتصف بالرحمة وحب الخير، سيجد في القرآن الرحمة كلها والسلام كله. لكن من يملك أن يسير غور هذا البحر العميق، ويدرك حقا كلام الله عز وجل؟!

يختم جلال الدين الرومي قصيدته:

أما الآن، ليرفع القلم، ويطوى الكتاب

فهذا البحر، لا يلجه إلا أهله

والسلام..

العالم اتخذ شكلا جديدا ومختلفا تماما عن شكله السابق بعد الحرب العالمية الثانية، بتأسيس الأمم المتحدة (عصبة الأمم) عام 1945م، أصبحت الدول محددة بحدود وأعلام وديساتير ونظم، وأصبحت الحقوق والواجبات مرتبطة بمفهوم المواطنة، والمواطنة ارتبطت بالجنسية.. الخ.

بينما في العالم العربي سادت ثلاثة تيارات، تيار قومي عروبي، وتيار إسلاموي، وتيار يساري أممي. المصيبة أنها جميعها مشاريع تنظيرية وغير واقعية، تريد إلغاء الجغرافيا ولا تعترف بالدولة ولا بالمواطنة، القومي يريد إلغاء الحدود عن "الوطن العربي"، هكذا بجرة قلم. والاسلاموي يحلم بدولة خلافة كبرى تلغي الآخر وتجمع الكرة الأرضية كلها في قبضة الخليفة وعماله في أرجاء المعمورة، ولا تسأل كيف وهم عاجزون عن صنع حنطور! أما اليساري فهو مشروع ببغاء ناطق، يجتر خطابات ماركس ولينين وستالين وماو تسي تونغ عن الأممية العالمية التي يتداخل فيها الجميع من أدغال كوبا إلى صحاري أوردوس إلى الناصرية إلى واشنطن إلى برلين إلى القاهرة وكله على بعضه.. ليصبح العالم بالنهاية ليس فيه سوى "المواطن العالمي"، (ويزعلون لو قلت ما هذه السذاجة؟!)، ولذلك لا غرابة أن الإنسان الفرد في عالمنا العربي مطحون ولا قيمة له كإنسان بذاته، قيمته أنه "مواطن" يرفع صورة الزعيم القائد ليس أكثر، لكن هذه "المواطنة" لا تمنحه أي حقوق مثل بقية الناس، ولهذا نتحدث عن "البشر" الذين يقتلون في بلداننا كل يوم كأعداد. هكذا،

قتل خمسون بسيارة مفخخة ومات تسعون ببراميل متفجرة وذبح ألف في مظاهرة سلمية.. مجرد أرقام بالمئات والألوف في شريط الأخبار، لكن من هم، ما أسماؤهم، ولماذا قتلوا، وما مصير أسرهم ومن يحاسب قاتليهم؟؟ لن تجد إجابات بالتأكيد، لأن الإنسان الفرد في بلداننا بلا قيمة، ومن سييالي في شرح أي شيء لكائن بلا قيمة!؟

* * *

وحدهم المسلمون الذين يتقاتلون بسبب اختلاف العقيدة والأفكار، في العالم اليوم ملايين المعتقدات الايديولوجية والأديان، كلهم يتحاورن إلا نحن.. متى ينتهي هذا!؟

كتب الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه: لك طريقك، ولي طريقي، أما "الطريق الصحيح" فهو غير موجود.

بيكسل

في أحد شوارع لندن، تجمع عشرات الشباب ممسكين بهواتفهم "الذكية" وهم يصورون فتاة أفريقية يبدو أنها مصابة بأحد الأمراض العقلية، حيث كانت تقوم بحركات لا يفعلها أي شخص سوي في مكان عام بالتأكد.

كانوا فرحين جدا، يضحكون على هذا "المنظر المضحك" بالنسبة لهم، فرحين بتصويرها ونشر صورها على مواقع التواصل الاجتماعي مع تعليقاتهم الساخرة، دون أي شعور إنساني أو أخلاقي، فكل ما كان يشغلهم في ذلك الموقف المحزن هو زاوية التصوير وجودة الصور وحجمها والتأثيرات الفنية المتنوعة التي تتيحها لهم أجهزتهم الذكية والإثارة المزيفة التي ستوفرها لهم مواقع التواصل الاجتماعي حين ينشرونها.. فأى خواء هذا وأي انحطاط؟!

في ثلاثينيات القرن العشرين أحدث فيلم "الأزمة الحديثة" للمبدع العالمي شارلي شابلن هزة في الأوساط الفكرية لاتزال آثارها حاضرة إلى اليوم.

الفيلم يناقش تغول الآلات الحديثة والتقدم التكنولوجي على حياة البشر، ويسخر من التحول الجديد في الرأسمالية الجشعة مع دخول "خط الانتاج" في المصانع، فكان شابلن ورفاقه العمال يعملون على خط الانتاج 16 ساعة يوميا بلا رحمة، حتى تحولت حركته ومشيته ومصافحته للآخرين وطريقة تناوله لطعامه بطريقة تشبه حركة الآلات.

ولا تزال أدبيات نقد الرأسمالية الجشعة وفلسفات الاغتراب تورد هذا الفيلم كنموذج لهيمنة الآلة والجشع على حياتنا وإفسادهما طبيعة البشر.

كان هذا في مطلع القرن العشرين، فما بالكم بحالنا اليوم مع تغول الآلات والأجهزة الإلكترونية الحديثة؟!

يرى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين أن السمة البارزة التي تميز عصرنا اليوم قد تجاوزت "ثورة المعلومات" التي طبعت القرن العشرين بامتياز إلى "ثورة الأجهزة الذكية"، حيث أصبح كل شيء تقريبا يتم وفقا لهذا المنظور، حكومة ذكية، نظام ذكي، هاتف ذكي، كاميرا ذكية.. كل شيء ذكي، ربما باستثناء الإنسان.

في عام 1624 نشر الأديب والشاعر الانجليزي الفذ جون دون كتابه "تأملات"، وفي التأمل السابع عشر نجد قصيدة فائقة الروعة والعمق عنوانها "لن تقرر الأجراس" (والتي اقتبسها الأديب الأميركي ارنست همنجواي ووضعها عنوانا لإحدى رواياته)، يقول جون دون: لسنا جزر مستقلة بذاتها، كلنا جزء من القارة، جزء من كل.

فإن جرف البحر حفنة من التراب نقصت أوروبا، وكذلك إن كان نتوء أو قصر صديقك أو قصرك، موت أي كائن ينتقص مني، فأنا معني بالبشرية، ولذا لا تراسلني أبدا لتسألني لمن تقرر الأجراس؟ إنها تقرر من أجلك.

وأجراس اليوم تقرر من أجلنا، فهذه الأجهزة الذكية وعمليات الميكنة التي كبلتنا بأغلالها وقتلت فينا كل تواصل إنساني "حقيقي" ومباشر، وقتلت فينا الرحمة والمشاعر العفوية الصادقة والأخلاقية وحولتنا لكائنات ممسوخة لا تهتم سوى بسعة الذاكرة وحجم البيكسل وسرعة الانترنت.. ستحطم بالتأكيد مستقبل البشرية وتحيل الواقع كله إلى المجهول.

قليل من القصائد وكثير من العلم

"يصورونك طاغية جبارا، وأنا أبحث فيك عن أب رحيم، لقد قررت أن أتخلى عن المسيحية لكي أحبك أكثر".

هذه العبارة من خطاب وجهه الفيلسوف الفرنسي العظيم فولتير إلى الله.

ما أكثر القتل والتعذيب والتهجير اليوم، معظمه يتم باسم الله عز وجل ومن أجله.. هل الله يريد هذا فعلا؟ أي انحراف هذا وأي ضلال؟!

فولتير لم يكن ملحدا أو كافرا بوجود الله عز وجل، لكنه كفر بالإله الذي كانت تصوره الكنيسة في العصور الوسطى للناس، بأنه إله عنيف يبطش ويسحق ويعذب ويدعو أتباعه للقتل والتنكيل بالآخرين المخالفين لهم بالعقيدة.

وقد حذر كثيرا من أن مثل هذا الإله لن يجد له أتباع في نهاية الأمر لأن البشر بطبيعتهم يحبون السلام والخير والتعايش السلمي فيما بينهم.

وقد كرس فولتير معظم نشاطه الفكري في تعرية التفسيرات الخاطئة والمتطرفة للكتب المقدسة (العهد القديم والجديد)، وكشف طرق وأساليب "رجال الدين" ممن يستغلون تلك التفسيرات للسيطرة على الناس البسطاء واستغلالهم باسم الدين.

ومن يقرأ تاريخ أوروبا يعرف جيدا كيف تخلى الناس هناك عن الكنيسة وعن الله الذي تقدمه لهم تلك الكنائس.

بوضوح، المشكلة ليست في الدين بالتأكيد، وإنما في الأفكار والتفسيرات المتطرفة عن الله وعن العالم وعن الآخر الذي يؤمن بأفكار ومعتقدات مختلفة.

المشكلة الحقيقية تكمن في القراءة البشرية الخاطئة التي تدعي بكل بجاجة معرفة قصد الله وهدفه الحقيقي من هذا النص أو ذلك.

بقراءة متطرفة لنص ديني يزجون بآلاف السذج والمساكين إلى "حروب مقدسة"، ويقسمون لهم بأغلظ الأيمان أن الله يريد هذا !

لقد نادى فولتير في القرن السادس عشر بضرورة إيجاد تفسيرات جديدة للنصوص المقدسة تتماشى فعلا مع حقيقة الإنسان الخيرة والمحبة للسلام.

وكانت رسالته الواضحة أن يكون "الدين الجديد" دين محبة وأخلاق، فيه القليل من العقائد، والكثير من الأخلاق.

وقد أثبت الواقع لاحقا صدق دعوة فولتير.

عالمنا اليوم يطحن البشر مثل آلة فرم كبيرة، والسبب الأكبر خلف هذا العبث والجنون هو الانغماس غير المبرر في نقاشات عقيمة حول بعض العقائد، لا أقول ان العقائد باطلة أو دراستها سيئة.. كلا، أقول إن كثيرا من النقاشات العقدية التي يعرضها بعض الطائفين المتطرفين على الناس على مدار الساعة وبطريقة تتسبب في قتل البشر هي السيئة.

لسنا بحاجة لكل هذه النقاشات، والناس مؤمنون بلا لاهوت ولا علم كلام ولا فلسفة دينية، فهذا كله ليس من لوازم الدين، وكلكم يعرف حديث الاعرابي الذي سأل النبي محمد صلى الله عليه وسلم "يا رسول الله، رأييت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحلت

الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أَدخل الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام:
نعم" (رواه مسلم).

نحن بحاجة إلى اصلاح جاد في النظم التعليمية والتربوية، في المدارس والجامعات
والمنابر، اصلاح حقيقي يحث الناس على العمل وحسن الخلق وترك البشر يختارون ما
يشعرون بأنه الحق من العقائد وليس اجبارهم عليها.

ونحن بحاجة إلى الكثير من العلم الطبيعي والقليل من الشعر والروايات السخيفة التي
أفسدت الذوق العام.

يكفيننا هذا الكم البائس من الشعر المبتذل والكاذب والأدب السخيف الذي جعل الكثيرين
يمارسون النفاق والتملق بكل وضاعة دون أن يشعروا بالخجل.

تجد أهدنا يسرد من القصائد بالآلاف وهو لا يعرف أبسط القوانين العلمية وأسس التفكير
السليم والحد الأدنى من المعرفة حول أهم النظريات العلمية التي تسببت في تغيير حياتنا
وتؤثر فينا كل يوم.

حديث في فلسفة الجمال

الموضوع الأساسي في فلسفة الجمال هو محاولة الإجابة عن التساؤلات: "ما الجمال، هل خصائص الشيء الجميل كامنة فيه أم في المتلقي، ما العلاقة بين الجمال والحق والخير، هل الجميل خير دائماً؟.. الخ". في تاريخ الفلسفة الكثير من النظريات التي حاولت الإجابة عن تلك التساؤلات وتقديم تفسير عقلي لمفهوم الجمال، أهمها الاتجاه المثالي الذي بدأ مع أفلاطون حين اعتبر الجمال من المكونات الأصلية في الأشياء، الذات (أي المتلقي) يدرك تلك المكونات على أنها جميلة لأنها هي بذاتها جميلة. وتعد نظرية الفيلسوف الألماني العظيم امانويل كانط أهم النظريات المثالية في فلسفة الجمال والفن.

يقابل الاتجاه المثالي اتجاه آخر واقعي، يرى أن الأشياء لا تحمل أي خصائص في ذاتها، وأن ما نقول عنه جميل أو قبيح هو أفكار وتصورات عند الأشخاص، وهي معايير تختلف من مجتمع لمجتمع، ولذلك تجد الفتيات في الصين يرتدين أحذية حديدية منذ الطفولة لتقييد نمو أقدامهن، في حين ترتدي نساء بعض المدن الأفريقية حلقات متعددة من المعدن الثقيل على رقابهن لإعطائها المزيد من الطول، ذلك أن معايير جمال المرأة في الصين ترتبط بصغر حجم أقدام المرأة، في حين أن معايير الجمال في أفريقيا ترتبط بطول رقبتها.

بالنسبة لي.. أجد النظرية الماركسية في الفن والجمال هي الأقرب للصواب، وخلاصة رأي ماركس أن الفن ما هو إلا انعكاس للواقع، ولو تأملنا في واقع عالمنا اليوم، ثم تأملنا في نوعية الأعمال الفنية الأكثر نجاحاً وانتشاراً فسنفهم هذا جيداً. ما هي نوعية الأفلام السينمائية التي تكتسح شبابيك التذاكر وتهيمن على قوائم أعلى الإيرادات؟ انها أفلام الحروب. والأمر كذلك مع صنابير الألعاب الإلكترونية لكل الأعمار، فأكثر الألعاب مبيعا وانتشارا هي ألعاب الحروب والدبابات والقناصة والطيران الحربي.. الخ. بل وصل الأمر حتى إلى الإعلانات التجارية لمنتجات يفترض أنه لا علاقة لها بالحروب لا من قريب ولا من بعيد، مثل الشامبو أو البطاطس المقرمشة بالفلفل الحار.. فأصبحت تقدم لنا على يد

قناص أو جندي يقصف ويفجر ويدمر ويصيب الهدف ثم يسرح شعره الناعم أو يأكل قطعة بطاطس شيبسي حارة.

بتأثير الحروب وقنوات الأخبار التي تظهر لنا على مدار الساعة لحظات الانفجارات والقصف والإعدامات الميدانية والتصفية و"الدعس" وغيرها، باتت حياتنا بأسنة نزعنا عنها الرحمة والشفقة، البعض يفرح لمنظر إعدامات جماعية بطريقة بشعة، أو تعذيب لضحايا أبرياء بصورة لا تفعلها أشد الحيوانات المفترسة، ومع هذا يفرح بها لأن الضحية ينتمي لطائفة أخرى.. ويكفي قراءة بعض التعليقات تحت مقاطع الفيديو الوحشية على اليوتيوب لإدراك حجم المأساة والانحطاط الذي وصلت إليه البشرية اليوم.

تأملوا في الشعر النبطي عندنا أيضا.. ستلاحظون بروز روح التمرد والثورة على المألوف والسائد وغياب مفردات العصر الرومانتيكي الجميلة الوادعة والهادئة، واستبدالها بمفردات الحروب والانقلابات، ستجدون البنادق والضرب والسحق والتفجير.. فهذه هي معايير الجمال التي خلفتها الحروب العبيثية.

لم تعد العيون جميلة لأنها تشبه القمر وقت اكتماله، وإنما التي تشبه فوهة مدفع عملاق. ولم تعد الخدود جميلة لأنها بلون الشفق أو الغروب، وإنما التي تشبه لون النار لحظة الانفجار.. شعراء هذا الزمن يقولون بلغة تحد وتمرد وعنف وقتال: "ألعن أبو البرقع، يخرب بيتك، طولها صاروخ، إما تجي وإلا أفجر الكون".. فأأي جمال بأس هذا؟!

العالم بين نظرية الفوضى والاستقرار

إلى غاية ستينيات القرن العشرين، كانت مفاهيم مثل السيطرة، الاستقرار، التحكم، التخطيط المركزي، اقتصاد الهيمنة، هندسة الطقس والتنبؤ بالمستقبل وأشباهها هي المفردات السائدة في خطاب الخبراء والعلماء.

أما اليوم فلم يعد أحد يجرؤ على استخدام مثل هذه التعبيرات المفرطة بالزهو وربما الوهم. مفردات اليوم هي الفوضى، الاضطراب، نقاط التحول، تأثير الفراشة وعدم الاستقرار.

بتأثير من نيوتن في القرن السابع عشر سيطرت على العلم فكرة أن الكون عبارة عن آلة هائلة الضخامة، كل شيء فيها محدد ودقيق ويسير بنظام مرسوم، كل ذرة في مكانها الصحيح وتؤدي عملها كما يجب. وبالتالي، تحددت مهمة العلم وفقا لهذا التصور باستكشاف قوانين الطبيعة واستثمارها لخدمة الانسان.

وقد رسخت قوانين الحركة التي صاغها نيوتن بالفعل هذا التصور حتى غدت الفكرة السائدة والراسخة أن الكون مصمم بطريقة ميكانيكية ومن أجل الانسان تحديدا، وأطلق العلماء اسم "الكون الانثروبي" (نسبة للكلمة اليونانية انثروبوس أي الانسان)، أي إن الكون مصمم وفقا لوعي الانسان وإدراكه وعقله وقدراته.

في منتصف القرن الثامن عشر قال يوهان بوده: (عالم فلك ألماني توفي عام 1826) بأن المسافات بين الكواكب لا بد أن تكون محددة بأبعاد رياضية مقننة وليست اعتباطية، لأن الكون آلة ضخمة وكل شيء فيه مقنن كما قال نيوتن.

أجرى بوده عدة حسابات وتوصل في النهاية لمعادلة (10 / 4+0) فنحصل على نتيجة هي المسافة من كوكب ما عن الشمس بقياس وحدة فلكية (الوحدة الفلكية = 90 مليون ميل، أي 150 مليون كلم)، ثم لحساب مسافة الكوكب التالي في مدار الشمس، نضاعف ناتج الكوكب السابق بمضاعفات العدد 3 (0، 3، 6، 12، 24.. الخ) واستمر بوده في حساباته وكانت النتائج المذهلة تأتي صحيحة مع كل كوكب يبعد عن الشمس، ابتداء من عطارد، الزهرة، الأرض، والمريخ، لكن عندما وصل لكوكب المشتري جاءت النتيجة خاطئة (أووويز).

توقف يوهان بوده حائراً، اعترف بأنه لا يملك تفسيراً، لكنه على ثقة تامة بأن معادلته صحيحة.

تم تجاهل بوده وحساباته لعدة سنوات، إلى أن اقترح بعض علماء الفلك وجود كوكب يقع بين الشمس والمشتري في الموقع الذي توصل إليه بوده. وبالفعل، في عام 1801 تم اكتشاف كويكب "سيريس" والذي يتموضع تماماً في المكان الذي حدده يوهان بوده، واعترف العلماء بفضل هذا الفلكي العبقرى، وترسخت أكثر فكرة أن الكون منظم ومقنن ولا وجود للفوضى أو الصدفة فيه.

وعلى خطى يوهان بوده قام عالم الكيمياء الروسي ديمتري مندليف بوضع جدول للعناصر الكيميائية عام 1869 أطلق عليه اسم "الجدول الدوري للعناصر"، وهو مكون من 18 عموداً و7 صفوف، وزع عليها أسماء العناصر الكيميائية المكتشفة لغاية تلك الفترة، ثم ترك فراغات وهو واثق من أنه سيتم اكتشاف بقية العناصر وترتيبها في مواضعها في الجدول، ومصدر هذه الثقة هو الفكرة الراسخة عن الكون بأنه كون ميكانيكي منظم.

ومرة أخرى، بالفعل كان علماء الكيمياء عاماً بعد عام يكتشفون عناصر الكيمياء في الطبيعة ويرتبونها في مواضعها التي تنبأ بها مندليف، إلى أن اكتمل الجدول الدوري في عام 2009 تماماً.

العالم الإيطالي العبقري جاليليو كان يقول: "كتاب الطبيعة العظيم مكتوب بلغة رياضية متقنة".

لكن، ما رسخته الفيزياء على مدى قرون طويلة حول استقرار الكون وميكانيكته التي تسمح بفهمه والتنبؤ بحركاته، هدمته الرياضيات الحديثة مع مطلع سبعينيات القرن العشرين، واستبدلت مفاهيم الاستقرار بمفاهيم الاضطراب والفوضى .

في أواخر القرن السادس عشر كتب العالم الإيطالي الفذ جاليليو جاليلي ملاحظة "بسيطة" حول وجود "شذوذات" ومظاهر غير قابلة للضبط في حركة البندول، إلا أنه تجاهلها لأنها "ضئيلة جدا"، وكان على العالم أن ينتظر 4 قرون ليتم اكتشاف أن هذه الشذوذات البسيطة هي في الحقيقة سبب غير قابل للفهم والتحكم لكثير من الحوادث والكوارث الطبيعية والاقتصادية المدمرة، فالضئيل جدا يتراكم ليصبح كبيرا ومدمرا دون القدرة على تتبعه وملاحظته، وهذا ما تنبه له في بداية القرن العشرين العالم الفرنسي العبقري هونري بوانكاريه وصاغه بمبدأ بات يعرف بمبدأ بوانكاريه القائل: "أقل اضطراب يحدث هنا قد يولد عاصفة كبرى هناك"، وأطلق بوانكاريه على هذه الظاهرة اسم "تأثير الفراشة" butterfly effect، بمعنى أن فراشة صغيرة تضرب بجناحها في برلين قد تتسبب بحدوث تسونامي مدمر في تايلند، وكان هذا بداية تراجع العلماء عن الاعتقاد بقدرتهم على التحكم في الكون والتنبؤ بما سيحدث، وأصيب العلم بخيبة أمل وصدمة كبرى من هذه الحقائق، والتي نشأ على إثرها علم جديد يسمى "فيزياء الفوضى" chaos physics وعلوم أخرى مثل رياضيات الفوضى وعلم اقتصاد الفوضى.. الخ.

لطالما كانت الصفة المميزة للعلوم الطبيعية هي قدرتها على التنبؤ والقابلية للسيطرة والتحكم بخط سير ظواهرها الطبيعية مادام كان بالامكان التحكم بشروطها الأولية بصورة "حتمية"، إلا أن حقيقة كون اضطرابات بسيطة غير محسوبة في الشروط الأولية قد تؤدي لنتائج مخالفة تماما للمتوقع قد خيبت الآمال وجعلت العلماء يستبدلون الحديث عن الحتمية بالاحتمال، فهذا أقصى ما يمكنهم.

تخلوا كل هذا على مستوى العلوم الطبيعية، فكيف هو الحال مع العلوم الإنسانية؟ ربما يكفي هذا لفهم سلسلة الانهيارات غير المتوقعة في الاقتصاد والعلاقات بين الدول.

تأملوا هذا، لكي نصدق أن ما يحدث في الشرق الأوسط بأنه "مؤامرة" مخطط لها مسبقا، علينا أن نصدق بأن المتآمر "أميركا في هذه الحال" دبرت قيام صدام حسين باحتلال الكويت عام 1990، وقيام تحالف دولي يحرر الكويت، ثم ينقلب عليها تنظيم القاعدة الذي كانت تدعمه ضد الاتحاد السوفييتي ويقوم بتفجير برج التجارة في نيويورك، ليقوم بوش الابن بالانتقام من أفغانستان والاطاحة بصدام حسين عام 2003، ليدخل العراق في فوضى وحرب طائفية، ثم تدبر بالتأكيد قيام البوعزيزي، رحمه الله، بحرق نفسه، وقدح شرارة الثورة في تونس ثم مصر ثم ليبيا ثم اليمن ثم سورية، ثم تتدخل إيران وحزب الله للدفاع عن نظام الأسد، ثم تدخل القاعدة على الخط وتنقسم إلى عشرات التنظيمات الفرعية وتتصارع فيما بينها ثم تهيمن "داعش" على المشهد وتطرد القاعدة وتحل محلها بعد أن يتسلل إليها عناصر من البعثيين أتباع صدام حسين لنصل إلى ما نحن عليه اليوم.. هل بالامكان تصور كل هذا على أنه "خطة مسبقة"؟

ان فوز بوش الابن بالانتخابات مثلا هو ما يقصده علماء فيزياء الفوضى بتأثير الفراشة بالتحديد. حدث صغير وربما عادي جدا يحدث هنا، سيكون سببا في كارثة كبرى هناك يوما ما.

وما دمنا نتحدث عن أميركا، في الموروث الشعبي الأميركي أغنية جميلة وقديمة تقول
كلماتها:

بسبب سقوط مسمار سقطت حدوة الفرس،

وبسبب سقوط الحدوة فقد الفرس توازنه،

وبسبب فقد الفرس توازنه سقط الفارس،

وبسبب سقوط الفارس انهزم الجيش في المعركة،

وبسبب هزيمة الجيش سقطت المملكة،

كل هذا بسبب مسمار

تأملوا في هذا.. حدس الشعراء والفلاسفة أحيانا أعمق بكثير من حسابات علماء
الرياضيات وفيزياء الكون.

خريشات في العلم

مع التقدم العلمي والتقني في العقدين الأخيرين تحديدا نشأت العديد من قطاعات الأعمال والأسواق الجديدة، منها سوق يطلق عليه اسم "سوق البيانات" data market، تبلغ حجم أرباحه السنوية أكثر من 23 مليار يورو حسب تقرير عام 2013، ويحقق نموا متزايدا كل عام.

من نماذج منتجات سوق البيانات، شركات تزود الباصات وشاحنات النقل بمعلومات عن حركة الطرق، وشركات تبيع معلومات عن الطقس وأخرى تبيع معلومات عن خرائط الملاحة في الأرض والجو والبحر وغيرها.

تعد شركة غوغل أكبر "جامع بيانات شخصية" في العالم، ومن أكبر الرباحين في سوق البيانات، تجمع البيانات الشخصية من ملايين المستخدمين "مجانا" ثم تعيد ترتيبها وبيعتها للشركات بالمليارات.

ماذا نعرف نحن وماذا لدينا؟ لدينا قتل وتعذيب وخطاب سب وتكفير.

كثير من المسلمين اليوم لا يميزون بين مفهوم "المستقبل" ومفهوم "الغيب"، وبكل بساطة يأتي متخلفون ويغلقون كل أبواب علوم المستقبل بحجة أنها غيب، بل وصل الأمر عند هؤلاء الحمقى لدرجة انكار نتائج السونار الذي يقول للزوجين ما هو جنس الجنين خلال فترة الحمل.. يشاهدون ذلك على الشاشة وينكرونه.

في الستينيات من القرن العشرين تربع أينشتاين على عرش الفيزياء والرياضيات بسبب نظريته "النسبية"، ثم جاءت نظرية "كوانتم" بتصورات جديدة مع ماكس بلانك ونيلز بور وهيازنبرج وبول ديراك وغيرهم، وهي تصورات غريبة فعلا لكنها تقدم إجابات علمية

لمشكلات معقدة في الفيزياء الكلاسيكية، لدرجة أن أينشتاين أنكرها تماما وسخر منها، إلا أن العلم الحديث أثبت صدق نظرية الكوانتم.

العجيب فعلا، أن ابراهيم النظام (شيخ المعتزلة وأستاذ الجاحظ) قال في عام 800م تقريبا ان "الجسم يمكن أن ينتقل من مكان إلى مكان آخر دون المرور بوسط بينهما"، وهذا هو جوهر نظرية الكوانتم.

ما هذا العقل الجبار الذي أدرك حقيقة علمية تخالف أسس العقل والمنطق وكل مبادئ وبيدهيات المكان والزمان ؟

أبو الكيمياء العالم العربي جابر بن حيان قال في عام 800م أيضا "إن في قلب كل ذريرة (تصغير لذرة الغبار) طاقة تكفي لإحراق كل بغداد".

يا للقدرة العقلية الخارقة، هذا ما أثبتته أينشتاين بعد 1150 عاما.. أين كنا وأين أصبحنا.

في عام 1997 بدأ رئيس وزراء سنغافورة جوه شوك تونغ رحلة النهضة في بلاده من خلال إصلاح التعليم، ورفع شعار "مدرسة تفكر.. وطن يتعلم"، وكان يردد دائما "تقدم الوطن من تقدم المواطن" ولذلك نجح.

قصة نجاح سنغافورة بدأت عندما تبنت الدولة الانتقال في التعليم من الحفظ والتلقين، إلى التفكير الناقد ومهارات التعلم الذاتي.

هكذا تقوم الدول وتنهض، فلا عجب أننا في انحطاط وتخلف.

بالمناسبة.. تعتبر سنغافورة منذ سنوات طويلة، صاحبة أفضل نظام تعليمي في العالم.

المجد لهم، ولرئيس وزراءهم جوه شوك تونغ.

كان د.مصطفى محمود، رحمه الله، يقول بلهجته المصرية الجميلة "دولنا المتخلفة بصراعاتها الطائفية تعتبر زي "النسانيس" (القرود) بالنسبة لدول أوروبا التي تجاوزت ذلك، الغرب حيستغنوا عننا خالص، عمالين ينتجوا مصادر طاقة بديلة وتكنولوجيا متقدمة وكل احتياجاتهم بنفسهم.. وحيسبوننا زي النسانيس نتخانق ع الشجر، وهما يتفرجوا علينا ويضحكوا".

أزمة الدولار الأميركي.. والعالم

منذ بداية القرن التاسع عشر ولغاية نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 كانت العملة المتداولة عالميا هي الجنيه الاسترليني، بسبب توسع بريطانيا العظمى الجغرافي آنذاك، ولوجود مصرف مركزي لديها. كانت العملات كلها مدعومة بغطاء من الذهب، وكان الجنيه الاسترليني الواحد يعادل 7.9 غرامات، يليه الدولار الأميركي 1.5 غرام، يليه الروبل الروسي 744 ملليغراما، ثم المارك الألماني 398 ملليغراما، ثم الفرنك الفرنسي 322 ملليغراما من الذهب.

إلى غاية عام 1913 لم يكن لأميركا مصرف مركزي، ولكن مع تعاظم دورها السياسي والعسكري خاصة في الحرب العالمية الثانية، بدأت بفرض عملتها على العالم. وفي عام 1944 عندما بدأت محادثات "بريتون وودز" حول الاتفاق على نظام نقدي عالمي جديد، فرضت الولايات المتحدة رؤيتها وتم اعتماد الدولار الأميركي بإشراف المصرف المركزي الأميركي كعملة أساسية للتبادل التجاري بين الدول، لكن إلى هنا كان الذهب لا يزال هو الغطاء الداعم للعملات.

هذا الوضع - هيمنة الدولار الأميركي - لم يعجب فرنسا وبريطانيا، فقاما منذ عام 1968 بعمليات تبديل واسعة للعملة بهدف افراغ الخزينة الأميركية من الذهب، وبالفعل تسببت تلك العمليات في أضرار بالغة بالاقتصاد الأميركي، ما دفع الرئيس نيكسون آنذاك عام 1971 لإصدار قرار يقضي بإلغاء تبديل الدولار بالذهب، ومنذ ذلك الحين تحول العالم للتعامل بالدولار دون غطاء من الذهب، وإنما بدعم من سندات حكومية فقط، وكان هذا بداية تحول الدولار من عملة قوية تستند لسلعة مادية حقيقية (الذهب) إلى عملة ورقية بلا قيمة حقيقية.. وبدأت معها رحلة المضاربات وألوان شتى من التعاملات الورقية الوهمية التي أدخلت أميركا والعالم معها في دوامة الأزمات الاقتصادية المدمرة.

تشير المعلومات التي تم جمعها عام 2008 إلى أن المال الحقيقي الموجود في العالم كله يبلغ 4.7% من المال المستخدم، أي أن 95.3% من المال المستخدم هو وهمي ومجرد أرقام على شاشات الكمبيوتر.

ويؤكد خبراء الاقتصاد أن الدولار الأميركي (الورقي) تم تصميمه بطريقة تؤدي لإفلاسه بين فترة وأخرى (دورة اقتصادية)، ذلك أنه عملة ورقية، فكما تم طباعة أوراق نقدية جديدة يؤدي ذلك لانخفاض قيمتها في السوق (وهو ما يسمى بالتضخم)، ويستمر الوضع إلى أن يبلغ التضخم درجة الانفجار، فتتم التسويات من خلال إسقاط القروض أو فوائدها والعودة لنقطة الصفر.. لكن من الذي يحصل على القروض الكبرى؟ انهم كبار "الرأسمالية الجشعة"، ومن الذي يدفع؟ انهم بلا شك أنا وأنت من البسطاء الذين يشكلون 99% من البشر.

هذا ليس تنظيرا وافتراسات - أو افتراءات - هذا هو الواقع فعلا، ولذلك بدأت كثير من الدول تتجه لما يسمى بالاقتصاد الإسلامي، والتي تعتبر ماليزيا ومؤخرا الإمارات الشقيقة من الدول الرائدة فيه، لأن الاقتصاد الإسلامي لا يعترف بالعملة الورقية، كما ليست له عملة محددة هي المفضلة، وإنما الأمر متروك لتوافق الناس على أشياء مادية ذات قيمة حقيقية، قد يكون الذهب أو الفضة أو الملح أو حتى القواقع البحرية.. لا يهم مادام أن لها قيمة فعلية.

بالمناسبة.. الولايات المتحدة الأميركية دولة مفلسة، بلغ حجم الدين العام حوالي 20 ترليون دولار أميركي، ما يعادل 98% من الناتج المحلي. علما بأنه عندما بلغ الدين العام 17 ترليوناً، قامت الحكومة بإلغاء آلاف الوظائف وإغلاق مئات المكاتب الفدرالية.

في عام 1997 أطلقت ماليزيا عملة "الدينار الإلكتروني" المسنودة بغطاء من الذهب، ومنذ ذلك الحين بلغ عدد المتعاملين بهذه العملة أكثر من 600 ألف وبنمو 10%. هذا هو المستقبل الذي لا مكان فيه للمتأخرين أمثالنا.

التفاعل الاجتماعي لفهم أفضل للإسلام

في علم الاجتماع، يسمى السلوك المتبادل بين الأفراد في المجتمع باسم "التفاعل الاجتماعي"، والسلوك المتبادل يتضمن الكلام والأفعال بين البشر بعضهم البعض، ومن التفاعل الاجتماعي تنشأ "العلاقات الاجتماعية" مثل الزواج والصداقة والزمانة في العمل والمنافسة والتعاون والصراع والحروب.. الخ. مشكلة معظم المسلمين اليوم - خاصة ذوي الفكر الرجعي (الرجوع لعصر معين) - أنهم يعتقدون بأن "التفاعل الاجتماعي" الذي حصل بين المسلمين في بداية الإسلام هو "أمر إلهي" ثابت ويجب أن يعمم على كل البشر في كل أنحاء الأرض، والكواكب الأخرى ربما لو أمكن. يعتبرونه هو الإسلام، وهذا غير صحيح بالتأكيد، لأن ما حصل بين المسلمين في ذلك العصر هو "تفاعل اجتماعي" طبيعي جدا يتفق مع طبيعة ذلك العصر، ولا يمكن تعميم ذلك التفاعل الاجتماعي على كل المجتمعات وفي كل الأزمنة، فلكل مجتمع وفي كل زمان خصوصيته الاجتماعية.

الإسلام هو الإسلام في كل العصور وفي كل مكان، لا خلاف على هذا، لكن علينا أن نفهم أن الإسلام هو معتقدات وأحكام إلهية، نجدها في القرآن الكريم وفي التقارير الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس من التفاعل الاجتماعي بين المسلمين، بمعنى أن السلوكيات التي تمت بين المسلمين في ذلك العصر هي سلوكيات تعبر عن ذلك المجتمع، الذي له خصوصيته في التعبير عن الفرح والخطبة ودفن المهر وحفلة العرس وطبخ الطعام واللبس وتنظيم السوق واللغة واعتبارات المكانة الاجتماعية وأهمية القرب والبعد بين أبناء العمومة.. وكذلك الصراعات التي دارت بينهم آنذاك، فهي كلها نتائج تفاعل اجتماعي لذلك العصر، الصراع ذاته ليس هو الإسلام ولا يؤسس عليه أية مقدسات.

لابد أن يميز المسلمون بين ما هو "اجتماعي" بطبيعته، وبين الإسلام بوصفه دين إلهي، الإسلام ذاته يختلف عن المسلمين، المسلمون بشر يعتقدون الإسلام بوصفه دين، والدين يختلف عن المجتمع والأفراد.

لاحظوا.. ان استمرار تقاتل السنة والشيعة بهذه الوحشية منذ قرون هو نتيجة طبيعية لاعتبار "التفاعل الاجتماعي" بين المسلمين آنذاك بمنزلة أحكام دينية ومعتقدات، أي جزء من الإسلام.

باختصار.. الإسلام ذاته هو ما قرره الله عز وجل وليس ما فعله الناس في المجتمع الاسلامي، المجتمع "يطبق" أحكام الإسلام ويمارس الشعائر الدينية، لا ينتجها، انه فقط يمارسها ويتعامل بها، لا يصنعها. ولفهم أسهل تخيلوا أن "التفاعل الاجتماعي" مثل "التفاعل الكيميائي" بين المواد، فالمواد تتفاعل وينتج عن تفاعلها مواد جديدة وعلاقات جديدة ونتائج جديدة (ألوان، أصوات انفجارات أشكال.. الخ)، وبالمثل التفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع ينتج عنه علاقات جديدة وتعاملات جديدة ومفاهيم جديدة. وعلى كل مجتمع أن يوجد أفضل النظم التي تضمن استقراره وتقدمه وفقا لطبيعة العصر، عليه أن ينتج قواعده هو لا قواعد مجتمع آخر، وفي حالة المجتمع الإسلامي، يتم هذا وفقا لمبادئ وأحكام الإسلام التي تمثل دستوراً إلهياً خالداً. بالنهاية، نحن بحاجة إلى فهم مبادئ الإسلام لنؤسس عليها نظاماً إدارية واقتصادية وسياسية واجتماعية.. الخ، وليس إلى اجترار صراعات المسلمين في هذا العصر أو ذاك.

حضارة نصف مخ

رغم انه ظاهريا يبدو ان فصلي المخ، الأيمن والأيسر متطابقين من الناحية السيمترية، أي بينهما تناظر تام، إلا ان العلم أثبت أن لكل فص منهما "مجالات وظائف" تختلف عن الآخر، فثبت علميا أن الفص الأيسر من المخ هو المسؤول عن النطق، العمليات الحسابية، العمليات المنطقية والترابط بين الأشياء (السببية) وجميع العمليات الهندسية والرياضية.

بينما يختص الفص الأيمن بالعمليات الروحية وإدراك المعطيات التي تشكل لاحقا المعتقدات والأفكار الدينية، وكذلك عن الالهام والابداع والفنون والغيبيات عموما.

لذلك، يصف كثير من العلماء الحضارة الغربية بأنها حضارة الفص الأيسر من المخ، فالإنسان الغربي بصورة عامة يستخدم جزءه الأيسر من المخ بصورة أكبر، بينما الحضارة الشرقية فمن الواضح جدا أنها حضارة الفص الأيمن فقط. هذا واضح جدا من خلال الإنتاج الحضاري لكل منهما، فالغرب متميز بالعلم والتكنولوجيا، بينما الشرق يمتاز بالشعر والروحانيات.

هناك تجارب عديدة مثيرة حول تشكل وتكوين التعصب للجماعة أو للأفكار والمعتقدات عند الأفراد، منها تجربة تثبت أن التعصب يعني فعليا استخدام منطقة التفكير العاطفي الموجودة في الفص الأيمن من المخ، وليس التفكير المنطقي والهندسي والرياضي والفلسفي الموجود في الفص الأيسر.. ثبت هذا فعلا مع مئات الأشخاص ممن جرى تقسيمهم لفريقين، ففي كل مرة تضيء وتتوهج علامات منطقة التفكير العاطفي في الفص الأيمن عندما يتم سؤالهم عن رأيهم بفريق كرة قدم أو حزب سياسي أو مظاهر دينية أو سياسية.. الخ.

بينما تتوهج منطقة التفكير العلمي والمنطقي أكثر عندما يتعلق الأمر بقضايا عامة أو علمية لا تثير بطبيعتها خلافات سياسية أو إيديولوجية.

هذا يعني بوضوح أننا نستخدم منطقة التفكير العاطفي في معظم شؤون حياتنا، ونعطل منطقة التفكير العلمي، وهذا يتم عن عمد وإرادة بهدف الانتصار لأيديولوجيا أو معتقد، ولو كان بالإمكان رؤية المناطق النشطة في رؤوس الناس خلال أحاديثهم ونقاشاتهم، لرأينا توهج الفص الأيمن باستمرار، حيث منطقة التفكير العاطفي الخالي من أي منطق وعقلانية وموضوعية.

نحن نحتاج بشدة الى تطوير تقنيات الإكثار من استخدام الفص الأيسر من أدمغتنا، مقابل التقليل كثيرا من استخدام الفص الأيمن، بهدف استعادة التوازن المفقود في حضارتنا ومن أجل الحفاظ على ما تبقى فينا من إنسانية، وهذا ممكن بطرق علمية مثبتة عن طريق تطوير مناهج التعليم التي تقوم على تنمية التفكير العلمي والعقلاني والابتعاد عن تقنيات الحفظ والتلقين وخطابات التهيج العاطفية، وللأسف والرياضيات هنا شأن كبير.

تأملوا في نوعية الخطابات الفاعلة والمؤثرة في بلداننا والتي تستقطب الحشود بالآلاف، انها تلك الخطابات العاطفية الخالية من المنطق والعقلانية، خطابات السب والتكفير والإقصاء وادعاء البطولات الزائفة، لأن معظم الناس يستخدمون الجزء الأيمن من المخ فقط، ولذلك إذا حاول شخص ما أن يتحدث بلغة علمية ومنطقية وموضوعية فلن يجد من يستمع إليه أو يفهمه، فهذه خطوة لاحقة تتطلب أولا توافر أشخاص مهينون للتعاطي مع خطاب عقلاني، نحتاج أولا لتقنيات تجعلهم يستخدمون الجزء الأيسر من المخ لكي يتمكنوا من فهم الحديث العقلاني والعلمي.

المسألة باختصار أشبه بجهاز تشغيل الفيديو، فأنت لا تستطيع أن تضع قرصا مدمجا dvd في جهاز قديم مخصص للشرائط الممغنطة، نحتاج أولا لتطوير آلية تفكيرنا وتعاملنا مع المعطيات بحيث لا نقبل الأفكار لمجرد أنها صادرة عن شخص يلبس بمظهر معين أو يحمل لقباً ما .

وهذا لن يتم إلا من خلال تطوير التعليم والانتقال به من مناهج الحفظ والتلقين إلى مناهج التفكير النقدي والبحث الحر.

حول إحساس المسلم بالذنب

لا أعرف شعبا تعامل مع مرحلة "ما بعد الحرب" مثلما فعل الشعب الألماني بعد الحرب العالمية الثانية من حيث محاسبة النفس وتصحيح الأخطاء. في عام 1946، بعد نهاية الحرب بأشهر، نشر الفيلسوف الوجودي وعالم النفس الألماني العظيم كارل ياسبرز كتابا بعنوان "مسألة إحساس الألمان بالذنب"، تحدث فيه عن فظائع النازية ضد اليهود، وهو الذي عاش جزءا من تلك الجرائم وعانى منها مع زوجته اليهودية، فقد تم طرده من الجامعة وواجه الكثير من التنكيل والإقصاء.

وبخلاف الموقف المخزي لزميله الفيلسوف مارتن هيدجر الذي دعم النازية ودافع عنها، كان موقف ياسبرز مشرفا وأكثر إنسانية، مثله مثل الفيلسوفة الألمانية حنا أرندت التي وقفت في مسألة محاسبة الشعب الألماني موقفا عقلانيا وموضوعيا أثار عليها حينها عدااء قومها من اليهود.

تناول ياسبرز موضوع الشعور بالذنب schuld بدراسة نفسية معمقة، ذكر فيها ان أصل المصطلح يعود لكلمة يونانية قديمة تعني "التغطية"، وهو الفعل الذي يقوم به الشخص غالبا حين يشعر بالخجل أو الخزي، فيقوم بتغطية وجهه، وهذا ما تعبر عنه منحوتة رودين الشهيرة "حواء بعد السقوط"، حيث يظهر التمثال امرأة تغطي وجهها وتحنني خجلا.. لشعورها بالذنب ربما.

ياسبرز تطرق لجرائم النازية وانتقدها بشدة، إلا أنه عارض الدعاية الغربية التي نشطت بعد الحرب العالمية الثانية خاصة في أميركا وفرنسا والاتحاد السوفييتي في محاولة لتحميل الشعب الألماني كله ذنب ما اقترفه النازيون، مع أن النازية في نهاية الأمر حزب سياسي وصل للسلطة باختيار الناس عن طريق الانتخابات.

رغم ترديد كثير من كبار المسؤولين الغربيين بعد كل حادثة "إرهابية" ينفذها مسلم بأن "الإسلام بريء من الإرهاب، وأن هؤلاء الإرهابيين لا يمثلون الإسلام.."، إلا أن نتائج الجهد الإعلامي الغربي ككل هو في الحقيقة ترسيخ لنفس الفكرة التي جرى ترسيخها في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وهي تحميل "كل المسلمين" شعورا عميقا بالذنب والخزي، ما يجعلهم في وضع أضعف وبحالة خنوع واستسلام تام لتقبل القصف والقمع وسقوط آلاف الضحايا المدنيين هنا وهناك خلال عمليات "مكافحة الإرهاب"، تماما مثلما يتقبل الألمان إلى اليوم بخنوع وانكسار الدفاع عن كل ما هو يهودي، بل ويدافعون عن الصهيونية المجرمة حتى، كل هذا بسبب شعورهم بالذنب تجاه ما جرى لليهود.

المسلم اليوم يشعر بالانكسار والخوف وحالة من الشعور العام بالذنب وكأنه مسؤول عن كل ما تفعله التنظيمات المتطرفة هنا وهناك، رغم إدراكه بأنه بريء تماما من كل ما يجري حوله، فهو بالنهاية "مواطن منزوع الحقوق"، لا يختار من يحكمه ولا يشارك في أي قرار لا من قريب ولا من بعيد.

تقول عالمة الأنثروبولوجيا روث بنديكت في دراستها القيمة حول التمييز بين مفاهيم الخزي والشعور بالذنب وبين الشعور بالإحراج، إن الشعور بالذنب يأتي من انتهاك القيم الخاصة بالفرد وليس القيم الثقافية والاجتماعية، أي أن الذنب شعور فردي ينتج عن سلوك محدد.

نفهم من هذا أن ما تفعله آلة الإعلام الغربي المؤدلجة ضد الإسلام والمسلمين هو تحويل المسلم الفرد لموضوع عام، تحمله مسؤولية عامة ينشأ عنها شعور عام بالمسؤولية عن كل جريمة يرتكبها أي مسلم في أي مكان في العالم، حتى لو كانت مخالفة مرور.

نحن أيضا شركاء في صنع حالة الشعور العام بالذنب، فكثير من "النقد الذاتي" هو في الحقيقة ليس نقداً، بل مرضاً نفسياً يسميه فرويد "عقدة الذنب" *guilt complex*، وكثير منا يمارس عقدة الذنب عند الحديث عن الغرب.. نجلد ذاتنا بعنف.

دروس من علم الاجتماع

كان مؤسس علم الاجتماع الحديث أوجست كونت يعتقد بأن "أنماط" السلوك الإنساني متشابهة في كل المجتمعات قديما وحديثا، ويقول بأن كل المجتمعات البشرية مرت بنفس المراحل التاريخية خلال رحلة تطورها. وبالتالي، فهم هذه المراحل يعني فهم الحاضر والتنبؤ العلمي بالمستقبل أيضا.

أوجست كونت يتحدث عن "أنماط السلوك"، أي القوالب التي تشكل السلوك وليس السلوك ذاته، مثلا، كل المجتمعات لديهم تصورات ومفاهيم حول الصواب والخطأ، ويتصرفون بناء عليها، وينتظمون في الدولة التي تصبح الحكم الذي يفصل بين الناس في نزاعاتهم التي تنشب دائما حول تحديد ما هو الصواب أو الحق، ومن الذي يقرره، وعندما تفقد الدولة حياديتها ونزاهتها، وتتحاز لطرف من المجتمع ضد بقية الأطراف، فالنتيجة "الحتمية" هي تشكيل تنظيمات خارج إطار الدولة، تحاول - بالعنف غالبا - استعادة شيء من التوازن والعدل المفقود.

هذا الحدث، أي نشأة تنظيمات خارجة عن طوع الدولة تكرر فعلا عبر التاريخ في مختلف المجتمعات البشرية، وفي تاريخنا مثلا، ظهرت جماعة "العيارون" في الدولة الأموية، وظهرت جماعة "الشطار" في الدولة العباسية، وقبلهم ظهر "الصعاليك" في مختلف مناطق العرب قبل الإسلام. وربما تفسر الشخصية الأسطورية في الأدب الانجليزي القديم "روبن هود" المقصود هنا بوضوح.

ففي الشرق والغرب، قديما وحديثا، هناك دائما تنظيمات تتشكل خارج إطار الدولة لتحارب الدولة أو القائمين عليها إذا استشرى بين الناس الشعور بفقدان العدل وحيادية مؤسسات الدولة والقانون، وفي كل مجتمع شخصيات متميزة ترتبط في أذهان الناس بوصفهم أبطالاً ومنقذين، بعض هذه الشخصيات حقيقية، وبعضها أسطورية من صنع "المخيال الشعبي" بلغة أستاذنا الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري.

هذا الحدث المتكرر في التاريخ الإنساني وفي كل المجتمعات البشرية، هو بالتحديد ما يقصده أوجست كونت في نظريته حول "الأنماط السلوكية المتكررة".

قرأت في الأسابيع الماضية بعض الكتب عن تاريخ الأندلس، منذ نشأتها مع هجرة الصحابي الجليل موسى بن نصير عام 91 للهجرة، ومرورا بأوج ازدهارها أيام عبدالرحمن الناصر عام 300 للهجرة، وانهارها بعد ذلك بسبب الصراعات على الحكم والخيانات المتبادلة التي أدت لسقوط الأندلس عام 897 للهجرة بعد حكم دام ثمانية قرون.

وكنت ألاحظ دائما بداية انهيار كل مرحلة أو حكم في مدن ودول الأندلس حدثا متكررا يتمثل في تكوين تنظيمات تخرج عن إطار الدولة وتبدأ بقتال الحاكم تحت نفس الحجة، أي الشعور بالظلم الاجتماعي وانحياز الدولة لجماعة دون أخرى. هذا هو القالب pattern أو "النمط" السلوكي وفقا لنظرية أوجست كونت، والذي يظهر بوضوح في عالمنا اليوم في عدة مناطق من أوكرانيا شمالا إلى أقصى الشرق.

لا أقول بأن التاريخ يسير في حركة دائرية كما يقول ابن خلدون، ولا أعتقد بصحة مقولة "التاريخ يعيد نفسه"، وإنما أعتقد بوجود قوانين عامة تحكم سلوك البشر كما تحكم قوانين الطبيعة حركة الرياح وتمدد المعادن وسقوط الأجسام للأسفل. قد تختلف "مظاهر" السلوك وأدواته وأشكال التعبير عنه، لكن في المحصلة، ثمة أنماط سلوكية هي التي تحدد مسيرة التاريخ.. قيام وسقوط الدول.

لا أحد بريئاً

لم أعد أطيق كثرة التساؤلات التي تثار حول "داعش"، خاصة أن معظم الأسئلة تتسم بالبلادة والجهل "مثل : من هم ومن أين جاءوا؟".

بوضوح وصراحة، تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) هو فرع من تنظيم القاعدة في العراق، تأسس على يدي أبو مصعب الزرقاوي باسم "جماعة التوحيد والجهاد" بعد الغزو الأميركي للعراق (هذه التسمية الرسمية المعتمدة في الأمم المتحدة) عام 2004، بهدف "طرده الأميركيين عن بلاد المسلمين"، فقد بايع الزرقاوي زعيم القاعدة آنذاك بن لادن علناً هو ومن معه من المقاتلين، واستمر التنظيم بعد مقتل الزرقاوي وقام خليفته أبو حمزة المهاجر بمبايعة بن لادن أيضاً، ثم بايعوا الظواهري عندما تولى زعامة القاعدة بعد مقتل بن لادن عام 2011، واستمر التنظيم تابعا للقاعدة مبايعا للظواهري إلى أن دب الخلاف على الزعامة بينهم وبين زعيم جبهة النصرة أبو محمد الجولاني، وجبهة النصرة هي أيضاً فرع من القاعدة في سورية، تأسست أواخر 2011، وعندما عجز زعيم القاعدة د.أيمن الظواهري عن حسم هذا الخلاف بين الجولاني زعيم جبهة النصرة والبغدادي زعيم داعش، أعلن البغدادي في مايو الماضي الانشقاق عن القاعدة وانتقد في شريط مسموع تخاذل الظواهري وضعفه وضعف قيادته. هذه وقائع وتاريخ قريب جدا موثق بالصوت والصورة، وليس رأياً ولا تحليلاً سياسياً.

لا نشك لحظة في وحشية داعش، وضررها الكبير على الإسلام والمسلمين والناس جميعاً، لكن من يعتقد أن العنف والوحشية عند داعش فقط فهو مخطئ وواهم، فكل التنظيمات المقاتلة في سورية والعراق بما فيها الجيوش النظامية وقوات الأمن والشبيحة والأحزاب الداعمة لها مجرمون ومتوحشون بنفس الدرجة، وعلى موقع "يوتيوب" في الانترنت آلاف مقاطع الفيديو تظهر العنف الوحشي غير المسبوق من الجميع ضد الجميع، وقد شاهدت آلاف المقاطع لعمليات تعذيب وإعدامات بشعة بلا رحمة، وسط ابتسامات وضحك

المنفذين.. الذين لم ينسوا التقاط الصور مع الرؤوس المقطوعة والأجساد المسحوقة
والممزقة.

ومن يعتقد أيضا أن العلمانيين أبرياء فما عليه إلا أن يقرأ التاريخ جيدا، ليدرك أن ثلاثة
أرباع الحروب والقتل والدمار في العالم تمت على أيدي زعماء علمانيين من أمثال هتلر
وستالين وغيرهما، ومن يظن أن العنف مرتبط فقط بالمسلمين فهو واهم ومخطئ أيضا،
فالتقارير الموثقة بالصوت والصورة والوثائق الرسمية تؤكد وحشية التنظيمات الدينية
الأخرى، من ممارسات اليهود في فلسطين، وممارسات المسيحيين في جنوب افريقيا،
وممارسات البوذيين في بورما واقليم شينغيانغ في الصين وتيمور الشرقية وغيرها.. لا
أحد بريء، كلهم مارسوا العنف والقتل الوحشي والتعذيب البشع، قديما وحديثا، من كل
القوميات وكل الأديان وكل الايديولوجيات، سواء الشيوعيون أو الرأسماليون أو الاقطاعيون
أو القوميون.. الخ.

هل تعتقدون أن وحشية داعش أقل من وحشية الأميركيين مثلا ؟

الحق، ان الانسان كان وما زال منذ بدء التاريخ كائنا متوحشا، انه "ذئب لأخيه الإنسان"
كما يقول توماس هوبز، هذبت وحشيته الحضارة، ولكن ما ان تزول الحضارة حتى يعود
هذا الكائن إلى حالته الأولى من التوحش، يبطش بكل من يصنفه على أنه "عدو" بلا
رحمة، وما الحروب سوى هدم للحضارة وعودة لحالة التوحش وإلى مرحلة ما قبل الدولة !

مرة أخرى.. هذه حقائق وليست رأيا، فقط اقرأوا تاريخ العالم بموضوعية ودون تحيز
ومحاولة تبرئة طرف وشيطنة الآخرين.

إشكالية مصدر التفسير

"لا كهنوت في الإسلام".. لطالما اعتقدت أن هذه المقولة هي حديث للرسول صلى الله عليه وسلم، مثلها مثل كثير من المقولات والمفاهيم التي زرعت في أدمغتنا، مع جهاز صغير يمنع التفكير الحر والمستقل، لأن هناك "علماء" هم فقط المخولون بالتفكير نيابة عن "العوام".

أول خطأ يظهر بوضوح في ذهن الكثيرين حول مفهوم الكهنوت هو الخلط بين "الكاهن" وبين "العراف أو الساحر أو المنجم". الكاهن هو "خادم الله"، وهو "منصب ديني" عرفته البشرية في كل الحضارات والديانات القديمة، الآرامية واليونانية والفرعونية والسريانية واليهودية والمسيحية وغيرها. كلمة "كاهن" بالعربية تنطق في اللغة العبرية "كوهين"، وبالآرامية "كهنو"، وبالاليونانية القديمة "هيريوس"، وبالانجليزية "بريست" (priest).

في التوراة، نجد أن "الرب" اختار أبناء لاوي (أحد أسباط بني إسرائيل) ليتولوا مهمة "خدمة الرب"، وكانت لهم ملابس خاصة، وكانت مهمتهم الأساسية تنظيم عملية تقديم القرابين على مذبح الكنيس، وقبول الذبائح والندور التي يقدمها "الجهال والضالون" للتكفير عن ذنوبهم. هذا التصور اليهودي انتقل بعد ذلك للمسيحية، وهو ما نجده في الانجيل في سفر العبرانيين، وفي شرحه تم تحديد هاتين المهمتين للكاهن، أي تقديم القرابين وجمع الندور.

الكهانة في الحضارات والديانات القديمة لم تخرج عن هذا المعنى الوظيفي، لكن في العصور الوسطى أضيفت مهمة جديدة للكهنة وهي إصدار حكم "الهرطقة" (أي الكفر) على من يتجرأون على التفكير خارج النص المحدد، وبالتالي قتله أو نفيه أو سجنه ومصادرة أمواله وممتلكاته، وهنا بدأت "الكهنوتية" تأخذ شكلها الوظيفي الجديد بوصفها

"مؤسسة دينية" تختص وحدها بتفسير النص وتحديد مقصود الله من هذا أو ذاك، ولها وحدها "حق" تحديد من هو "الكافر" المهترق ومن هو المؤمن الجيد (الذي يقدم القرابين ويدفع النذور بلا شك).

في الإسلام ثمة إشكالية كبيرة فيما يتعلق بالكهنوت (أي المؤسسة الدينية)، فمن حيث المفهوم والتصور هناك إنكار كامل لوجود هذه المؤسسة، بتراتبيتها الوظيفية ومسميات القائمين عليها كما هو موجود في اليهودية والمسيحية تحديداً. لكن من حيث الواقع، ثمة ممارسة فعلية للكهنوتية، لا يمكن لأي متأمل موضوعي أن يتغافل عنها، فالتراتبية الدينية موجودة، واحتكار تفسير النص الديني موجود، وتقسيم الناس إلى طبقة "مشايخ ورجال دين أو علماء" من جهة، و"عوام أو عامة" من جهة أخرى موجود أيضاً، بل حتى الزي الخاص برجال الكهنوت موجود أيضاً.

تكمن الإشكالية الكبرى حول "حق" تفسير النص الديني في جانبين، أولاً إذا تم حصرها في "جهة" رسمية تتبع الدولة، ففي ذلك خطورة احتكار الدين كله من قبل السلطة، واستغلاله في مشروعها السياسي.

وأما إذا فتح المجال بلا تحديد ثانياً، فالخطر أكبر عندها، لأن من شأن مثل هذا الوضع أن يخلق حالة من الفوضى شبيهة بما نعيشه الآن. كل من هب ودب يلبس "الزي الديني" الشائع، ويفسر القرآن على مزاجه، ويحرك آلاف البشر كالقطيع إلى ذبح الناس واستباحة أعراضهم بحجة أنهم "كفار" أو مرتدين.

هذه مسألة في غاية الخطورة وبحاجة ماسة إلى حل يضع حداً لكل هذه الفوضى باسم الدين. ربما يكون الحل في احتكار تفسير النص من قبل هيئة دينية لا تتبع مباشرة أي

دولة أو نظام، كمنظمة العالم الإسلامي على سبيل المثال، بحيث نضمن استقلالية تفسير النصوص عن مصالح الأنظمة من جهة، وعلمية التفسير ورصانته العلمية من جهة أخرى.

حكايات قصيرة جدا

على أحد الجدران في منطقة "تيماء" قرأت: "أنا يا بشر متعب بإنسانيتي، فهل الإنسانية لعنة وشقاء؟".

أي بؤس هذا وأي حزن.. عبارة كهذه، في زمن كهذا، بمقاييس القدرة، لا يحتملها إلا جدار.

"تقتلون رجلا يقول ربي الله؟".. قالها الحلاج لقاتليه، قبيل صلبه وتقطيع أطرافه وحرق جثته وتعليق رأسه على جسر دجلة.. أوتظنون "داعش" وليدة اليوم؟ هذا تراث.

قبل بضع سنوات، جاءني ولي أمر طالب، كنت حينها رئيس مكتب التوجيه والإرشاد في إحدى المدارس الثانوية، وقال لي "أنا خائف على ابني، فهو دائم التردد على المسجد"، قلت له: وهل تخاف عليه من المسجد؟ يفترض أن تفرح، قال "غدا يلعبون في رأسه، ويرسلونه وقودا لحرب عبثية".

أتذكر الآن هذا الموقف بكثير من الحزن والفرح.

أربعون عاما ونحن نشاهد ونسمع دريد لحام ينتقد الظلم والديكتاتورية ويسخر من موت الشعب العربي الذي لا يثور، وعندما ثار السوريون، كان دريد أول من ارتدى تحت أقدام بشار، ووصف الشعب بأنهم "خونة".

جيفارا الثائر، أفنى حياته مقاتلا ومات وحيدا بأُسا من أجل الشيوعية.. لتطبع بعدها الشركات الأميركية صورته على الملابس وتزدهر الأسهمالية أكثر.

تعبت.. مثل عصفور صغير تحت المطر.

"عجيبه هذه المملكة، بناسها وعفارييتها، ترفع شعار الله، وتغوص في الدنس". نجيب محفوظ - ليالي ألف ليلة.

مما قرأت:

في العمر ساعة تغنيك عنه كله،

في الأرض مكان يغنيك عنها كلها،

في الناس شخص يغنيك عنهم كلهم،

ينقضي العمر، تطوف المكان، وتعبر الناس.. دون أن تلاقهم.

بالعامية.. واحد عنده واسطة، دعم (خبط) واحد ثاني عنده واسطة، فطلع الغلط ع المرور.

هذي مشكلة الكويت.

التقيت قبل أيام بأخي الكبير فارس السلطان، رجل أحبه وأحترمه، وأعشق ثقافته والحديث معه بقدر عشقي لكتاباتة.. إليه أقول ما قال السياب:

فر النهار من البيوت النائيات، إلى السحاب

من شرفة زرقاء تحلم بالكواكب، والضباب

من مقلتين على الطريق.. ومقلتين على كتاب.

أهل البيت والصحابة

رغم اننا نقول في كل صلاة يومياً "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.." ، ورغم عشرات الآيات والأحاديث التي تتحدث عن فضل أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وفضل الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم جميعاً، إلا أن خطاب الكراهية الطائفي البغيض رسخ في أذهان بعض الحمقى والمتطرفين أوهاماً وأفكاراً خاطئة، جعلت بعض السنة يتخوفون من ذكر فضل أهل البيت عليهم السلام ظناً منهم أن ذلك من شأن "الشيعة"، وجعلت بعض الشيعة يتخوفون من ذكر فضل الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ظناً بأن ذلك من شأن السنة.

الله عز وجل رفع شأن أهل بيت الرسول عليه وعليهم السلام في كتابه الكريم، ورفع شأن الصحابة الأخيار ووعدهم بالجنة وأثنى عليهم.. من نحن لنقول بعد ذلك فيهم ونصنفهم ونعتبر هذا طاهراً وهذا جيداً وذاك سيئاً وهذا يستحق اللعن وهذا في الجنة وذاك في النار.. من نحن!؟

لا أهل البيت الأطهار عليهم السلام ولا الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم جميعاً تابعون لأحد من هذه الطوائف والتقسيمات المتطرفة، كلنا شيعة بالمعنى الصحيح للكلمة، كلنا نشايح أهل البيت عليهم السلام ونحبهم، وكلنا سنة بالمعنى السليم للكلمة، نحب الرسول صلى الله عليه وسلم ونجتهد في اتباع سنته وطريقته في العبادة. أن الأوان أن يتجاوز المسلمون خطاب الفرز والتصنيف والكراهية، والذي بلغ حتى في الأسماء. ما الذي يمكن أن يحدث ليقنعنا بخطأ الطائفية وخطورة خطابها، ما الذي يمكن أن يفهمنا أن خطاب الكراهية الطائفي لا يمكن أن ينتج سوى هذه المذابح والقتل المتبادل!؟

لأصحاب المنابر.. انشروا خطاب المحبة وفضل أهل البيت عليهم السلام وفضل الصحابة رضوان الله عليهم جميعا إذا كنتم تريدون جيلا جديدا لا ينحر الرؤوس ويقطع الأوصال ويفتك حتى بالعجائز والأطفال، جيلا يحترم الحياة وينشر الإسلام بقوة الحجة والكلمة الطيبة. كونوا دعاة خير فإن كل قطرة دم تنزل من بريء بسبب خطاب العنف والكراهية يحمل وزرها المحرضون ودعاة القتل والانتقام. من تظنون وراء آلاف الشباب المنخرط في القتل والتعذيب والنحر بين المسلمين في باكستان واليمن والعراق وسورية ولبنان غيرها؟ لا أحسبكم تتهمون هوليوود !

لماذا يحقد الغرب على الرسول؟! كارين أرمسترونج تجيب

نفرح كثيرا بكتابات المنصفين في الغرب حول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وحول الإسلام عموما، لأنها تخاطب القارئ الغربي.. نيابة عنا.

كارين أرمسترونج مؤرخة أديان وأكاديمية بريطانية مرموقة، كانت راهبة كاثوليكية ثم تركت الرهبنة عام 1982 وبدأت بالكتابة حول الأديان، لها أكثر من 20 كتابا حول اليهودية والمسيحية والإسلام والبوذية، منها كتابان عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هما كتاب "محمد.. سيرة للنبي" نشر عام 1991 و مترجم للعربية من قبل د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، وكتاب "محمد نبي لزماننا" نشر عام 2006 و مترجم للعربية من قبل فاتن الزلبناني، إضافة لكتاب "تاريخ الرب.. مسعى 4 آلاف عام من اليهودية والمسيحية والإسلام"، وكتاب "القدس.. مدينة واحدة وثلاث عقائد" وغيرها من الكتب المهمة.

ولمؤرخة الأديان أرمسترونج أطروحات كثيرة ذات أهمية كبيرة في الأوساط العلمية والأكاديمية، لاتزال تمثل نبعا فياضا للنقاشات العلمية الرصينة، خاصة في مجال علم الأديان المقارن، يهمني من تلك الأفكار والأطروحات الكثيرة فكرة منها بالذات.

يسمونها "الراهبة الهاربة"، كتبت عام 1982 كتابا بعنوان "عبر البوابة الضيقة"، تبين فيه سبب هجرها لحياة الرهبنة، حيث اعتبرت هذه الحياة قاصرة ومحدودة الخبرات وضيقة، ولا تضيف للعالم أي جديد. ورغم موجة العداء التي سببها موقفها هذا، إلا أن كتابها تصدر قائمة أكثر الكتب مبيعا لسنوات طويلة.

تقول أرمسترونج عن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" إن هذا الحديث يمثل "القاعدة الذهبية" للسلوك البشري، والضمانة الوحيدة للحصول على حياة إنسانية حقيقية. وتضيف أن التأمل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته يعطينا نموذجا فريدا فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك السليم، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان مثالا للإنسان الكامل، كان يطبق ما يقول ويدعو إليه ويطبقه على نفسه قبل غيره أحسن تطبيق، لم يكن مثل بقية من نسميهم "عظماء" من المفكرين والقادة والفلاسفة وغيرهم، والذين كانت حياتهم مليئة بالآثام والشرور والمظالم والبطش بعكس ما يقولون تماما، ويبررون ذلك بوقاحة عجيبة بأنهم حالات استثنائية وكأنهم فوق البشر.

بالنسبة لي.. أجد في حياة المسيح عليه السلام وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تكاملا ينسجم مع حركة التاريخ، فمن خلال دعوة السيد المسيح "أحبوا أعداءكم"، وبين دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "أحب لأخيك ما تحب لنفسك" تكمن طبيعة الإنسان الخيرة.

لم يسع المسيح بناء دولة وحكمها، لكنه نجح نجاحا باهرا في صنع دعوته تبني ما هو أهم من الدول والحضارات، فماذا عساه أن يكون صبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على أذى جاره اليهودي وعبادته في بيته للاطمئنان عليه سوى تجسيدها لرسالة السيد المسيح "أحبوا أعداءكم".

نهاية إسرائيل

صدر مؤخرا عن المخابرات الأميركية تقرير شاركت فيه 16 مؤسسة استخباراتية بعنوان "الإعداد لشرق أوسط في مرحلة ما بعد إسرائيل"، خلاصته أنه بحلول عام 2025 م لن تكون هناك "دولة إسرائيل"، ويستند التقرير الى حقائق موثقة حول "الهجرة المضادة" لليهود إلى أوطانهم الأصلية، بسبب استحالة العيش في فلسطين المحتلة بأمان وسلام.

يقول التقرير إن هناك نصف مليون يهودي افريقي في الكيان الصهيوني سيعودون الى بلدانهم، إضافة إلى مليون روسي وأعداد مماثلة من دول أوروبية وخاصة من أوروبا الشرقية كلهم سيعودون إلى بلدانهم في غضون السنوات العشر القادمة.

كما يستند التقرير إلى حقائق إحصائية تتعلق بمعدلات الولادة والوفيات بين الفلسطينيين وهم أصحاب الأرض وبين اليهود في فلسطين المحتلة، إذ تظهر الاحصائيات ومعدلات النمو السكاني تفوقا كبيرا للفلسطينيين على الصهاينة يستحيل معه مواصلة البقاء.

كما يرجع التقرير أسباب انهيار الكيان الصهيوني واختفاء ما يسمى "دولة إسرائيل" إلى سياسات العنف المفرط التي دأبت حكومات الكيان الصهيوني على ممارستها، خاصة سياسة هدم المنازل وقتل الأطفال والنساء وحصار غزة وقصف المستشفيات ومراكز الإيواء التابعة لمنظمات دولية دون اكتراث بالقانون الدولي والعالم كله، حيث أدت هذه الممارسات المفرطة في التمادي والهمجية إلى تحول كبير في المواقف الدولية الداعمة لهذا الكيان، بل ويشير التقرير صراحة إلى تحول في موقف الرأي العام الأميركي نفسه إضافة إلى تحول في مواقف الدول الأوروبية الغربية.

ومما يذكره التقرير أيضا أن هناك نصف مليون "إسرائيلي" يحملون جواز سفر أميركيا، وأن هناك رقدا لعمليات متسارعة خلال السنوات الثلاث الماضية لاستخراج جوازات سفر أوروبية من قبل مواطنين "إسرائيليين" ما يؤكد نية "الهجرة المضادة".

وحول مستقبل المنطقة والبديل لانتهاك الكيان الصهيوني المحتل، يذكر التقرير أن البديل سيكون نشوء "دولة متعددة العرقيات والديانات"، ما يعني انتهاء فكرة "الدولة الدينية" التي أمضى الصهاينة 60 عاما من أجل بنائها لكنهم فشلوا. التقرير يلفت أيضا في سياق الوضع المتوقع بعد انهيار الكيان الصهيوني إلى عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم. الجدير بالذكر أن أعضاء الكونغرس الأميركي حصلوا على نسخة من هذا التقرير، وربما يكون قد تسرب من خلالهم.

ليس هذا فحسب، الصدمة الأكبر جاءت من هنري كيسنجر، وزير خارجية أميركا الأسبق وهو اليهودي المعروف بدعمه المطلق للكيان الصهيوني المحتل، حيث أكد في تصريح صحافي مؤخرا صحة التقرير وقال "فعلا.. إسرائيل لن تكون موجودة عام 2025"، وقد حاولت مساعدة كيسنجر نفي هذا التصريح بعد موجة الغضب الصهيوني، إلا أن السيدة "سندي آدمز" المحررة في صحيفة "نيويورك بوست" التي كتبت الخبر أكدت صحة التصريح وقالت إن كيسنجر قال لها ذلك حرفيا.

يمكن أن يضاف لهذا كله تصريحات كبار المسؤولين الصهاينة التي تظهر خوفهم الشديد من المستقبل، وأهمها تصريح رئيس جهاز الاستخبارات الصهيونية (الموساد) السابق مائير داغان في صحيفة "جيروزلم بوست" في إبريل الماضي والذي قال فيه حرفيا "نحن على وشك الانهيار، ولا أريد أن أبلغ وأقول كارثة، لكننا نواجه تكهنات سيئة لما سيحدث في المستقبل".

لا شك أن هذا التقرير وهذه التصريحات تمثل أبغى رد وأكبر صفة في وجه المشككين بالمقاومة الفلسطينية الشريفة وأثرها وقدرتها على استرداد فلسطين المحتلة وطرد الصهاينة المعتدين، فهذه حقيقة تاريخية سطرت أمجادها كل الشعوب الحرة التي حررت أوطانها من المحتلين بالدماء والصبر والتضحيات.

حول مفهوم القدر

في كتابه القيم "تجديد الفكر الديني في الإسلام" يطرح شاعر الهند وفيلسوفها العظيم محمد إقبال فكرة "القضاء والقدر" للنقد والتحليل. يقول وهو الحاصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ميونيخ بألمانيا عام 1907 إن "إعادة الحيوية إلى الفكر الديني ليست مسألة مرتبطة باستيعاب العلوم الحديثة فحسب، وإنما فيما يجب أن يعاد اكتشافه من المعنى الحقيقي للإسلام كمقابل ونقيض للمفهوم الاتكالي المضلل لمسألة القضاء والقدر". وقد قدم إقبال في أطروحته القيمة لتجديد الفكر الديني في الإسلام نظرية فقهية جديدة لمفهوم "القدر" فيها من الإبداع والأصالة الفلسفية التي تثير الإعجاب حقا. ورغم صعوبة النظرية كونها تتطلب معرفة مسبقة بالفلسفة وإشكالية الزمن، سأحاول تقديمها للقارئ غير المتخصص وأتمنى ألا أسيء للفكرة بهذا التبسيط.

يقول إقبال "إن الزمن ككلية عضوية هو ما يعنيه القرآن بعبارته القدر، وهي عبارة غالبا ما تم تأويلها على وجه الخطأ سواء داخل العالم الإسلامي أو خارجه".

الفيلسوف محمد إقبال إذن يعيد تشكيل معنى "القدر" من خلال توحيده بمفهوم الزمن، بمعنى أن "الأفعال" والحوادث التي تحدث هي في الحقيقة "تحدث في الزمن" فحسب وليست مقررة سلفا، أي عندما نقول عن حدث معين أنه "قدر" فهذا يعني أنه "حدث وتحقق في لحظة زمنية فعليا"، فالقدر لا يعني كما يوحي الفهم السائد والمضلل بأن هذا الحدث كان مقدرًا مسبقًا وكان لابد أن يحدث، لأن مثل هذا الفهم اتكالي ومضلل ويؤدي إلى الخنوع والاستسلام والتوقف عن الفعل والإنتاج.

يقول إقبال "إن القدر ليس قضاء ثابتا متحجرا يفعل فعله من الخارج، بل هو المدى الداخلي لشيء ما ومجمل إمكاناته القابلة للتحقق.. وإذا ما كان الزمن واقعيًا، فإن كل لحظة من لحظات الحياة الواقعية ستكون أصيلة إذن، وتتمخض عما هو جديد حقا وغير متوقع سلفا". هذا المعنى بالتحديد يقول عنه إقبال إنه معنى أصيل في القرآن الكريم، حيث نجد "في القرآن ما معناه أن الله له في خلقه في كل يوم شأن جديد".

فكرة (القدر/ الزمن) عند الفيلسوف محمد إقبال فكرة عظيمة، تمثل أساسا قويا يحتاجه عالمنا الإسلامي اليوم للبدء والانطلاق، فعالمنا مبتلى بالانغلاق على الذات وتجبير النصوص الدينية لترسيخ سلطة الحاكم منذ صدر الإسلام، حيث تم التدليس على المسلمين بفكرة القدر، وأعطيت معناها الاتكالي الذي يوحي بمعنى أنه "تقدير" الله عز وجل "المقدر والمكتوب" في اللوح المحفوظ منذ الأزل.

أدعو شباب المسلمين، وخاصة شباب دول الخليج العربي إلى قراءة كتاب "تجديد الفكر الديني في الإسلام" للفيلسوف محمد إقبال، وقراءة بقية كتبه، وكتب فلاسفة ومفكرين وأدباء شرقيين وغربيين حول الإسلام من خارج بيئتنا الخليجية التي تحددت كثيرا بخطاب أحادي الرؤية، ليس تقليلا من شأن أحد، وإنما هذه مجرد دعوة للانفتاح وتوسيع الأفق ليس أكثر.

يقول عالم الاجتماع العراقي د.علي الوردى رحمه الله، "إن الذي لا يفارق بيئته التي نشأ فيها ولا يقرأ غير الكتب التي تدعم معتقداته الموروثة، لا ننتظر منه أن يكون محايدا في الحكم على الأمور".

العالم يتجاوز بكثير الحالة الجامدة التي نعتقد أنها "الحقيقة المطلقة"، العالم مليء بمفكرين آخرين، سيفتحون لكم آفاقا أرحب كثيرا مما تتصورونه، وديننا يدعونا للبحث عن الحكمة أينما وجدت.

شيطنة الإسلام السياسي !

ربما لم يتعرض أي مصطلح لحملة تشويه وتجن وإساءة استخدام وشيطنة أكثر من مصطلح "الإسلام السياسي"، لدرجة أن المسلم اليوم مطالب بإعلان تبرئه من "الإسلام السياسي" كل يوم 7 مرات ليثبت للجميع أنه "مواطن صالح".. فأأي بؤس هذا !؟

دعوني أذكر لكم بعض الحقائق. في ألمانيا الحزب الذي يحكم منذ 2005 وحتى اليوم اسمه "حزب الاتحاد الديموقراطي المسيحي"، وهو الحزب الذي تنتمي إليه مستشارة ألمانيا الاتحادية السيدة انجيلا ميركل، وفيه نجد مكتوبا في المبادئ التأسيسية للحزب نصا يقول: "يعمل الحزب على تطبيق المبادئ الديموقراطية المسيحية، ويؤكد على الفهم المسيحي للبشر ومسئولياتهم تجاه الله"، ومن بين أهداف هذا الحزب المعلنة "نشر التعليم الاجتماعي الكاثوليكي".

وفي استراليا يهيمن "الحزب الديموقراطي المسيحي" على البرلمان ولديه ممثلون في الحكومة، والحزب يرفع شعار "دعم المسيحيين ورفع القيم المسيحية" وكذلك حزب العمل الديموقراطي الذي يعلن أنه حزب مسيحي. وفي بلجيكا يعتبر "الحزب المسيحي الديموقراطي الفلمنكي" أحد أهم الأحزاب التي تهيمن على الحياة السياسية ومنه ترشح أغلب السياسيين لمناصب عليا ليس في بلجيكا فحسب، بل في الاتحاد الأوروبي أيضا مثل هيرمان رومبوي الذي شغل منصب رئيس المجلس الأوروبي في الفترة من 2009 - 2014م، وهو أيضا حزب سياسي يتبنى صراحة وعلنا الفكر المسيحي الكاثوليكي ويعمل على ترسيخ القيم الدينية المسيحية. وعلى سبيل المثال وليس الحصر، هذه قائمة بأهم الأحزاب المسيحية الكبرى التي تحكم ولها أغلبية برلمانية ووزراء وتمارس عملها بأهداف معلنة قوامها نشر المسيحية والدفاع عنها ورفع شأن قيمها الدينية، وإلا كيف باعتقادكم تتم محاربة تشريعات الإجهاض والقتل الرحيم والمثلية الجنسية والمنتجات الإباحية وغيرها ؟

في الأرجنتين الحزب الديموقراطي المسيحي، في النمسا حزب الشعب النمساوي وهو حزب مسيحي ديموقراطي، في البرازيل الحزب الديموقراطي المسيحي الاجتماعي، في بلغاريا التحالف المسيحي البلغاري، في كندا حزب الديموقراطية المسيحية وحزب التراث المسيحي، في تشيلي الحزب الديموقراطي المسيحي، في كولومبيا الحزب الوطني المسيحي، في كوستاريكا حزب الوحدة الاجتماعية المسيحية، في كرواتيا حزب الاتحاد الكرواتي الديموقراطي المسيحي، في الدنمارك الحزب الديموقراطي المسيحي وحزب الاتحاد الديموقراطي المسيحي.. الخ.

لاحظوا، شرقا وغربا أحزابا سياسية تعمل بمسمى ومبادئ وقيم وأهداف دينية مسيحية. وبصورة عامة، الأحزاب المسيحية هي التي تسيطر على معظم المقاعد في جميع البرلمانات الأوروبية، وهم يشكلون دائما "الأغلبية البرلمانية" ويمارسون عملهم في الرقابة والتشريع بناء على خلفية دينية ويفتخرون باستمرار بأنهم مسيحيون مؤمنون.

فلسفيا، كل الأحزاب المسيحية التي تطلق على نفسها تسمية "الديمقراطية المسيحية" هي امتداد لأفكار القديس توما الأكويني (فيلسوف لاهوتي وقديس وأحد معلمي الكنيسة الـ33، توفي عام 1274م). معظم هذه الأحزاب كانت تعمل بمسمى "حزب العمل الكاثوليكي"، ثم غيروا هذه التسمية بعد الثورة الفرنسية وما تلاها من هجوم على الكنيسة لتصبح بمسمى "الديمقراطية المسيحية".

وفي الولايات المتحدة، رغم هيمنة الحزب الديموقراطي والحزب الجمهوري على العملية السياسية واحتكارها، إلا أن هناك أحزابا "ديمقراطية مسيحية" ومعظم السياسيين المنتمين للحزب الديموقراطي والجمهوري متدينون ويمارسون عملهم بخلفية دينية مسيحية ويفخرون بهذا، بل إن بعض رؤساء الولايات المتحدة ينتمي لأحزاب دينية متشددة مثل الرئيس السابق بوش الابن (ينتمي للمسيحية الميثودية المنشقة عن الكنيسة الانجليكانية).

الخلاصة.. في أوروبا وأميركا وروسيا والهند وغيرها أحزاب دينية، وهي أحزاب سياسية تنطلق من منطلقات دينية كاثوليكية وبروتستانتية وارتثوذوكسية وهندوسية وغيرها، مبادئها دينية وأعضاؤها متدينون والجميع يفتخر بهذا. فلماذا إذن تصبح الأحزاب السياسية الإسلامية جريمة وتهمة، ومحاربتها وقتل أصحابها واعتقالهم وتعذيبهم والتنكيل بهم وبأسرهم ومنعهم من العمل السياسي أصبحت مدعاة للفخر والاعتزاز وادعاء البطولات؟!

قبل أيام، قال الرئيس المصري السابق حسني مبارك بفخر واعتزاز حرفياً: "لقد قمت بإفشال مخططات الإسلام السياسي بعد السادات".

رحلة أنتوني فلو من الإلحاد إلى الإيمان

أنتوني فلو فيلسوف بريطاني توفي عام 2010 وعمره 87 عاما، قضى منها 81 عاما وهو ملحد شرس يوصف بأنه من أهم منظري الإلحاد في القرن العشرين، لكنه في العام 2004 - أي قبل وفاته بـ 6 سنوات فقط - أعلن عن تغيير رأيه تماما، وأنه أصبح يؤمن بوجود الله عزّ وجلّ إيمانا راسخا وبنقطة مطلقّة.

أنتوني فلو له أكثر من 30 كتابا في الدفاع عن الإلحاد ونقد الإيمان، حججه وبراهينه ومناقشاته ضد المؤمنين بوجود الله كانت تعد بمنزلة دستور الإلحاد والملاحدين حول العالم، وهو صاحب الحجة المشهورة بأن "الملحد غير مطالب بإثبات عدم وجود إله، وإنما المؤمن هو المطالب بإثبات وجود الإله".

لكن بعد هذه الرحلة الطويلة من "الإلحاد البارد" بمصطلح هيدجر انتهى به المطاف بإعلانه عن إيمانه المطلق والواثق والعميق بوجود إله خالق للكون، رغم أنه أعلن أنه لا يتفق مع الأديان حتى الآن وأنه بحاجة إلى مزيد من الوقت لدراستها، كما أنه لم يغير موقفه من استحالة البعث والحياة بعد الموت والحساب والخلود، إلا أنه توصل إلى إيمان واثق بوجود الله عز وجل، وهذا موقف فلسفي معروف ينسجم مع منهج الشك الذي ترسخ فلسفيا مع ديكارت في القرن السابع عشر.

لقد شكل تراجع أنتوني فلو عن الإلحاد صدمة كبيرة أذهلت أتباعه في العالم كله خاصة في أوروبا، وتسبب في هزة عنيفة أصابت أركان الإلحاد في مقتل.

يصنف إيمان أنتوني فلو بوصفه إيمانا عقليا، بحسب اعتراف فلو نفسه، حيث جاء نتيجة تأمل عميق في حقائق العلم الحديث حول الكون والوجود، والتي لا يمكن إنكارها كونها مثبتة علميا، وأهمها الحقائق المتعلقة بالكواكب والمجرات وعالم الخلية الحية والتوازن الهائل في الطبيعة، وهو ما يسمى في علم اللاهوت (فلسفة الدين) باسم حجة أو برهان

"التصميم الذكي" intelligent design، وفي الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام يسمى "برهان النظم"، وخلصته أن الكون مصمم بطريقة ذكية وامتقنة تماما وفق نسب ومعايير وعلاقات محددة بدقة وإحكام لا يمكن أن تصدر عن مصادفة أو عشوائية، وإنما لا بد من وجود إله خالق تفوق قدرته قدرات هذا الكون الهائل.

وقد أجرى بعض علماء الرياضيات والإحصاء عمليات حسابية (حساب الاحتمالات) لتكون أشياء بسيطة جدا بالمصادفة فكانت النتائج مذهلة، مثل تشكيل بيت شعر من قصيدة لشكسبير مكونة من 400 حرف فقط، فوجدوا أن احتمال تكونها بالمصادفة يتطلب 10 أس جوجل (الجوجل هو واحد وبعد 100 صفر) وهذا رقم هائل وضخم ولا يمكن تصوره ذهنيا ولا توجد آلة تتمكن من حسابه أصلا.. فما بالكم بالخلية الحية التي يسميها علماء الأحياء "الكون الأصغر".

في اللغة العربية تمت ترجمة كلمة atheists بالملاحدين، وكلمة atheism بالإلحاد، وهي ترجمة غير دقيقة باعتقادي ولا تفيد المعنى بشكل صحيح.

وأجد كما يقول د.عدنان إبراهيم أن مصطلح أبي العلاء المعري، رحمه الله، هو أفضل مصطلح يصلح لترجمة هذا المفهوم، حيث كان المعري يسميهم "النفاة" والمذهب "مذهب النفي".

وهو مصطلح دقيق تماما، لأن كلمة atheist أصلا تتكون من حرف النفي a وكلمة theist التي تعني "المؤمن"، فمن نسميه الملحد هو في الحقيقة الشخص الذي "ينفي" الإيمان بوجود إله. واضح إذن أن مصطلح المعري أكثر دقة لأن الإلحاد يتعلق بنفي وجود إله مقابل الإيمان بوجود إله، في حين أن كلمة إلحاد ومصدرها "لحد" لا تفيد هذا المعنى إطلاقا.

أخيرا...للنفاة (الملحدين) وللمهتمين بمذهب النفي أقترح قراءة كتاب "رحلة عقل" للدكتور عمرو شريف، ففيه الكثير مما يستحق التأمل.

نصف وجه.. نصف حقيقة

كتب كارل ماركس: "الأديان تؤدي وظيفة مزدوجة، فهي تعوض الفقراء عن فقرهم من خلال وعدهم بالغنى الروحي، بينما تعطي الشرعية اللازمة للأغنياء لامتناس الفقراء".

شيئاً فشيئاً بدأ العالم يدرك أن ماركس كان على صواب في معظم تحليلاته، في أوروبا وفي ألمانيا تحديداً تشهد أكبر موجة "عودة" لفكر هذا الفيلسوف البائس، صدر مؤخر عن دار نشر ألمانية كتاب *Warum Marx Richt hat* أي، لماذا ماركس على صواب؟ يثار هذا التساؤل الآن بعد أن اكتوت أفئدة الغرب من نار الرأسمالية الجشعة.

كتبت ريم العنزي في تويتر: "في الذاكرة منافعٍ، من يسكنها له قدر، لا يحظى به من يستوطن أوطان النظر" .. يا للعمق والروعة.

حكمة كويتية: إذا لم تستطع أن تبهر الناس بذكائك، فحاول أن تحيرهم بغباؤك (الثانية معمول بها بكثرة).

يقول أحد تلاميذ الفيلسوف الفرنسي الوجودي جان بول سارتر: كان سارتر أيام شبابه يدخل الفصل في غثيان، يصمت طويلاً ويقلب بصره فينا ثم يقول "كل هذه الوجوه وما من لمعة نكاء واحدة"، الآن أفهم لماذا كان أحد أساتذتي - وهو من تلاميذ سارتر - ينظر إلينا ثم يقرف ويشيح بنظره للشباك ويتركنا كالبلهاء.

للفنان الروسي الشاب بافيل كوزينكو لوحة جميلة اسمها "نصف وجه"، هي خليط من الروعة والغموض والجمال. نصف وجه لامرأة جميلة، نصف حقيقة، ونصف غموض.. إنها نصف غير مكتمل، يقول كل شيء، أو لا شيء.

كان الشاعر الرائع بدر شاكر السياب، رحمه الله، بانتظار زوجته إقبال حين كان على سرير المرض في المستشفى الأميري بالكويت عام 1963، ومن فرط الشوق كتب ما يعجز الوصف عن تحليله :

غدا تأتيين يا إقبال، يا بعثي من العدم
ويا موتي ولا موت
ويا مرسى سفينتي التي عادت
ولا لوح على لوح
ويا قلبي الذي إن مت أتركه
على الدنيا ليبيكيني
ويجأ بالرتاء على ضريحي
وهو لا دمع ولا صوت
أحبيني، حين يبلى كل وجهي
كل أضلاعي.. وتأكل قلبي الديدان
تشربه إلى القاع
قصائد.. كنت أكتبها لأجلك في دواويني
أحبيها.. تحبيني

من الإلحاد إلى الإيمان

كان الفيلسوف المصري د. زكي نجيب محمود، أول من أدخل الوضعية المنطقية للفكر العربي في بداية الأربعينيات من القرن الماضي، والوضعية المنطقية فلسفة إلحاد، تنكر كل ما هو ميتافيزيقي (غيبي)، ولا تعترف إلا بما تثبته الحواس بالتجربة.

وفي "آخر حياته" بدأ بالتخلي عن هذه الفلسفة الإلحادية والعودة إلى الفكر الإسلامي الذي كتب فيه ما يؤكد إيمانه العميق.

وبالمثل كان الفيلسوف المصري د. عبدالرحمن بدوي "وجوديا"، والوجودية فلسفة إلحاد، خاصة في تيار هيدجر الذي تأثر به بدوي كثيرا، ولكنه أيضا تحول في "آخر حياته" وكتب مجموعة من الكتب دافعا عن القرآن وعن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعن الإسلام، تعد من أفضل الكتب الموجهة للقارئ الغربي، فيها انتقاد علمي مهم للنظرة العنصرية لدى الغرب، وفيها تنفيذ فلسفي لا مثيل له لأخطاء المستشرقين حول الإسلام والعرب، أنصح بقراءتها بشدة لأنها أفضل ما كتب عن الإسلام من الناحية الفكرية التي تتناول جوهر الدين وليس الشكليات البسيطة التي أغرقنا بها كثير من التافهين.

هناك أمثلة كثيرة لأسماء كبيرة جرى معها ما جرى لكبار الفلاسفة، مثل تجربة د. مصطفى محمود (رحلتي من الشك إلى الإيمان) وتجربة الفيلسوف الفرنسي رجاء غارودي (روجيه غارودي) وغيرهما، والمهم في الأمر أن هذا التحول قد تم في "آخر حياته"، في مرحلة النضج وبعد اكتمال المعرفة والخبرة بالحياة والعزوف عن الشهرة والزيف.

هذا يؤكد مقولة جميلة قالها الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون قديما "قليل من الفلسفة قد يؤدي بك إلى الإلحاد، لكن التعمق الشديد بالفلسفة يرمي بك في أحضان الدين".

باعتقادي، الإشكالية الكبرى التي تواجه الملحدين، وهم في الغالب ملحدون من النوع الثاني (الإلحاد القلق كما يسميه هيدجر) هي "عدم عقلانية الدين"، بمعنى عدم قدرة العقل على فهم الدين بمفاهيم العقل والمنطق الأرسطي الصارم، خاصة فيما يتعلق بالغيبيات، ولكن.. أليس الكون كله "غير عقلائي"؟ هل تمكن العلم التجريبي - الذي يستند إليه كثير من الملحدين - من فهم الكون بالعقل والمنطق والتجريب بكل حوادثه وأحداثه؟ فإذا كنا في هذا العصر المتقدم جدا نقف على أطراف باب العلم باعتراف العلماء أنفسهم، فمتى إذن سيلج الإنسان هذا البحر العميق؟

بالنهاية.. وكما قال الفيلسوف الألماني الكبير امانويل كانت "هناك حدود للعقل لا يمكنه أن يتخطاها"، والمعرفة التي تتعدى حدود العقل لا يمكن بلوغها بغير الإيمان، وستبقى مسائل اللطف الإلهي والعناية الإلهية والعدل الإلهي والروح والعالم الآخر وغيرها من القضايا والأسئلة الكبرى، وهي مسائل إيمانية يؤمن بها ويطمئن إليها من يزيل الشوائب عن صدره المتعب بالشكوك.

الهندسة الاجتماعية

كيف نضمن إدارة المجتمع بصورة جيدة؟ يقول عالم الاجتماع الألماني فرديناند تونيس في دراسته المهمة (المشاكل الحالية للبنية الاجتماعية) إن "المجتمعات الحديثة لم تعد قادرة على العمل بنجاح باستخدام الأساليب القديمة من الإدارة الاجتماعية، فالتطور الحاصل في المجتمعات الحديثة يتطلب استخدام أساليب علمية تقوم على بيانات إحصائية موثوقة، وهذا ما تفعله "الهندسة الاجتماعية" التي هي نظام علمي يستند إلى معطيات دقيقة ودراسات ميدانية يعيد تنظيمها بصورة ملائمة تمكن من تصميم برنامج مستدام يضمن تحقيق أفضل استفادة من موارد الأرض وجهود البشر ويرفع مستوى الحريات والمعيشة والصحة والسعادة لأفراد المجتمع".

الهندسة الاجتماعية تخصص جديد نسبيا في علم الاجتماع، أول من استخدم هذا المصطلح الصناعي الهولندي جي سي فان ماركن في مقال كتبه عام 1894 يبحث فيه المختصين على استحداث هذا التخصص لمساعدة أرباب العمل في التعامل مع مشكلات العمال ولضمان إدارة موارد المصانع بصورة جيدة. ف"المهندس الاجتماعي" يقوم بوظيفة مشابهة لوظيفة أي مهندس في بقية المجالات، فكما أن المهندس المعماري مسؤول عن ضمان سلامة المباني من خلال ما يقوم به من قياسات وتحليل لمواد البناء وطبيعة التربة، وكما أن مهندس الطرق مسؤول عن حسن تخطيط الطرق للمركبات والمشاة بصورة تضمن أفضل الحلول لضمان انسيابية الحركة وإعطاء الأولوية لمن يحتاجها أكثر.. كذلك المهندس الاجتماعي مسؤول عن تخطيط المجتمع بصورة علمية تضمن حسن توزيع السكان والموارد والجهود والأولويات. الدول المتقدمة أصبحت متقدمة لأنها تستعين بجهود المختصين ومنهم المهندسون الاجتماعيون، بينما دولنا تعج بالفوضى والتخلف والهدر لأننا ندير شؤون بلداننا بأبشع صور العلاقات (النهب والصراع) وبأقدم طرق التفكير، أي بالمحاولة والخطأ والتي تميز مرحلة الإنسان البدائي في عصر الطباشير.

لنأخذ على سبيل المثال التوزيع السكاني في الكويت، لاحظوا كيف تتم عملية توزيع المساكن الحكومية والأراضي المخصصة لبناء السكن الخاص؟ تقوم - وفقا لقوانين وزارة الإسكان - على ترسيخ التقسيم الطبقي والفئوي، ويستطيع أي شخص أن يلاحظ هذا التقسيم في مناطق الكويت (مناطق حضر وبدو، سنة وشيعة، مناطق خارجية وداخلية..). بتقسيمات تدعي الحكومة أنها غير موجودة وتدعي تبنيتها للوحدة الوطنية (فلا غرابة أن يكون لدينا مشكلة دوائر انتخابية).

هناك اتجاهان رئيسيان في عمليات الهندسة الاجتماعية، الأول راديكالي يتمثل في العمليات التي طبقها الاتحاد السوفييتي السابق والصين وسنغافورة وماليزيا وكمبوديا (في معالجة مشكلة الخمير الحمر) وغيرها، وهي تقوم على برامج قسرية تجبر السكان على تغيير نمط حياتهم ابتداء من الترحيل القسري وإعادة توزيع السكان بين المدن والأرياف، ومن خلال إعادة تخطيط البرامج الإعلامية وحتى في الفن والمعمار.

الاتجاه الثاني يعتمد النهج التدريجي الذي يحدث تغييرا بعيد المدى، منها برامج مكافحة المخدرات وتنظيم الانتخابات في أميركا وتنظيم حقوق الملكية ومعظم برامج الاتحاد الأوروبي والتي استفادت كثيرا من تحليلات الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني كارل بوبر في كتابه القيم "المجتمع المفتوح وأعداؤه".

الهندسة الاجتماعية علم يقوم على معطيات وبيانات دقيقة ويقدم نتائج علمية يفترض أن يستخدمها صاحب القرار. وصنع القرار يشكل في عالمنا اليوم عصب الحياة حيث إنه يؤثر في حياة ملايين البشر، وكلما كان القرار مدروسا ومؤسسا على نتائج العلم كانت النتائج مضمونة بشكل أفضل، أما القرارات الاعباطية والارتجالية فهي لن تنتج سوى

وضعاً مشابهاً لوضع بلداننا العربية.. بتخلفها وانحدارها وانحطاط صراعاتها الاثنية
وبمواردها المهذورة.

قراءة في ملف الشرق الأوسط

تشير بعض التقارير الأميركية إلى أن تكلفة الحرب على العراق وعلى أفغانستان قد تجاوزت 6 ترليونات دولار تقريبا، فضلا عن الخسائر الكبيرة في الأرواح، والدمار الشامل الذي لحق بتلك البلدان، كل هذا دون أي انتصار حقيقي يذكر، لا لأميركا ولا للعراق ولا لأفغانستان، فالوضع في الدولتين أصبح أسوأ من السابق، ولا يزال في تراجع وتدهور مستمرين، والتنظيمات المقاتلة المعادية لأميركا "القاعدة" أصبحت أكثر قوة وانتشارا، والوضع الاقتصادي المتدهور جعل الولايات المتحدة تغلق مكاتبها الفيدرالية بسبب عدم قدرتها على دفع رواتب الموظفين، والأزمة في تزايد. كل هذا أدى بلا شك إلى تراجع اهتمامها بمنطقة الشرق الأوسط، في ظل تعقد الملفات وتصلب المواقف من جميع الأطراف، مقابل التركيز على القضايا الداخلية وتحسين الوضع الاقتصادي والصحي والتعليمي للشعب الأميركي الذي عانى كثيرا، وهو الخطاب الذي مكن الرئيس أوباما من الفوز بمقعد الرئاسة.

هذا الموقف الانهزامي خلف فراغا سرعان ما تقدمت روسيا ملته في الشرق الأوسط، ثم جاءت أحداث "الربيع العربي" التي ساهمت في تسريع وتيرة التراجع الأميركي وتقدم الدب الروسي بخطوات ثابتة ومدروسة، مقابل التخبط الواضح في السياسة الأميركية التي بدا عليها الاضطراب والحيرة بشكل كبير مع ثورة 25 يناير في مصر وما تلاها من فوز للإخوان في انتخابات البرلمان والرئاسة، واستمر هذا التخبط إلى اليوم، فحتى اليوم لا يعرف للولايات المتحدة الأميركية موقف حازم وواضح تجاه ما جرى في مصر، فكل مواقفها اتسمت بالغموض والتذبذب، فلا هي أيدت الثورة الشعبية صراحة ولا هي دعمت الرئيس السابق حسني مبارك كحليف، ولا هي دعمت الرئيس المنتخب محمد مرسي ولا هي أقرت بالانقلاب صراحة.

ولم يكن الوضع في سورية أفضل حالا للولايات المتحدة، فلا هي دعمت الجيش الحر لينتصر ولا هي دعمت النظام السوري، والأمر كذلك مع تونس وليبيا واليمن، فلم يكن لها

موقف ثابت مع أي من هذه الثورات، ومرد ذلك بالتأكيد هو خوفها من صعود الإسلاميين وبالتالي تهديد الكيان الصهيوني، لكن هذا التردد والغموض في المواقف كان "أكثر من كاف" ليثبت ضعف أميركا وانحسار نفوذها في الشرق الأوسط بالنسبة لروسيا، والتي لم تتردد أبدا في اقتناص هذه الفرصة والتقدم بثبات لاستعادة مجدها القديم في المنطقة. "لاحظوا العبء الذي يشكله الكيان الصهيوني على الولايات المتحدة، وهو بالتأكيد ليس لأنه يمثل تجربة ديموقراطية وحيدة في المنطقة كما يدعي البعض، فأميركا التي تآمرت على كل التجارب الديموقراطية الحقيقية في الجزائر وحماس ومصر لم يعد لديها أي مصداقية في هذه الأكذوبة".

التراجع والتخبط الأميركي واضح لكل مراقب، وتبعاته من ضعف حلفاء الولايات المتحدة مقابل زيادة قوة أعدائها التقليديين "إيران" لا تحتاج لذكاء كبير لفهمها. لكن السؤال المستحق هنا، هل هذا الوضع السيئ هو "فشل مؤقت" يرتبط بإدارة الرئيس أوباما فقط، أم هو موقف استراتيجي يعبر عن فشل مؤسسة السياسة الخارجية الأميركية برمتها؟ وبالتالي فعلينا أن نتوقع المزيد من التدهور في أوضاع المنطقة، وإعادة رسم لخريطة جغرافيتها وتحالفاتها.

ما الذي تفعله دول الخليج ؟

شكلت أحداث "الربيع العربي" منعطفاً بالغ الخطورة للمنطقة برمتها، كما شكلت تهديداً واضحاً لأغلب أنظمة الحكم التقليدية، فإذا كانت "جمهوريات الخوف" بأنظمتها الديكتاتورية وقبضتها الأمنية القوية قد تساقطت خلال أيام أو أشهر، فكيف سيكون مصير أنظمة أقل منها بكثير؟

استدعى ذلك تحركات جادة من قبل أنظمة دول الخليج، وتمكنت إلى حد ما من صد رياح التغيير، وأعدت ترتيب ذاتها، من خلال إطلاق الكثير من "الوعود الإصلاحية" والمكررات في بداية الأمر، ثم من خلال التعاون الأمني بعد أن مرت سحابة الثورات بسلام، وهو ما نلاحظه اليوم بوضوح في الاتفاقية الأمنية بين دول مجلس التعاون الخليجي.

لا غرابة أبداً في عدم التعلم من تجارب النظم الساقطة، فهذا هو الوضع الطبيعي لدينا، وهو يعبر بدقة عن سذاجة التخطيط الذي يفتقر لأبسط مبادئ التفكير الاستراتيجي بعيد المدى، وهي بلا شك مجرد ردود أفعال سطحية، تمثل جزءاً أصيلاً من تاريخ طويل مليء بهذه التصرفات الآتية. لكن ثمة فارقاً كبيراً بين الأمس واليوم، فالشعوب لم تعد مرتبطة بنشرة أخبار الساعة التاسعة من تلفزيون رسمي يكذب دون خجل لأنه يعلم ألا مصدر آخر سواه، والتدخل الخارجي بات أكثر سهولة من أي وقت مضى، وهو يخضع في الغالب لإرادة شعوب تحركها وترسم مواقفها ومزاجها وسائل إعلام محترفة، لا تحتاج إلا إلى دفعة بسيطة جداً من الداخل، إلى مجموعة صغيرة تتواطأ معها، فهل تعجز أي دولة معادية عن إيجاد مثل هذه المجموعات في بلداننا ؟

بالنسبة لي، أدرك عن وعي أن بقاء الأنظمة الملكية في دول الخليج أفضل كثيراً من كل الاحتمالات الأخرى، وما الفشل الذريع لحركات التغيير في الجمهوريات العربية إلا دليل كاف لهذه القناعة، ليس لأن الأنظمة الملكية عادلة، فالوضع سيئ بالتأكيد وباعتراف النظم ذاتها، والفساد لا يحتاج إلى عين خارقة لرؤيته، وإنما بسبب فشل المعارضة في جميع

الدول العربية بلا استثناء، فهي جميعها تنظيمات مشوهة بلا ملامح وبلا مشاريع سياسية ولا مصداقية ولا تاريخ نضالي مشرف يستقطب خلفها الناس، قد يكون فيها أشخاص صالحون، لا شك في ذلك، لكنها حتما فاشلة وفاسدة كتنظيمات ولا تقدم أي بديل.

صحيح ان قوى المعارضة في دول الخليج لا تشكل بديلا مقبولا عند الشعوب عن النظم القائمة، لكن هذا لا يدعو إلى الاطمئنان بالتأكيد، فالوضع القائم يجعل هذه البلدان عرضة للتخريب بسهولة من أي دولة معادية، فبسبب كثرة الفساد والظلم والهدر في المال العام، ورغم إدراك الجميع أن تجربة سورية هي النموذج للثورات الفاشلة، ومع هذا يؤكد العلم والواقع أن الشعوب لا تتصرف بوعي وعقلانية، وأن فريقا صغيرا من المحترفين بما يمتلكه من امكانيات تكنولوجية هائلة يوفرها عصرنا المتقدم قادر على توجيه الحشود وإشعال الحرائق وتدمير البلدان عن بعد.

كان حريا بي أن أسمى هذا المقال "طلاسم" .. أعلم ذلك.

المواطنة فلسفيا

بداية يجب الاعتراف بأن مصطلح المواطنة Citizenship اقترن تاريخيا بنشأة المدينة في أوروبا، فالكلمة ذاتها مشتقة من كلمة civis اليونانية التي تعني "المواطن"، فاكتمب مصطلح المواطنة تعريفه وتطور معانيه من تطور الحضارة الأوروبية، والتي تطورت بدورها من خلال المجتمع المدني. ولذلك ليس غريبا ألا نجد في القواميس العربية القديمة أي ذكر لكلمة مواطن أو مواطنة.

يمكن الحديث عن ثلاثة نماذج للمواطنة، الأول بمعنى "الإقامة في المدينة"، وهذا أصل المفهوم ومنبعه في اليونان القديمة، فالمواطن الأثيني ببساطة هو من يقيم في أثينا، استمر هذا المعنى في أوروبا إلى قيام الثورة الفرنسية عام 1789، وقد وصف المؤرخ الإنجليزي كاكستون في كتابه "أخبار إنجلترا" المنشور عام 1480 سكان لندن بأنهم "مواطنو لندن"، وفي إحدى روايات شكسبير يتحدث عن مدينة بيزا بأنها "معروفة بمواطنيها الوقورين". هذه الإشارات تدل بوضوح على تحديد مفهوم المواطنة بمعنى الإقامة في المدينة ليس أكثر.

ثم جاءت الثورة الفرنسية التي نادت بشعار "الحرية والإخاء والمساواة"، وسرعان ما تحول معنى المواطنة من النموذج الأول (الإقامة) إلى النموذج الثاني الذي تحدد بدخول الحقوق والواجبات على المعنى الجديد الذي اجتاحت أوروبا في ردة فعل تمثل صفة في وجه الطغيان الذي نتج عنه استبعاد ملايين البشر من كونهم مواطنين، بدأ باستبعاد النساء والبربر في اليونان القديمة، واستبعاد "العلمانيين" من مجتمع المدينة السماوية الخاص بالمؤمنين المسيحيين كما قال القديس أوغسطين في "مدينة الله" وغيرها، ففي ألمانيا تحدد مفهوم المواطنة Bildungsbuergertum بالحقوق والواجبات، وبالمثل حدث في مختلف أوروبا. ولاحقا، أعطت نظرية مارشال في كتابه "المواطنة والطبقة الاجتماعية" الصادر عام 1950 دفعة جديدة لمفهوم المواطنة بوصفها "إقامة تقترن بالحقوق والواجبات"، إذ فصل مارشال تلك الحقوق بمختلف مستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

النموذج الثالث للمواطنة هو الذي نجده بوضوح في المجتمعات الشرقية بمعنى "الرعايا"، والرعايا ضمنيا هم جزء من "أملاك" الحاكم، وبالتالي تتحدد حقوقهم وواجباتهم بما يقرره هو لهم، ولذلك ارتبط خطاب حكام الشرق منذ الحضارات الشرقية القديمة بمفهوم الملكية عند الحديث عن المواطنين (يا أبناء شعبي..)، وحتى وقت متأخر لم تعرف اللغات الشرقية عموما كلمة "مواطنين"، وكان الإمبراطور الياباني ميجي يستخدم كلمة "شنمن" التي تعني "رعايا" حتى 1912.

مع تطور الزمن والآلات تطورت الحروب، والتي أنتجت بدورها حالات جديدة أربكت الكثير من القيم والمعاني ومنها "المواطنة"، إذ أصبح لدينا "لاجئون سياسيون" ونازحون ومهاجرون وأقليات عرقية مهجرة لم يتطرق لها توماس مارشال في نظريته التي هيمنت عليها النظرة الطبقيّة وتأثير السوق الرأسمالي.

ومع دخول أشكال جديدة للحروب التي يشهدها وقتنا الحاضر وتجاوزها للشكل الكلاسيكي (تقابل الجيوش) عادت نقاشات "ما بعد الثورة الفرنسية" للواجهة من جديد، وذلك بسبب ظهور "مواطنين" من أصول أجنبية يحاربون الدولة التي ينتمون إليها ويضرون بمصالحها، الأمر الذي أحيا خطاب "المواطنة العرقية" على حساب المواطنة بالإقامة والحقوق والواجبات.

الغريب، أن فرنسا التي أنتجت مفهوم المواطنة المرتبط بالحقوق والواجبات، هي ذاتها التي تتعالى فيها اليوم أصوات اليمين المتطرف المطالب بطرد المهاجرين وسحب الجنسية من ذوي الأعراق غير الأوروبية، بينما ألمانيا التي عرفت سابقا بعنصريتها المفرطة لدرجة تمييز الألماني وفقا لملامح الوجه والسمات الجينية، واعتبرت غير الألماني (وخاصة اليهود) ليس فحسب غير مواطنين، وإنما Untermenschen، أي أقل من إنسان، أقرت مؤخرا "حق" ازدواج الجنسية للمواليد من أصول أجنبية، فضلا عن الحقوق الكثيرة التي لا يحلم بها المواطنون الألمان المهاجرون أو من ذوي الأصول الأجنبية في بلدانهم الأصلية..

مذبحة الأبرياء

تطور الدول لا علاقة له بالزمن، فالدول القديمة ليست أكثر تطورا من الدول الحديثة، ومصر خير مثال، فهي من أقدم الدول لكنها أكثرها تخلفا. الموارد الطبيعية أيضا ليست هي العامل الحاسم في تقدم الدول ورفيها، فكثير من الدول الصناعية الكبرى لا تملك أي موارد طبيعية (اليابان وسويسرا نموذجا)، وهناك دول كثيرة مليئة بالثروات وغنية بالموارد الطبيعية المتنوعة، ومع هذا ترزح تحت نير الجهل والتخلف ويعاني مواطنوها أشد صنوف الفقر والمعاناة، فالموارد بذاتها لا تصنع حضارة ولن تحسن حياة البشر إذا لم تستغل بصورة جيدة. ما الذي تبقى إذن؟ الإنسان بلا شك.

بالإمكان تطبيق هذا المعيار على جميع الدول قديما وحديثا، سنجد بوضوح أن الدول التي استثمرت في الإنسان جنت التقدم والسلام، بينما الدول المتخلفة التي تعج بالفوضى والدمار والجوع هي التي لا قيمة للإنسان فيها، إلا بوصفه أداة ترفع لافتة تمجد القائد والزعيم وتهتف بشعارات تشبع غرور السياسيين. نحن متخلفون لأن الإنسان في بلداننا بلا قيمة، ولا يمثل "محور التنمية" ولا "هدف التقدم" إلا على الورق والخطب الحماسية العابرة.

معظم النساء لا يميزن بين التربية والرعاية، التربية هي تزويد الطفل بقيم ومهارات وسلوك ومعتقدات وأفكار ومعلومات، هذا كله لا تقدمه الخادمة للطفل، فهي تقدم له الرعاية، من مأكّل وملبس ونظافة وفسحة للنوم لا أكثر.

قد يصح اطلاق تسمية "المقيمين بصورة غير قانونية" على من دخل البلاد بطريقة غير شرعية قديما، لكن أن تطلق على جميع "البدون" بمن فيهم من ولدوا في الكويت ولم

يخرجوا منها فهذا أمر يخالف المنطق والواقع، فهم لم يدخلوا البلاد بصورة غير شرعية، هم ولدوا في الكويت، في مستشفياتها، فكيف تكون إقامتهم فيها بصورة غير قانونية ؟

لماذا نتمنى أن ترجع الأيام الجميلة، لماذا لا نتمنى أن تصبح أيامنا أجمل مثلاً.. طالما أن القضية مجرد "تمن" !؟

تروي المصادر التاريخية "القديمة" أن هيرودوس الروماني ملك يهوذا أمر جنوده بذبح جميع الأطفال المولودين في بيت لحم في ذلك الوقت خوفاً أن يكون من بينهم السيد المسيح الذي بشرت به نصوصهم الدينية، وذلك بعد "نبوءة" قدمها له جماعة من العرافين والسحرة قدموا من بلاد فارس، وأخبروه بأنهم رأوا نجماً في الأفق الشرقي يشير لقب ولادة النبي المنتظر.

تشير المصادر التاريخية "الحديثة" الى أن الصهاينة ارتكبوا أكبر المجازر وحشية وعنفاً ضد المدنيين الأبرياء في غزة، وذلك بعد "مشورة" ومعلومات ودعم مالي واستخباراتي، قدمتها لهم جماعة "مجهولة" !

يذكر أن الفنان الهولندي بيتر روبنز رسم لوحة "مذبحة الأبرياء" عام 1612، تم بيعها لـ "مجهول" قبل سنوات بمبلغ 77 مليون دولار، مسجلة بذلك رابع أعلى مبلغ يتم دفعه لشراء لوحة فنية.

في "مذبحة الأبرياء" أبدع روبنز في تصوير بشاعة القتل الوحشي التي مارسها جنود هيرودوس ضد الأطفال، وسط بكاء الأمهات ومحاولاتهن البائسة حماية أطفالهن من سيوف الجنود. لوحة بغاية الدقة والروعة، أشبه بكتلة مضطربة من الدم ومشاعر الصدمة

والذهول والألم والرعب والحزن والخوف التي تقذفها قذفا في وجه الناظر إليها.. وما أشبه
اليوم بالبارحة.

الطبقة الاجتماعية.. لفهم ما يجري

يشير المعنى المباشر والأكثر تداولاً في الأدبيات الاجتماعية والسياسية لمفهوم الطبقة الاجتماعية Social Class إلى التقسيم أو التراتبية في الدرجة بين الناس، كأن يقال أبناء "الطبقة العليا، الوسطى أو الدنيا".

غير أن مثل هذه التقسيمات كانت دائماً تمثل عنصرية اقصائية حتى على مستوى العلم، إذ لم يتورع كثير من العلماء عن استخدام تقسيمات فرعية ليكشف عن مواقع داخل كل رتبة، مثل "الطبقة العليا من الطبقة الوسطى" أو "الطبقة الدنيا من الطبقة العليا".. وهكذا.

كان المجتمع البريطاني من أكثر المجتمعات هوساً بهذه التصنيفات الفجة، لدرجة انعكست حتى على البرلمان الذي انقسم إلى "مجلس اللوردات" (خاص بالطبقة العليا) و"مجلس العموم" (خاص بعامة الناس)، وفي التعليم حيث برزت "المدارس الخاصة" مقابل "المدارس العمومية"، ولا تزال كلمة "عامي" أو عموم Common ترتبط في أذهان الكثيرين باعتبار العامي ينتمي إلى الطبقات الدنيا "الفقيرة غير المتحضرة وغير المثقفة".

ولا يزال التعليم الخاص إلى اليوم هو مفتاح الحصول على "الوظائف العليا" المقتصرة على أبناء الطبقات العليا، بل وصل الحرص على التمايز حتى في أكثر المواقف حدة ومواجهة مع الموت كما يظهر - بحق - فيلم تيتانيك بعض ركاب الدرجة الأولى وهم ينتقدون باشمئزاز عدم تخصيص مراكب الانقاذ وفصلهم عن بقية "الناس" خلال غرق السفينة!

على نقيض المجتمع البريطاني "الطبقي بامتياز" والمجتمعات التي تأثرت بالنمط البريطاني، يبرز بوضوح المجتمع الأميركي بوصفه "مجتمع بلا طبقات"، ولا يسعى الزائر لهذا البلد إلا أن يلاحظ وينبهر باللطف والتواضع وعدم التمايز أينما ذهب (الحديث عن المجتمع الأميركي وليس النظام السياسي).

كان التقسيم الطبقي السائد لفترة طويلة يقوم على تمييز الطبقة "الأرستقراطية"، وهي طبقة حكم وثراء بالتوارث، عن "الطبقة البورجوازية" وهي الطبقة الوسطى من أصحاب التجارة المتوسطة والمهن. أضف إليها لاحقاً "الطبقة العاملة"، وهي فئة دنيا من البورجوازية، و"طبقة الفقراء" وهي الطبقة المسحوقة التي لا تملك أي شيء، واقتصر دورها على التكاثر فحسب (لذلك هي الأخطر دائماً).

ارتبط هذا التقسيم بعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر الذي حدد الطبقات وفقاً لدرجة استفادتها أو عدم استفادتها من الثروة والدخل، وهذا النوع من التقسيمات الطبقيّة القائم على "الموقع من سوق العمل" هو من أكثر الأنواع عرضة للحراك الاجتماعي (الحراك هنا بالمعنى العلمي، أي الانتقال من طبقة اجتماعية إلى طبقة أخرى)، وازداد الحراك مع تطور السوق والتكنولوجيا التي مكنت الكثير من الشباب الطموح الانتقال من طبقة الفقراء المسحوقين إلى طبقة كبار الأثرياء في العالم من خلال إنتاج سلعة بسيطة، كتطبيق أو لعبة للهواتف الذكية (صاحب فيسبوك وغيره مثلاً).

عند كارل ماركس، تمثل "الطبقيّة" بؤرة مركزية لرؤية العالم، فهي التي تنتج وتحدد شكل العلاقات الاجتماعية ونوع الصراع على "فائض القيمة"، وفيها تتشكل الإيديولوجيات وتستغل أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع المدني كوسائل في الصراع الطبقي الذي يضمن استمرار الطبقة الحاكمة والأرستقراطية في الحكم والسيطرة على مفاصل تدفق "تكديس الثروة".

يضيف إليها عالم الاجتماع الأميركي المعاصر جون كلارك الصراعات الحديثة، العرقية والجنسية والمذهبية وغيرها من الصراعات التي يسميها "مظاهر ثانوية للصراع الطبقي، تؤدي دورها بالنسبة للرأسمالية وتختزل بمسمى سياسات الاختلاف"، ويقول كلارك: إن الطبقيّة ستبقى وستستمر بانتاج واضفاء الشرعية على التفاوت في الدخل والثروة وفرص الحياة والسلطة، وهذا باختصار.. هو جوهر ما يجري في عالمنا لمن يريد أن يفهم.

فشل المشاريع العربية

من فشل جامعة الدول العربية التي تأسست عام 1945، إلى فشل مشروع الدولة القومية الذي بدأه جمال عبدالناصر في 1956، إلى فشل مشروع الوحدة بين مصر وسورية الذي أعلن قيامه عام 1958 باسم "الجمهورية العربية المتحد"، إلى فشل مشروع القومية العربية مع حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تأسس عام 1947، وانقسم إلى حزبين متصارعين هما الحزب العربي الاشتراكي العراقي الذي تأسس عام 1952، والحزب العربي الاشتراكي السوري الذي تأسس عام 1963، إلى فشل الاتحاد الخليجي الذي بدأ عام 1981، إلى فشل إقامة دولة مستقرة في لبنان منذ الحرب الأهلية التي اندلعت عام 1975، إلى فشل جميع مشاريع الوحدة المغاربية وجميع مشاريع الوحدة العربية الأفريقية، فأصبحت الوحدة وحدات والقومية قوميات، قومية عربية سورية وقومية عربية عراقية وأخرى مصرية وأخرى مغاربية وأخرى خليجية وأخرى أفريقية.. فشل مستمر منذ 1945 وإلى اليوم، 22 دولة تتركز فيها معظم ثروات الدنيا، ومع هذا تشهد أبشع صور التفاوت الطبقي والتخلف الاجتماعي وأكبر عدد من الصراعات والانقسامات المدمرة.

المجتمعات العربية لاتزال في جوهرها لا تقبل الانتظام في مشاريع دولة. تخيلوا لو لسبب ما سقطت اليوم الحكومة المركزية في ألمانيا مثلا، هل تتوقعون أن تعود القبائل الجرمانية وتتقاتل فيما بينها على الهوية؟ لم يعد في ألمانيا ولا في الدول الأوروبية أي وجود للكيانات المتعارضة مع كيان الدولة، والتميز بين الفضاء الخاص للفرد والفضاء العام للمجتمع تم بجهود رجال دولة حقيقيين أسقطوا كل مظاهر هيمنة الفضاءات الخاصة وأبقوا فقط على مشروع واحد هو "الدولة". يستطيع الفرد في ألمانيا وبقية الدول الأوروبية أن يفتخر بنسبه واستعراض تاريخ عائلته النبيلة إذا أراد، لكن بعيدا عن مؤسسات الدولة وقواعدها التي وحدت الجميع تحت مظلة دستور وقوانين.

المجتمع العربي لايزال في حقيقته مجتمعا جاهليا، يعود عند أول فرصة لغياب الدولة أو ضعف مؤسساتها الأمنية القابضة على أعناق البشر منذ الأربعينيات من القرن الماضي،

يُعود سريعاً إلى فضائه الخاص الذي يقدمه دائماً على الدولة، يعود لقبيلته أو طائفته الدينية أو المذهبية أو لأي جماعة صغيرة يقدم لها الولاء والطاعة لتحتويه وتحميه من طغيان الجماعات الأخرى، المتصارعة دوماً.

ما حاجة مجتمع جاهلي كهذا للحرية والديمقراطية ووسائل إعلام حديثة ومستقلة؟ هذه أسلحة خطيرة في أيدي من لا يعرفون ماهيتها ولا يعترفون بقواعدها ولا يحسنون التعامل معها إلا كأدوات شتم وسباب، يجرحون بها أنفسهم والآخرين بلا شك.

مشكلة المجتمعات العربية هي مشكلة هوية في الصميم، لم تتمكن من التخلص من النعرات العرقية التي ظلت دائماً معول هدم لكل مشروع نهضوي، مع أن تراثها زاخر بتجارب ناجحة ومبهرة عندما ذابت الفوارق وانصهر الجميع في "المجتمع الإسلامي" الذي ليس فيه فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فكانت دولة وكانت حضارة.. من مؤسسات ونظم مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى مناد ينادي لخزائن بيت المال مع عمر بن عبدالعزيز، إلى حركة ترجمة كبرى في العصر العباسي المتقدم، إلى ازدهار العلم والاختراعات في الأندلس مع عبدالرحمن الناصر، قبل سقوطها في وحل المؤامرات والفساس التي هوت بهم من القمة إلى قاع الأمم، في حدث لم يتوقف عن التكرار أبداً.

المعقول واللامعقول حول "داعش"

ربما لم يحصل لأي تنظيم متطرف من كثرة التصنيفات والدرجات مثلما حصل لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الذي يشار إليه اختصاراً "داعش"، فالإيرانيون يعتبرونه تنظيماً إرهابياً مدعوماً من السعودية، والسعوديون يعتبرونه مؤامرة إيرانية، والمعارضة السورية فيها من يعتبر داعش صنيعاً المخابرات الصهيونية، وفيهم من يؤمن بأن داعش صنيعاً المخابرات الأميركية، وهناك من يرى أن داعش ممول من قطر، وآخرون يعتقدون أنه ممول من تركيا وهكذا.. الأكد أنه من غير المعقول أن تصدق كل هذه الأقوال معاً، قد يصدق أحدها فقط، وقد تكذب كلها.

من الأخبار الغريبة - والطريفة - حول زعيم داعش خبر انتشر مؤخراً مع صورة لشاب يجلس مع فتاة (جلسة مش ولا بد) وعليها تعليق بأن المدعو إبراهيم البدرى (خليفة المسلمين الجديد) هو في الحقيقة شمعون إيلوت وأنه عميل في جهاز الاستخبارات الصهيونية الموساد. ولا ندري هل نضحك أم نبكي لما وصل إليه حالنا من الجهل والسخافة. طيب إذا كان البغدادي هو شمعون إيلوت وتمكن من خداعنا بوضع لحيه صناعية وساعة رولكس، فماذا عن عشرات الآلاف ممن يقطعون الرؤوس بأيديهم وهم يصرخون "الله أكبر.. الله أكبر" ؟

قرأت أيضاً تقريراً يدعي أنه يكشف حقيقة داعش وزعيمها البغدادي، يقول باختصار أن أبي بكر البغدادي الحقيقي قتل في 2008، ولأن معظم أتباع هذا التنظيم لم يروا قائدهم فعلاً لأنه دائماً ملثم، وبعضهم بايعه عبر وسطاء، قام ضابط عراقي بعثي سابق برتبة كبيرة باستغلال الموقف، وقدم البغدادي الحالي وضحك على ذقون عشرات الآلاف من القاعدة وأوهمهم بأنه هو البغدادي نفسه، وطبعاً هناك ملايين من السذج يصدقون

هذه السخافة، لأنهم يحبون الإثارة والتشويق ويريدون أن يصدقوا دون ان يكلفوا أنفسهم
عناء السؤال: وأين ذهب مئات القادة الآخرين ممن يعرفون البغدادي الأصلي ؟

كتب المفكر العربي د.عزمي بشارة: "تعيش داعش في الفراغ الذي خلفه فشل الدولة،
لكنها لم تأت من فراغ". عبارة مكثفة وبليغة، تلخص الوضع بعمق، فداعش وغيرها من
التنظيمات المتطرفة من مختلف الأديان والمذاهب لا يمكن أن تظهر وتتحول من مجرد
أفكار طائشة لشخصيات شاذة إلى تنظيمات فاعلة على الأرض تستقطب الآلاف إلا مع
وجود وانتشار الظلم الاجتماعي والبطالة بين صفوف الشباب. ماذا تتوقعون من شباب
محبط ويأس سلبتهم أنظمة حكم فاسدة كل فرص العيش الكريم، وحرمتهم من كل أمل
في الحياة، وأقفلت أمامهم كل أبواب الدخول إلى التنظيمات المعتدلة، فلم يتبق أمامهم
سوى داعش وأمثالها، تحتضنهم وتعطيهم فرصة كبيرة للانتقام من تلك الأنظمة الظالمة
والمجتمعات التي اكتفت بالتفرج عليهم وهم يتعرضون للجوع والفقر والقهر والإذلال،
وتحولهم من مهمشين مسحوقين، إلى أبطال يرهبهم الناس ويرتعد من أمامهم الرجال ؟

في ألمانيا الكثير من التنظيمات السرية المتطرفة، أهمها النازيون الجدد. لكن لا يتجاوز
عدد أعضائها العاملين العشرات، ليس لأنها متطرفة، فالمتعاطفون معها والمؤيدون لأفكارها
بالملايين، ولكن عندما ينخرط الشباب في العمل والتخطيط للمستقبل بالحصول على
سيارة ومنزل خاص وزوجة وأولاد.. فهم ينخرطون في الحياة ويتفرغون للاستمتاع بها،
ولا يتجاوزونها أبدا ويتخلون عنها من أجل أفكار متطرفة ضد الآخرين، وما ينطبق على
ألمانيا ينطبق على كل البلدان بالتأكيد.

ميديكوس

بدأت دور السينما العالمية هذه الأيام في عرض الفيلم الألماني Der Medicus (أي الطبيب)، وهو مأخوذ عن رواية للأديب الأميركي نوح غوردون نشرها عام 1987، احتلت لسنوات طويلة قائمة أكثر الكتب مبيعا حول العالم، وبشكل خاص في ألمانيا التي بيع فيها أكثر من 6 ملايين نسخة.

في الرواية يتحدث غوردون عن التقدم العلمي - وخاصة في الطب - عند المسلمين في القرون الوسطى، ويقارن ذلك بحالة الجهل والتخلف التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك.

كما يبرز غوردون في الرواية فكرة التعايش السلمي بين الأديان من خلال علاقة صداقة متميزة تربط الطبيب المسلم بطبيب يهودي وآخر مسيحي، وربما تكون هذه الفكرة بالذات أحد أسباب تأخر تحويل هذه الرواية إلى فيلم سينمائي، وذلك لشدة حرص المؤلف عليها واشتراطه إبرازها في الفيلم.

مؤخرا، أقدم المخرج الألماني المبدع شتولتسل على تحويل رواية "الطبيب" إلى فيلم سينمائي يتوقع له النقاد أن يكون ضمن قائمة الأفلام العالمية المتميزة.

يقول شتولتسل "نميل هذه الأيام إلى وصف الدول العربية والإسلامية بالتخلف، لكن يجب التآني قليلا في هذه الأحكام القاسية والتفكير في ثقافتنا وكم الأشياء التي نصفها اليوم بالتقدم والحضارة، فهي مأخوذة في الأساس من العرب والمسلمين.

كثير من الأشياء التي ننظر إليها اليوم باعتبارها جزءا طبيعيا من حضارتنا جاءت في الأصل من العالم الإسلامي".

وفي لقاء مع التلفزيون الألماني "دويتشه فيله" حول الفيلم قال شتولتسل: "أمل أن يساهم هذا الفيلم في توضيح بعض الحقائق للمشاهد الغربي، وأن يجعله يدرك ويقدر دور المسلمين في النهضة الإنسانية".

تأملوا في هذا الإبداع والإنصاف.. وقارنوا هذا بكثير من أعمالنا الفنية التي تمتلئ بالتشويه والابتذال والكرهية ضد الإسلام قبل غيره.

فحجم إساءتنا للإسلام يفوق بمئات الأضعاف حجم إساءة الآخرين له.

معظم الناس لا يختلفون عن "المكبلين بالأغلال" الذين وصفهم أفلاطون في "تشبيه الكهف" .. غارقون بالجهل، يرون الظلال ويحسبون أنهم يرون الحقيقة.

الإقصاء ينتج خصماً مدمراً

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وضع الحلفاء المنتصرون شروطاً قاهرة ومذلة لألمانيا، وأرهبوها بتعويضات وديون لم تكن بقصد تحقيق العدالة وإنما بهدف تدمير ألمانيا وإذلال شعبها، تم هذا بإصرار شديد من رئيس وزراء فرنسا آنذاك الذي كانت تحركه مشاعر الانتقام أكثر من قواعد العقل والإنصاف والرغبة في بناء مستقبل.

والنتيجة كانت ظهور هتلر، الذي تسبب في دمار أوروبا وقتل أكثر من 70 مليون إنسان وتشريد ومعاونة أضعاف هذا العدد.

ومخطئ من يظن أن هتلر "حالة فردية"، فهو نتاج "خطاب ثوري" أشعل الحماس والرغبة في الانتقام في نفوس الملايين من الألمان انتصاراً لكرامتهم ودفاعاً عن حياتهم المهددة بفعل تلك الشروط القاسية والمهينة، فذلك الخطاب كان سينتج خصماً عنيفاً ومدمراً على كل حال.. قدر هتلر أنه كان ذلك الرجل.

كتب رئيس مركز سوروس للدراسات الاقتصادية مقالاً مهما حذر فيه الاتحاد الأوروبي من خطورة "إعادة إنتاج هتلر جديد" بسبب الشروط المحففة المتعلقة بالسياسة النقدية لدول الاتحاد، وقال جورج سوروس إن عملة اليورو تم تصميمها على هيئة المارك الألماني، فهناك بنك مركزي لدول الاتحاد لكن لا توجد خزانة ديون مركزية، وهذا خطأ فادح.

وبسبب إصرار ميركل على تحمل كل دولة ديونها بنفسها، تعاني اليوم دول عديدة مثل اليونان وإسبانيا وإيطاليا من أزمة خانقة قد تنتج وضعاً متفجراً في المستقبل القريب، تماماً كما أنتجت الظروف القاسية ضد ألمانيا الأيديولوجيا النازية.

في فلسفة التاريخ تعلمنا من ابن خلدون ان للتاريخ دورة يعيد فيها نفسه، وتعلمنا من هيغل ان الأحداث مجرد تفاصيل لا تؤثر في مسيرة التاريخ نحو المطلق.. والمطلق على ما يبدو ليس الكمال والسعادة، وإنما الدمار الشامل.

إذا لم نتعلم أي شيء من الحربين العالميتين الأولى والثانية، فما الذي يمكن أن يؤثر فينا؟ 17 عاما من الحرب الأهلية الطاحنة في لبنان لم تقنعهم بالسلام. 20 عاما من الصراع القبلي والانقسام لم تقنع اليمنيين بالتوافق. 30 عاما من الإقصاء والوحشية التي مارسها صدام لم تقنع العراقيين بالتعايش، 40 عاما من الديكتاتورية التي مارسها القذافي لم تقنع الليبيين بالحوار بديلا عن العنف، 60 عاما من حكم العسكر لم تقنع المصريين بالتعددية والقبول بالآخر.. وها هي دول أخرى تسير على ذات الطريق في العنف والإقصاء، السودان، جنوب السودان، تونس، سورية، الأردن، الجزائر، المغرب، ودول أخرى.

فمتى ترتوي نفوسنا من سفك الدماء وقطع رؤوس الأطفال؟ متى نتوقف عن إنتاج وإعادة إنتاج "الخصم المدمر" الذي لا يترك له المنتصر أي شيء سوى الرغبة في الانتقام؟

يوماً ما..

يوما ما.. سيدرك الناس في بلادنا أنهم تقاتلوا على لا شيء، وأن أرواح الملايين من أبناءهم ذهبت سدى بلا قيمة، وأن ملايين المشردين والمعذبين والجائعين قد دفعوا ثمن بؤسهم وشقائهم من أجل جنون سلاطين الحرب وتجار الطائفية.

يوما ما.. سيأتي جيل يدرك حتماً أنه لا فائدة من قتل إنسان بسبب إيمانه بعقيدة مختلفة.

يوما ما.. سيدرك المصريون أنهم أضاعوا من حياتهم الشيء الكثير بسبب الكراهية وروح الانتقام، سيدركون أن نهضة بلدهم وتقدمها يجب ألا ترتبط بشخص بعينه، وإنما يرتبط بمؤسسات لا يكون للأفراد فيها أي قيمة إلا باحترامها واحترام مصالح البشر وحقوقهم..

أما لماذا مصر بالذات، فلأن "مصر أم الدنيا، واحنا كلنا متشعبطين فيها".

هناك مثل ألماني يقول "ما لم يأت بعد، لا يعني أنه لن يأتي أبداً". يوما ما.. سيأتي هذا اليوم.

تذكر كتب التاريخ أن النبي العبراني أرميا تنبأ بتدمير أورشليم عاصمة مملكة يهوذا، وقد تحققت نبوءته عندما احتل البابليون بقيادة نبوخذنصر أورشليم ودمروها عام 586 قبل الميلاد، وقتلوا معظم أهلها ونفوا البقية وأخذوا النساء سبايا إلى بابل. كان النبي أرميا قبل هذا يحذر اليهود من انغماسهم في الملذات والذنوب والمعاصي، لكنهم لم يهتموا بتحذيراته بل سخروا منه، وعندما صدقت رؤاه ونبوءته، انعزل عن الناس وكتب "سفر الأحران".

ترى.. كم أرميا لدينا اليوم، وكم سفراً للأحران ستكتب!؟

العالم أصبح خرابة

قرأت تقريراً في موقع CNN بالإنترنت يقول إن تنظيم القاعدة يعيش أقوى لحظاته التاريخية، ومقاتلي هذا التنظيم في أوج نشاطهم هذه الأيام، وهذا يعتبر محفزاً كبيراً للتنظيم للتحرك في عدة اتجاهات والضرب بقوة أكبر، كما أنه محفز كبير لاستقطاب مقاتلين جدد. قرأت أيضاً تقريراً مترجماً من صحيفة "دير شبيغل" الألمانية يذكر بحقائق وإحصائيات وشواهد تاريخية أن الوضع في العالم العربي قد يمتد لأكثر من ثلاثين سنة للوصول إلى "نقطة بداية" تعيدهم لما كانوا عليه قبل 50 سنة.

قال لي أحد الأصدقاء منتقداً، إنني "مغرق بالتشاؤم والإحباط"، فألى هذا الصديق وغيره، تأملوا في عالمنا وما يجري فيه من صراعات مدمرة، تغذيها إيديولوجيات متطرفة تقوم على الكراهية وروح الانتقام، تجعل من أغلب أتباعها "آلات متوحشة" تقتل وتمزق وتعذب بلا تفكير وبلا حد أدنى من قيم القتال وأخلاق الفرسان، والمؤلم أنها جميعاً "آلات" تقتل باسم الله.

كتبت صحيفة الإندبندنت قبل أسبوع "حكام الخليج يؤسسون لحرب طائفية في العالم الإسلامي"، ولم أقرأ حتى الآن أي رد من أي دولة خليجية.. قال لي الصديق العزيز د.صلاح الفضلي إن عام 2014 سيكون عام الحسم، قبل ذلك كان مقدمات لما سيحسم هذا العام، وأخذ يحلل الواقع ويشرح لي خريطة التحالفات الجديدة وتوازنات القوى.. إنها دعوة أخرى للعرب والتشاؤم.

بالنسبة إلي، من أجمل العبارات عند الشعب الأميركي، والتي تكاد تسمعها من الجميع تقريباً هي "لا أريد أن أحكم عليك، أو على أحد.."، يا للذوق والإنسانية والتواضع.

الحكم على الآخرين آفة من آفات الشعوب العربية، "الحكم عليهم" وليس انتقادهم أو تقييمهم، لأن النقد أو التقييم يتطلب معايير واضحة ومفهومة ومتفقا عليها تجعل النقد موضوعيا ومفيدا، أما الحكم على الناس فهو "رأي شخصي" مبني على المزاج والعاطفة والصور النمطية عن الآخرين.

الحكم على إنسان يعني ضمنا أن من يطلق هذا الحكم يضع نفسه بمنزلة أعلى بدرجة أو درجات من الشخص الذي يحكم عليه، يراه صغيرا وقليلًا، ويشعر - بالمقابل - بأنه مركز الكون ومصدر المعايير والقيم وصاحب السلطة التي تخوله الحكم على الآخرين، وهو يستمد "قوته الوهمية" من الخيال والعدم.

من أنا لأحكم على الناس ؟

سوريا.. لتأديب الثوار

السياسة تتطلب مرونة وتفاوضا وتراجع خطوة للتقدم خطوتين، التصلب بالمواقف في السياسة غير مفيد، وغالبا يعبر عن موقف شخصي وعناد بين أشخاص تصبح المسألة بالنسبة لهم مسألة كرامة و"تكسير راس"، لكن يتضرر منها الناس بصورة غير عادلة، فما ذنبنا ؟

جمود قوى المعارضة وتصلبها لا يخدم أحدا، والعمل الجماعي يتطلب تضحيات من الأفراد، وإذا كان بعض "الرموز" يتصورون أن "بريستيجهم" لا يسمح لهم بالتنازل، فعليهم الانسحاب وترك المجال لغيرهم من غير الأثانيين.. إن وجد، البلد لم يعد بحالة جمود فحسب، بل يعيش نهبا منظما وحالة إفلاس، تعليقنا هكذا، بحالة انتظار بأسفة أمر غير مفهوم، فإذا كنتم تنتظرون "سوبر مان" فتأكدوا أنه لن يأتي.

في أي مجتمع منقسم - كما هو الحال في مصر وبقية بلداننا العربية - لا يمكن نجاح أي مشروع سياسي لا يقوم على التوافق وإشراك الجميع، فأى حكم يقوم على الاقصاء ومحاولة سحق الآخر، لن يتمكن من إنجاز أي شيء، وسيعتبر مهمته الوحيدة الحفاظ على الكرسي بقبضة أمنية تدمر البلد وتعطل نهضته وتقدمه. بلداننا متخلفة لأنها تدور حول "مشروع الحكم" وليس على مشروع بناء الدولة. سنستمر هكذا، إلى أن يأتي جيل يدرك ضرورة التعايش السلمي والعمل معا من خلال نظام حكم تشاركي لبناء وطن يسع الجميع وليس من أجل الحكم ذاته، أو من أجل سحق الخصوم.

إذا كان الهدف من إطالة الصراع في سورية - من خلال "إبقاء الحرب دون حسم" - هو تأديب الشعوب العربية التي تجرأت على الثورة، فعلى ما يبدو تحقق هذا الهدف.. نرجوكم أنهنوا مأساة البشر هناك.

البعض لم يعد يميز بين الحرب الدائرة في سورية (بين النظام والمعارضة ومن يقف خلف كل منهما)، وبين الضحايا الأبرياء الذين لا رأي لهم فيؤخذ، ولا قيمة لهم فتذكر، ولا ذنب لهم في أي شيء. قاتل الله الطائفية التي أعمت قلوب الطائفيين حتى لم يعودوا يميزون بين الضحية والجلاد. البعض وصلت به قسوة القلب لأن يكذب ليمنع الناس من التبرع للاجئين المساكين، وهناك من يستكثر حذاء قديما يحمي قدمي طفل مشرد لمجرد أنه من طائفة أخرى.. أي بؤس هذا وأي شقاء وأي جهل!؟

النظرة الثالثة

المجتمع الكويتي من وجهة نظر الوردى

عالم الاجتماع العراقى الكبير د.على الوردى، رحمه الله، من القلائل جدا الذين كرسوا حياتهم لبحث شخصية الإنسان العراقى، له حوالي 17 كتابا و150 بحثا كلها حول هذا الموضوع، انتقده بعض الباحثين على عدم التزامه بالمنهج الإحصائى فى أبحاثه، وهو منهج أميركى يقوم على استقصاء آراء الناس من خلال سؤالهم مباشرة فى الشوارع أو المنازل، ولكنه كان يرفض هذا النقد ويقول ان هذا المنهج لا يصلح للمجتمع العراقى، لأن الإنسان العراقى بطبعه يكره الحكومة ويتوجس منها خيفة، فإذا رأى باحثا يمسك ورقة وقلما يظنه "أفندى" قادمًا من الحكومة، فلا يجيب أو يكذب فى إجاباته.

ولذلك كان يعتمد منهج "التعايش والتفهم" الذى يقوم على مخالطة الناس والتحدث معهم بعد كسب ثقتهم دون أن يعرفوا من هو، وهو منهج مهم فى علم الاجتماع بدأه عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر فى دراسته المهمة عن ظاهرة "الانتحار" فى أوروبا.

ولذلك كان الوردى، رحمه الله، يخالط الناس فى الأسواق والحوارى، يجلس الساعات مع العمال فى المقاهى والمطاعم ومحلات تصليح الأحذية، وكان يقول ان علم الاجتماع بطبيعته متواضع، يستمد معظم معلوماته من السوقة والسفلة والمجرمين والغوغاء.. لأن مشكلة علم الاجتماع أنه يدرس ظواهر اجتماعية لا تقبل التجريب، إذ لا يستطيع أي باحث أن يجعل الناس يطلقون زوجاتهم مثلا كي يدرس ظاهرة الطلاق، والجريمة حدث لا يمكن إخضاعها للتكرار.

ومازلت أذكر أيام الدراسة فى الجامعة عندما كنا طلبة نقضى الأشهر عند مكتب الخدمة الاجتماعية فى المحكمة على أمل أن نحظى بمقابلة حالة طلاق واحدة دون فائدة، حتى أصبت بالخيبة وطلبت من أستاذى تغيير موضوع البحث الميدانى إلى مشكلة أخرى (الكفاءة فى الزواج).

أفهم تماما أن معظم القرارات لدينا لا علاقة لها بالعلم ولا تستمد مقوماتها من أهل الاختصاص ولا تبني على أساس نتائج البحث العلمي، فلا غرابة أن يكون حالنا حال العبث والفوضى.

ومع هذا، سأكتب باختصار في المقال القادم أهم النتائج التي توصل إليها عالمنا الجليل د.علي الوردي حول شخصية الإنسان العراقي وحول سمات المجتمع هناك، على اعتبار أنها أقرب النتائج إلينا، فليس ثمة دراسات أخرى أقرب وأدق من دراسات الوردي، لعلها تلقى في يوم من الأيام وقعا حسنا عند مسؤول ما، يهديه الله لعمل شيء من أجل هذا الوطن على هدي من العلم.

أعلم جيدا أن المقام لا يسمح بتلخيص دراسات أستاذنا الكبير علي الوردي، وللمهتمين أحيلهم لأهم كتبه رحمه الله وهي: مهزلة العقل البشري، وعاظ السلاطين، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (8 أجزاء)، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، شخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث.

المجتمع الكويتي من وجهة نظر الوردى 2

قدمت فى المقال السابق باختصار شديد أعتذر فىه من مقام أستاذنا وعالمنا الكبىر د. على الوردى لمحة عن دراساته حول طبىعة المجتمع وشخصىة الانسان العراقى، والتى أراها دراسات تكاد تنطبق تماما على المجتمع الكوىتى نظرا للقرب الثقافى والجغرافى والاجتماعى بىن المجتمعىن.

ىخلص الوردى فى كتاب "دراسة فى طبىعة المجتمع العراقى" الذى صدرت الطبعة الأولى منه عام 1965 إلى أن الحضارة ترتبط كثرىا بقوة الدولة أو ضعفها، فإذا قويت الدولة وأحكمت نفوذها وسيطرتها ستزدهر حىنها المدن وىتفرغ الناس للعمل الزراعى والصناعى، وإذا ضعفت الدولة فسىجد الناس أنفسهم مضطرىن للعودة إلى مجتمعاتهم الصغىرة، وفى العراق بداوة تمثل خط الرجعة الأول حال ضعف الدولة، وما أكثر ما تعرضت الدولة العراقىة لنكسات وحالات ضعف، ولذلك أصبحت شىخصىة الإنسان العراقى متذبذبة بىن البداوة والحضارة. ىسمى د. الوردى هذه الحالة بظاهرة "المد والجزر"، وىؤكد أن هذه الظاهرة موجودة فى كثرى من الأقطار العربىة والتى ىقسمها إلى ثلاثة أصناف، الأول فىه البداوة والحضارة جنبا إلى جنب كالعراق (والكوىت أيضا باعتقادى)، الصنف الثانى الذى تكون فىه البداوة أشد من الحضارة مثل نجد والإحساء ولبىيا وصحراء الجزائر وحضرموت. والصنف الثالث الذى تكون فىه الحضارة أقوى من البداوة وهو قلىل جدا فى عالمنا العربى، ربما إلى حد ما فى مصر بالوجه البحرى كما ىقول الوردى. وىتوصل كذلك إلى نىتجة مهمة مفادها أن ظاهرة "المد والجزر" بىن البداوة والحضارة موجودة فى مناطق كثرىة من العالم، كالصىن والهند والصحراء الآسىوىة، إلا أن المنطقه العربىة تمتاز عن غيرها فى هذا الشأن بشدة الصراع بىن البداوة والحضارة وىتتابعه على مدى أذىال.

من النتائج المهمة في دراسات الوردى على المجتمع العراقى أن البداوة والحضارة متعاكستين فى قيمهما الاجتماعىة تماما، بل الهدف النهائى الذى تسعى إليه البداوة على النقيض تماما من هدف الحضارة، يتضح ذلك بقوة فى أمرين، الدولة والعمل المهني (يسمى الاحتراف)، فالبداوة مبالاة بطبيعة تركيبها الاجتماعى للنفور من الدولة والتنظيم المؤسسى، وتتجنب الخضوع لسلطة أعلى تحد ما يجب فعله وتركه. والبداوة تقدم القبيلة محل الدولة، لأن القبيلة محل اعتزازه وكرامته، بينما الدولة "فى نظره" ليست سوى نظام للذل، تجبره على العمل المقيد وطاعة المسؤؤل ودفى الضريبة.

وفى الاحتراف، يقول الوردى، نجد البدوى يختزى من اتخاذ "مهنة"، ولعل كلمة "مهانة" ترتبط لديه بهذا المعنى، فالبدوى مقاتل يحترم النهب والغزو، ويحتقر الرزق الذى يأتىه عن طريق العمل، ولذلك يحتقر العمال، كالحائك والصانع والبقال والمعلم والكساب وأي حرفة من حرف الحضارة.

ما الذى يمكن أن نتعلمه من د. الوردى هنا؟ لا شك عندى أن أهم نتيجة هو أن هذه الفوضى والنهب المنظم وتفوق قيم البداوة التى ترفض النظام والخضوع للقانون واحتقار العمل وغيرها سببها الرئيسى "ضعف الدولة" وتخليها عن ممارسة دورها بصورة عادلة وبناءة، يتم هذا عن جهل وقلة حيلة أكثر من كونه هدفا ورغبة عند السلطة.

بقي أن أذكر بأن المقصود بالبداوة هنا ليس "أبناء القبائل" بالمصطلح الشعبى الدارج، وإنما بالمعنى العلمى الذى يقصد فيه منظومة قيم وثقافة اجتماعية توجد فى المجتمعات فى مرحلة "ما قبل الدولة"، وهى موجودة فى بقاع كثيرة من العالم وليست محصورة بصحراء الجزيرة العربية كما يظن البعض.

بين الورق والإلكترون

أنتمي لجيل أمسك بالكتاب حتى تكونت بينه وبين الورق مشاعر وحنين، تلك المشاعر الخاصة التي تتشكل عندما نضع قطعة ورق صغيرة بين الصفحات لنعود إلى نفس الموضع بعد فترة، أو حين نخبئ بين ثنايا الأوراق بعض الذكريات أو حين نودعها بعض الأسرار.

مثل هذا الحنين لا أجده أبداً مع الأجهزة الحديثة، لدي مئات الكتب الإلكترونية في جهاز الأيباد منذ سنين، لم أكمل قراءة واحد منها حتى الآن، بينما قرأت مئات الكتب الورقية، وأعدت قراءة بعضها مرات ومرات.

أجهزة الإلكترونيات رغم سهولة استخدامها - أحياناً - وتنوع إمكاناتها وقدراتها الكبيرة على تخزين ملايين الكتب وتصنيفها حتى لكأنك تحمل أكبر مكتبات العالم في جهاز صغير، إلا أنها لا تمنح القارئ ذلك الشعور الجميل الذي يعطيه ملمس الورق، إنها أشبه بالبساطة والتلقائية التي نجدها عند الأطفال ولا نشعر بها مع الكبار.

أمسكت بالورق ثم لحقت بالإلكترون، لكن ابني الصغير سينشأ على الإلكترونيات، وربما لن يمسك الورق أبداً، سيجده شيئاً غريباً ومتخلفاً وينتمي لعالم ليس عالمه.

بعضنا يلوم الحاضر على هذا التقدم، ويتحدث عن الماضي بكثير من الشوق والحنين، بل ويتحدث بقرف واشمئزاز عن أطفال عصر الإلكترونيات، لكن علينا أن نتذكر أن الزمن يسير للأمام، وأن تفضيلاتنا ليست هي معايير الآخرين، وأن لكل جيل أدواته ومفاهيمه.

الزمن سيستمر بالتقدم، ومن لا يجيد التعامل مع هذا الواقع ولا يحسن التكيف مع عالم الإلكترونيات، سيجد نفسه خارج الزمن.. وحيداً مثل مسافر تأخر عن الرحلة وطارته عنه الطائرة.

قرأت قبل أيام تقريراً نشرته جريدة "دير شبيغل" الألمانية يرصد خسائر كثير من مكاتب السفر والسياحة التقليدية بسبب منافسة مواقع الإنترنت التي تقدم تلك الخدمات بأسعار أقل وإمكانات أكبر ووقت أسرع، ويخلص التقرير إلى أن كثيراً من الأعمال "التقليدية" - وخاصة الورقية - ستختفي خلال بضع سنوات، وستغلق آلاف المكاتب التي لاتزال تطلب حضور الزبائن من أجل الحصول على الخدمات، وينبه التقرير إلى أن أصحاب الأعمال الذين لم يبدأوا بعد بالاستعداد لعصر الإلكتروني ولم يبدأوا فعلياً بتكييف أعمالهم وتوفير خدماتهم عبر الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي فإنهم سيخسرون وسيجدون أنفسهم مضطرين لإغلاق مكاتبهم بسبب عدم تمكنهم من دفع الإيجارات والرواتب.

هذا الحديث موجه للقطاع الخاص بالتأكيد، أما الحكومة فهي حتماً تنتمي لعصر آخر، لعالم لا يزال يستخدم الأختام و"الاسطمبة" وطوابع تتطلب 15 دقيقة لشرائها من المكاين وفتحها ولصقها على الورق.

المستقبل هو ما نفعله اليوم

في رآعتها Under the Tuscan Sun "تحت شمس توسكان" تذكر الشاعرة والأديبة الأميركية من أصل جورجي فرانسيس ميز على لسان أحد أبطال الرواية وهو مارتيني الذي يوجه حديثه إلى الفتاة البائسة والحزينة بسبب اكتشافها خيانة زوجها، وانفصالها عنه وفشلها في تكوين علاقة جديدة حتى وصلت لحالة من اليأس من الحياة والاعتقاد بعدم جدوى فعل أي شيء في هذا العالم الكئيب.. فيقول لها مارتيني: سنيورا، بين النمسا وإيطاليا منطقة شديدة الانحدار والخطورة على جبال الألب تسمى سيميرنج، قام الأهالي ببناء سكة قطار عليها لتربط فيينا مع فينيسيا، قاموا ببناء سكة الحديد هذه حتى قبل أن يوجد أي قطار يمكن أن يسير على هذا الطريق، ومع هذا، قاموا ببنائه على أمل أن يأتي في يوم من الأيام قطار يمر على سكة الحديد وينقل الناس بأمان ويوفر عليهم الوقت.

في عام 2007 كنت مسافرا بالقطار من مدينة انترلاكن إلى أعلى قمة في جبال الألب في سويسرا في منطقة تسمى "يونج فراو"، توقف القطار في محطة في منتصف الطريق كانت تضم متحفا صغيرا على مدخله صور قديمة للعمال الذين قاموا ببناء سكة الحديد، وتماثيل برونزية لأصحاب المشروع الذين حفروا الجبال في عام 1860 لينعم من بعدهم ويستفيدوا من هذا العمل.

نتأمل في وتيرة الأعمال والإنجازات في دول العالم المتحضر فنذكر بوضوح أنهم يبنون للمستقبل، يسابقون الزمن لصنع حضارة، ثم نتأمل في مشاريعنا المتواضعة جدا في الكويت، فماذا يفترض أن ندرك من فشلها وجمودها لسنوات طويلة بتكاليفها الخيالية ثم بعد كل هذا لا يتم تسليمها بسبب أخطاء وعيوب خطيرة تهدد حياة الناس؟! ما الذي يفترض أن نستنتجه غير انعدام أي إرادة حقيقية لبناء مستقبل لهذا الوطن؟!

عندما تدور بين الناس أحاديث غاية في الخطورة عن أن الكويت مؤقتة، فهي بالتأكيد أحاديث لم تأت من فراغ، فالاعتقاد بعدم وجود مستقبل تكونه وتغذيته ممارساتنا نحن على أرض الواقع، فهذا النهب المنظم والتعامل مع الفوائض المالية بعقلية "من صاها عشا عياله" لا تبني أي مستقبل.. غدا سيلعننا أبناؤنا والتاريخ لأننا تصرفنا بأنانية حقيرة، ولم نترك لهم سوى خرائب ينعق فوقها اليوم.

جسر الصين العظيم

تستهلك الصين نصف كمية الاسمنت والفولاذ الذي يتم إنتاجه في العالم، وذلك بسبب كثرة المشاريع الإنشائية التي لا تتوقف طوال العام.

شاهدت تقريرا مذهلا في قناة ناشيونال جيوغرافيك عن أكبر الجسور في العالم والتي تمتد عبر ضفتي نهر يانغتسي الذي يقسم الصين إلى نصفين، ويشهد أكبر حركة للبواخر والعبارات طوال اليوم وعلى مدار العام.

كان الصينيون يعبرون نهر يانغتسي بالعبارات التي تقطع النهر عرضا خلال ساعتين و10 دقائق، في رحلة لا تخلو من المخاطر بسبب مرور البواخر التجارية الكبيرة باستمرار. لكن بعد بناء جسر لويو وهو أكبر جسر مقوس في العالم وجسر تشينغداو وهو أطول جسر معلق في العالم وغيرها من الجسور العظيمة، أصبح الانتقال بين ضفتي نهر يانغتسي لا يتجاوز أكثر من 10 دقائق فقط، وبأمان أكثر.

نهر يانغتسي هو ثالث أطول نهر في العالم بعد نهر النيل ونهر الأمازون، ينطلق من جبال تنغولا في التبت ويصب في بحر الصين نزولا، يبلغ طوله 63 ألف كيلومتر، يفصل معظم المدن الصناعية والتجارية الكبرى عن بعضها، ولذلك يمثل بناء الجسور عبر هذا النهر العظيم أمرا بالغ الأهمية للاقتصاد الصيني. وتكمن التحديات الكبرى أمام بناء مثل هذه المشاريع الضخمة في عدة أمور، أولا في طبيعة الأرض الرملية المتحركة التي يصعب معها بناء قواعد ثابتة، خاصة في مدينة شنغهاي ثاني أكبر المدن الصينية، إضافة إلى عرض النهر الكبير الذي يصل إلى 90 كيلومترا في بعض النقاط، إضافة إلى الصعوبات الطبيعية المتمثلة بالزلازل والفيضانات المدمرة. ومع هذا، لا يسع المرء إلا أن يقف إجلالا وإكبارا لهذا الشعب العظيم الذي يتحدى بإصرار مذهل قوى الطبيعة ويتغلب عليها بالعلم والهندسة والإرادة لبناء حضارة ومجد.

بعد انتهاء البرنامج، وبعد أن ختم المذيع بقوله إن الصين تخطط لبناء أكثر من 50 جسراً أخرى تتنافس كلها في العظمة والجمال والقدرة على ربط المدن وتسهيل التنقل، أعدت البصر إلى بلادي، وأعدت البصر إلى البلدان العربية كلها، فعاد البصر خاسئاً متحسراً على ما فرطنا في حق أوطاننا وعلى الدمار والتخلف الذي رسخته أنظمة حكم فاسدة بلا إنجاز ولا حضارة.. منكم لله.

الحقيقة فلسفيا

كان الفيلسوف الألماني الكبير مارتن هيدجر يعتقد أن اليونان القديمة تمثل "النموذج الأكمل" للبشرية، وكان يعتقد أن اللغة اليونانية القديمة تعبر أصدق تعبير عن "العقل اليوناني الكامل" (بالتأكيد هو يقصد أثينا الديموقراطية بفلاسفتها العظام وليس إسبرطة بنظامها العسكري).

تتبع هيدجر في "نداء الحقيقة" تاريخ هذا المصطلح (الحقيقة) عند اليونان، في بحث تيرمينولوجي عميق قدم فيه قراءته الخاصة لتصور اليونانيين عن الحقيقة وكيف فهموها.

يقول هيدجر إن كلمة "الحقيقة" في اللغة اليونانية القديمة تنطق (أليثيا)، وهي تتكون من حرف "ألفا" وكلمة "ليثيا"، ويبين أن حرف ألفا إذا جاء قبل الكلمة يصبح أداء نفي (لا - ليس)، وكلمة "ليثيا" تعني الحجب والغموض والخفاء، والفعل "ليثين" يعني أن يحجب أو يخفي ويواري.. وعليه فإن المعنى الحرفي لكلمة "أليثيا" هو "اللامحجوب" أو "اللامخفي".

بكلام آخر، الحقيقة عند اليوناني قديما كانت تعني "الانكشاف"، أي أن تظهر الأشياء أمامه بوضوح وتزال عنها الحجب والغموض والإخفاء.

بالنسبة لي، يمثل هذا المعنى الدقيق لتصور الحقيقة أكثر المعاني رسوخا وبقينا، إذا ما تأملنا جيدا في معنى الحقيقة بوصفها انكشافا وحضورا للأشياء أمام الإنسان، كما هي دون حجب أو غموض، وهو ما يمثله المعنى المعاكس للحقيقة، أي الزيف والخداع.. فالزيف هو في نهاية المطاف تشويه أو تزوير يدخل على الأشياء من أجل "إخفاء" معالمها، بحيث لا تظهر ولا تتكشف على "حقيقتها".

ولذلك، تبقى الأشياء بالنسبة لنا غير حقيقية طالما اعترها اللبس والغموض والخفاء، ولا يمكننا الحديث - يقينا - عن شيء بوصفه "حقيقة" طالما أنه لم يتكشف لنا ويظهر أمامنا بجلاء ووضوح.

هنا يكمن تمييز دقيق وعميق بين الحقيقة والرأي أو الشكوك والالتهامات.

فعلى من يرغب أن يتحدث عن شيء بوصفه حقيقة، فعليه إذن أن يكشفه للناس، أن يظهر تفاصيله ويجعله "حاضرا" بكلية أمامهم، وإلا فإننا نكون بإزاء قناعات وآراء شخصية وليست حقائق، وفي الرأي نستطيع أن نقتنع أو لا نقتنع، بأن نقبل أو نرفض، أما الحقيقة فلا يملك العقل مقاومتها أو رفضها.. إلا إذا كان مغلقا، فيقال عنه حينها انه أعمى البصيرة.

عرف الإنسان المسرح من خلال اليونانيين، الذين كانوا يقدمون للناس عروضاً "تمثيلية"، ولأنها "تمثيل" وليست "حقيقة"، كانوا يلبسون أقنعة تخفي وجوههم، كانت الأقنعة إما لوجه مبتسم أو لوجه يبكي للدلالة على إحدى الحالتين اللتين كانتا تمثلان المسرح آنذاك، الكوميديا والتراجيديا، ولهذا اتخذ المسرح رمز هذين الوجهين منذ ذلك الحين.

ولهذا أيضا نستخدم في لغتنا اليومية تشبيه "القناع" لوصف الكذب والزيغ والخداع، لأن الأقنعة حجب وغموض وإخفاء، أما الحقيقة فهي كشف ووضوح وجلاء.

وما دمننا في سيرة اليونان.. تأملوا في هذا السؤال: لماذا أنجبت أثينا هذا العدد الكبير من الفلاسفة، في حين عجزت إسبرطة عن انجاب سوفسطائي واحد؟.

تموز.. وربيع العرب الدامي

يذكر عالم الانثروبولوجيا (= علم الإنسان) الاسكوتلندي الكبير جيمس فريزر في كتابه المهم "الغصن الذهبي" أن معظم الأساطير الدينية ظهرت مع ظهور الزراعة في عصر ما قبل التاريخ، وأن التطور العقلي للبشر مر بثلاث مراحل كبرى هي السحر البدائي، ثم الدين، ثم العلم. ويذكر فريزر أن الإغريق أخذوا عن البابليين والسوريين عبادة أدونيس إله الخصوبة والنماء في القرن السابع قبل الميلاد تقريبا، وأدونيس عند الإغريق هو ذاته "تموز" في حضارة بلاد النهرين القديمة، كما أن أفروديت الجميلة عند الإغريق هي ذاتها عشتار عند البابليين.

كان البابليون والسوريون يعتقدون أن الإله تموز يموت مرة كل عام، فتختفي معشوقته عشتار إلهة الأمومة والخصوبة بحثا عنه في عالم الأموات، وبسبب غيابهما يجف الزرع والضرع ويعم القحط والجوع، إلى أن تجده وتعود به للحياة مرة أخرى، فيعود النماء والخصوبة للأرض من جديد وتزدهر الحياة. موت تموز في هذه الحضارة هو الصيف، وعودته مع عشتار هو الربيع.. هذا ما نجده في قصائد شعراء الحداثة، وأهمهم الشاعر الكبير بدر شاكر السياب بالتأكيد.

كل من يعرف السياب يعرف تأثيره الشديد بالشاعر الانجليزي ت.اس. إليوت، خاصة في قصيدة أنشودة المطر التي تمثل قمة التأثير بقصيدة "الأرض الخراب" عند إليوت.

في "الأرض الخراب" يحكي إليوت كيف تحول العالم مع بداية الحرب العالمية الأولى إلى أرض مدمرة ميتة لا حياة فيها، ويستخدم لغة رمزية متأثرة بالطقوس والأساطير الشرقية القديمة، وأهمها أسطورة تموز وعشتار، ويستلهم منها عودة الحياة للعالم بعد الخراب. وتأثير إليوت على شعراء الحداثة في هذه الرمزية المستمدة من الأساطير الشرقية لم تتوقف عند السياب وحده، بل طالت معظم الشعراء معه وبعده، خاصة نازك الملائكة. وبما أن إليوت قد أخذ هذه الرمزية من الشرق أصلا، فنستطيع أن نقول إذن إن تأثير شعرائنا به إنما هو عودة "ما كان لنا"، فهذه بضاعتنا ردت إلينا، لكن كما هو الحال مع بقية

منتجاتنا الحضارية، التي ما كان لنا أن نعرفها لولاهم، فهم من اكتشف لنا حجر رشيد وهم من اكتشف لنا النفط وغيره من الكنوز المدفونة تحت أقدامنا

في أنشودة المطر، ينتقل السياب رحمه الله بين حال الفرح والبهجة، مع سحر العيون وانعكاس الأقمار على النهر وكركرة الأطفال على عرائش الكروم.. إلى حال البؤس والشقاء مع الأشلاء المبعثرة والعظام المسحوقة والفيضانات والدمار، ويكرر هذين المشهدين طوال القصيدة، في رمزية واضحة لتموز وعشتار، للموت والحياة التي ما انفك السياب يذكرهما في معظم قصائده، خاصة عندما يتحدث عن العراق. فتأملوا فيما يشهده عالمنا العربي المنكوب هذه الأيام، من تتابع "الربيع" والجفاف.. ألا يقفز أمامكم تموز شاخصا على ضفاف أنهار الدم المسكوب ؟

كتب السياب في "أغنية في شهر آب" :

تموز يموت على الأفق
وتغور دماه مع الشفق
في الكهف المعتم والظلماء
نقالة إسعاف سوداء
وكأن الليل قطيع نساء
كحل، وعباءات سود
الليل خباء
الليل نهار مسدود

تعب الشكاية

تعبت، وأظن الكثيرون مثلي سئموا عبثية وجنون إنسان هذا العصر..

أحتاج - كما يقول محمد علوان - إلى أن يربت على كتفي أي شيء، حتى لو قطرة مطر.

قرأت منذ فترة طويلة لنجيب محفوظ: "لا أخشى على ظهري من عدو شريف، بقدر ما أخشى على صدري من صديق مخادع".

الآن أفهم بوضوح ماذا يقصد.. بعد أن غابت عن صراعاتنا أخلاق الفرسان، وانحدر كثير من الناس لقاع بلا قرار.

شاهدت قبل أيام صورة لسيدة تبكي وهي تمسك وردة حمراء وصورة لابنها، شاب صغير بزي عسكري، وتستند الى حائط كتب عليه أسماء قتلى إحدى المعارك، وعلى الصورة تعليق يقول "فازت هذه الصورة بجائزة أفضل صورة من الحرب العالمية الثانية، الأمهات أكثر الناس كرها للحرب، فهن من يدفع ثمنها دموعا وألما".. يا للحزن.

في "هكذا تكلم زرادشت" كتب نيتشة: "إنكم لا تعرفون من العقل سوى شرارته، لكنكم لا ترون أي سندان هو، ولا قسوة مطرقتة".

أي عمق هذا يا نيتشة..

مخرج عراقي مبدع اسمه جلال كامل، يعمل حاليا على اخراج فيلم "بحيرة الوجد"، سيقدمه بمناسبة اختيار بغداد عاصمة للثقافة، يقول جلال ان الفيلم يتحدث عن دوامة العنف والقتل الدائر في العراق، ويسلط الضوء على معاناة العراقيين والامهم.

لاحظوا اسم الفيلم.. بحيرة "الوجد"، واضح أنه مأخوذ عن "بحيرة البجع"، أهم أعمال الموسيقار الروسي الكبير تشويسكفسكي.

بحيرة البجع كان عملا سيمفونيا رائعا عن الهدوء والراحة وجمال الطبيعة، حين تسمعها يخيل لك أنك جالس على ضفاف نهر ساحر تمخر سكينته بجعة بيضاء..

لهم البجع ولنا الشكاية والأوجاع.

وجهت بعض الدول الأوروبية انتقادات لاذعة ضد ألمانيا بسبب زيادة فوائضها التجارية، وقال مندوب فرنسا مثلا بأن سبب تكديس الثروة في ألمانيا بالرغم من الأزمة الاقتصادية العالمية هو أنها لا تنفق على البنية التحتية والمشاريع.. فات هذا المندوب أن أكثر من 90% من هذه الفوائض المالية الكبيرة في ألمانيا تخص القطاع الخاص، الذي يتميز بقوة الصناعة والاجتهاد، فما دخل القطاع الخاص بالبنية التحتية؟

بعد سنوات، سنجد أنفسنا في الكويت في وضع سيئ للغاية، وستكون دول مجاورة في وضع ممتاز، والسبب أنهم يعملون ويبنون، بينما نحن نهدم ونتدمر ونشتكي من كل شيء.. هل نلوم الآخرين على نجاحهم وفشلنا؟

أخيرا.. كتب السياب:

آه لو أدركت يوما أمنياتي
ماتت الشكوى على ثغر تمادى في الشكاة.

التجديد في خطاب التجديد

الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغاني والكواكبي وغيرهم جاءوا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كمجددين نادوا بفتح باب الاجتهاد وتجديد الخطاب الديني والسياسي بما يناسب طبيعة العصر.. وها نحن الآن وبعد مرور مئات السنين، نشهد خطابا ينادي بإحياء خطاب المجددين، أي "تجديد التجديد"، وكأننا بلا عقول، وكأن كل هذه السنوات التي مضت بغير قيمة ولا أهمية بسبب انغلاق الفكر وضيق الأفق وطغيان الكراهية.

ومع هذا، أن تأتي متأخرا خير من ألا تأتي أبدا.. عود على بدء.

منظمة حقوقية ألمانية دعت قبل أسبوع لإجراء تحقيق دولي في أحداث شينغيانغ في الصين، والتي قتل فيها 16 شخصا من الأقلية الإيغورية المسلمة، وكذلك في أحداث أخرى مشابهة يتعرض فيها المسلمون للاضطهاد والقتل والتعذيب.

وفي خطاب الرئيس الألماني يواخيم جاوك بمناسبة ذكرى مولد السيد المسيح دعا الشعب الألماني إلى تذكر معاناة السوريين، وبذل المزيد من أجلهم.

علما بأن ألمانيا هي من أكثر البلدان الغربية التي استقبلت لاجئين سوريين، في حين أن كثيرا من الدول العربية، ودول الخليج خاصة لم تستقبل حتى الآن ولا لاجئ واحد.

شكرا للألمان.. واسفأ على دولنا.

بعد أقل من أسبوعين من اندلاع أحداث عنف في جمهورية جنوب السودان، أرسلت الأمم المتحدة قوة عسكرية لحفظ الأمن ووقف تطور الصراع بين جماعتي الرئيس سيلفاكير ونائبه السابق رياك مشار.

في حين تمر الآن السنة الرابعة على الشعب السوري وهو يعاني القتل والتشريد والدمار دون تدخل.

السبب ببساطة، أن 80% من شعب جنوب السودان مسيحيون، بينما الشعب السوري مسلم، أي بلا قيمة بالنسبة للأمم المتحدة.

هناك دول ناجحة وهناك دول فاشلة، النجاح والفشل لهما أسباب وعوامل، ودولنا فاشلة لأنها لم تحقق متطلبات النجاح، كلنا شركاء في هذا الفشل، النجاح لا يأتي بالصدفة ولا علاقة له بالعرق والأجناس ولون البشرة، يحصل على النجاح من يحقق متطلباته فقط.

للمهتمين بأخبار التشكيل الوزاري الجديد، يقول أينشتين "إذا استمرت فيما تفعله الآن، فستستمر في الحصول على ما تحصل عليه الآن" .. لا تنتظروا أي جديد.

حول مفهوم الديمقراطية

مؤلم خطاب كثير ممن يصنفون أنفسهم كمتقنين في عالمنا البائس، مؤلم جدا خلط المفاهيم لديهم بصورة تؤكد أنهم سطحيون ومزيفون.

تستطيع أن تلاحظ هذا بوضوح في مقارنتهم الساذجة بين مفاهيم تنتمي لمستويات مختلفة، يقارنون بين إيديولوجيا وبين نظام، أو بين مفهوم ضمن نظام اقتصادي مع مفهوم في نظام سياسي وغيرها، ولذلك لا عجب أن نقاشاتهم صراخ أو لغو بلا قيمة.

في كل مجتمع ثمة نظم اجتماعية تنظم حياة البشر وشؤونهم، فهناك نظام اقتصادي ونظام سياسي ونظام تربوي ونظام ديني ونظام قانوني ونظام لحركة سير السيارات.. الخ، كل نظام له مجموعة من القواعد التي تحدد آلية عمله.

أما الأفكار التي تقف فوق هذه النظم وتعطيها شكلها وقواعدها وقوانينها فهي الأيديولوجيا، والتي هي "منظومة فكرية" تشكل إطارا عاما أشبه بالدستور يحدد معالم تلك النظم الاجتماعية.

مثلا.. الاشتراكية أيديولوجيا تقول إن المجتمع سابق بوجوده وأهميته على الفرد، وبالتالي تبدأ تطبيقات هذه الرؤية على النظم ومنها في الاقتصاد الذي يصبح اشتراكيا أو تعاونيا تكون الملكية فيه جماعية.

يقابل هذه الأيديولوجيا الاشتراكية أيديولوجيا فردية (الليبرالية) وليس الرأسمالية، فالرأسمالية نظام اقتصادي ضمن الأيديولوجيا الليبرالية.

أما الديمقراطية فهي نظام سياسي يمكن أن يطبق في الاشتراكية وفي الليبرالية وغيرها، فالديمقراطية كنظام سياسي يقول بأن السلطة بيد الشعب، يقابل هذا النظام نظم ترى أن السلطة ليست للبشر وإنما لله، وهذا ما نجده في الأديان السماوية.

الفكرة إذن في النظام السياسي ترتبط بتبعية السلطة، فإذا كانت بيد الشعب يسمى النظام "ديموقراطي"، وإذا كانت بيد فرد يسمى "أوتوقراطي"، وإذا كانت سلطة دينية يسمى "ثيوقراطي"، وإذا كانت السلطة بيد جماعة أو حزب واحد يسمى "توتاليتاري".. وهكذا.

الديموقراطية إذن مجرد نظام سياسي يتعلق بتنظيم الحكم وإدارة الدولة، السلطة فيه للشعب، يستطيع أن يمارسها بصورة مباشرة أو بتفويضها لفرد أو حزب أو برلمان أو أي شكل يختاره، فليس للديمقراطية ذاتها شكل محدد، والتاريخ شهد العديد من النماذج والأشكال المختلفة، المهم في الأمر أن تكون السلطة بيد الشعب.

والغريب أن "الاستفتاء العام" الذي يمثل أكمل صورة للديموقراطية الحقيقية هو أقل هذه الوسائل ممارسة في الدول "الديموقراطية".

أما وصف الديمقراطية بأنها حامية الحريات وحقوق الإنسان وكرامة البشر وراعية الإبداع وغيرها فهي محاولة لتجميل هذا المفهوم وفرضه على الناس، انها نوع من الديكتاتورية الفكرية والخداع.

صحيح أن الدولة الديمقراطية "قد" تكفل كل تلك الحقوق ولكن هذه الحقوق والقيم تنتمي لمستوى أخلاقي يختلف عن المستوى السياسي، فيصح أن يتبنى مجتمع ما تلك القيم أو قد يتبنى عكسها، فالمجتمع اليوناني القديم الذي أنتج الديمقراطية كان إقصائياً عنصرياً ضد المرأة وضد غير اليونانيين، وبالمثل كان المجتمع الأميركي "الديموقراطي" عنصرياً ضد السود وينتقص من حقوق المرأة لغاية الستينيات من القرن الماضي.. والشواهد على وجود دول ديموقراطية تتبنى في تشريعاتها قيماً عنصرية وإقصائية كثيرة وحاضرة إلى اليوم.

لست ضد الديمقراطية، وإنما أنا معني بنوعية الخطاب الثقافي الذي أراه طاغيا في حضوره في وسائل الإعلام، ويؤلني درجة الزيف والسطحية التي تكتنف أكثره، لأن خطابا سادجا مثل هذا لا يميز بين نظام سياسي وأداب الحديث وأداب الطريق لن ينتج عنه بالتأكد سوى مجتمعات سادجة ينخر فيها الجهل والزيف والتخلف.

اللغة العربية والثروة

عدد مفردات اللغة العربية يتجاوز 500 مليون كلمة، بينما عدد المفردات في اللغة الانجليزية وهي أكثر اللغات انتشارا في العالم لا يتجاوز مليون مفردة فقط، ولا يوجد لغة أخرى تتجاوز مفرداتها مليونا ونصف المليون في أحسن الأحوال، فتأملوا في هذا الفرق الشاسع بين حجم اللغة العربية وبقية اللغات. لا شك أن هذا الثراء اللغوي ميزة كبيرة في أي لغة، فهي تعني المزيد من الدقة الشديدة في وصف الأشياء والأفعال. انظروا مثلا في الجذر "عود" كيف تتفرع منه عشرات الألفاظ الأخرى، عاد، أعاد، يعود، عاود، تعود، استعاد، عودة، معاد، وعيد، عيادة، معاودة، تعويد، اعتياد، تعود، استعادة.. الخ، كما أن في اللغة العربية وصف للحالات بمختلف مراحلها وبتميز دقيق جدا لكل منها معنى ومفردة، مثل جلس، جثم، تربع، ربض، جثا، قعد وغيرها، فلكل منها معنى يختلف عن الآخر وهو أمر لا نجده في أي لغة أخرى. هذا الثراء اللغوي يفترض أنه مفيد جدا للعلم، فالعلم يتسم بالدقة الشديدة، ولو كانت العربية هي لغة العلم لشهدنا تطورا أكثر من هذا بكثير، فهناك علاقة مهمة وأساسية بين الفكر واللغة. لكن الانحدار العام في حياة العرب جعل ميزة الثراء اللغوي لا تخدم سوى "الثروة" الفارغة من المعنى، والمصيبة أن كثيرا من هذه الثروة يقدمها لنا أصحابها على أنها "أدب"

قراءة الأدب العربي القديم تثبت لنا أن اللغة العربية لغة بلاغة، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بأسئلتهم وإجاباتهم والحوارات التي كانت تدور بينهم تدل بوضوح على عمق اللغة والبلاغة، والبلاغة تعني حسن البيان وقوة التأثير وتأدية المعنى بشكل صحيح، وكلما تم ذلك بكلمات أقل كلما كانت العبارة أكثر بلاغة، وهذا ما نجده في لسان العرب وكتبهم قديما. أما اليوم، فانحرف مفهوم البلاغة عند الكثيرين وأصبح مجرد ثروة، كلام كثير لا تخرج منه إلا بشيء يسير أو بلا أي شيء أحيانا، غموض "ولف ودوران" على فكرة بسيطة جدا.

أتابع منذ سنوات على التلفزيون الألماني برنامجا حواريا اسمه "كوادريغا" (أي الرباعي باللغة الألمانية)، في كل حلقة تتم استضافة ثلاثة متحدثين إضافة لمقدم البرنامج، ولأن البرنامج موجه للمشاهد العربي، عادة يكون الضيوف من "المثقفين" العرب ومن الألمان المهتمين بالشأن العربي.

أكثر ما يلفت انتباهي في هذا البرنامج أن المتحدث العربي يتكلم ثلاثة أضعاف المتحدث الألماني. العربي يميل عادة إلى التمهيد لفكرته قبل عرضها، فيسهب في التقديم والتمهيد حتى يصبح عرضه مملا وزائدا عن الحاجة ومجرد "ثرثرة"، إلى أن ينتهي الوقت وهو لم يقدم سوى حديثا سطحيا مهلهلا، غير واقعي وغير منطقي وغير مترابط وينم عن ضحالة وجهل واستخفاف بعقل المشاهد. بينما الألماني يطرح فكرته مباشرة بعبارة صغيرة ومكثفة المعاني وتوصل الفكرة بوضوح وعمق.

كان اليونان قديما يمجدون الكلام ويحتقرون العمل اليدوي، فكان الكلام لليوناني والعمل اليدوي للبربروس (البربر)، لكن حبهم للكلام أنتج الفلسفة، بينما حبنا للكلام أنتج "الثرثرة".

في زمن الهرطقة

ليس تحيزا لتخصصي، لكنني أعتقد حقا أن تدريس الفلسفة ونشرها في المجتمع يمثل نقطة تحول وعلامة فارقة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، بين شعب متحضر يفكر بوعي وشعب متخلف يساق كالأنعام والبهائم.

في الدول المتخلفة، يشكل الجهل أحد أهم عوامل بقاء الأنظمة القمعية التي ليس لديها مشروع بناء دولة، وإنما فقط مشروع بقاء في الحكم، تنتهج هذه الدول المنهج السوفييتي أو المنهج النازي وغيرها من المناهج الأيدولوجية الموجهة التي تقوم على زرع تصورات محددة في أدمغة الناس على أنها حقيقة ثابتة، وتحول البشر إلى قوالب جامدة لا تفكر ولا تنظر ولا تتأمل ولا تجادل وبالتالي لا تحاسب ولا تسأل ولا تغير. هذه المناهج التربوية القمعية تجعل من ملايين البشر مجرد "أقراص تخزين" تقبل أي فكرة مهما كانت شاذة وغريبة وتناقض أبسط قواعد العقل والمنطق، طالما أنها صدرت من النظام وأدواته، في حين ترفض أي فكرة مهما كانت عقلانية وواضحة ومتوافقة مع الواقع، طالما أنها صدرت من "الخصوم"، لأن هذه المناهج الفاشية تعتمد على فكرة أن معيار صدق الأفكار هو "الشخص" الذي تصدر عنه وليس العقل أو الواقع وقواعد التفكير السليم، ولذلك ليس غريبا أن تحارب الدول القمعية المنحطة الفلسفة والتفكير العقلاني السليم، بينما تروج وتمجد خطاب اللامعقول وتعطي لأصحابه أولوية ومكانة وحظوة، فهم أفضل "أفيون" يخدر الشعوب في زمن الهرطقة وتكفير العقل.

هذا الإقصاء المتعمد للعقل ليس جديدا في عالمنا المتخلف، فهو موجود في تراثنا منذ إقصاء المعتزلة وقمعهم لأنهم أصحاب عقل وفكر ونظر، مع ملاحظة أنني لا أقول ان المعتزلة على صواب ولا أروج لفكرهم، أنا فقط أقول بأن منهجهم العقلي يتوافق مع طبيعة البشر وسنة الكون، فهم يصيبون ويخطئون بلا شك، لكن المهم أن منهجهم لا يمنع التفكير والمناقشة ولا ينتج عنه تأليه للحاكم والعالم ولا يؤدي إلى إقصاء الآخر وقمعه لأنه صاحب رأي مختلف.

تأملوا في حال كثير من الناس وكيف يكونون قناعاتهم وكيف يتمسكون بها ويدافعون عنها بالقتل والعنف حتى، دون أن يفهموها أو يراجعوها، فقط لأنها صدرت عن أشخاص تربوا على أن كل ما يصدر عنهم صحيح ومقدس، وكل ما يصدر عن خصومهم كفر وباطل، لاحظوا.. هذا ما كان سائداً في عصور التخلف والظلام في أوروبا في العصور الوسطى، والتي لم تنهض وتتقدم إلا بعد أن تخلصت من هذا التراث الأسود ومنهج التجهيل والجمود.

بقي أن أذكر، أن "مادة الفلسفة" التي تدرس في مدارسنا للصف الثاني عشر أدبي، هي "مسخ" ليس لها علاقة بالفلسفة لا من قريب ولا من بعيد، وأن هذا التشويه والسطحية المفرطة في كتاب الفلسفة المقرر قد تم عن قصد.

تأملوا في تجربة دول النمر الآسيوية، التي كانت قبل 30 عاماً مجرد "عشوائيات" وخرائب ينعق فوقها البوم، كلها بلا استثناء كانت نقطة انطلاقها مع اصلاح التعليم. هكذا تتقدم الدول عندما يكون لديها "مشروع بناء دولة".

جلجامش هذا الزمان

جلجامش هو الملك الخامس لمدينة أوروك "وتكتب أيضا أور" السومرية في القرن الرابع قبل الميلاد، تحكي عنه الأساطير أنه كان قويا ظالما متجبرا سحق شعبه بالسخرة والعبودية، وهو بانى سور أوروك العظيم، الذي مات بسببه الآلاف من شعبه، فضاخوا منه حتى دعوا الله أن يرسل لهم خصيما يكون له ندا يوقف تعسفه، فاستجاب لهم الرب وأرسل إليه "إنكيديو وحش البرية"، فتقاتل الاثنان من طلوع الفجر حتى مغيب الشمس، دون أن يتمكن أحد منهم من القضاء على الآخر، فاستند كل منهم على جذع شجرة منهكا تعباً، ينظر كل منهم للآخر بإعجاب، ثم أصبحوا بعدها أصدقاء، قررا أن يخوضا معا مغامرة الصعود إلى الجبل وأخذ "نبته الخلود" من قمته.

شد الصديقان الجديدان رحالها إلى قمة الجبل عبر الأدغال وبين الوحوش، وتفوقا على كل الصعوبات، وحصلا فعلا على نبتة الخلود التي سيتحول من يأكلها إلى كائن متجدد الشباب أبداً، وعندما هم جلجامش بأكل النبتة، عرض عليه صديقه إنكيديو أن يزرعها في مدينته، ويطعم شعبه منها ليضمن لهم الخلود معه، فوافق جلجامش وبدأوا رحلة العودة، لكن في منتصف الطريق، غفل الاثنان وناما من التعب والارهاق، فجاءت حية تسعى بهدوء، وأكلت النبتة ومضت، فكان الخلود من نصيب الثعابين، تجدد جلدها وشبابها كل عام.

غضب جلجامش من ذلك أشد الغضب حتى بكى، فقد كان الخلود حلمه الأكبر، وعندما عاد لمدينته، ووقف على حدودها يتأمل سورها العظيم الذي يحمي المدينة، قرر منذ تلك اللحظة أن يخلد اسمه بأعمال تبقى ذكره في التاريخ مدى الحياة، فكان أفضل ملوك سومر بناء وحضارة.

بالنسبة لي، د. مهاتير محمد هو جلجامش هذا الزمان، لي كوان هو أيضا جلجامش هذا الزمان، رجب طيب أردوغان هو أيضا جلجامش هذا الزمان، كيم يونغ سام هو أيضا

جلجامش هذا الزمان، وكل حاكم صاحب "مشروع بناء دولة" هو جليامش هذا الزمان.. غير هذا مجرد شخصيات عابرة يلعنها الناس والتاريخ، ولن يغير من حقائق الأمور زيف الإعلام المؤقت وأوصاف المجد والعظمة الكاذبة التي يطلقها المنافقون المحيطون بالحكام الهامشيين.

من ألمانيا

قبل أيام انتهت الانتخابات البرلمانية في ألمانيا بفوز حزب الاتحاد الديموقراطي المسيحي بزعامة أنجيلا ميركل بأغلبية مريحة تؤهلها لتشكيل الوزارة للمرة الثالثة على التوالي منذ 2005. في هذه الانتخابات فاز لأول مرة في تاريخ البرلمان الألماني (بوندشتاغ) نائبان من أصول افريقية (من السنغال تحديدا)، كما فاز 11 نائبا من أصول تركية، وكذلك فازت لأول مرة امرأة مسلمة اسمها جميلة جيوسوف وهي من أصل تركي، في حين فشل المرشحون العرب - كالعادة - في الوصول للبرلمان.

لاحظوا.. نحن نتحدث عن ألمانيا، التي كانت قبل 25 عاما دولة منقسمة ومدمرة ومنهكة بالديون بسبب الحروب، وكانت تعتبر منبعا للعنصرية والتمييز العرقي. في عام 1993 كنت في ميونيخ، وشاهدت بنفسني في مستشفى جامعة ميونيخ رجلا ألمانيا في حالة غضب شديد يصرخ على موظفي المستشفى ويهددهم، والسبب أن زوجته دخلت للولادة والطبيب المسؤول عن التوليد رجل افريقي أسود، والزوج لم يكن راضيا عن هذا، ويطالب بأن يقوم بتوليد زوجته طبيب أبيض. كان هذا في عام 1993، واليوم في 2013 يصل للبوندشتاغ نائبان أسودان من أصل افريقي.. بالانتخاب، أي باختيار الألمان أنفسهم.

ألمانيا اليوم دولة عظمى ذات اقتصاد قوي ونظام اجتماعي يمثل نموذجا للتعايش السلمي والقبول بالآخر، بل إن ألمانيا تعد اليوم إحدى أهم وأكبر الدول التي تقدم تشريعات قانونية تضمن حرية العبادة والخصوصية الثقافية للمواطنين المهاجرين لديها، رغم أن بينها وبين الايديولوجيا النازية التي رسخت في أذهان الألمان فكرة التفوق العرقي على بقية البشر فترة لا تتجاوز 50 عاما، بل إن ميركل وحزبها الحاكم تقدموا باقتراح للسماح بازدواجية الجنسية، وسمعت في التلفزيون الألماني وزيرة العدل تقول ".. من غير العادل أن نضع شابا في الثامنة عشرة من عمره أمام موقف كبير مثل تحديد تنازله عن جنسية وطنه الأصلي أو وطنه الجديد ألمانيا".

لو كانت منظمة الأمم المتحدة تسير بمنطق واقعي عادل لأصبحت ألمانيا من ضمن الدول التي تملك حق الفيتو، فهي أقوى اقتصادا وتأثيرا وفاعلية من فرنسا وبريطانيا على

سبيل المثال. هذه المكانة والقوة الاقتصادية العظمى التي وقفت شامخة في وجه الأزمة الاقتصادية الكبرى منذ 2008، كان وراءها بلا شك دور مهم وفاعل من المستشارة انجيلا ميركل (أو إنجي كما يسميها الألمان)، ويكفي أن نعرف أن "إنجي" - المرأة - عندما تولت المسؤولية عام 2005 كانت نسبة البطالة 11.1%، أما اليوم فنسبة البطالة انخفضت إلى 6.8%، ويكفي لنذكر حجم وقوة الاقتصاد الألماني أن نذكر بأن صادرات ألمانيا من قطاع التكنولوجيا الطبية فقط تبلغ 23 مليار يورو سنويا، فما بالكم ببقية القطاعات الصناعية الأخرى.

لماذا نلجأ دائما إلى استحضار نماذج القوة والعظمة من دول العالم الأخرى، ونقارنها باستمرار بالأوضاع المزرية في عالمنا العربي؟ باختصار لأننا ندرك في داخلنا أننا لا نزال نعيش مرحلة "ما قبل الدولة"، أننا أشباه دول محكومة بنظم ما قبل التطور وخارج الزمن، عشائريات وزعامات شكلية وشعوب متخلفة بلا أي إنجازات حضارية، حياتنا عابرة ليس لها تأثير، وصراعاتنا متخلفة تعطي لآخر فرصا كبيرة لاستغلالنا ونهب ثرواتنا ونحن مبتسمون ومبهورون ونصفق له كفاتح ومنقذ عظيم.

المساواة بين المرأة والرجل

يخلط البعض بين عدة مفاهيم ومستويات معرفية عندما يتعلق الأمر بحقوق المرأة في عالمنا العربي، فهناك من لا يميز بين العادات والتقاليد وبين أحكام الشريعة، وهناك من يربط مفهوم المساواة في الحقوق بمفاهيم الرجولة بالمعنى العربي الكلاسيكي، أي "سي السيد مقابل أم العبد".

والحق، أن مصطلح "المساواة" بين المرأة والرجل في الحقوق هو بذاته أحد أسباب هذا الغموض والارتباك، فالمعنى الظاهر الذي يتبادر إلى ذهن أي إنسان من عبارة "يجب مساواة المرأة مع الرجل" هو المساواة الكاملة بينهما في كل شيء، بحيث يصبح للمرأة مثل ما للرجل في كل شيء، خاصة في ظل هيمنة الثقافة الغربية التي ترسخ هذا المعنى. بينما المعنى الصحيح الذي يفترض أن ندعمه وندافع عنه وتتبناه الحركات النسوية هو "المساواة في الحقوق"، لأن المطالبة بإعطاء أي إنسان حقوقه مهما كان جنسه أو لون بشرته أو وضعه الاجتماعي أمر مستحق، فلا يجروء على الاعتراض على حق إنسان إلا ظالم. المسألة يجب أن تتحول من مطالبة بـ "المساواة" إلى مطالبة بـ "حقوق"، ليصبح "الصراع" التقليدي الذي استهلك جزءا كبيرا من ثقافتنا "ما هي حقوق الرجل، وما هي حقوق المرأة؟"، فعلى النساء والمشتغلين بحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية أن يركزوا حديثهم على قضية "الحقوق" بدلا من كلمة "مساواة" إذا أرادوا حقا تحقيق مكاسب واقعية.

إذا قال شخص "يجب مساواة المرأة بالرجل في الميراث"، نقول له هذا خطأ، ببساطة لأن "حق" المرأة في الميراث هو نصف "حق" الرجل، لكن إذا قال "يجب مساواة المرأة بالرجل في التعليم، في فرص العمل والراتب الأساسي، في السكن، في تجنيس أبنائها، في اختيار من يمثل المجتمع في البرلمانات والمجالس النقابية.. الخ" فعندها نكون في مجال الحقوق المدنية التي تمثل المطالبة بها استحقاقا مادامت لا تتعارض مع الشرع، أو يكون

على من يرفضها تقديم دليل جيد يثبت أنها ليست حقوقاً للمرأة، لأنها إذا كانت فعلاً "من حقوق" المرأة فيكون من الظلم والتعسف الاعتراض عليها.

المرأة في المجتمع العربي تعرضت مع الأسف لكثير من الظلم والتعسف والاستبداد بسبب ادعاء "تفوق" الرجل عليها، وهو ادعاء ترسخ بسبب سوء استغلال بعض الأحكام الشرعية مثل حق الرجل في ضعف الميراث أو الشهادة أو تعدد الزوجات، مع أن هذه الحقوق لا يترتب عليها - بالضرورة - أي تفوق، فهي مسائل إجرائية ترتبط بطبيعة التكوين والدور الاجتماعي، تقابلها حقوق للمرأة ليست للرجل، كما ساهم في ذلك "جمود" وتخلف الفقه لدى البعض ممن يعتقدون بأن المجتمع الإسلامي الصحيح هو فقط مجتمع صدر الإسلام، بكل ما فيه من "مظاهر"، حتى في اللبس وركوب البغال، وهم مخطئون بلا شك لأن المجتمعات تتطور - هكذا خلق الله عز وجل الكون - وأن ما ينبغي أن نأخذه من المجتمع الإسلامي القديم هو القيم والنظم الثابتة وليس المظاهر. وللحديث بقية مع مفهوم "قيادة المرأة".

التعليم .. حجر الزاوية

الفرق الجوهرى بين الثقافة الغربية والثقافة العربية يكمن فى التربية، هم ينطلقون من مبدأ "أنت حر، أنت تختار وتتحمل نتيجة اختيارك"، بينما نحن نطلق من مبدأ "اسمع الكلام". الإنسان الغربى ينشأ على الحرية وتحمل المسؤولية، وبالتالى تصبح الديموقراطية جزءا من حقيقته وتكوينه وشخصيته، فلا يجد غضاضة فى فهم تداول السلطة سلميا، ولا يتحرج من الاعتراف بالخطأ وتحمل المسؤولية والعمل المشترك مع الآخرين، كل هذه القيم السلوكية الإنسانية وغيرها هي نتاج طبيعى للتربية القائمة على الحرية والمسؤولية الفردية.

فى حين أن التربية الديكتاتورية القائمة على التسلط والقمع وفرض إرادة الكبير على الصغير، لا يمكن أن تنتج إنسانا حرا يملك قيم التعايش والقبول بالآخر والتعاون من أجل المصلحة العامة.

هذا الفرق الجوهرى بين الشخصية الغربية والشخصية العربية هو الذى يفسر بدقة سبب فشل كل التجارب الشكلية للنظم الديموقراطية فى عالمنا العربى، فالشعوب العربية المسحوقة بالفقر والجهل لاتزال غير مدركة فى وعيها الجمعى حقيقة الممارسة الديموقراطية، وأن الانتخابات هي مجرد جزء بسيط فى هذه المنظومة الكبيرة التى تدخل فى معظم سلوكيات البشر، فى تعاملاتهم التجارية والاجتماعية وفى الأسواق والشوارع، وليس مجرد عملية وضع علامة صح على اسم فى ورقة انتخاب مرة كل بضع سنوات.

الحكومة المنتخبة تعنى أن يقوم الحزب الذى يتمكن من الحصول على أغلبية أصوات الناخبين فى البرلمان من تشكيل الحكومة، هذا يتطلب وجود أحزاب ببرامج سياسية واضحة ونظم مراقبة ومحاسبة صارمة، فكيف يفترض أن نتلقى خطاب البعض حول الحكومة المنتخبة فى الكويت وكأنها الحل السحري الذى سيحل كل المشاكل فى ليلة وضحاها.. هل نضحك، أم نبكي؟

كي نصل إلى اليوم الذي تكون فيه لدينا حكومة منتخبة وأحزاب سياسية فاعلة ونظام ديموقراطي حقيقي، فإننا نحتاج لعشرات السنين من التربية الديموقراطية، وأن نعلم أبناءنا كيف يختارون بحرية ويتحملون تبعات اختياراتهم. نحتاج إلى جيل يتربى على خطابات التسامح والقبول بالاختلاف وعدم الادعاء بامتلاك الحقيقة وعدم تكفير الناس، نحتاج إلى نظام تربوي يزرع قيما ويرسخ سلوكيات تدعم الحرية والعدالة وحسن الخلق، عندها سيختار أبناء هذا الجيل زعيما لحزبهم من منطلق الكفاءة، وسيحاسبونه إذا أخطأ.. وإلا، فإن حالنا سيكون مثل حال لبنان، حيث يقضون ثلث السنة في مفاوضات لتشكيل "الحكومة المنتخبة"، وثلث السنة الثاني في صراعات بين أعضاء الحكومة المبنية على محاصصات طائفية، والثلث الأخير من العام في صراعات حول استقالة الحكومة وحل البرلمان والبدء من جديد، هذا هو النموذج الواقعي للحكومة المنتخبة التي يفرزها نظامنا التربوي! لذلك لا غرابة في أن كل الدول المتخلفة التي حققت نهضة وتقدم في كل شيء بدأت بإصلاح التعليم أولاً.

تريدون التقدم والإصلاح وحل كل المشاكل؟ عليكم بإصلاح التعليم إنن.

إسلام متحضر

شهر كامل مضى على تطبيق قانون جديد في تركيا يتعلق بحظر بيع الخمر والإعلان عنها في أوقات وأماكن محددة، دون مشاكل ولا انقلابات ودون أن تتأثر حركة السياحة أيضا. هذا نتاج عمل منظم بدأه العبقري نجم الدين أربكان قبل 30 عاما، وها هي تركيا تجني ثمار هذا التخطيط والاجتهاد، حتى أصبحت عن جدارة واستحقاق بلدا إسلاميا متحضرا وقويا بكل المجالات، ليت العرب يتعلمون من تركيا ومن ماليزيا كيف أن الإسلام لا يمنع التقدم والحضارة، وأنه بالإمكان بناء دول إسلامية ديموقراطية متحضرة دون أن تفقد هويتها وثقافتها.

في عام 2001 تم حل حزب الفضيلة الإسلامي الذي كان يرأسه نجم الدين أربكان (إضافة لحل أربعة أحزاب إسلامية أخرى) فأعاد عدد من أعضائه تنظيم أنفسهم وشكلوا حزبا جديدا هو حزب الحرية والتنمية بقيادة العبقري رجب طيب أردوغان، وبعد أقل من سنة تمكنوا من الفوز بثلاثي مقاعد البرلمان ومنصب رئيس الدولة (الرئيس عبدالله غول) ومنصب رئيس الحكومة (أردوغان)، وهو حزب سياسي إسلامي معتدل، استطاع بخطوات مدروسة وبرامج واقعية، استعادة الطابع الإسلامي لتركيا التي هيمنت عليها "العلمانية الإقصائية" منذ 1921.

عندما سئل أردوغان قبل 10 سنوات عما ستفعله حكومته تجاه بيع الخمر قال: هذه مسألة ثانوية لن نشتغل بها الآن، أولوياتنا هي بناء اقتصاد قوي ورفع مستوى معيشة المواطن التركي وتنمية البلاد. وبالفعل، تركيا اليوم هي ضمن الدول العشر الأولى في الاقتصاد والتنمية. ولأن حزب العدالة والتنمية أصبح فعليا مصدر نجاح وقوة وبناء لتركيا ورفع لشعبها، استطاع أردوغان بحكمة وروية تخليص تركيا من هيمنة العسكر واستعادة الكثير من الحقوق المدنية وخاصة حقوق المسلمين والمسلمات بدعم شعبي.

مع بداية حصول حزب الحرية والعدالة (الإخوان المسلمين) في مصر على أغلبية برلمانية ومنصب الرئاسة، سارعوا للتخلص من "الخصوم" السياسيين وإقصاء بقية التيارات والحديث عن منع بيع الخمر وإغلاق المحلات التي تتعاطى مع المحرمات والتضييق على الناس، مباشرة وقبل فرض سيطرتهم على مؤسسات الدولة، بل إن أكثر ذلك كان مجرد تصريحات صحافية تتسم بالرعونة والفشخرة الفارغة، ولذلك كان من البديهي أن تتحالف ضدهم كل القوى حتى المتصارعة بينها لخلعهم وهذا ما حصل. وفي كثير من المناطق المحررة في سورية تعرض سكانها للجلد والتعزير على ممارسات هي من صميم عاداتهم وتقاليدهم اليومية، ولذلك أيضا لا غرابة أن يتخوف المجتمع الدولي من دعم المعارضة رغم إقرارهم بإجرام النظام. العرب لا يتحلون بالصبر وحسن التخطيط والتدرج في الأمور، بل إن هؤلاء المتشددون الذين يدعون تطبيق الإسلام هم أبعد ما يكونون عن منهج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه"، وهل منع الخمر في مكة والمدينة مباشرة أم بعد التمكين؟

تأملوا في حال الدول التي فهمت الإسلام كدين سلام ودعوة للبناء مثل تركيا وماليزيا، وتأملوا في الدول ذات النظرة الأحادية والمنهج الإقصائي مثل إيران وسورية والعراق وغيرها، رغم أن الأخيرة دول غنية بالثروات الطبيعية التي لا تملكها تركيا وماليزيا، فرق شاسع بين عالمهم المتقدم والمتحضر وعالمنا المليء بالصراعات الطائفية والإقصاء!

أفاق الحل في سورية

أول الدروس التي يجب أن نتعلمها من الوضع في سورية، أن الثورة الشعبية إذا لم يتم حسمها خلال الأشهر الستة الأولى كحد أقصى، فعندها يجب التوقف والجلوس على طاولة التفاوض والقبول بفكرة تقديم تنازلات، وإلا فإن الثورة ستتحول إلى شيء آخر، إلى حرب أهلية وساحة لصراع محاور وقوى إقليمية وجماعات مقاتلة، لكل منها أجندة وحسابات وأيديولوجيا لا يمكن الجمع بينها، وستصبح تنازلات الأمس التي كانت مرفوضة، جزءا يسيرا مما سيضطر الناس لتقديره لاحقا، لكن مع كثير من الندم والحسرة.

في سورية كما في تونس وليبيا واليمن ومصر، بدأت ثورة شعبية من الداخل ضد نظام ديكتاتوري دموي فاسد، لكن ما جرى في سورية يختلف عما جرى في بقية دول "الربيع العربي"، فبسبب عدم تمكن النظام والمعارضة من حسم الصراع لصالحهم منذ البداية، توسعت المعركة وتحولت سورية لساحة حرب أهلية تغذيها أطراف بايديولوجيات متناحرة حتى أصبحت ساحة لصراع محاور ودول عظمى الخاسر الأكبر فيها هو الشعب السوري الذي وصل به الحال للمجاعة ودمار شامل للدولة.

لا خلاف على ديكتاتورية النظام المجرم في سورية، لا خلاف أيضا على التعاطف مع الشعب السوري والإقرار بحقه في تقرير مصيره، لكن لننطلق من الوقائع على الأرض، النظام السوري له مؤيدون وأتباع، ولديه دعم قوي من دول لا يستهان بها مثل روسيا وإيران.

في المقابل، المعارضة السورية على أرض الواقع بجانبها السياسي لديها أوراق قوة ودول إقليمية كبرى داعمة ومساندة، لكنها أصبحت في الآونة الأخيرة غير مستقرة وغير قادرة على تقديم كيان سياسي موحد ومقبول ليكون بديلا بعد سقوط النظام. أما في جانبها العسكري فالوضع أسوأ بكثير، فالواقع على الأرض أن سورية باتت محضنا لمئات الجماعات المسلحة التي جاءت من كل صوب وحذب وأصبحت طرفا في الصراع، وعلى

الرغم من بدايتها الجيدة في نصرة الشعب المظلوم وقتالها جميعها في خندق واحد ضد النظام، إلا أنها دخلت في الآونة الأخيرة في صراع قاتل فيما بينها.

في النهاية، الوضع في سورية أصبح خليطاً من القوى المتصارعة غير المنسجمة على المستوى السياسي والعسكري، واستمرار الصراع يعني استمرار استنزاف للقوى الإقليمية التي تغذي هذا الصراع من جهة، واستمرار معاناة الشعب ودمار الأرض وتفككها، إضافة إلى خطورة امتداد الصراع للمنطقة المحيطة من جهة أخرى.

باعترادي، أولى خطوات الحل في سورية هي الاعتراف بأن الصراع قد وصل لطريق مسدود، وأنه أصبح صراعاً بين قطبين كلاهما يملك الوسائل والقدرة على التدمير والبقاء، وليس من السهل أن يقضي أحدهما على الآخر. فهذه القناعة المبنية على قراءة تحليلية للواقع وللمعطيات الحقيقية على الأرض وليس على أوهام وأمانيات وتوقعات غيبية قد لا تحدث، هي التي ستجعل الأطراف المتصارعة تقبل بتقديم تنازلات جديدة ربما لم تكن مقبولة سابقاً كبداية لوضع حد للحرب والدخول في مسار سياسي.

باختصار، الحل العسكري غير ممكن، لن يتمكن أي طرف من سحق الطرف الآخر، فالكل قوي ولديه قدرة ودعم خارجي، والحل السياسي يتطلب تنازلات قد تكون مؤلمة، لكنها بالتأكيد أقل إيلاماً من الوضع الحالي ومن الوضع القادم إذا استمرت الأمور على ما هي عليه، هذا حديث العقل والواقع، هناك بالتأكيد من يؤمن بإمكانات أخرى، سحرية ربما.

بين الجهراء وكوبنهاغن

الدنمارك مملكة في الاتحاد الأوروبي، نظامها السياسي هو "ملكية دستورية برلمانية"، الحزب الفائز في الانتخابات هو الذي يشكل الحكومة. مساحتها 43 ألف كيلومتر مربع، وعدد سكانها 5.5 ملايين نسمة بحسب إحصاء 2010.

تصنف الدنمارك من بين أعلى بلدان العالم من حيث مستوى دخل الفرد، وفي عام 2008 حصلت على لقب "أسعد مكان في العالم" استنادا لمعايير الصحة والرعاية الاجتماعية والتعليم بحسب تقرير مجلة فوربس، وفي عام 2009 حصلت على المرتبة الثانية كأكثر البلدان المسالمة بالعالم (بعد نيوزيلندا)، وفي مؤشر الفساد احتلت أيضا المرتبة الثانية كأقل البلدان فسادا.

الدنمارك تحتل المرتبة 16 من حيث الناتج المحلي على مستوى العالم، ووفقا لتقارير البنك الدولي فإنها أيضا تصنف كأكثر بلدان أوروبا مرونة وأمانا.

في الدنمارك أيضا أعلى "حد أدنى للأجور"، أي أن "أقل أجر" في الدنمارك هو أعلى من "أقل أجر" في أي مكان آخر بالعالم، كما أنها تصنف كأدنى دول العالم من حيث "عدم المساواة في الدخل" وفقا لتقارير الأمم المتحدة.

باختصار.. الدنمارك واحدة من أفضل بلدان العالم من حيث الأمن والسلام ومستوى الدخل والخدمات والرعاية الاجتماعية.

الآن.. ما السر في كل هذا؟ من أين لهم كل هذا؟ ما الذي تملكه هذه المملكة من مقومات لتجعلها أسعد مكان في العالم ومواطنوها أعلى دخل وأكثر أمنا وراحة؟ علام يعتمد اقتصاد هذا البلد؟

في الحقيقة، الدنمارك دولة نفطية، ولديها غاز طبيعي أيضا نظرا لموقعها المتميز على بحر البلطيق. لكن هل تعرفون كم تنتج الدنمارك من النفط؟ حسنا، تنتج 340 ألف برميل نفط يوميا فقط، بينما تنتج الكويت أكثر من 3 ملايين برميل يوميا.

ترتيب الدنمارك من حيث إنتاج النفط هو 35، بينما الكويت ترتيبها العاشر. مساحة الكويت نصف مساحة الدنمارك، وعدد سكان الكويت نصف عدد سكان الدنمارك، لدينا ممرات مائية مهمة وموقع تجاري عالمي مثلهم.. إذن ما هو الشيء الموجود في الدنمارك وغير موجود في الكويت ليجعلهم أسعد بلد في العالم بينما نتخبط نحن في الثروة كالأطفال بلا تخطيط ولا حسن تدبير ولا بناء ولا حضارة؟

في عام 2010 وافق البرلمان الدنماركي على مشروع بناء نفق تحت البحر يمتد بطول 18 كيلومترا من مدينة فيمارن في ألمانيا إلى جزيرة لولاند الدنماركية عبر قناة فيهمارنبيلت في بحر البلطيق بتكلفة 5.5 مليارات يورو، هذا النفق سيوفر ليس فقط 300 كيلومتر في السفر من هامبورغ إلى كوبنهاغن، بل سيفتح طريقا سريعا للقطارات والسيارات ويسهل الانتقال إلى السويد والنرويج وبقية الدول السكندنافية ويعيد ربطها مع أوروبا عبر ألمانيا، هذا يعني مزيدا من الفرص الاقتصادية والتواصل بين الشعوب.

هل تذكرون جزيرة بوبيان؟ بالكاد أذكرها، آخر مرة شاهدها قبل الاحتلال العراقي، كان جسر بوبيان وقتها متصدعا على وشك الانهيار. في تلك الفترة كنت أسمع أن الحكومة ستبني جسرا جديدا يربط الجهراء بمدينة الكويت.

النموذج الماليزي مفتاح الحل لمصر

بحلول الثمانينيات من القرن الماضي تحددت ملامح الاتجاه الإسلامي المعتدل في ماليزيا بعد مسيرة طويلة من الاضطرابات وعدم وضوح الهوية نتيجة لصراع التيارات الإسلامية فيما بينها خلال وبعد مقاومتها للاحتلال البرتغالي ثم البريطاني والذي كان للجهد فيه دور كبير، ثم الدخول على خط الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان وما تلا ذلك من تشكيل تيارات إسلامية اتخذت العنف المسلح وسيلة أساسية للإصلاح.

ومع تسلم مهاتير محمد رئاسة الحكومة عام 1981 نجحت ماليزيا في دمج الإسلام المعتدل في الحياة السياسية، بدءا من السماح بتشكيل أحزاب سياسية إسلامية (الحزب الإسلامي) والسماح للجمعيات الدينية بممارسة نشاطها التوعوي في إطار قانوني.

إن أول ما قام به مهاتير محمد بعد تسلمه السلطة أن قام بدعوة الحكومة إلى البحث في كيفية الاستفادة من القيم الإسلامية في عملية التنمية، فعقدت الحكومة مؤتمرها الأول في هذا الشأن، وخرجت بتوصيات مهمة اتخذت كمبادئ عمل فيما بعد في مجال التشريعات القانونية والتعليم والاقتصاد بشكل خاص.

ثم رفع بعد ذلك مهاتير محمد شعار "أسلمة أجهزة الحكومة"، ووضع لهذا الشعار معايير محددة تضمن عدم الافتئات على حقوق الأقليات غير المسلمة، وعندما اعترضت بعض الأقليات من غير العرق المالوي على ذلك، قال لهم ان ماليزيا دولة مسلمة، وعلى غير المسلمين أن يفهموا قيم الإسلام في هذا البلد، لكن لن نجبر أحدا على شيء، والقوانين الإسلامية لن تطبق إلا على المسلمين، أما القوانين الوطنية فستطبق على الجميع.

والنتيجة كانت ما نراه اليوم من تقدم وازدهار شملت كل أفراد الشعب الماليزي بمختلف دياناته وأعراقه، ولعل العامل الحاسم في هذه التجربة المبهرة هو وضوح الأهداف المتمثلة في رؤية مهاتير محمد لماليزيا 2020، والتأكيد على الهوية الإسلامية التي انسجمت مع إرادة وطبيعة وحقيقة الشعب الماليزي.

الآن.. ماذا عن مصر؟ مصر دولة عربية ذات أغلبية مسلمة، ورغم تشابه كثير من ظروف الحالة الراهنة في مصر مع الحالة التي كانت عليها ماليزيا من التمزق والانقسام قبل نهضتها في مطلع الثمانينيات، إلا أن لمصر مميزات أكثر مما كان لماليزيا، ففي مصر لا يوجد انقسام عرقي ولا أقليات سوى الأقباط، وتاريخ مصر لم يعرف صراعا بين المسلمين والأقباط (باستثناء الفترة الأخيرة، وبالتالي فهو صراع مصطنع). النموذج الماليزي باعتقادي يمثل أفضل نموذج يمكن أن تنطلق منه مصر، لا عيب أبدا أن يبدأوا من حيث تقدم الماليزيون ويتجاوزوا كل الأخطاء التي وقعوا فيها.

بإمكان المصريين أن يأخذوا من النموذج الماليزي والتركي كذلك المبادئ السياسية والمعايير العملية في إدارة الدولة بمنظور إسلامي معتدل يعبر عن حقيقة المجتمع المصري، دون الإخلال بحقوق الأقليات غير المسلمة، من خلال التمييز الواضح بين القوانين الوطنية التي لا تميز فيها بين المواطنين، وبين القوانين الشرعية التي تخص كل فئة.

مصر بلد إسلامي وغالبية الشعب مسلمون، ومحاولة تجاوز هذه الحقيقة لن تؤدي إلا إلى خسائر وتعطل وجمود.

ولن تنجح أي مشاريع مستوردة مهما كان بريقها لامعا، وما تقوم به بعض وسائل الإعلام من تضليل وتضخيم وشيطنة للإسلام لن يغير طبيعة البشر ولن يلغي الإسلام من قلوبهم.

العالم بعد خمس سنوات

استغرق الانتقال من عصر النهضة - والذي كان ثورة في وجه هيمنة الكنيسة وطغيان الإقطاعيين - إلى عصر الأنظمة الديمقراطية القائمة على المؤسسات والدساتير بعد الثورة الفرنسية أكثر من خمسمائة عام، واستغرق الانتقال من عصر الملكيات في بعض الدول العربية مثل مصر وليبيا والعراق وغيرها إلى عصر الجمهوريات أقل من خمسين عاما، ولم يتطلب الأمر أكثر من عشرة أعوام للثورة ضد هذه الأنظمة الجمهورية الديكتاتورية بعد ذلك، وبحسب معطيات الواقع وحقائق التاريخ والعلم، لن يستغرق الانتقال من الوضع الحالي في كثير من الدول إلى وضع جديد أكثر من خمسة أعوام، فالزمن يتقلص ويتسارع، هذه حقيقة علمية اكتشفها أينشتاين قبل نصف قرن.

يتوقع كثير من خبراء الاقتصاد في العالم انهيار الرأسمالية العالمية خلال الأعوام القليلة القادمة، فحجم الخسائر والأزمات والديون أكبر من أن يتحملها أي نظام، وتشير كثير من تحليلات خبراء الاقتصاد إلى نظام وسط يأخذ من الرأسمالية والاشتراكية أفضل ما فيهما، وأفضل ما في الرأسمالية هو الملكية الخاصة ومساحة الحرية الكبيرة في العمل والإنتاج، وأفضل ما في الاشتراكية هو الضمان الاجتماعي وعدالة توزيع الثروة، فمتى ما تمكن العالم من تشريع قوانين وقواعد عامة تضبط الملكية الخاصة وحدود الحرية الفردية وعلاقتها بحريات الآخرين وتضمن عدالة توزيع الثروة ومنع التفاوت الصارخ بين ملايين الفقراء وحفنة من الأثرياء، فإن العالم سيكون حينها قد وصل إلى نهاية التاريخ الحقيقية وليست الكاذبة كما صورها فوكوياما، والتي هي من صميم الإسلام في صورته النقية البعيدة عن الطائفية والتعصب.

تسود معظم شعوب العالم اليوم موجة غضب غير مسبوقه ضد الأنظمة الحاكمة والحكومات بصورة عامة في مختلف دول العالم، شرقا وغربا، ومثل هذا الغضب لا يمكن

أن يمر بسلام و من دون إحداه تغيير. ومع ثورة الاتصالات الحديثة أصبح التغيير الذي كان يتطلب خمسمائة عام سابقا لا يحتاج أكثر من خمس سنوات حاليا. يقابل هذا الغضب الشعبي العارم طريقتان في تعامل الأنظمة معه، الطريقة الأولى هي بالقمع ومحاولة احكام القبضة الحديدية لإخضاع الناس، وهي طريقة خاطئة بلا شك، فلم يعرف التاريخ - ولن يعرف - نظاما استطاع أن يسيطر على الشعب إذا حان موعد الانفجار. والطريقة الثانية وهي السليمة بالتأكيد وتتمثل في الإصلاح الحقيقي، في إحداه تغييرات ملموسة في حياة البشر، تشعرهم بالعدالة والمساواة وتوفر لهم فرص عمل جيدة وخدمات مناسبة. لاحظوا.. هناك عامل مشترك بين جميع أنظمة الحكم الساقطة عبر التاريخ، وهو "خداع النفس" بوهم الاعتقاد أنهم مختلفون عن غيرهم.. صدقوني، لا أحد مختلفا.

إيران بين الصفوية والتشيع

مؤسف أن يجد الإنسان نفسه مضطرا لتبرير ذاته ومعتقداته للناس، لكنه الواقع القاسي بتقسيماته العنصرية البغيضة.

لست سنيا ولا شيعيا، لا أؤمن اطلاقا بهذه التقسيمات ولا تهمني كثيرا، أذكر هذا حتى لا يفهم من المقال أنه موجه ضد أحد.

ثمة ارتباط بين المسلمين كافة بكل مذاهبهم وطوائفهم بالمملكة العربية السعودية، ليس بوصفها كيانا سياسيا، وإنما بوصفها مكانا يضم أهم مقدساتهم، وهناك ارتباط إضافي للمسلمين السنة على وجه الخصوص حيث يعتبرون السعودية مركزا للتسنن، خاصة بعد تراجع دور الأزهر.

وهناك ارتباط إضافي آخر يضاف لكل هذا بالنسبة لدول مجلس التعاون الخليجي حيث تمثل المملكة العربية السعودية لهم "الأخ الأكبر" بكل ما يحمله هذا التصور في المجتمعات الشرقية من معنى، فهو السند والعزوة والحكمة وما إلى ذلك.

لا ضرر في كل هذا على الاطلاق، فالتعاون أفضل من العمل الفردي، والدول اليوم تبحث لنفسها عن تجمعات تزيدها قوة.

يقابل ارتباط السنة بالسعودية، ارتباط الشيعة بإيران، مع أن معظم المقدسات الدينية للشيعة موجودة في العراق والمدينة المنورة وليس في إيران، إلا أن هذا الارتباط توثق أكثر بعد الثورة الإسلامية التي قادها الخميني عام 1979 وإدخاله عقيدة "ولاية الفقيه" على عقيدة "الإمامة" التي تشكل عصب المعتقد الشيعي بمختلف طوائفهم.

هذه مسألة عقديّة وهي من حق الشيعة بالتأكيد فكل إنسان حر بما يعتقد ويؤمن.

ومن وجهة نظر إنسانية وأخلاقية لا يجوز التمييز بين البشر على أساس معتقداتهم الدينية أو غير الدينية، وفي الدولة المدنية لا يجوز حرمان فئة من الناس بعض الحقوق بسبب معتقداتهم، فهذه عنصرية.

مشكلة الصراع السني- الشيعي لم تعد مشكلة معتقد وجنة ونار، بل تعدت ذلك وتعمقت مع دخول السياسة التي أفسدت كل المعتقدات واستخدمت كل الأدوات الدينية - بما فيها الإفتاء - في هذا الصراع، وهنا مكمّن الخطورة، إذ فقد بعض الناس ثقتهم بالدين نفسه لكثرة الخلافات والفتاوى ذات الصبغة السياسية التي تناقض في كثير من الأحيان أبسط مبادئ العقلانية والإنسانية والضمير.

نعود للكوييت، ولفهوم الصفوية بالتحديد حيث أصبح من أكثر المصطلحات استخداماً هذه الأيام، والصفوية نسبة لأسرة من الشاهات (شاه بالفارسية تعني الملك) حكمت إيران من عام 1501 إلى عام 1785، وشهدت خلال هذه الفترة عدة حروب مع الدولة العثمانية، وترعرت فيها الكثير من أفكار الكراهية والمعاداة للعرب وبشكل خاص لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي فتح بلاد فارس.

ولأن الكوييت فيها مواطنون شيعة وبعضهم من أصول إيرانية، أصبح موضوع انتقاد السياسة الإيرانية ووصف الموالين لسياسات إيران بالصفويين يثير القلق والاشمئزاز نظراً لتداخل المفاهيم وغموض الرسائل سواء عند المرسل أو المستقبل، وأصبح هذا الموضوع عاملاً من عوامل تفكيك المجتمع وتمزيق وحدته الوطنية، وبالتالي أعتقد أنه بات من الضروري فتح هذه المواضيع ومناقشتها بعقلانية وموضوعية لتزيل اللبس وتضع النقاط على الحروف وتمنع تراكم الأحقاد، وللحديث بقية..

تأملوا.. ففيها عبر

منذ فترة وأنا أعيد قراءة بعض النصوص الماركسية، لماركس نفسه ولرفيق دربه انجلز أو لأتباعهما أمثال لينين وتروتسكي وغرامشي وروزا لوكسمبورغ وآخرين، وبعض هذه النصوص نشرت في منتصف القرن التاسع عشر (1840)، ويهمني منها بشكل خاص النقد العلمي لمفاهيم ونظم كالأسمالية والديمقراطية والسلطة والنقابات والقانون وغيرها، والغريب أن كثيرا مما كتب في تلك الفترة ينطبق تماما على واقعنا الحالي.. فتأملوا.

كان لينين، الفيلسوف والزعيم السوفييتي السابق يميز بين "الديمقراطية الخالصة" وبين الديمقراطية المطبقة في المجتمعات البورجوازية. قد يثير اسم لينين حساسية لدى الكثيرين، وربما السخرية من استخدام كلمات عفا عليها الزمن مثل البورجوازية والامبريالية.. لا شك في هذا، ولكن كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه "استمع لما يقال لا لمن يقول".

الديموقراطية الخالصة هي بمعناها البسيط كما جاء عند اليونان "حكم الشعب"، يقول لينين بأن هذا المعنى شكلي ومضلل يوهم بغير حقيقته، فالواقع أن الحكم في المجتمعات البورجوازية والطبقية ليس للأغلبية الفعلية وإنما للطبقة المسيطرة على وسائل الانتاج، فتصبح الديمقراطية في جوهرها مجرد نظام يخدم الانتاج ومصالح الطبقة المسيطرة.

الآن.. تأملوا في حال الدول اليوم ومنها الكويت، كيف ترون الديمقراطية؟ هل هي نظام للعدالة والمساواة وحماية حقوق وحرريات الناس وتنفيذ إرادة الأغلبية، أم انها مجرد "نظام إداري" شكلي يخدم مصالح فئة معينة؟!

في عام 1940 كتب ليون تروتسكي (فيلسوف أوكراني) كتابا صغير بعنوان "النقابات في عصر الانحطاط الإمبريالي" يلخص فيه طرق وأساليب الدولة البورجوازية في تحويل النقابات ومؤسسات العمل الاجتماعي إلى تابع ذليل للسلطة، يقول تروتسكي: "هناك

ميزة مشتركة لتطور، أو بالأصح: لانحطاط، المنظمات النقابية الحديثة في العالم بأسره: وهي تقاربها واندماجها بسلطة الدولة".

الآن.. تأملوا في حال النقابات في عالمنا العربي "المنحط" بفعل الديكتاتورية، ماذا ترون، هل ترون نقابات وجمعيات تدافع عن حقوق منتسبيها أم تنظيمات شكلية تبرر وتدافع عن تسلط الدولة وانحرافاتهما؟ تأملوا في حال النقابات الاقتصادية مثلا.. نموذج أكمل للانحطاط الذي يتحدث عنه تروتسكي.

النقابات عندنا تأخذ تصريحاً من وزارة الشؤون وتأخذ منها "مساعدة" ومقراً وتعمل تحت مظلتها وتوجيهها.. كيف بالله ستحمي حقوق العاملين؟ وإذا ما انتقضت إحدى النقابات وطالبت بحقوق لمنتسبيها أو اتخذت موقفاً سياسياً مما يحدث، فبكل بساطة تقوم وزارة الشؤون بـ"حل" مجلس إدارتها وتنصب آخر، وما ينطبق على النقابات ينطبق على كثير من مؤسسات المجتمع المدني الأخرى، بل وحتى على جوقة المتصلحين من إعلاميين ومحامين وغيرهم، ممن تصبح مهمتهم تبرير الطغيان والظلم والانحطاط، والذين لولاهم والله لما قامت للظلم راية.

تقول روزا لوكسمبورغ (فيلسوفة بولندية توفيت عام 1919) "تقف الدولة إلى جانب الطبقة المسيطرة في الصراع بين المصالح، فتصطدم سياسياً بالتطور الاجتماعي ومصالح الشعب، فتفقد بذلك طابعها كمثل للمجتمع كله شيئاً فشيئاً، وتتحول بالوتيرة ذاتها إلى دولة طبقية محضنة"، كتبت هذا الكلام في أواخر القرن التاسع عشر، فتأملوا في واقعنا اليوم وفي مقترحات بعض النواب العنصرية؟

أخيراً.. بعد وفاة ماركس بأيام، ألقى رفيقه انجلز خطاباً عند قبره قال فيه: " لقد كان ماركس أفضل المكروهين، وأكثر من تعرض للتشهير في عصره، فقامت حكومات مطلقة وجمهورية على حد سواء بترحيله عن أراضيها، وتنافس البورجوازيون في الثلب والتشهير بشخصه. لقد أزاحوا ماركس كما تزاح خيوط العنكبوت، لكن لم يعر ماركس ذلك اهتمامه

ولم يرد إلا عندما دعتة الضرورة إلى الرد. ومات ماركس محبوبا ممجدا، ونعتة الملايين من العمال الثوريين من مناجم سيبيريا إلى كاليفورنيا وكافة أنحاء أوروبا وأميركا. ومن المهم القول انه برغم خصومه العديدين فبالكاد كان له عدو شخصي واحد. سيخلد اسمه على مر العصور، وكذلك أعماله".

تأملوا .. فقط تأملوا!

ثقافة التقاعد

مؤسف أن يعرض قدامى الموظفين ممن تجاوزت خدمتهم الثلاثين عاما أنفسهم للبهذلة والإهانة بسبب إصرارهم على عدم التقاعد، مؤسف أن تكون خاتمة مسيرتهم العملية الطويلة هي الطرد والبحث عن سبل للتخلص منهم بدلا من تكريمهم والاحتفاء بهم والإشادة بعطائهم.

الموظف بعد ثلاثين سنة من الخدمة يستحق التكريم والتقدير وكلمات شكر وثناء واعتزاز بما قدم، لكن إصرار البعض على البقاء في العمل وتعطيل مسيرة الترقيات والتوظيف في وجه الشباب سيعرضهم حتما للإهانة وختام حياتهم الوظيفية بطريقة لا تليق بهم ولا بالمؤسسات التي يعملون بها، خاصة ذات الأدوار التربوية، ومن لديه كرامة واحترام للذات يفترض أن يحرص كل الحرص على ألا يجعل نفسه عرضة لمثل هذه النهايات المؤلمة.

عالمنا العربي يفتقر لثقافة الحياة بعد التقاعد، بل إن التقاعد في عقلية الكثيرين يعني الموت.

حياتنا تفتقر للتخطيط الجيد لما بعد الوظيفة، ونظمنا الإدارية تتسم في أغلب الأحيان بالإجحاف والقسوة، ومؤسساتنا تكاد تخلو من أي برامج أو أنشطة للمتقاعدين، وإن وجدت فهي تركز الكسل والإحباط وفترة انتظار لعزرائيل، كالمقاهي الشعبية مثلا.

بل إن الفكرة السائدة للحياة بعد التقاعد في أحسن الأحوال عند "المستنيرين" هي البدء بمشروع تجاري أو الانخراط في وظيفة هامشية من جديد، وكأن الحياة لا تستقيم إلا بالعمل في الغرب، ورغم أن سن التقاعد عندهم أكبر من سن التقاعد لدينا بكثير، إلا أن ثقافتهم تزخر بمفاهيم جيدة عن التقاعد، فهو يمثل بالنسبة لهم حياة جديدة واستحقاقا للراحة والاستمتاع بالحياة بعد مسيرة العطاء وأداء الالتزامات المطلوبة، سواء تجاه الدولة أو المجتمع أو الأسرة، فتجد التقاعد لديهم مرادفا لمعنى التقدير والمكافأة والراحة، وهذا ما ينبغي أن يكون.

بينما لدينا يصبح مرادفا لمفهوم المرض والكسل والعالمة على المجتمع أو الموت.

شاهدت الكثير من كبار السن في الولايات المتحدة الأميركية وعدة دول أوروبية يركبون سيارات رياضية ويلبسون ملابس شبابية، يسافرون ويلعبون ويستمتعون بما تبقى لهم من عمر، تشعر بأنهم يتعاملون مع التقاعد وكأنه بداية حياة جديدة، خالية من الالتزامات والمسؤوليات.

بينما ترسخ في ثقافتنا أن التقاعد مصيبة تصيب جميع أفراد الأسرة بالحزن والقلق والههم والاكئاب.. لماذا؟!!

لدينا مشكلة كبيرة في نظام الخدمة الاجتماعية، إذ إن معظم الراتب عبارة عن بدلات ومكافآت مرتبطة بطبيعة العمل، تلغى عند التقاعد، فيجد الانسان نفسه في وضع مادي صعب للغاية، فرق شاسع بين راتبه أثناء الخدمة وراتبه بعد التقاعد، وهذا أحد أكبر الأسباب التي تجعل الكثيرين يصرون على الاستمرار بالعمل.

لدينا أيضا إشكالية ثقافية كبيرة تتعلق بنمط الحياة الاستهلاكية التي تحيلنا إلى وحش يزداد ضخامة ويطلب المزيد باستمرار.

لدينا أيضا مشكلة ثقافية كبرى تتعلق بسوء التخطيط للحياة والاستعداد لكل مرحلة..

فكل شيء عندنا "ماشى ع البركة"، هكذا نبرر كسلنا والخمول.

عزيزي المتقاعد، خدمت مجتمعك وربيت أولادك وزوجتهم وأديت دورك ومسؤولياتك على أكمل وجه، انطلق واستمتع بالحياة، سافر لبلاد الله الواسعة وتعرف على ثقافات البشر، تنقل بين المطاعم الجميلة والمقاهي "اللي تفتح النفس"، اقرأ كتابا كل شهر، وادخل عالم التكنولوجيا الجديدة ومواقع التواصل الاجتماعي وابتهج، فالسعادة ليست عيبا، والفرح ليس جريمة.

إشكالية: الثورة أم الإصلاح ؟

"الإصلاح" يعني - حرفياً - إعادة تشكيل (Re-Form)، إما من خلال إجراء تعديلات بسيطة على شيء لجعله في وضع جديد أحسن، أو من خلال إعادة شيء إلى وضعه السابق في حال تغييره بطريقة سيئة. أما الثورة، فمأخوذة من الكلمة اليونانية (Revolutio) والتي كانت تعني في اللغة اليونانية القديمة نقل أو تحريك شيء من مكان إلى مكان آخر.. وقد استخدمت الكلمة في السياسة للإشارة إلى التغيير الذي يطرأ على نظام الحكم (انتقاله من حالة إلى حالة أخرى). وبعد الثورة الفرنسية اتسع نطاق استخدام كلمة "ثورة"، فأصبحت تطلق على مختلف مناحي الحياة، على أي تغيير كبير في حياة البشر عموماً، مثل "الثورة الصناعية، الثورة العلمية، ثورة الاتصالات، ثورة طبية...".

لكن يبدو أن بريق الثورات قد عاد من جديد مع أحداث الربيع العربي، والذي استلهمت منه كثير من الشعوب حول العالم، بل وتأثرت به حتى الحركات الدينية المسيحية الأصولية في أميركا الشمالية، ومع عودة بريق الثورات، أعيد إحياء النقاش حول جدوى الثورة التي تآكل ذاتها من جهة، واستحالة الإصلاح السلمي في ظل أنظمة حكم فاسدة تسببت في فساد كل مؤسسات الدولة من جهة ثانية.

مفهوماً "الصالح والثورة" باعتقادي يلخصان المأزق العربي الحالي بوضوح، فالفساد في مؤسسات الدولة الرسمية وحتى الأهلية بلغ منتهاه حتى لم يعد يصلح معه أي إصلاح سلمي، خاصة مع غياب المشاركة الشعبية الحقيقية. إلا أن الثورات التي تمت في المقابل كانت في معظمها فاشلة، تبدأ بشعارات العدالة والمساواة وحماية ثروات الشعب، ثم ما تلبث أن تتحول إلى غول جديد يلتهم تضحيات الناس وتنتهي بالقمع والاقصاء والبدء من جديد بصنع ديكتاتور آخر.. "بدل فاقد".

إشكالية الثورة أم الإصلاح تشبه إلى حد ما إشكالية المشاركة أم المقاطعة في الانتخابات البرلمانية القادمة في الكويت بعد حكم المحكمة الدستورية الأخير والذي أقر للسلطة التنفيذية حق تعديل النظام الانتخابي دون الرجوع للبرلمان، ففي حين يرى أنصار المقاطعة أن المشاركة تعني الإقرار بانتهاك الدستور، يرى بالمقابل أنصار المشاركة أن المقاطعة تعني الاستسلام.

بالنسبة لي، أرى من الخطأ اختزال المشكلة في ثنائية مشاركة - مقاطعة، فالأمر يختلف عن ثنائية إصلاح - ثورة والتي لا يوجد بينهما حالة ثالثة، فإما الإصلاح وإما الثورة. بينما في الانتخابات الأمر مختلف، أو ينبغي أن يكون مختلفا، فالمقاطعة يفترض أن تكون خطوة أولى تتبعها خطوات ضمن برنامج متفق عليه، لعل من أهم أهدافه البدء في اعتماد أسلوب الاستفتاءات الشعبية في القضايا الكبرى، مثل تعديل الدستور.

شيزوفرينيا

كيف لشخص بسيط مثلي أن يتعامل مع أحداث كبار تعج وتموج بها مدن وعواصم إسلامية وعربية، وسط تناقضات أكبر من أن يستوعبها عقلي الصغير؟ كيف يفترض أن أفهم تفجير سيارات وسط أحياء سكنية ومساجد في بغداد كل يوم، مقابل تعذيب النظام لمعارضيه بوحشية؟ وكيف يفترض أن أفهم قمع محتجين في البحرين يطالبون بالعدالة، مقابل عنف هؤلاء المحتجين الذي يصل لحد حرق شرطي بالمولوتوف؟ كيف أميز بين أتباع "المشروع الصفوي" الذي يضم لنا الشر، وبين مواطنين شرفاء يريدون العدالة والعيش الكريم لا أكثر؟

كيف يفترض أن أستوعب كل تلك الوحشية والعنف المفرط ضد متظاهرين سلميين في مصر يطالبون باحترام الشرعية وعودة رئيستم الذي اختاروه بانتخابات حرة ونزيهة؟ كيف أوفق بين رسائل علماء ومشايخ يحذرون من "الاخوان" وخطرهم على الإسلام، وبين إنسانية من اختارهم؟

هناك من يقول "الإخوان المسلمين" مجرمون وخونة وعملاء للصهاينة، أمنا بالله، طيب كيف يفترض أن أتعامل مع "البشر" المعتصمين في رابعة العدوية والنهضة وغيرها، وبينهم نساء وشيوخ وأطفال وشباب في مقتبل العمر، وبينني وبينهم أخوة الدين والعروبة والإنسانية؟ هل أتعاطف معهم، هل أفرح لقتلهم وتعذيبهم، هل أتجاهلهم ولا أكرث لحالهم؟ ماذا أفعل، كيف لإنسان بسيط مثلي أن يوفق بين تناقضات عقله وضميره وواقعه وآراء علماء لطالما احترمهم ووثق بهم؟

عندما أعود لتاريخ الإسلام وأدبياته، أجد أنه ثورة ضد الظلم والطغيان والعبودية لغير الله، وعندما أسترجع خطب الأئمة على المنابر أجدها مليئة بقصص وحكايات عن بطولات الصحابة والتابعين، وأسمع المشايخ يمجدونهم ويشيدون بشجاعتهم حين يصدحون بوجه الحاكم إذا أخطأ.. وعندما أعود للواقع ماذا أرى وماذا أسمع؟ أرى صراعات وفجور في الخصومة بين المشايخ والعلماء أنفسهم، وأسمع تحذيرات من فتن الخروج على الحكام أو

حتى انتقادهم علانية.. فكيف أوفق بين تاريخ الإسلام وبين تحذيرات وصراعات علماء
ومشايخ اليوم؟

كنت قد عزمت أكثر من مرة على تجاهل كل ما يحدث، فأنا أعرف بداخلي تماما حقيقة
الصراعات في عالمنا العربي وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية، وأفهم جيدا شخصية
الإنسان العربي العنيد والقاسي والذي تغيب عنه ثقافة التسامح والقبول بالآخر المختلف،
كنت أقول لنفسي مرارا: مالي وكل هذا العبث والجنون، لماذا أشغل نفسي وأتحمل هذا
العبء الثقيل على كاهلي المنقل أصلا بالهموم والمشاكل الخاصة؟

لكني كلما عنّ لي ذلك خاطر وهاج في داخلي، تذكرت حديث رسولنا الكريم "مثل
المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو
تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، رحماك ربي، ماذا أصنع أمام هذا الواقع الذي
يمزقني في انقسام صارخ بين يمين وشمال، وليس أمامي من يطمئن له القلب.

هل حقا "الإخوان المسلمين" خطر؟!

قرأت كثيرا في الفترة الأخيرة عن "الاخوان المسلمين"، وما زلت أقرأ هنا وهناك في الصحف ومواقع الانترنت، ولاحظت أن أغلبية الآراء ضدهم، وأن كثيرا من الناس يسبونهم ويحذرون منهم ويعتبرونهم خطرا على الأمة الاسلامية يفوق بمراحل خطر الصهاينة والصفويين وكل أعداء الاسلام، لكنني لم أجد من بين معظم ما يكتب عن الاخوان المسلمين حديثا عقلانيا وموضوعيا يشرح حقيقة ذلك الخطر، لم أجد أفكارا يمكن فهمها ومناقشتها، وانما لا يتجاوز غالبية ما يكتب عنهم الشتائم والسباب.. لاحظوا، أنا لا أقول انهم لا يشكلون خطرا ولا أروج لفكرهم ولا أدعو للانضمام اليهم، أنا فقط أقول بأنني لا أعرف ان كانوا فعلا يشكلون خطرا كما يشاع، لأنني لم أجد حديثا موضوعيا يثبت هذا الخطر حتى الآن.

مما قرأت عن تاريخ الاخوان المسلمين، أجدهم حركة سياسية ترفع شعار الاسلام وتدعو للخير والفضيلة واصلاح المجتمع، وفي فترة من الفترات لجأوا للعنف واستباحوا دماء مخالفيهم، خاصة بعد أن استحدث سيد قطب فكرة تقسيم المجتمع لفريقين، فريق الحق وفريق الباطل، واستحل دماء كل من يقف في وجه أهل الحق "وهم الاخوان في نظره بالتأكيد" ..

بالأخير، هي حركة بدأت "دينية" تسعى لإصلاح المجتمع، ثم تحولت الى حركة سياسية تسعى لتطبيق منهجها على نطاق أوسع من خلال السلطة، أفهم خطورة فكرة سيد قطب، لكنها كانت فكرة مرحلية جاءت ردة فعل على العنف والتنكيل الذي تعرضوا له خلال فترة حكم جمال عبدالناصر ثم أنور السادات، واختفت مع حسني مبارك تقريبا، ثم ان كثيرا من التنظيمات الدينية الاسلامية وغير الاسلامية لديها صراحة أو ضمنا هذا التقسيم الصارخ بين البشر، بل هي عقيدة أصبحت رائجة حتى على مستوى التيارات السياسية العلمانية منذ اعلان بوش الابن الحرب على "الإرهاب" بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر 2001، وشعاره الذي يردده الكثيرون "من ليس معنا فهو ضدنا".

لماذا اذن يتهم الاخوان المسلمين دون غيرهم بهذه التهمة، ما الذي يبرر اعتبارهم "الخطر الأكبر" بسبب فكرة موجودة عند معظم التنظيمات الدينية والسياسية؟

لم أجد حتى الآن مبررا مقنعا حول كل هذا التهويل والتخويف من الاخوان المسلمين، لم أتمكن حتى الآن من الوصول الى شرح موضوعي وغير متعصب يشرح بوضوح أين بالتحديد يكمن الخطر الذي يفوق خطر الصهاينة وكل أعداء الأمة في الاخوان المسلمين. وعليه، وانطلاقا من عقيدة الولاء والبراء التي تعد أصلا راسخا من أصول الايمان السليم، أجد من واجبي كمسلم دعم الاخوان المسلمين بما أستطيع، الى أن أتبين حقيقة الخطر الذي يمثلونه، خاصة أن من يعاديهم حاليا في مصر ويقمعهم بوحشية، ظاهر الفساد والفحش والفجور، ومشروعه المعادي للإسلام لا يخفى على كل صاحب عقل وبصيرة، فهل هناك أوضح من إعلان كثير منهم عدم القبول بدولة اسلامية؟!

انتقاد المشروع السياسي حتى الديني للإخوان المسلمين أمر مشروع، رفض أفكارهم ومنهجهم حق لكل انسان، أما قتلهم واستباحة دمائهم والتحريض ضدهم بهذه الوحشية الصارخة فهذه ليست من قيم الاسلام ولا من الانسانية.

المعقول واللامعقول في ثقافتنا

بينما تحرك إيران جنودها وخبرائها وأسلحتها لدعم النظام المجرم في سورية والذي يقتل يوميا وبكل وحشية مئات الأطفال والنساء والرجال من الشعب السوري، وفي الوقت الذي تدعم روسيا والصين هذا النظام المجرم بكل قوة.. يكتفي "العالم الحر" بالاستنكار، ونكتفي نحن بالدعاء!

الدعاء جيد، لكنه لا يكفي، وإلا لما خرج رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام لقتال المشركين، ولما أصيب هو وصحبه بالجروح والألم ولما استشهد في تلك المعارك الطويلة آلاف المسلمين، على الرغم من أن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام كان مستجابا، والسبب أن المعارك تتطلب استعدادا وتسليحا وتدريباً على القتال، وهو ما لا يفعله المسلمون اليوم لأنهم جبنا، يريدون الله عز وجل أن يرسل لهم طيرا أبابيل وحجارة من سجيل وريحا صرصرا وبحارا هوجاء وغيرها من جنود الرحمن لتحارب بدلا عنهم، بينما يستمتعون هم بملاذات الدنيا.. والغريب أنهم بعد هذا يريدون ملاذات الآخرة أيضا!

يخبرنا القرآن الكريم أن السيدة مريم العذراء أم المسيح عليه السلام خرجت من مخاضها العسير وحيدة كسيرة، ثم جلست تحت شجرة منهكة ومتعبة من آلام الولادة، ومع ذلك جاءها الوحي وأبلغها أن الله عز وجل يأمرها أن تهز جذع النخلة لتسقط عليها رطبا جنيا، فتصوروا كيف هو الحال مع أم السيد المسيح عليه السلام وهي امرأة عانت ما عانت من قومها بسبب حملها من غير زوج، ومع ذلك أمرها الله عز وجل بالعمل وبذل جهد بسيط أولا ليرزقها، هل كان مستحيلا على الله عز وجل أن يطعمها بغير جهد منها؟! كلا بالتأكيد، لكنه درس لنا، لم نتعلم منه ما ينبغي أن نتعلم، لأن كثيرا ممن يقف على المنابر اليوم أشخاص تافهون ومنافقون يتحدثون بخطاب ساذج وملئ باللامعقول، يرسخون به ثقافة الخمول والاتكال وانتظار الرجل الخارق الذي يقهر الأعداء بضربة واحدة ويرينا باليهود والنصارى عجائب قدرة الله على البطش بالمجرمين.

العالم يفعل ويصنع ويدرب ويستعد، بينما عالمنا الإسلامي المريض والمبتلى بالخنوع والعبودية وعقلية الرعاع يريد تحرير أولى القبليتين وثالث الحرمين عن طريق "هاشتاق" في

"تويتر" ونصرة أهلنا في سورية من خلال رسالة قصيرة في هاتف، فأبي وضاعة هذه وأي احتقار لأمة المليار ونصف المليار مسلم؟! غثاء! هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم عاجزا عن الدعاء وهو الذي لا يرد له طلب؟! ومع هذا لم يمنع ذلك من القيام بما ينبغي القيام به، جهز الجيوش وأعد العدة للحرب بمتطلباتها، ثم سلم أمره وأمر المسلمين لله عز وجل.

هكذا ينصر الله عز وجل المؤمنين، أما ما يفعله كثير من أدعياء التقوى والتدين اليوم، بكروشهم المنتفخة وحياتهم الباذخة والفارهة فما هو إلا تعطيل للعقول بخطاب اللامعقول، والذي ينطبق عليه ما قاله ماركس "أفيون الشعوب".

بين الثورة والتنوير

مع بدايات ما بات يعرف باسم "عصر التنوير" في القرن الثامن عشر، وجه القس يوهان فردريش تسولنر سؤالاً إلى الفيلسوف الألماني الكبير امانويل كانت قال فيه: ما هو التنوير؟ كان سؤالاً مستحقاً، رغم أن الكلمة قد توحى بالبساطة، فقد كانت طبيعة العصر كلها تدور حول مفهوم التنوير والذي مهد بعد ذلك لقيام الثورة الفرنسية عام 1789م. وفي جوابه عن تساؤل القس تسولنر، كتب كانت مقالة مطولة بعنوان "ما التنوير؟" (was ist aufklaerung?) نشرت عام 1784م، أي قبل قيام الثورة الفرنسية بخمسة أعوام قال فيها: "التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه من خلال عدم استخدامه لعقله إلا بتوجيه من إنسان آخر". وشخص كانت أسباب حالة القصور هذه في عاملين بالتحديد هما: الكسل والخوف. فتكاسل الناس عن التفكير واتخاذ المواقف التي تنسجم مع طبيعة الإنسان الأخلاقية والخيرة، جعلهم يعتمدون بشكل مفرط على الآخرين ممن يستغلونهم ويقدمون أنفسهم بوصفهم قادة أو زعماء سياسيين أو دينيين.. لا يهم، فالمشكلة تكمن في الاستسلام والانقياد - طوعاً - لشخص آخر يفكر بدلا عنا ويقرر "هو" ما الذي يصلح وما الذي لا يصلح لنا "نحن". وبسبب الخوف والجبن، أصبح كثير من الناس خانعون لا يجروون على التوقف لحظة واحدة والتأمل فيما يقرره لهم هؤلاء "القادة"، مهما بلغ ذلك من السذاجة والقبح.

كلمة "التنوير" في اللغة العربية تعني "فعلاً" الخروج من حالة الظلام إلى حالة النور، ولذلك لم تكن تسمية "عصر التنوير" بهذا الاسم من قبيل المصادفة، بل كان مقصوداً لحث الناس على الخروج من حالة الخنوع والعبودية التي كانت سائدة في العصور الوسطى أو "عصور الظلام". ومع أن كلمة التنوير في اللغة الألمانية هي Erleuchtung، إلا أن كانت لم يستخدم هذا اللفظ وإنما استخدم كلمة Aufklaerung والتي تعني حرفياً "التوضيح" فلماذا؟ السبب أن كلمة Erleuchtung بالألمانية (أي تنوير) كانت تستخدم آنذاك بمعنى "الثورة"، ورغم أن الفيلسوف كانت كان مؤيداً لمبادئ الثورة الفرنسية، إلا أنه لم يؤيد الثورة كوسيلة للإصلاح، فقد كان موقناً بأن إصلاح عقول البشر وجعلهم مستقلين بذواتهم ويستخدمون عقولهم بأنفسهم أمر لا ينفع معه التغيير

المفاجئ والسريع كما يحدث في الثورات، وإنما يتطلب تدريباً وتربية عقلية ونقدية طويلة الأمد. ومع هذا، لم يقتنع العالم بفكرة الإصلاح عن طريق التربية، بل أخذت معظم الشعوب بطريق الثورات كما حدث في الثورة الفرنسية والثورة الأميركية وحركات التحرر في أميركا اللاتينية والثورة البلشفية وغيرها وصولاً إلى الثورات العربية الحالية.. والسبب ببساطة أن للبشر قدرة على الاختزال والصبر وتحمل الأذى والظلم، لكن الأنظمة الحاكمة لا تبدأ بالإصلاح في الوقت المناسب، وإنما دائماً تعلن أنها "ستفعل" بعد فوات الأوان وانفجار الشعوب.. والغريب أنه لا أحداً يتعظ من أحد.

نجوم سيدي مؤمن

يلفت الأديب المغربي ماحي بنبين في روايته الجديدة "نجوم سيدي مؤمن" إلى خطورة الهوة العميقة بين الفقراء والأغنياء، ويحذر من استمرار تجاهل أحوال الفقراء ومعاناتهم في مدينة سيدي مؤمن، والتي هي رمز لكل المدن المطحونة بالفقر والجهل والعفن في عالمنا العربي، قائلاً إن العيش في "سيدي مؤمن" وسط القاذورات ورائحة العرق والنفثالين وأصوات الشخير، ببطون فارغة وأجساد نحيلة وملابس مهترئة سيصنع في نهاية المطاف "قنابل بشرية" لا تبالي بتدمير العالم كله، طالما أنه قد أشاح بوجهه عن معاناتهم وتخلّى عن مساعدتهم.

وفي الرواية حديث مؤلم ووصف قاس عن عذابات الفقراء وتعاستهم، يقول فيه "ياشين" - الشخصية الرئيسية في الرواية - عن شباب مدينة سيدي مؤمن: لم نعد نخشى "قباض الأرواح"، فالناس يأتون ويذهبون ويعيشون ويموتون دون أن يتغير أي شيء في أحوالهم التعيسة، حتى أصبح قباض الأرواح حليفنا وضيفنا.. نخدمه ويخدمنا!

ثم يتناول بنبين طرق تحول هؤلاء الشباب المحبطين والمنكسرين بفعل الجوع والجهل والفقر إلى "إرهابيين" ينتقمون من العالم الذي تجاهلهم وتسبب في صنع واقعهم المزري، وذلك من خلال صورة نمطية أصبحت تقليدية جدا مع تركيز الاعلام الغربي والعربي عليها مؤخراً، ألا وهي استغلال "الجماعات الجهادية المتطرفة" لضياح الشباب وفراغهم واستعدادهم لفعل أي شيء مقابل تأمين وجبة عشاء لأسرهم وأطفالهم الجوعى، وهكذا يصبح الفقر والبؤس مرتعا وأرضا خصبة لصنع "الإرهاب" كما يراه ماحي بنبين وغيره.

لا جديد يذكر في رواية "نجوم سيدي مؤمن"، فهي تكرار لفكرة قديمة روج لها الكثير من الأدباء وصانعي الأفلام منذ عشرات السنين، وربما يكفي مشاهدة فيلم "حين ميسرة" الذي أنتج عام 2007 للمخرج المبدع خالد يوسف لفهم هذه الفكرة البسيطة، فقد كان الفيلم بمثابة رسالة تحذير واضحة ومباشرة وقوية للنظام آنذاك حول خطورة تجاهل

معاناة الفقراء وتزايد الهوة بينهم وبين عالم الأثرياء من لصوص المال العام، وفيه تصوير واقعي وعميق لكيفية استغلال الشباب المعدم من قبل بعض الجماعات الإرهابية.. فما الذي حدث؟ كالعادة، خدع النظام نفسه واستمع للمنافقين حتى وقع.

الفكرة قديمة والتحذيرات متكررة، إلا أن الجديد هو توقيت صدور الرواية في هذا الوقت بالذات، فهي تمثل ناقوس خطر آخر للأنظمة التي لاتزال تمنى نفسها بالوهم وتخدعها جوقة المتصلحين بأن "وضعهم مختلف".. لا أحد مختلف، كل البشر متشابهون في رفض القهر والجوع والجهل.. منذ قيام أولى الثورات على هذه الأرض، فمحرك الثورة دائماً أمر واحد، هو "الشعور بالظلم" أيا كان سبب هذا الظلم، فيثور الفقراء بسبب الجوع، ويثور الأغنياء بسبب القهر!

باراداييم.. التفكير خارج الصندوق

كان الفيلسوف الأميركي توماس كون أول من استخدم مصطلح Paradigm (باراداييم) في الستينيات من القرن الماضي، وحدده بمعنى مجموعة الأفكار والمعتقدات والتصورات والانطباعات التي تشكل شخصية الإنسان منذ مولده وتكبر معه، وتجعله يرى العالم ويفسر الأشياء وفقا لهذه المنظومة الفكرية. الباراداييم أشبه بـ "صندوق" يحتوي أدوات توجيه تجعل تفكير الإنسان مقيدا ومحددا بصورة نمطية تسعى للتوافق مع ما هو سائد.

مشكلة الباراداييم انه يجعل الإنسان في حالة تأهب واستعداد لرؤية بعض الأمور وفقا لتوقعاته المسبقة، وتتفاقم المشكلة أكثر إذا كان الباراداييم بمنزلة حالة عامة في المجتمع، وهو ما يظهر بوضوح في العالم العربي عموما هذه الأيام، وفي الكويت بشكل خاص بسبب هيمنة موضوع "الربيع العربي" على وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، ولذلك تجد كثيرا من الناس يتصرفون ويطلقون الأحكام بسرعة وبتعميمات خاطئة، ويفسرون كل شيء بناء على تصورات نمطية مسبقة، فتجد من يرى أن كل الشيعة موالون لإيران، أو كل السنة موالون للسعودية، أو كل "بدوي" ولاؤه للقبيلة أكثر من الدولة، أو كل "حضري" تاجر لا يهتم إلا بجمع المال.. الخ. بسبب الباراداييم تمت الإساءة لكثير من الناس بصورة مجحفة، وألقيت التهم المعلقة ضد أبناء الكويت بكل وقاحة، مثل فلان "صفوي" لمجرد كونه شيعيا، أو فلان "مزدوج" لمجرد كونه معارضا لأداء الحكومة في إدارة شؤون الدولة.. الباراداييم قلوب كثيرا من الناس وحولهم إلى آلات لا تفكر ولا تتصرف خارج الأطر المرسومة لها، فلا تسمع غير تكرار وترديد لنفس الحجج والانتقادات والشتائم التي تطلق بصورة جماعية، أما التفكير العقلاني والموضوعي والرزين فلا يكاد يظهر بسبب أجواء الاتهامات الجاهزة والتخوين السريع.

قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف "لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا". وبهذا الحديث العظيم يعلمنا صلى الله عليه وسلم كيف نخرج من صندوق الباراداييم الذي يقيدنا بمواقف نمطية وأحكام مسبقة، أن نفكر خارج الصندوق بتجرد وموضوعية ونقول الحق ولو على أنفسنا.

لمن يرغب في الخروج من الصندوق، هذه بعض الأفكار المفيدة: تقبل فكرة أنك لا يمكن أن تكون على صواب دائماً، وأن البشر يخطئون، وأن الكمال لله وحده عز وجل، وتقبل احتمال أن يكون الرأي الآخر أكثر صواباً. حاول التفكير وفقاً لمعايير جديدة ومختلفة عما اعتدت عليه. لا تردد بسرعة كل ما تسمع، ولا تصدق كل ما يقال. لا تجعل إعجابك بشخص ما يحولك إلى "تابع" له بلا شخصية ولا تفكير، فكل البشر متساوون، وكل إنسان سيحاسب على أفعاله ولن يتحمل أحد وزر أحد.. باختصار، كن إنساناً أخلاقياً لا يقبل الظلم على نفسه ولا على غيره.

تنامي عنصرية اليسار !

قبل اندلاع ثورة 1789 في فرنسا، اجتمع ممثلو الطبقات الاجتماعية الثلاث، وهم طبقة الملك ورجال الدين، طبقة النبلاء، وطبقة العامة، اجتمعوا مع الملك لويس السادس عشر لمناقشة سوء الأوضاع التي وصلت إليها فرنسا بعد تزايد القهر والظلم الذي كان يمارسه الاقطاعيون من النبلاء ورجال الدين وأتباع الملك ضد الشعب (أي طبقة البروليتاريا المسحوقة كما يسميهم ماركس). جلس أتباع الملك ورجال الدين على يمين الملك لويس السادس عشر، وجلس ممثلو الشعب المطالبون بالحرية والانعقاد من حالة الرق على يسار الملك في البرلمان، وكما هو معروف، لم يسفر الاجتماع عن نتائج إيجابية، إذ لم تستجب السلطة لمطالب الناس، ما أفضى إلى اندلاع أعظم الثورات الاجتماعية الحديثة، وهي الثورة الفرنسية.

ومنذ ذلك الحين أصبح مصطلح "اليسار" يستخدم لوصف الأحزاب والتيارات السياسية المدافعة عن الحريات والمساواة والعدالة الاجتماعية، وفي مقدمتها الأحزاب الاشتراكية والليبرالية، مقابل مصطلح "اليمين" الذي توصف به التيارات والأحزاب السياسية المحافظة، و"المحافظة" هنا تعني السعي للبقاء على الوضع القائم ومنع تطوره لوضع جديد (غالبا مزيد من الحريات والمشاركة الشعبية في الحكم)، أو العمل للعودة إلى وضع سابق. الطريف في الأمر، أن البرلمان الفرنسي، ومعظم البرلمانات في العالم، لا يزال يتبع هذا التقسيم في جلوس ممثلي الأحزاب السياسية على يمين ويسار رئيس الجلسة.

على مر التاريخ، كانت الأحزاب والتيارات اليسارية دعاة تحرر ومساواة وعدالة اجتماعية، ارتبط باليسار كل من العلمانية والاشتراكية والتقدمية، وكان اليساريون على الدوام من أشد المدافعين عن الحريات العامة وحقوق الإنسان وبشكل خاص حقوق الأقليات والمهاجرين، وشهدت قاعات البرلمانات الأوروبية أروع النماذج لكفاح التيارات اليسارية من أجل إعطاء المهاجرين حقوق المواطنة الكاملة.

قبل أيام في ألمانيا، دعا المرشح الاشتراكي الديموقراطي الذي ينافس ميركل على منصب المستشارية إلى فصل التلاميذ المسلمين من الجنسين عن بقية التلاميذ في جميع مدارس ألمانيا، خاصة في الأنشطة الرياضية. قبل ذلك وخلال السنوات القليلة الماضية شهدت فرنسا، وهي مهد ثورة الحريات والعدالة الاجتماعية، حوادث متكررة تعبر عن إعادة إحياء الروح العنصرية ضد العرب والمسلمين والأجانب بصورة عامة، بلغ بعضها حدود الانحطاط واللامعقول، مثل نبش وتخريب مقابر المسلمين في باريس، ومثل هذه الحوادث أصبحت تتزايد في معظم أوروبا والولايات المتحدة، وبدرجات متفاوتة من العنف الذي يصل لحد القتل وتخريب الممتلكات أحياناً.

أن يمارس أتباع التيارات اليمينية المتطرفة مثل هذه الأفعال المشينة أمر مفهوم، فهي تنسجم مع أطروحاتهم العدائية ضد المهاجرين والأقليات عموماً، لكن أن تصدر دعوات تمييز عنصري من كبار اليساريين ثم تجد من يصفق لها، فهذا مؤشر بالغ الخطورة يتطلب جهوداً كبيرة من الحكومات الغربية لوقف تنامي حركات العنصرية ومخاطر ممارساتهم المتطرفة والعنيفة.

لا شك أن الوضع الاقتصادي المتردي الذي تشهده أوروبا نتيجة الأزمات الاقتصادية المتلاحقة يشكل عاملاً حاسماً في تنامي حركات التطرف والعنف والعنصرية في هذه البلدان، إذ ينظر المواطنون "الأصليون" لهم بوصفهم أحد أسباب تزايد البطالة في صفوفهم، وهذا يدل على جهل كبير نتيجة الحقد والكراهية اللذين يهيمنان على العنصري الذي ينسب كل أسباب التخلف وتردي الأوضاع إلى هؤلاء المستضعفين الذين يعانون أكثر من غيرهم من نتائج الأزمات الاقتصادية، ويتغاضون عن المتسببون الحقيقيون فيها، وهم الرأسماليون الجشعون.

ألمانيا الجديدة.. ومسلمون يعطلون نشر الإسلام

في معظم مقاطعات ألمانيا تم خلال السنوات القليلة الماضية السماح بتدريس تعاليم الإسلام في المدارس الحكومية، إلا أن الخلافات المذهبية والطائفية بين ممثلي التجمعات الإسلامية هناك حول محتوى المادة العلمية عن الإسلام تسببت في تعطيل الموضوع الذي يفترض أن يكون من أفضل وأكبر وسائل الدعوة ونشر دين التوحيد في قلب أوروبا. تخيلوا إذن صورة الإسلام وما الفكرة التي ستتكون في أذهان الغرب عن المسلمين؟! هكذا تفعل الطائفية وهكذا تعمي الكراهية والحقد الطائفي قلوب المنتمين إليها.

أن تسمح الحكومة الألمانية بتدريس تعاليم الإسلام في مدارسها، خطوة كبيرة وفرصة عظيمة لم تتوافر لأي دين آخر، تعبر بوضوح عن حالة الانفتاح والتسامح التي يعيشها هذا البلد العظيم، والرغبة الصادقة في طي صفحة النازيين المظلمة التي وصمت ألمانيا بالعنصرية والانغلاق لفترات طويلة، وقد شهدت بنفسها جزءاً من هذا التحول الكبير الذي طرأ على الثقافة الألمانية منذ مطلع التسعينيات وحتى اليوم، ولاحظت اهتمام الألمان بالإسلام بشكل خاص، حيث زادت مراكز تعليم اللغة العربية بشكل ملحوظ، وانتشرت بكثرة الكتب المتعلقة بالإسلام والقرآن الكريم وتفسيراته في مكباتها، وكذلك زيادة عدد المساجد ومراكز الدعوة ومجالس الإفطار الجماعي في رمضان في كبرى مدنها، إضافة إلى القوانين والتشريعات التي تتعلق بالمسلمين وحقوقهم الدينية وغيرها، يقابل ذلك تعطش كبير لدى كثير من الألمان لفهم الإسلام، ورغبة شديدة لسد الفراغ الروحي الذي يعاني منه الغرب بصورة عامة وخلال السنوات القليلة الماضية بشكل خاص.

كل هذا يجعلنا أمام أكبر وأفضل فرصة تاريخية لخدمة دين الله ونشره بين أفضل شعوب الأرض تعليماً وثقافة وتقدماً، ومع ذلك تأبى الطائفية البغيضة إلا أن تطل برأسها الشرير، وتحرم ملايين البشر من فرصة التعرف على عظمة هذا الدين وشموليته وقدرته تشريعاته الإلهية على تنظيم حياة البشر بأفضل صورة. أليس في الإسلام ما يجمع مختلف المذاهب والطوائف من مبادئ حق وخير ووحدانية، أليس لدى المسلمين ما يتفوقون

على تقديمه للآخرين ويمكن أن يقنعهم بدخول الإسلام والتأكيد على أنه دين النجاة
والرحمة والفضيلة والسلام!

ألمانيا اليوم ليست هي ألمانيا قبل 20 عاما، فهي ألمانيا جديدة وعظيمة باقتصادها القوي
وصناعاتها المتميزة ومدنها الجميلة وانفتاحها الثقافي غير المسبوق. ألمانيا اليوم تفتح
أبوابها للمسلمين لنشر تعاليمهم التي يدعون أنها سمحة وتدعو للسلام والمحبة، إلا أن
الطائفين بعقولهم الصغيرة وأنانيتهم المفرطة يغلقون كل باب من أبواب الخير والمحبة.
قاتل الله الطائفية والطائفين.. ما أقبحهم!

بين الحركة و"الحراك"

الحراك الاجتماعي (Social Mobility) هو الانتقال من مكانة اجتماعية أو مستوى معيشي أو اقتصادي أو سكني أو ثقافي معين إلى مكانة أخرى، إما للأعلى (أي من مكانة اجتماعية متدنية إلى مكانة أعلى) وإما للأسفل.

في كل مجتمع هناك "ترتيب تسلسلي" في مختلف المجالات الاجتماعية. في الوضع الاقتصادي هناك فقراء ومتوسطو دخل وأغنياء وفاحشو الثراء، في المكانة الاجتماعية هناك نبلاء أو أشرف أو سادة وطبقة وسطى وطبقة دنيا ومسحوقون ومنبوذون، في الدين هناك عامة الناس وخواص الناس ورجال دين أو رجال كهنوت، في مكان الإقامة أو السكن هناك سكان الريف وسكان البادية وسكان المدن أو الحضر، وفي الثقافة هناك متعلمون وأنصاف متعلمين وجهلة.. الخ.

الحراك الاجتماعي باختصار يعني الانتقال من وضع اجتماعي إلى وضع آخر صعوداً أو هبوطاً.

الحركات الاجتماعية (Social Movements) هي مجموعة الأفعال أو الجهود التي يقوم بها عدد من الأشخاص من أجل تحقيق هدف أو مجموعة أهداف مشتركة، وهي تختلف عن الأحزاب من حيث التنظيم الرسمي وانتساب الأعضاء والديمومة، فالحركات الاجتماعية تكون مؤقتة وتجمع أشخاصاً من مختلف التيارات والاتجاهات الفكرية، وترتبط فقط بتحقيق الأهداف، فتنشأ من أجل مهمة محددة وتنتهي بانتهائها.

علمياً، ما يحدث في الكويت هو "حركة اجتماعية" وليس "حراك"، والحركات الاجتماعية قد تكون سياسية، وقد توجه نحو أي نظام من النظم الاجتماعية الأخرى، فقد تكون حركة تصحيح في نظام اقتصادي فاشل، أو حركة إصلاح سياسي لنظام غير مستقر، أو حركة

اصلاح تربوي أو ديني أو أي مجال آخر. والتاريخ عرف العديد من نماذج الحركات الاجتماعية، بعضها تكلل بالنجاح وبعضها أصيب بالفشل.

من المهم أيضا التمييز بين الحركات الاجتماعية وبين الثورات، والعامل الحاسم في التمييز بينهما يرتبط بأمرين، الأول هو نوع التغيير، فيكون التغيير في الثورات شاملا وجذريا (راديكالي)، بينما في الحركات يكون جزئيا وموجها نحو نظام أو مجال محدد، والثاني يتعلق بالوسائل المستخدمة، ففي الثورات عادة يكون العنف هو الوسيلة الأبرز، بينما الحركات الاجتماعية تعمل عادة ضمن القوانين والنظم المعمول بها. ولذلك من المهم أن تعي الأنظمة الحاكمة أن الحركات الاجتماعية قد تنتقل وتتحول من كونها حركة اجتماعية سلمية هدفها إصلاح خلل بسيط في أحد النظم الاجتماعية، إلى "ثورة" شاملة إذا ما طال أمدها ولم تتجاوب معها السلطة بصورة تخفف من حدتها وتمنع تراكم الغضب فيها ووصوله لحد الانفجار.

لا يوجد في أي علم من العلوم الاجتماعية مصطلح "حراك سياسي" أو "حراك إعلامي" وغيرها من المفاهيم المضللة والتي تنم عن جهل كبير وخطأ واضح في المفاهيم. والمسألة هنا ليست شكلية على الإطلاق، وهي أيضا ليست مجرد حرص على الدقة والاستخدام الأمثل للمفاهيم العلمية، وإنما تتجاوز ذلك إلى قضية أهم، وهي أن هذا الخط الواضح في المفاهيم يدل بوضوح على أن من يتصدر "الحركة الاجتماعية" الحالية في الكويت هم في الغالب من غير أهل العلم والاختصاص، وهذا يعني عدم وجود أي مشروع سياسي أو رؤية لما ينبغي أن يكون، وإنما المسألة برمتها مجرد ضيق وحنق من سوء إدارة الدولة وانتشار مظاهر الفساد فيها بكثرة وغياب واضح لتطبيق القانون أو لازدواجية المعايير عند تطبيقه، باختصار هي حالة غضب مبررة. أمر جيد أن يغضب الناس عند تفشي الفساد، لكنه أمر خطير أن يكون الغضب فوضويا بلا أهداف واضحة وقيادات واعية تضبطه وتضمن احتواءه وعدم خروجه عن السيطرة.

شوكولاتة فاخرة

ببير ماركوليني أحد أشهر صانعي الشوكولاتة في بلجيكا، يتميز مصنعه بإعداد مجموعة متنوعة من النكهات والأشكال والأنواع الفاخرة من الشوكولاتة، وسر تميزه يكمن في اجتهاده حيث يحرص على انتقاء أجود أنواع حبوب الكاكاو، بل ويسافر بنفسه إلى مدغشقر ويقضي مع المزارعين أسابيع وأياما لضمان جودة المحصول ونوعية الحبوب. قبل أيام عرضت قناة دويتشه فيله برنامجا عنه، شاهدته في بداية البرنامج وهو في مصنعه في بلجيكا، يشرح للجمهور طريقته الخاصة في إعداد الشوكولاتة الفاخرة، فتنتقل الكاميرا بين أرجاء المحل لتأخذ لقطات فعلية للزبائن وهم يتذوقون ويشترون.. كانوا في غاية السعادة والفرح.

ثم تنتقل الكاميرا مع ماركوليني إلى مدغشقر، الذي يتوجه إلى مجموعة من مزارع الكاكاو الكبيرة فماذا نرى؟ أسر ممتدة تعمل بكل أفرادها، من الجد إلى الحفيد في تلك المزارع، بأياد متشققة وأجساد هزيلة ووجوه يغطيها الحزن والبؤس. ثمرة الكاكاو تتطلب ستة أشهر من العناية حتى تنضج، ثم تبدأ بعدها رحلة عمل شاقة ومضنية في جمع المحاصيل وفتح الثمر وتجميع الحبوب ثم فرزها ثم تجفيفها ثم تخميرها ثم تنظيفها ثم تعبئتها.. الخ، عمل شاق ومتعب يشارك فيه الجميع من الصباح حتى المساء، وفي النهاية يبيعون الحبوب لببير ماركوليني بثمن بخس يوفر لهم بالكاد متطلبات البقاء على قيد الحياة.

المؤلم في الأمر، أنه لا أحد من هذه الجموع البشرية التي حولتها آلة الرأسالية الجشعة إلى آلات، لا أحد منهم تذوق في حياته قطعة شوكولاتة ولا يعرفون أصلا طعمها عندما تعود الكاميرا إلى بلجيكا مرة أخرى، مع ماركوليني ومحلاته الفخمة وزبائنه الأغنياء، تدرك حجم المأساة والتناقض الصارخ بين عالم الفقراء بكل ما فيه من بؤس وشقاء، وعالم الأغنياء بكل ما فيه من شوكولاتة فاخرة.

إسرائيل والنيل

استطاع الصهاينة في فلسطين المحتلة أن يحصلوا على عقد مع دولة جنوب السودان الناشئة يتيح لهم العمل على مياه النيل بتنقيته وتنظيم تصريفه، وهذا يعني أن إسرائيل ستتحكم بمياه النيل ووصولها الى مصر، يعني أنها أصبحت تمسك بزمامة رقبة مصر وستتحكم بقراراتها بعد أن تحكمت بمياهها. بالتأكيد سيصرخ عباقرتنا من مثقفي السلطة بأن هذا غير صحيح، وسيضحكون على هذا الواقع ويصفونه بأسهل تهمة معلبة وجاهزة لديهم، وهي "نظرية المؤامرة". والحق أنها لا مؤامرة ولا بطيخ، هذا تفكير استراتيجي منظم يقوده أفراد يحبون أوطانهم ويخدمونها فعلا وليس قولا وشعارات كما هو حالنا.

المسألة ببساطة وبحقائق واضحة، إسرائيل حليفة للولايات المتحدة، والولايات المتحدة فعلت كل شيء لتمزيق السودان ودعم انفصال جنوب السودان، وهذا ما حصل وها هي إسرائيل تجني أولى ثمار هذا التخطيط. الولايات المتحدة تدخلت بشكل سافر باسم الإنسانية وحماية شعب دارفور من اضطهاد حكومة البشير، فأين هي وأين مواقفها الإنسانية مما يحدث من مجازر للشعب السوري أو من مجاعات اليمن أو من مذابح أركان وغيرها؟! المسألة واضحة، وهي في الحقيقة في عالم السياسة لا غبار عليها، فهؤلاء يعملون لخدمة مصالحهم وهو أمر مشروع في هذا العالم القذر، المشكلة فينا نحن العرب والمسلمين، ممن نبحث عن مواقف إنسانية وأخلاقية ونستجدي الدعم والتدخل لإنقاذ المستضعفين والمساكين في عالم لا تحركه سوى المصالح الاقتصادية.

اثنتان وعشرون دولة عربية تملك معظم ثروات العالم، وفيها ما فيها من منابع المياه والنفط وأهم الممرات البحرية والجوية والأرضية، فيها العقول والطاقات البشرية الهائلة وكل عوامل النجاح وسيادة العالم، ومع هذا هي في قاع العالم، وشعوبها من أهون شعوب الأرض ودمهم أرخص من التراب، كل هذا بسبب الأنظمة الفاشلة التي تحيط نفسها بعصابات فاسدة تؤمن لها البقاء والاستمرار. اثنتان وعشرون دولة ليس فيها دولة واحدة لديها مشروع بناء دولة ونهوض بأمة، لا شيء فيها سوى مشروع الحكم والبقاء في السلطة مهما كلف ذلك من ذل وخنوع وانهييار وتراجع.

مصر تملك مقومات النجاح والنهوض، ولديها أوراق قوة لعل أهمها قناة السويس، لكن المشكلة أن الشعب المصري اليوم منقسم إلى جزء "يتمنى" فشل الرئيس محمد مرسي، وجزء "يعمل" فعلا على إفشاله، كل هذا بسبب مواقف مسبقة وأفكار نمطية عن الاخوان المسلمين، فكيف ستنهض مصر وتتقدم إذن؟!

الاحتلال العراقي

يصادف يوم الثاني من اغسطس ذكرى مرور 22 عاما على الغزو العراقي واحتلال الكويت عام 1990، فماذا تعلمنا من تلك التجربة القاسية؟ يقول الألمان: إذا لم تكن تتقدم إلى الأمام، فأنت إذن تتراجع إلى الخلف. فأين نحن وما هو وضعنا بعد كل هذه المسيرة الطويلة من التاريخ؟

يؤكد علماء الاجتماع أن الدول التي تتعرض لاحتلال أو حروب، ولا تستخدم التوصيف السليم للحدث، وتقوم بتغيير الحقائق التاريخية (غالبا بسبب مجاملات أو خوف) فإن ذلك يؤثر على الشعور بالانتماء والولاء للوطن، ويفقد المواطنين الثقة بحكومتهم الوطنية. تأملوا، أليس هذا ما يحدث في الكويت؟

قد يكون للحكومة حساباتها ومجاملاتها، لكن بالنسبة لنا ولأولادنا وأيضا لأهلنا في العراق، ممن نعتقد بأنهم أيضا عانوا من هذا الاحتلال كما عانينا وتضرروا كما تضررنا، لكن لمصلحة الجميع يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها، ما حصل هو غزو عراقي واحتلال عراقي للكويت، صدام حسين كان وقتها رئيسا للعراق، وهو صاحب الفكرة والاطماع والجرائم والأخطاء، لكن من غزا الكويت واحتلها غدرا هو العراق، الجيش العراقي النظامي والجيش الشعبي.. هذه حقائق تاريخية لا يمكن تجاوزها. أما مسألة التسامح وإعادة بناء العلاقات وتقويتها من جديد فهذه مسألة أخرى، تتطلب سلوك ومظاهر حسن الجوار وأفعال تترجم على أرض الواقع، ومن مصلحتنا جميعا أن نبني علاقات ثنائية جيدة، لكن هذا لن يلغي التاريخ.

كل الدول التي قامت في لحظة تاريخية بنفس ما قامت به العراق ضد الكويت، قدمت الاعتذار والتعويضات ولم يمنعها ذلك من إعادة بناء علاقاتها من جديد، ولم تزور التاريخ وتقلب الحقائق، فها هي ألمانيا تقدم كل سنة اعتذارها لجميع الدول التي تضررت من الاحتلال الألماني، ولم تزور التاريخ وتدعي أنه احتلال "هتلري". علينا ألا نخلط بين التسامح والمصالحة وإعادة بناء العلاقات الأخوية.. وبين حقائق التاريخ. العراق قام باحتلال الكويت عام 1990 ثم تحررت الكويت بفضل الله عز وجل ثم بجهود أشقائنا وأصدقائنا، هذا تاريخ لا يمنع التسامح، بل يزيده قوة اذا صدق "أشقاؤنا" العراقيين وتعاملوا معنا كدولة تسامت على جراحها وتسامحت ومدت يد الصداقة والسلام.

شريط أحمر

شاب أميركي أبيض فتح النار على الجمهور في دار سينما وقتل 14 وجرح 50، حادث يتكرر دائما باختلاف التفاصيل في أميركا وأوروبا، الغريب في الأمر أن يصدر من قناة اخبارية على درجة عالية من الاحتراف مثل قناة الجزيرة خبر يقول فيه المذيع "لا توجد شبهة عمل إرهابي وراء الحادث"، فإذا كان قتل 14 وجرح 50 من جمهور آمن بهذه الوحشية بفتح النار عليهم بلا تمييز وبلا ذنب ليس عملا إرهابيا، فما هو العمل الإرهابي إذن؟ أن يكون الفاعل مسلما!

ببساطة واختصار، "الشعور" بالقهر والظلم وغياب العدالة وانتشار الفساد يتحول الى بركان غضب وثورة عارمة اذا لم يتم احتوائه والتخفيف من وطأته. ما حرك الثورات قديما هو الذي حرك الثورات حديثا، الشعور بالظلم والقهر وانتشار الفساد.. وهو ما يتشكل بقوة في نفوس الكثيرين ويزداد يوما بعد يوم في بلادنا، ومع الأسف دون ان يقابله اجراءات اصلاحية تخفف من حدة الشعور بالظلم والقهر. ناقوس خطر.

كنت أظن أن باكستان "دولة إسلامية"، فرحت كثيرا لامتلاكها السلاح النووي، كنت أظن أنه سيكون مصدر قوة وعزة للمسلمين.. يا لسذاجتي، فهاهم المسلمون يقتلون وتنحر رقابهم بالسكاكين كل يوم هنا وهناك، وباكستان تتفرج!

الشريط الاحمر (عاجل) لم يغب عن شاشة اخبار الجزيرة منذ 2003.

حزب البعث تأسس في سورية والعراق مع ميشيل عفلق، أقيم على أسس "العروبة" ومبادئ لا دينية، إلا أن الدين كان دوما حاضرا، بل الطائفية كانت أكثر حضورا، فصدام حسين (السنّي) اضهد الشيعة في العراق وقاتلهم في إيران، في حين اتخذ حافظ الاسد (الشيوعي) إيران الشيعة حليفا استراتيجيا وصديقا دائما، وهاهو ابنه يقتل السنة بكل وحشية، فأين هي مبادئ البعث وأين العروبة التي يتغنون بها؟ انها الطائفية النتنة التي حولت الشعب العربي إلى "أعداء قتلى" في شريط الاخبار العاجلة!

خريشات حول الرأسمالية الجشعة

ليست الرأسمالية كلها شر مطلق، ولكن المشكلة تكمن في "الرأسمالية الجشعة" وهي التي تكونت بفعل فلاسفة الاقتصاد الكلاسيكيين أمثال ريكاردو وأدم سميث، وبالتحديد مع مطالبتهما برفع كل أنواع القيود والضوابط (دعه يعمل دعه يمر) وترك السوق لينظم نفسه بنفسه من خلال "اليد الخفية" التي بشر بها سميث، فمع هذه الفكرة أصبح لأسوأ ما في النفس البشرية من زائل (الجشع) بيئة خلقة، فظهر الاحتكار وظهرت الدعاية التي أصبحت علما يدرس سلوك البشر وطبائعهم من أجل التأثير عليهم وتحويلهم إلى "أدوات" ووسائل استهلاكية. في الرأسمالية الجشعة غابت كل القيود والضوابط، فبات أمرا مقبولا أن يتحالف سياسي فاسد مع رأسمالي جشع من أجل إشعال حرب هنا أو صراع هناك لحصد ملايين الأبرياء بكل عنف ووحشية وبشاعة، مادام "السوق" يستوعب ويسمح بتصريف السلاح.

الرياضة كانت ميدانا رائعا لترسيخ مفهوم المنافسة الشريفة وتعزيز مفهوم "الخصومة"، في الرياضة يبذل كل طرف جهده ليهزم خصمه، والخصم هنا ليس "عدوا" وإنما "منافس"، له نفس الحقوق من التقدير والاحترام والوجود كطرف مقابل. ثم دخلت الرأسمالية الجشعة وحولت هذا الميدان الصحي والتربوي إلى "سوق" آخر، أفرغته من كل القيم الأخلاقية، وقضت فيه على مفهوم المنافسة والخصومة والقدوة الحسنة والجسم السليم، ولذلك لا غرابة أن تمتلئ الملاعب بأحداث العنف والشغب، ولا غرابة أن يقدم فريق كرة قدم بأكمله دعاية تلفزيونية لمشروب غازي يضر بالصحة ويتعارض مع أبسط قواعد الرياضة، هكذا حولت الرأسمالية الجشعة اللاعبين إلى سلعة، تباع وتشتري وتستخدم للترويج لسلعة أخرى، بل حتى متعة المشاهدة حرم منها الناس وأصبحت الرياضة وسيلة لاحتكار حقوق بث المباريات وبيعها بأسعار يعجز عنها ملايين الناس حول العالم.

وما أفسدته الرأسمالية الجشعة في الاقتصاد وانعكاسه على مختلف مناحي حياة البشر، في الرياضة والتربية والصحة بل وحتى الدين، لا يقل خطورة عما أفسدته في الديمقراطية، حيث تراجعت كل القيم النبيلة التي نادى بها الفلاسفة والمبشرون حول الإخاء والمساواة والتعايش السلمي، بل وذهبت تضحيات كل أولئك الذين قدموا أرواحهم لخدمة السلام والمحبة للإنسانية هباء منثورا بسبب تحالفات الرأسماليين الجشعين مع السياسيين الفاسدين، فأصبحت المواقف السياسية تتخذ بكل وضوح بناء على المصالح الاقتصادية فقط لا غير، وأصبح قتل ملايين البشر أمرا مقبولا هنا، بينما قتل عشرة هناك أمر مرفوض ويستدعي تدخلا عسكريا حاسما فقط من أجل إتمام صفقة تجارية، تماما كما فعلت حكومات "العالم الحر" حين تركت ملايين البشر يموتون بسبب فيروس بسيط في أفريقيا ولم تقدم لهم المضادات الحيوية والأمصال، لأنها دول فقيرة. "العالم الحر" وحقوق الإنسان وخطابات السياسيين الأفاقين كلها أصبحت مزيفة نزعت عنها الرأسمالية الجشعة كل أقنعة الإنسانية البريئة.. حتى أصبح العالم جيفة بلا قلب ولا روح !

من أحاديث رمضان

في بداية الخمسينيات قام الزعيم الصيني ماو تسي تونغ بزيارة لموسكو، التقى فيها ستالين، وتعهد في خطاب أمامه ان تحقق الصين "القفزة الكبرى" خلال سنوات قليلة، وأن تتخطى صادراتها من المحاصيل الزراعية صادرات الولايات المتحدة. عاد ماو للصين، ثم بدأت أكبر عملية تعذيب منظم في التاريخ، حيث أجبر ملايين البشر على العمل ليل نهار، مقابل حرمانهم من الطعام لتوفير المحاصيل وزيادة الصادرات. وبحلول عام 1959 مات أكثر من 45 مليون شخص في الصين "جوعاً" .. كل هذا بسبب جنون شخص واحد، أراد ان يتباهى أمام مجنون آخر.

وزير الخارجية ومندوب ليبيا لدى الأمم المتحدة السابق وصديق القذافي المقرب عبدالرحمن شلقم في شهادته للتاريخ أظهر كل عيوب القذافي ووصفه بالجنون والغباء والحماقة، قال عنه انه قصير وكان يلبس كعبا عاليا لأنه لا يحتمل الوقوف بجانب شخص أطول منه وكان وكان.. كل هذا بعد موته، وهو الذي أمضى معه وفي خدمته أكثر من 30 سنة. كذلك فعل مسؤول المقر الرئاسي للرئيس المصري السابق محمد حسني مبارك اللواء شفيق البنا، والذي أخذ يسرد على محطات التلفزة هنا وهناك كل صغيرة وكبيرة عن حياة الرئيس السابق الخاصة في بيته ومع زوجته وأولاده، حتى قال عنه انه "على طول سكران وما بيصليش". وبالمثل فعل كثير ممن كانوا مقربين من القادة بعد زوال حكمهم، وما هذا إلا دليل نقص في الرجولة والشهامة والوفاء وحسن الخلق، وأمثال هؤلاء ممن يتحولون فجأة بعد سقوط زعيمهم إلى مصلحين وناقدين يدعون أنهم "نصحوا الرئيس" وحذروه واعترضوا على تصرفاته وعملوا كذا وفعلوا كذا.. أمثال هؤلاء لا يستحقون الاحترام ولا أن تفتح لهم أبواب الإعلام ليبثوا أكاذيبهم على الناس ويصنعوا لأنفسهم أمجادا على قفا زعماء خدموهم وساهموا في كل جرائمهم.

يقال ان "الإرهاب" قد أوجد سوقا جديدا لمكافحة، وهو سوق منتعش وأرباحه مضمونة وتتفوق أرباح أي عمل تجاري آخر.

في الكويت لدينا مشكلة في إدارة البلد، مثل كل بلدان العالم. هذه المشكلة أوجدت مشكلة أخرى أصبحنا نعيشها اليوم بوضوح تتعلق بالحديث عن المشكلة الأولى أو "المشكلة الأصلية"، في توصيفها وتحديد أسبابها وعوامل تفاقمها والمتسببين فيها وما إلى ذلك، ولكي نتمكن من حل المشكلة الأصلية، نحتاج أولا إلى حل المشكلة التي تفرعت عنها، لكي تتوافر حينها بيئة سياسية واجتماعية يكون فيها للنقد والتحليل والحلول معنى مفهوما ولغة مشتركة وأفكارا تقبل التطبيق.

من مفارقات الثقافة الكويتية

متابعة ما يجري في عالمنا العربي ترهق النفس وتؤلم الضمير وتكرس الخذلان واليأس، أما متابعة ما يجري في الكويت فقصة أخرى، تؤدي إلى الجنون والحماسة على أقل تقدير. ماذا تريد السلطة؟ وماذا تريد المعارضة؟ وماذا يريد الشعب؟ لا أحد يعرف.. الكل منهمك - ومنذ سنين - باجترار خطاب سياسي تافه وكاذب تجاوزته الشعوب بأفعال، وها هي تعيد ترتيب ذاتها بكرامتها، رغم فداحة الثمن.

الكل يحرض، لكن لا أحد يفعل، الكل يريد الجنة، لكن لا أحد يريد أن يموت، والكل يبكي ويندب ويتحسر فمن المسؤول؟

في ثقافتنا الكويتية، أمر عادي جدا أن ترى ثناء ومبالغة في المديح لدرجة التقديس لأحد الأشخاص، ليس لأنه يستحق ذلك، وإنما فقط نكايّة في خصمه. هذا حالنا مع أتباع الحكومة وأتباع المعارضة من عشاق تقديس الأشخاص والباحثين عن "رموز". أما الواقعيون والعقلاء، فهم في حيرة من أمرهم، هل يخرجون للتظاهر في ساحة الإرادة أم لا؟ فالبلد "حاله واقف" والفساد يزيد ويكبر والنيران تتفجر حولنا والوضع خطير والحكومة نائمة في العسل وكأنها لا تسمع ولا ترى ولا تفهم، وفي المقابل المعارضة تبدو غير منسجمة ولم تحترم التزاماتها وسارعت إلى خداعهم بمجرد وصولهم للبرلمان، فتغيرت الأولويات التي أعلنوا عنها قبل الانتخابات وتحولوا إلى غول بديل عن غول الحكومة، كلاهما سيئ وكلاهما دون مستوى الطموح والوعي والقدرة على تقدير مصلحة البلاد والعباد.

يدرك الكثيرون أن معظم السياسيين في الحكومة والبرلمان هم سبب المشكلة، فالحكومة كرسست الفوضى والفساد وكسر القانون، والنواب رسخوا الانقسام والفئوية وجعلوها فوق الوطن. والمشكلة ليست في عدم وجود شخصيات جديدة تحل محل الشخصيات التي أثبتت فشلها منذ أعوام، المشكلة أن من يطرح نفسه كبديل لا يبدو أنه مختلف عما هو موجود، وكثرة الشخصيات التي انكشف زيفها لاحقا جعلت الناس يتخوفون من كل جديد !

كمية المواعظ والنصائح والاقتراسات الدينية والأدبية والأخلاقية في تويتر وفيسبوك ورسائل الهواتف تجعلك تتصور أنك تعيش في الجنة، وعندما تخرج للشارع وتلتقي بالناس وتتعامل معهم.. تدرك حينها المعنى الحقيقي للزيف والكذب.

مبادرة سسوانتو مع مافيا المسامير

"أي مسمار في الطريق يعني إمكانية ثقب إطار دراجة شخص ما"، بهذه الكلمات تحدث سسوانتو إلى مراسلة تلفزيون دويتشه فيله الألمانية، قد تبدو كلماته ساذجة وقد يبدو موضوعه تافها بالنسبة للكثيرين، لكن ما فعله سسوانتو في العاصمة الاندونيسية جاكرتا يستحق أن يوصف بأنه قصة نجاح "حقيقية" وليست مصطنعة.

سسوانتو شرطي مرور بسيط بالكاد يوفر متطلبات أسرته الصغيرة مثل معظم الفقراء في بلاده، ولذلك فإن مسمارا صغيرا في الطريق قد يتسبب في معاناة كبيرة له ولاسرته إذا ما تسبب في ثقب اطار دراجته الهوائية، ولانه يعاني، ويرى كل يوم معاناة الآخرين من وجود المسامير في شوارع جاكرتا وطرقاتها، والتي تقوم "مافيا المسامير" برميها كل يوم في الطرق، قام بصنع أداة بسيطة هي عبارة عن عمود صغير من الحديد، ثبت عليه مجموعة من المغناطيسات وعجلات وحبل، ثم بدأ يجر هذه الآلة البسيطة معه في الشوارع أثناء قيامه بعمله، فيجمع من خلالها ما يستطيع من المسامير لتنظيف الشارع والمساهمة في حماية إطارات السيارات والعجلات، انه عمل تطوعي بسيط، لكن نتائجه كانت أكبر بكثير مما كان يتصور، إذ بدأ بعض زملائه بالتطوع معه، وبدأوا بجمع أعمدة الحديد والمغناطيسات المهملة، وصنع لهم سسوانتو المزيد من "جامعات المسامير"، توسعت الفكرة وساهم كثير من شرطة مرور جاكرتا في هذه المبادرة التطوعية التي تنقذ بصورة أو بأخرى حياة الكثيرين، كما تساهم في تسيير حركة المرور التي تتعطل كلما اضطر شخص لتبديل إطار سيارته المثقوب وسط الشارع، في بلد يمثل فيه ثقب الإطار مشكلة اقتصادية كبيرة قد تحرم رضيعا من وجبة حليب، هكذا تصدى سسوانتو لمافيا المسامير من أصحاب محلات تصليح إطارات السيارات والدراجات في جاكرتا، والذين يتعمدون كل يوم رمي آلاف المسامير لكسب رزقهم بمعاناة الآخرين!

قال سسوانتو لمراسلة دويتشه فيله التي جاءت من برلين لجاكرتا خصيصا لعمل تقرير إعلامي عنه وعن مبادرته، إنه وزملاءه أصبحوا يشعرون بأهمية التضامن الاجتماعي بصورة أكبر، وفهموا بعمق قيمة العمل من أجل الآخرين مهما كان صغيرا بعد هذه التجربة، أضيف، أصبحت أشعر بالسعادة مع كل مسمار أزيحه عن الطريق، رغم أن

زوجته تشعر بالخوف عليه من انتقام مافيا المسامير، يا له من درس جميل هذا الذي قدمه
سسوانتو ورفاقه !

ماجليف شنغهاي

قبل 30 عاما قال مهندسو شركة ترانزرافيت الألمانية ان الازدحام المروري سينتقل إلى السماء مع الطائرات بعد أقل من 20 سنة، فالطلب على الطائرات يتزايد وحركة الملاحة الجوية تكبر يوما بعد يوم. بدأت الشركة بالاستثمار بهذا الجانب، وقاموا بدراسة الموضوع واكتشفوا أن المشكلة تكمن أساسا في الرحلات القصيرة التي تقل مسافتها عن ألف كيلومتر، فهي تشكل حوالي 50% من مجموع الرحلات الجوية، وهي رحلات مزعجة وذات تكلفة عالية على شركات الطيران وتملاً السماء بالطائرات مسببة الازدحام في الجو، بدأوا بالبحث عن حل، والذي تمثل في قطارات ماجليف.

ماجليف باختصار عبارة عن قطار يعمل بالمغناطيس، تكنولوجيا ألمانية عبقرية (بالتأكيد)، تستهلك قدرا ضئيلا من الطاقة الكهربائية التي تحولها إلى حقل مغناطيسي قوي بين عربة القطار والسكة التي يسير عليها، الحقل المغناطيسي يرفع عربة القطار ويدفعها للأمام بسرعة تصل الى 500 كلم بالساعة. وفي عام 2000، قامت الصين بتوقيع أول عقد مع شركة ترانزرافيت الألمانية لبناء خط نقل في مدينة شنغهاي بتكلفة مليار و200 مليون دولار. ورغم الظروف القاسية لطبيعة أرض شنغهاي ذات التربة المتحركة، إلا أن الألمان أنجزوا المهمة في الوقت المحدد وقدموا للصين "ماجليف شنغهاي"، وخلال أقل من 3 سنوات قطع ماجليف شنغهاي أكثر من 2 مليون كيلومتر، واستخدمه أكثر من 80 مليون راكب، بلا حوادث ولا ضجيج، فهو أكثر وسائل النقل أمانا حتى الآن، سريع وقوي ودقيق تحسب دقة مواعيده بالثانية، وصديق للبيئة، فالقطار لا يصدر عنه أي انبعاثات تضر بالبيئة، ولا حتى ضوضاء، وأكد جميع من استخدمه أنه مريح ورائع وسريع، يقطع مسافة 30 كلم في 7 دقائق فقط، باختصار إنه قطار رائع، جعل أهل شنغهاي يتباهون بقطارهم "ماجليف شنغهاي" ويعتبرونه مصدر جذب سياحي لمدينتهم.

في الكويت لدينا مشكلة مرور كبيرة وعويصة، باتت تأكل من أعصابنا وأعمارنا كل يوم، ولدينا 14 مليار دينار فائض بالميزانية لهذا العام، اي ما يعادل 38 مليار دولار، ماذا لو

أعطينا منها شركة ترانزرافيت الألمانية مليارا أو اثنين أو 3 مليارات دولار لئيبنوا لنا خط نقل يساهم في حل المشكلة ويوفر وسيلة نقل حديثة وأمنة وجميلة وتسجل لنا انجازا حضاريا نتباهى به مثل سكان شنغهاي، أين الصعوبة في أن تتوافق الحكومة والبرلمان والمجتمع على هذا المطلب الذي سيجعلنا ننتقل من العبدلي إلى النويصيب في أقل من 15 دقيقة، كم مليارا ضيعناها على علاج سياحي بالخارج وشراء نمم وهدرا في لجان عمل بلا فائدة، إلى متى نتصرف بعقلية السفية؟ 3 مليارات دولار بإمكانها أن تربط مدن الكويت من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها خلال عام ونصف العام فقط بأحدث التكنولوجيا وأكثرها أمانا وأقلها تكلفة، ماذا ننتظر؟!

ربيع براغ وربيع العرب

من الأساسيات الأولى في العلوم الاجتماعية والانسانية أنك لا تستطيع أن تتنبأ بسلوك البشر، أفرادا كانوا أم جماعات أو حتى دولا، ببساطة لأن سلوك الانسان لا يسير بمنطق الحتمية الذي تسير عليه بقية الموجودات. كل المعادن تتمدد بالحرارة، لكن ليس كل زواج فاشل ينتهي بالطلاق، ولا كل ظلم اجتماعي ينتهي بثورة.

في عام 1968 تسلم ألكسندر دويتشيك زعامة الحزب الاشتراكي في تشيكوسلوفاكيا وسط أوضاع مزرية كانت تعيشها الدول الشيوعية عموما، فبدأ بحركة اصلاحات واسعة ركزت في بداية الأمر على رفض وصاية الحزب على المجتمع وقام بعدة إجراءات عملية للحد من سلطة الأجهزة الأمنية وأنشطتها القمعية وهيمنتها على حياة الناس، ودافع عن حرية الصحافة وحق المواطنين في السفر للخارج وغيرها، قابل ذلك رفض موسكو بالتأكد والتي حشدت حلفاءها وقامت بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا واحتلال عاصمتها براغ خلال أيام، واعتقل ألكسندر بوتشيك ورفاقه وألغيت جميع الإجراءات الاصلاحية التي قام بها. حينها قال بوتشيك كلمته المشهورة للسوفييت "تستطيعون أن تسحقوا الورد في بلادي، لكنكم لن توقفوا الربيع أبدا"، ومن يومها بدأت حركة العصيان المدني وقاوم الشعب التشيكوسلوفاكي الاحتلال السوفييتي فيما بات يعرف باسم "ربيع براغ". في نهاية المطاف، تحررت تشيكوسلوفاكيا وانفصلت إلى دولتين هما جمهورية التشيك وجمهورية سلوفاكيا دون قطرة دم، واليوم هما من بين الدول المتقدمة والمستقرة ومن أجمل بلدان العالم وقدمتا للبشرية نموذجا رائعا للثورة الناعمة.

لا أتفق مع دعوات بعض المثقفين ممن يحاولون تخويف الناس من "الربيع العربي" استنادا إلى بعض التجارب الفاشلة هنا أو هناك، لأنه في المقابل لدينا تجارب ناجحة وخاصة تلك التي قامت على حركات العصيان المدني والتي حررت الهند من بريطانيا

بزعامه غاندي وحررت تشيكوسلوفاكيا من الاتحاد السوفييتي بزعامه بوتشيك وغيرها. ومع ذلك، علينا أن نعترف - من الناحية العلمية - بأننا لن نستطيع أن نبني حجة أو دليلاً قاطعاً بناءً على أحداث تاريخية، نعم، لأن سلوك البشر لا يسير بمنطق حتمي. الثورات تختلف بالتأكيد عن حركات الإصلاح البطيئة، فالثورات سريعة والتغير فيها عادة ما يكون جذرياً (راديكالياً) ويصعب التنبؤ بما سيحدث بعد نجاحها، قد تسير الأمور للأفضل، وقد تسير الأمور للأسوأ، فهذا يعتمد على وعي الشعب وقدرته على التوافق، ولكن هذا لا يعني وجوب أن يقبل الناس بالظلم الاجتماعي والقهر والديكتاتورية واستئثار عدد قليل من البشر بالثروة والسلطة مقابل سحق الأغلبية. فالمسألة لا يجب أن تكون إما القبول بالديكتاتورية والظلم والقهر وإما الفوضى والفتنة، والتاريخ يعلمنا أن الشعوب تختار دائماً المخاطرة بكل شيء من أجل الحرية والعدالة. العالم يسير للأمام، والأنظمة التي لا تتغير بيدها نحو الأفضل، سيأتي من يزيحها ويجري التغيير بنفسه.

إيران ورقة خاسرة

الشعب الإيراني يموت من الجوع، هذا ما قالته الفتاة الإيرانية المسكينة حين قفزت على سيارة الرئيس أحمدي نجاد خلال زيارته لإحدى القرى وهي تبكي، ومع ذلك تصرف الحكومة الإيرانية ملايين الدولارات من أجل إشعال حرائق هنا وفتنة هناك ودعم نظام إجرامي اشمأز من جرائمه حتى نتنياهو !

النظام الوحشي المجرم في سورية ساقط فعليا منذ أشهر، فسورية اليوم دولة مفلسة والحياة فيها متوقفة والشعب معظمه يرفض هذا النظام القمعي، لم يعد هناك مجال للتراجع، والمسألة مسألة وقت لا أكثر، فكما سقط النظام في تونس ومصر وليبيا واليمن، سيسقط النظام في سورية قريبا بإذن الله، وقتل المزيد من الأبرياء لا يخدم أحدا ولا يحقق أي أهداف، انه فقط يؤلم الضحايا وأهلهم بلا فائدة، لكنه يدل بوضوح على حقيقة الحقد والكراهية والوحشية التي تميز هذا النظام المجرم وأتباعه، ووقوف إيران ودعمها لهذا النظام المجرم لن يؤدي إلا إلى إفلاس إيران وانهيار اقتصادها بعد انهيار مصداقيتها، وهو أمر سيؤدي عاجلا أم آجلا إلى ثورة جديدة في إيران نفسها، فالشعب الذي سبق ان قام بالثورة ضد سياسات النظام الإيراني، سيجد نفسه مضطرا للقيام بثورات أخرى، لا تحركها الطائفية ولا الايديولوجيا، وإنما سيحركها الجوع والقهر الذي حرك قبلهم الشعب التونسي والمصري والليبي واليمني، إنها دورة الحياة وواقع الحال.

إيران استنفدت معظم طاقتها في دعم حركات تمرد في مختلف دول العالم، والتي باتت تشكل عبئا ثقيلا على اقتصادها الضعيف أصلا، والمراهنة على هذا النظام الذي يحمل أجندة توسعية هو رهان خاسر بكل المقاييس، فالعالم لم يعد فيه مكان لأصحاب المشاريع الاستعمارية والتوسعية منذ موت هتلر، وما تقوم به إيران مجرد عبث سياسي لا طائل منه، ولا يؤدي إلا إلى المزيد من عذابات الشعب الإيراني قبل غيره، وإلى سقوط المزيد من الأبرياء ضحايا لهذا الجنون الايديولوجي.

والقراءة التحليلية للواقع تبين بوضوح انهيار النظام التوسعي في إيران، فحجم المشكلات التي يحاول النظام السيطرة عليها وإخمادها قد تخطت قدرته على احتوائها وهي تقترب من درجة الانفجار.

مجرمو اليوم ضحايا الغد

من لم يعترض على جرائم صدام حسين ضد الشيعة قبل ثلاثين عاما، لا يحق له الاعتراض اليوم على جرائم بشار الأسد ضد السنة، فمن يقبل بقتل الأبرياء من أي ملة أو طائفة أو دين هو شخص بلا مبادئ ولا قيم إنسانية، ولا يحق له أن يستنكر جرائم الإبادة الوحشية هنا ويتجاوز عن نفس الفعل هناك، فمثل هذه الانتقائية البشعة هي التي تصنع مجرمين متوحشين من أمثال هتلر وستالين وموسيليني وصدام وبشار وغيرهم من الطغاة.

ما يحدث اليوم في سورية والعراق من قتل منظم وبشع تفوح منه رائحة طائفية نتنة ضد أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم من طائفة أخرى، جاء دورها اليوم لتكون هي الطائفة الضعيفة، سيدفع ثمنه يوما ما أبرياء آخرون عندما يدور الزمن دورته وتقلب موازين القوى، طالما أن عقلية الانتقام هي السائدة، وطالما أن خطاب التكفير والكراهية وفتاوى التقرب إلى الله بأرواح الضحايا من الطوائف والأديان الأخرى هي المسيطرة، ولا أدري أي عقيدة هذه التي تدعو أتباعها إلى قتل الناس للتقرب إلى الله !

لدينا طائفية، لدينا خلاف حاد بين السنة والشيعة، وكلاهما يغذي ويشحن فكر التكفير ويوغر صدور الناس بالكره والحقد والانتقام، ولو قدر لأي طرف منهما السيطرة فسيُفعل كما فعل صدام ويفعل الآن بشار وغيره من غلاة الطائفيين، بلا رحمة ولا تردد، وسيحصل العالم على مزيد من الرؤوس المقطوعة والأجساد الممزقة وسط مرأى ومسمع "العالم الحر" الذي لا يتحرك إلا وفقا للمصالح.

هل نحن أبرياء تماما؟ كلا بالتأكيد، فصمتنا اليوم على مهاترات بعض "رجال الدين" المتطرفين، سيدفع ثمنه أولادنا غدا، تماما كما يدفع أطفال سورية اليوم ثمن صمت آبائهم وأجدادهم طوال العقود الماضية. الطائفية وحش، نحن الذين نغذيه ونزوده بأشرس وسائل الكراهية والحقد والانتقام والتدمير، ونحن من يطلقه ليسحق في كل يوم، فوجا جديدا من أجساد الضحايا.. كلنا شركاء بالجريمة، بصمتنا وتخاذلنا وتقديسنا للأشخاص، فتركوا البكاء والنحيب وامسحوا دموع التماسيح وافعلوا شيئا لوقف عقلية التكفير والانتقام، وإلا

فماذا تتوقعون من أبناء هؤلاء الضحايا الذين يشاهدون أشلاء أهلهم حين تدور الدوائر
وتتغير الأحوال ويصبح مجرمو اليوم ضحايا الغد ؟

بين التاجر واللص

يروى لي أحد الأصدقاء يقول: تشجعت وقررت الدخول إلى عالم التجارة، وتعذبت ورأيت الويل حتى تمكنت من استخراج رخصة تجارة عامة ومقاولات، وذات يوم قرأت اعلانا من الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب حول مناقصة لتوفير 2000 كرسي للطلبة، ذهبت ودفعت رسوم مظلوف المناقصة وبحثت الموضوع مع شريك هندي له خبرة في هذا المجال، وبعد البحث والمراسلات مع المصانع والشركات وضعنا السعر الذي اعتقدنا انه لا يمكن لأحد ان يضع اقل منه يكمل صاحبي ويقول جاء "اليوم الموعود" الذي كنت انتظره وأحلم به، وبدأ فتح المظاريف فماذا حصل؟ رست المناقصة على "تاجر كبير جدا" وضع سعرا اقل من السعر الذي وضعته بفارق 100 فلس، ولا تسأل كيف.

يقول صاحبي: إنه لا يصدق ما حدث، هل يمكن ان تصل الامور الى هذا الحد، الى اصغر الأعمال وابسطها كيف لأمثالي ان يعملوا اذن؟!

لا شك ان التاجر مثله مثل اصحاب بقية المهن الشريفة الأخرى التي يحتاجها المجتمع، فالمجتمع يحتاج للطبيب والمعلم والمهندس وعامل النظافة والموظف الإداري وكذلك للتاجر، فالتاجر الحقيقي يقدم لوطنه ومجتمعه خدمة عظيمة لا تقل أهمية عن خدمة أصحاب المهن الأخرى، لكن هذا بالتأكيد لا ينطبق على اللصوص ممن يسرقون اللقمة من فم الجائع، والفرق بينهما كبير، فمن يجلب بضائع من شتى بقاع الأرض ويبيعها بربح معقول هو إنسان شريف يقدم للناس خدمة عظيمة، اما من يستخدم الرشوة او النفوذ للحصول على المناقصات بطرق غير مشروعة ثم يرفع الأسعار آلاف المرات بعد ترسية المناقصة عليه بأوامر تغييرية وهمية فهو في الحقيقة لص وليس تاجرا، ومن المهم ان نميز بين الاثنين وأن ندعم التجار الشرفاء بكل الوسائل، في مقابل التصدي للصوص الذين يشكلون خطرا على المجتمع، وبالتالي من غير الإنصاف أن يتهم البعض على طبقة التجار بتعميمات غير موضوعية، فالتجار مثل غيرهم في كل المهن والأعمال، فيهم الشريف وفيهم اللص، التعميم أو الهجوم على كل التجار بسبب لصوصية البعض لا

يخدم مصلحة البلاد ولا العباد، ومن تبعات عدم التمييز بين التاجر واللص ما شهدته الكويت من جمود وتوقف للمشاريع، حيث كانت سهام التشكيك والالتهام تطال كل تاجر وهذا خطأ بالتأكيد، فعلى أكتاف المنّات من التجار الشرفاء قامت الكويت كما قامت على أكتاف غيرهم من العمال والموظفين والعسكر.. والتعميم وإلقاء التهم لن يخدمنا مصالحنا، وأمر لا يتصف بالموضوعية والإنصاف، فليس كل تاجر لصاً.

المرض من وجهة نظر اقتصادية

التقارير الطبية التي تصدر بين الحين والآخر وفيها تحذيرات خطيرة حول بعض الأمراض تستوجب الوقوف عندها وتأمل ما فيها. نعرف جيدا مخاطر الأمراض على صحة الأفراد وانعكاساتها السلبية على حياتهم وسلوكياتهم، ونعرف أن توفير الرعاية الطبية المناسبة حق من حقوق الانسان، والدستور الكويتي ينص صراحة على ذلك.. كل هذا غير مهم، فأني حديث يمكن أن يقال عن حقوق الانسان بعد نحر رقاب الأطفال في سورية في ظل صمت عالمي مرعب؟ ثم إن القوانين في بلادي لا تطبق، ولم تعد تساوي قيمة الورق، ولم يعد بالامكان الحديث عن الأمراض ودور الدولة في توفير العلاج المناسب والوقاية الفاعلة إلا من الناحية الاقتصادية، فالمال هو أكثر ما يهم الحكومات وشركائها.

ومن الناحية الاقتصادية، المرض بكل بساطة أكثر تكلفة من الصحة، العلاج يرهق ميزانيات الدول، بينما الوقاية أكثر توفيراً. تقول بعض التقارير الطبية ان أكثر من نصف المجتمع الكويتي سيصاب بداء السكري المزمّن بحلول عام 2015، والسكري مرض مزعج تتجاوز تكلفته الاقتصادية حدود العلاج بحقن الانسولين بكثير، فمريض السكري سيفقد أكثر من نصف قدراته على العمل والانتاج، وإصابة أكثر من نصف المجتمع بمرض السكر تعني ببساطة ترهل الدولة وخمولها، وهنا تحديدا تكمن الأزمة الاقتصادية، فعندما يصبح ثلثا المجتمع مرضى، فإن ثلثي مداخيل الدولة ستذهب لعلاجهم، وستفقد الدولة ثلثي قدرتها على الانتاج.

يقول هربرت سبنسر - فيلسوف وعالم اجتماع بريطاني - ان الدول تشبه الأفراد في نموها وتطورها، ووظائف النظم والمؤسسات في الدولة تقابل الوظائف البيولوجية لأعضاء الجسم البشري، فكل عضو يؤدي دورا محددًا، والدول تشيخ وتهرم - بلغة ابن خلدون - تماما كما يمرض الإنسان، وتموت كما يموت البشر إذا لم تقم فيها النظم والمؤسسات بواجباتها بصورة سليمة.

ماذا يعني تشييد مدن سكنية جديدة، بلا مرافق رياضية ولا حدائق ولا طرق مناسبة للمشاة؟ يعني المزيد من السمنة والمزيد من الأمراض والمزيد من الطوابير على أبواب الأطباء والمزيد من الترهل والمزيد من الكسل ... والقليل من العمل.

باختصار شديد، تكلفة بناء مراكز رياضية وحدائق عامة وبرامج توعية واقعية وحديثة أقل بما لا يقاس من تكلفة علاج آلاف المرضى وأقل بكثير من تكلفة التقاعد الطبي المبكر وأقل بكثير من مصاريف العلاج في الخارج وأقل بكثير من تكلفة موظفين لا يستطيعون العمل لكنهم يتقاضون رواتب، وبالتالي فمن الناحية الاقتصادية من الأفضل للدولة أن تختار الاستثمار في الوقاية، ليس من أجل سلامة الناس وصحتهم وسعادتهم بالتأكيد، فهذا آخر ما يهم الحكومات، وإنما لتقوية اقتصاد الدولة حتى يتبقى شيء في الميزانية ليسرقه اللصوص !

بين النافذة والباب

للنافذة في حياتنا تأثير خاص، فهي عين على العالم، تروي بصمت ألف حكاية وحكاية، تقول كل شيء حين نريد، وتصمت عن كل شيء حين نرغب. النافذة في وجداننا ترتبط عادة بالتأمل والفرجة والذكريات بكل ما فيها من تفاصيل، على عكس الباب الذي يثير في نفوسنا الرهبة والكآبة والضجر دون أن نشعر، ربما لأنه يرتبط بمفاهيم "الطرد" والغلق والتلصص!

* النافذة حياة، بكل ما فيها من صخب وإزعاج وحركة وقبح وجمال.. الباب سكون. أذكر أنني وقفت ذات يوم على النافذة أنا وصديقي في أحد أحياء القاهرة القديمة، نتفرج على "خناقة" دبت بين اثنين في الشارع المقابل، نضحك تارة ونصمت أخرى لأن الخناقة التي استمرت أكثر من ساعتين كانت "خناقة بؤيئي" كما يسمونها، تهديد وسباب وكلام فقط دون ضرب، يومها قلت لصاحبي: ما أعظم هذا الشعب، هذه خناقة متحضرة، بذينة لكنها سلمية.

* وأذكر أيضا أنني كنت أجلس أمام نافذة شقتي الصغيرة في لندن كل يوم، أراقب بهدوء دبيب الحياة في هذه المدينة الجميلة، بكل ما فيها من تناقضات وأعاجيب، أتقلب بين سكونها ليلا، وصخبها في النهار، كنت أجلس مع كوب قهوة وصوت فيروز فأشعر وكأنها تحدثني، أستمع إليها وهي تروي قصة عالم بلا قلب ولا روح!

* لكل منا ذكريات تعيدها "نافذة ما"، نافذة طائرة في رحلة سفر، أو نافذة غرفة في مستشفى أثناء المرض، أو نافذة فندق تتساقط عليها قطرات المطر. وفي ذاكرتي الخبرة الكثير من الأحداث والتفاصيل المرتبطة بالنافذة، لكنني لا أحمل أي شيء مع الأبواب ولا أشعر معها بأية مشاعر خاصة. النافذة عالم يطل على عالم.

منطق الخوف

اعتبر ماركس العامل الاقتصادي أهم العوامل المؤثرة في حياة البشر، كان يعتقد أن وراء كل شيء حتى الدين عاملا اقتصاديا يحرك الناس لفعل ما يفعلون وترك ما يتركون، وتفسيره لتطور الحياة الذي أطلق عليه اسم "المادية التاريخية" يقول بوضوح أن العامل الاقتصادي هو العامل الأول والأهم في تحديد حركة التاريخ، باختصار الاقتصاد هو الحياة.

في الولايات المتحدة الأمريكية لا نجد بين الحزبين الأساسيين، الجمهوري والديموقراطي، اختلافًا كبيرًا في الرؤى والتوجهات، فكلاهما يؤمنان بنفس المبادئ والأفكار، غير أنهما يتنافسان أشد التنافس وفقا للأولويات فقط لا غير، والأولويات تتغير عندهم تبعًا للتوجيه الإعلامي الذي يقود الرأي العام، وهذا ما يفسر فوز الرئيس السابق بوش الابن بوليتين رئاسيتين رغم أنه لم يقدم أي شيء جديد ولم ينجح في تحسين ظروف المواطن الأمريكي المعيشية، مع أن الأميركيين كانوا قد لمسوا التقدم الكبير الذي أحرزه الرئيس الديموقراطي كلينتون في الجانب الاقتصادي، ومع هذا فضلوا الرئيس الجمهوري بوش الابن بل وأعادوا انتخابه لولاية ثانية لسبب مهم، وهو أن الرئيس بوش الابن جعل "الأمن" أهم أولوياته في برنامجه الانتخابي، مقابل الوضع الاقتصادي عند الديموقراطيين. لكن لماذا اختار الأميركيون الأمن كأولوية على الاقتصاد؟ السر يكمن في الحملة الإعلامية الضخمة التي جعلت الأميركيين يعيشون في خوف وقلق دائمين: بن لادن قال، والظواهرى أعلن، القاعدة، الأنثراكس، هجوم محتمل، رفع حالة الطوارئ للون الأحمر، خفضها للون الأزرق، تهديد المطارات، قنبلة موقوتة هنا، وهجوم انتحاري هناك.. عاش الأميركيون في رعب مستمر ليل نهار، ثم قدم بوش الابن نفسه كمخلص وحام ومقاتل فكيف لا ينجح.

ومن يفهم ما جرى في الولايات المتحدة، سيفهم ما يجري في الكويت هذه الأيام. فها نحن نعيش الرعب ذاته، الصفويون قادمون، البدو سيلتهموننا، التجار نهبوننا، الكويت ستزول، إيران قادمة، الشيعة سيقتلوننا، كلا السنة سيذبحوننا، الحكومة متواطئة، خلايا نائمة،

وأخرى صاحبة، هجوم محتمل وحرب وشيكة.. وفي كل هذا يصعد من يستغل الخوف والرعب في قلوب المساكين الأبرياء عند السنة والشيعية والبدو والحضر، عند هؤلاء البسطاء ممن يعبدون الله ويصلون كل على طريقته ولا يريدون سوى العيش الكريم وتربية أبنائهم بما يرضي الله، ليدخلوا الجنة بعد ذلك.

عامل الخوف كان دائما الوسيلة الأفضل التي استغلها الأقوياء أو الأذكياء للسيطرة على عامة الناس واستعبادهم، يرعبون الناس فنتجمد عقولهم ثم يتحولون إلى قطيع يسيرهم القائد الملهم والمخلص والقوي والذكي الذي يعرف كل شيء ولديه كل الأسرار، دون أن يجرؤ أحد من هذا القطيع على التوقف لحظة والتأمل فيما يجري.. ولا فرق هنا بين الإنسان البدائي الذي اخترع صنما ليحميه من غضب الطبيعة، وبين من اخترعون اليوم آلاف الآلهة والأصنام لتحميهم من "العدو القادم" !

المسكوت عنه

ما نعرفه عن الماضي هو ما ينقل إلينا سواء بالكتابة أو شفاهة، والتاريخ ما هو إلا رواية محكية عن أحداث كما يريد لنا أن نتصورها كاتبها أو راويها، وهو لذلك لا يمكن أن يكون موضوعيا تماما، فهو إما طعن وتجريح ناتج عن فجور بالخصومة، أو مدح ومبالغة من أجل التكسب أو التعصب. هذا لا يعني أن التاريخ كله أكاذيب، لكنه يعني بالتأكيد أنه مليء بالأكاذيب.

أما الحقيقة فلا وجود لها، لكن جزءا منها يقبع هناك في ذلك المكان المظلم والمجهول، في المسكوت عنه، في تلك البقعة الصغيرة التي يخجل منها الناس، أو يخشون الاقتراب منها ولا يجرؤون على الحديث عنها بالعلن، هناك حيث يبتلع التاريخ الكثير من الحكايات، ويدفن في حفرة سحيقة آلاف الحقائق المغايرة تماما لكل ما يكتب ويقال ويتباهى به.

المسكوت عنه هو تاريخ أيضا، يظهر رغم كل محاولات الطمس المتعمدة، وكل جهود التزوير المحترفة، ورغم النسيان، فدائما ثمة خيط رفيع يكشف في يوم من الأيام ما كان سرا، سواء بصورة متعمدة، أو وفقا لقوانين المصادفة. المسكوت عنه قد يكون حدثا بسيطا، أو كلمة عابرة، أو مثلا شعبيا بديئا، لكنه يثبت أن تاريخا كاملا مما يدرس ويتداول بين الناس ما هو إلا أكاذيب صارخة وبطولات وهمية. المسكوت عنه عالم مجهول يظهر ويتكشف في أحاديث العجائز، أو في القصاصات المخبأة في ثنايا الكتب، أو حتى في هفوات الأحاديث وفيما تظهره النفس في لحظات الغضب !

بين الطائفي والمتدين

المتدين يعتقد أنه على حق، الطائفي يعتقد أن الآخرين على باطل، وما بين هذا الحق وذاك الباطل أزهدت ملايين الأرواح وأريقت الدماء واستبيحت الأعراض وديست الكرامات تحت الأقدام منذ عصور، بفتاوى واجتهادات شخصية ألبسناها نحن ثوب القداسة!

من يكفر الآخرين ويحكم عليهم بالضلال والخلود في النار والشقاء في الدنيا، إنما يشرك نفسه مع الله في الحكم وينازعه في الملك، وفي هذا شقاء له قبل أن يكون شقاء للآخرين. تستطيع أن تؤمن بأنك على حق، وأن معتقداتك صحيحة، وتستطيع أن تدعو الناس إلى تبني هذه المعتقدات بالحسنى والكلمة الطيبة، لكنك أبدا لن تستطيع أن تجبر أحدا على ذلك، ولا يحق لك أن تحكم على الناس، فنحن جميعا نشترك بنفس آلة التفكير، و"العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس" كما قال ديكارت.

الأديان، سماوية كانت أم من صنع الانسان، كلها تقول بفكرة الإله، وكلها تنظر حين تتحدث عن هذا الإله إلى أعلى، ولذلك كل المعابد تتجه مآذنها ومناراتها إلى السماء، وكلها يدعي أتباعها أنهم على حق، وحدهم الطائفون والمتطرفون هم من يعتقدون أن الآخرين على باطل، ويتصرفون معهم على هذا الأساس، فيبيحون لأنفسهم قتلهم واستعبادهم ونهب أموالهم، ولو تصرف كل شخص من أتباع هذه الأديان وفق التفسيرات المتطرفة لمنظريها، لفنت البشرية وأبيدت منذ قرون.

اعبد ربك كما تريد، وادع الآخرين إلى ما تعتقد أنه الحق والخير بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، لكن لا تقتلهم بحجة أنك تريد لهم الخلاص والنجاة، وقتلهم ليس بالضرورة أن يكون بصورة مباشرة، فقد تتسبب بقتل المئات بسلاح الكلمة والتحريض والتكفير فاحذر، لأن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا.

من عجائب البشر

صرفت وكالة الفضاء الأميركية "ناسا" منذ انشائها عام 1957 وحتى الآن حوالي 880 مليار دولار، ولو سألت لماذا كل هذه الأموال والجهود التي صرفت والأرواح التي أزهقت؟ فجوابهم هو للبحث عن مكان آخر يمكن أن يصلح للحياة، يا لعجائب البشر! يقضون سنوات ويصرفون المليارات بحثًا عن قطرة ماء في القمر أو المريخ، في حين تشكل المياه ثلثي مساحة الأرض، ولو صرف ربع تلك المبالغ على إنشاء محطات تحلية وعلى الزراعة ورعاية الثروة الحيوانية والسمكية، لتمكنا من توفير طعام ومياه نظيفة تكفي كل البشر على سطح الأرض والقمر والمريخ لمائة عام.

ما الذي يجعل دولة ما تحاول غزو دولة أخرى ونهب ثرواتها، ما فائدة الثروة الجديدة التي ستضاف إلى ثرواتها مادامت لا تصرف على خدمة المواطنين أصلاً؟ أمر عجيب فعلاً أن تصرف بعض الدول معظم مداخيلها على التسليح وتحرم الشعب من التمتع بالحياة، ثم تسعى لنهب ثروات دولة أخرى. أما الأكثر غرابة وعجبا فهو أن يدفع الناس المحرومون حياتهم ثمنا لتنفيذ هذه الرغبة الجنونية.

وما الذي يجعل معظم البشر يعيشون في الصحاري والقفار أو تحت الثلوج القاتلة أو في الخرائب والأنقاض، في حين أن أجمل المناطق وأكثرها قابلية للحياة فارغة؟ لماذا يتقاتل الناس على قطعة أرض هنا أو هناك في حين أن 95% من مساحة الأرض غير مأهولة بالسكان؟ الطيور أعدل من الإنسان أحيانا.

أخيرا.. من عجائب البشر كما يقول عادل إمام في مسرحية الواد سيد الشغال "ناس عندهم لحمة، يعزموا ناس عندهم لحمة، علشان ياكلوا لحمة!".

النظرة الرابعة

مستقبل الاتحاد الأوروبي

يمر الاتحاد الأوروبي الآن بمفترق طرق، يمثل من وجهة نظر كثير من المراقبين واحدا من أخطر مسارات التاريخ لهذه القارة العجوز، بين استمرار للاتحاد الذي بدأ على الورق في أوائل التسعينيات، وعلى الواقع منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، وبين انهيار هذه الوحدة التي تترنح بفعل ضربات الأزمات الاقتصادية المتتالية، وتنامي حركات اليمين المتطرف ذات الخطاب القومية.

ففي الوقت الذي يرى فيه دعاة استمرار الوحدة أن الأمور تسير بشكل جيد وأن الأزمة الاقتصادية الكبرى عبرت بوضوح عن تضامن دول الاتحاد ووقوفها كقوة موحدة في وجه الاعصار، يرى دعاة الانهيار أن سلسلة الإجراءات التي تتخذها الدول القيادية في الاتحاد الأوروبي وأهمها ألمانيا وفرنسا تشبه إلى حد كبير الإجراءات التي اتخذها البنك الدولي تجاه دول العالم الثالث، بنفس الشروط المجحفة والتي أقرزت في نهاية المطاف دولا متهالكة ومتخمة بالديون ومكبلة بالفوائد وتابعة للدول الدائنة.

كما أن رياح "الصحوّة الكبرى" التي بدأت بثورة الياسمين في تونس أوائل العام الماضي، هبت نسمايتها أيضا على شباب أوروبا وجعلت كثيرا منهم يخرج من حالة اللامبالاة والسلبية إلى حالة الفعل ومحاولة وقف استهتار السلطة بحقوقهم والتلاعب بثروتهم التي بددتها تلك السلطات في تحالفاتها المشبوهة مع الرأسماليين الجشعين، إذ لم يعد شباب هذا الجيل الواعي والنشط يتقبل أن تقوم السلطة بمكافأة فشل ذوي الياقات البيضاء كما يسميهم ماكس فيبر وتسببهم بإفلاس البنوك من أموال دافعي الضرائب، في الوقت الذي يتوقعون فيه أن تتم معاقبتهم مشكلة أوروبا، بل مشكلة العالم اليوم تكمن أساسا في هيمنة الرأسمالية على الديمقراطية، فالمواطن في جميع الدول الديمقراطية يؤمن بالديموقراطية كنظام حكم جيد يضمن تبادلا سلميا للسلطة وصوتا يعبر عن رأي الأغلبية، لكنه لا يشعر بأن من يقود العملية الديمقراطية ويتخذ القرارات المصيرية التي تتعلق بحياته ومستقبل أبنائه هم النواب الذين قام بانتخابهم، فهناك دائما حكومة ظل أو مجموعات ضغط هي التي تتحكم بالاقتصاد وهي ذاتها التي تتحكم بالسياسة وتحرك النواب وتحدد مسارات التصويت على التشريعات.

العالم اليوم يعيش حالة "اغتراب" سياسي تشبه في تفاصيلها حالة اغتراب العامل عن العمل التي تحدث عنها ماركس بعمق في كتابه "رأس المال".

فالمواطن اليوم لا يشعر بأنه هو فعلا من يحكم كما تقول مبادئ الديمقراطية، بل هو مجرد "أداة" بسيطة في آلة الاقتصاد الضخمة والتي يتحكم بكل حركاتها أشخاص ببدلة سوداء وياقة بيضاء وسيجار كوبي ملفوف على أفخاذ عذراوات هافانا أوروبا اليوم تترنح كما لم تترنح من قبل تحت وطأة الديون وفوائدها المرعبة، ودول كثيرة منها اليونان وإيطاليا واسبانيا والبرتغال مهددة بالزوال أو البيع كـ "خردة" إلى دول ذات نفوذ رأسمالي مهيمن مثل ألمانيا وفرنسا، تتصاعد فيها أصوات المنادين بالعودة إلى الدول القومية، رغم أن أهم المبادئ التي قامت عليها فكرة الاتحاد هي إلغاء القوميات وصهر المجتمع الأوروبي في شعب واحد بهدف تجنب خروج "هتلر جديد" يؤمن بتفوق قوميته وعرقه على بقية الشعوب والأعراق.

مصر والتجربة العراقية

الإنسان كائن غريب، لا تستطيع ان تفهمه أو تتنبأ بسلوكياته حتى في المواقف العادية والمكررة، لماذا تمكن اخواننا في تونس من تحقيق نجاح جيد في ثورتهم، والبدء ببناء دولة جديدة على أسس مدنية حديثة، قدموا فيها نماذج غير مسبوقه في تاريخ البشرية حول المشاركة في ادارة شؤون البلاد، في حين يتعثر اخواننا في مصر حتى الآن ويقفون عاجزين ويتقاتلون في المربع الأول !

بعد تحرير العراق من نظام الحكم الشمولي لصدام حسين وعصابته كان العراقيون يعيشون أزهى وأجمل لحظات العمر، كانوا في الأيام الأولى للتحرير يلعبون كرة القدم مع جنود قوات التحالف الذين كانوا يتركون بناذقهم على الأرض، وكانوا يرقصون معهم "جوبي" في "فلكة التحرير"، ثم بدأ التحول بعد أيام قليلة وبصورة غريبة، فخرجت أصوات تهدد وتحذر من "الوجود الأجنبي" وتؤكد أن الأميركيان احتلوا العراق ولن يخرجوا، وما بين استقبال الأميركيان وتقبيل رؤوسهم عرفانا بدورهم في تحرير العراق، وقتلهم ومعاملتهم كمحتلين كانت المسألة مسألة أيام فقط، لا أعرف إن كان ذلك قد تم بتخطيط مسبق وفق نظرية المؤامرة أم ان المسألة مجرد فوضى وسوء إدارة، لكنني اعرف ان تطور الأحداث قد تسبب في تدمير العراق وقتل الملايين بلا ذنب، كان على العراقيين ان يتعاونوا مع الأميركيين وقوات التحالف والأمم المتحدة سلميا لبناء "العراق الجديد"، ويعطوهم فرصة ووقتا كافيين لإعادة بناء الجيش ومؤسسات الدولة المدمرة، ويحددوا بالتوافق ووفق مصلحة بلادهم موعدا لخروج قوات التحالف بعد اتمام المهمة، أما افتراض سوء النوايا وتقرير ان الأميركيان محتلون بصورة اعتباطية ووفقا لتصورات نمطية سابقة هو ما أوصل العراق الى هذا الحد من الدمار والتقسيم.

ومع كل ما حدث ويحدث في العراق، يقف المرء حائراً وحزيناً أمام ما يجري في مصر، هذا البلد العظيم الذي يستند الى 8 آلاف عام من الحضارة والتاريخ، ومع هذا تتكرر المأساة نفسها بأدق تفاصيلها المؤلمة وكأن احدا لا يقرأ الواقع ولا يتعلم من تجارب الأمم، عندما قامت الثورة في يناير الماضي كان المصريون يهتفون للجيش ويتفاخرون بأنه من الشعب ومعه، وكانوا يلتقطون الصور مع الجنود فوق الدبابات ويحتفلون بأعراسهم في

ميدان التحرير بين العساكر، والآن يخرجون بالملايين لضرب الجيش والهتاف ضده،
وتقرير ان المجلس العسكري يريد سرقة السلطة، مع ان البداية كانت رائعة والخطوات
الأولى بعد تنحي الرئيس السابق محمد حسني مبارك كانت جيدة ورغم تأكيد المشير
طنطاوي مرارا عدم رغبة الجيش في الاستيلاء على السلطة، لماذا لا تكتمل مشاريعنا،
ولماذا تكون خياراتنا دائما إما السيئ أو الأسوأ؟!

جامعة الفشل العربية

منذ مارس الماضي، أي منذ 9 أشهر والعالم يقرأ ويسمع ويشاهد التعذيب والقتل والقصف اليومي من قبل "الشبيحة" والشرطة والجيش ضد المدنيين العزل في مختلف مدن سورية، والذين خرجوا في مظاهرات سلمية هي حق من حقوقهم المشروعة وللتعبير عن رفضهم لهذا النظام القمعي. 9 أشهر والعالم ينظر ويراقب ويتابع أخبار القمع في سورية ومتابعة أعداد القتلى ومناظر سحل الجثث والتنكيل بالمعتقلين ومناظر التعذيب الوحشي التي لم يرحم فيها حتى الأطفال. 9 أشهر ولايزال الشبيحة يقتلون ولايزال الجيش يقصف البيوت بساكنيها ودول العالم "الحر" تتفرج وجامعة الدول العربية تعطي المهلة تلو المهلة لهذا النظام الوحشي لقتل المزيد من الأبرياء. إذن بماذا سيخبرنا المراقبون المبعوثون من جامعة الدول العربية أكثر مما شاهدنا وشاهد العالم بالصوت والصورة من جرائم النظام في سورية ضد المواطنين؟

جامعة الدول العربية لم تحل يوماً ومنذ إنشائها أي مشكلة، ولم تنصر أي شعب عربي مظلوم، ولم تكن يوماً أكثر من "برستيج" ومنبرا للظهور الإعلامي، حتى تحولت وبحق إلى جامعة الفشل العربية، وأنا على يقين بأنه لا يوجد عربي واحد يثق بهذا الكيان الزائد على الحاجة. يوماً بعد يوم ترسخ جامعة الدول العربية في أذهان المواطن العربي أنها "زي قلتها"، وأننا لا يمكن أن نحل مشاكلنا بقدراتنا وطاقاتنا، وإنما نحن دائماً بحاجة إلى جهود العم سام والعم جورج والعم طونني، ثم نستغرب بعد ذلك ونغضب من "التواجد الأجنبي" ما أرخص الإنسان في عالمنا، بكل بساطة يمكن أن يقتل المئات وهم جالسون في مقهى أو أثناء قضاء حوائجهم في السوق أو حتى وهم يقدمون واجب العزاء، فقط من أجل "إيصال رسالة" للمنافسين السياسيين. وما أبشع "زعماءنا" وقادتنا وسياسييننا ممن لا يعرفون كيف يوصلون رسائلهم إلا بالدم والنار.

حكاية بلا ملامح

من أجمل ما قرأت في كتاب الشاعر الكبير بدر شاكر السياب "كنت شيوعياً" الذي يحكي فيه تجربة ثمانية أعوام قضاها في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، يقول: تحدرت من عائلة تملك بساتين للنخيل يشتغل فيها الفلاحون، يتقاضون الثمن من النتائج. ومع أن أهلي كانوا من أطيب الناس قلوباً وأكثرهم بساطة وديموقراطية، فقد رأيت من مظالمهم التي أنزلوها بالفلاحين شيئاً كثيراً. اذكر زنوبة زوجة الفلاح التي كانت تخدم في منزلنا، قانعة بعد يوم من العمل الشاق، بصحن من المرق أو التمن، وببضعة اسمال لها ولأطفالها كلما حل العيد. وفي إحدى غرف الدار، كانت أكياس الرز والطحين والسكر والشاي، ويبدو أن زنوبة وهي ترى اطفالها يجوعون، تجرأت وسرقت حفنة من الرز أخفتها في ثيابها. وأحس بها أهلي، رأوا الرز الذي هيأته لتأخذه حين تغادر الدار. فماذا فعلوا ؟

وضعوا حفنة الرز في إناء تركوه في إحدى غرف الدار، ثم أمروا زنوبة بان تكنس تلك الغرفة، فترى الرز وتعلم أن سرقتها قد افتضح أمرها. انني اذكرها الآن، تكنس وتبكي، شاعرة بالخزي والعار والأسف والخوف. ان هذا المشهد وسواه من المشاهد انطبعت في نفسي منذ الطفولة، فنشأت كارهها للظلم محبا للآخرين. وجاءت الشيوعية تنادي بالعمل للجميع والطعام للجميع والعدالة والمساواة بين البشر. ومن لا يريد العمل للجميع والطعام للجميع والعدالة والمساواة ؟

من عجائب البشر، أنك عندما تكون على حق، لا أحد يتذكر. وعندما تكون على خطأ، لا أحد ينسى. يقول أحد الأصدقاء إن العنصرية في الكويت ليست جديدة ولم تغب يوماً عن المشهد السياسي ولا الاجتماعي. وفي هذا المعنى قرأت لا أذكر أين: الكويتيون كانوا يسمون الأعور الفقير "أحمدوه العور"، بينما يسمون التاجر الأعور "حجي أحمد جريم العين" (أي الحاج أحمد كريم العين!).

كانت تنتظر عند باب غرفة توزيع التموين، تراقب عشرات المراجعين القادمين لأخذ حصتهم من التموين المجاني، تستقبلهم بتحية وكلمات تودد من أجل أن يوجد عليها أحدهم بشيء من هذا الفائض. أمضت حوالي أربع ساعات دون أن يعطيها أحد أي شيء، وعندما وعدّها الأخير بأن يعطيها علبة حليب، قال العامل "الحليب خلص"... يا لتعاستها، بعض الأفراح تأبى أن تكتمل!

خريشات مواطن محبط

كانت الموضة في الانتخابات الماضية هي "حقوق المرأة"، فجأة أصبحت كل الطرق تؤدي إلى روما، الكل كان ينادي ويدعو للتصويت للمرشحات وكأنهن العصا السحرية التي ستحل كل مشاكلنا بضربة واحدة، كنا نرى في المرشحات الأمل الجديد للخلاص من لغة خطاب متدنية وانحراف كبير في الممارسة الديمقراطية، ثم ماذا؟ تبين لنا أن المسألة ليست بالشهاديات ولا بالكلام المنمق الجميل. واليوم ما الموضة؟ الموضة اليوم هي "الشباب". بنفس السيناريو وبنفس الأحلام الكل ينادي والكل يدعو لاعطاء الشباب فرصة والكل يتحدث باسم الشباب (حتى الشباب)، والكل يقدم نفسه من أجل الشباب. وأنا كمواطن بسيط ومعتز لا يهتم ولا يبالي بكل ما يحدث من جنون، لكنه يريد فقط أن يعرف من هم الشباب؟ وما هو السن الذي ينطبق عليه مصطلح الشباب عند هؤلاء السياسيين الجدد، فقط لأعرف هل أنا منهم أم فاتني القطار؟

يقول نيتشة: الحاضر جسر يعبر عليه الزمان من الماضي إلى المستقبل، والإنسان جسر، تمر من فوقه البشرية من جيل إلى جيل. بهذا المعنى الدقيق يجعل الكثيرون من أنفسهم مجرد جسر أو سلم يعبر عليه الآخرون من حال إلى حال. وفي الانتخابات تتجسد هذه المعاني البشعة بأبشع صورة، "بشر" يساقون بالآلاف كقطيع من الأغنام من أجل تمكين شخص آخر من سرقتهم.. يا لها من بلاهة!

لا أعرف كيف تحقق مواقع التواصل الاجتماعي مثل تويتر وفيسبوك وغيرها أرباحاً، فهي خدمات مجانية ولا نرى فيها إعلانات، ومع هذا نقرأ بين حين وآخر عن بيع "جزء" من أسهمها بالملايين. لا يهم، فأمثالي لا يمكنهم أن يفهموا في عالم المال سوى "الراتب"، لكنني أفهم جيداً أن المرشح الذي يدفع ربع مليون دينار لحملة الانتخابية لا يمكن أن يكون هدفه خدمتي وبالتأكيد ليس خدمة الكويت، وإنما من أجل الوصول إلى العشرة ملايين، لا أعرف كيف، لكن هذا ما يحدث على قفا "الخرفان" التي تبيع أصواتها مقابل تذكرة سفر أو توقيع معاملة أو شنطة نسائية (ثم نتغنى بحب الوطن، ما أكذبنا)!

بين عالمين

في فيلم تايغانك، تهيأت للشباب المغامر والفقير "جاك" فرصة الدخول إلى صالة رجال الأعمال والجلوس مع الأثرياء و"النبلاء" على طاولة واحدة بعد أن أنقذ حياة "روز"، التي كانت تحاول الانتحار. لم يتطلب الأمر عبقرية خاصة ليدرك مأساة روز ويؤسها، دعاها إلى صالة الدرجة الثانية، إلى عالمه هو، مع "الناس العاديين". نزلت.. فتاة جميلة وأنيقة قادمة من عالم فاحش الثراء والرتابة، كل شيء فيه يسير بـ "الإتيكيت" وبنظام محدد وتعليمات خاصة.. حتى الضحك، إلى عالم البساطة والتلقائية والمرح، عالم الناس كما هم بطبيعتهم ودون تكلف، وهناك اكتشفت أن عالمها "مزيف" وخال من المشاعر والتواصل الإنساني الحميم، حيث لكل شيء ثمن ولكل فعل مقابل. بالمناسبة، كلمة "إتيكيت" *étiquette* فرنسية ومعناها الحرفي "التصنع"، بمعنى التظاهر بعمل شيء، كأن يتصنع الإنسان طريقة معينة في الأكل أو إلقاء التحية أو حتى الابتسامة بحدود مرسومة.. وهنا يتقاطع المعنى مع مفهوم "الزيف" !

"بين عالمين" صورة تتكرر في كثير من الأعمال الأدبية والدرامية، بالنسبة لي أجد أجملها في أعمال نجيب محفوظ والتي كانت بحق تدوينا لحياة المجتمع المصري بكل ما فيها من هموم ومكابدة وصراع طبقي، في أحيائها الفقيرة والمهجورة حين تدخل إليها "عربية المرسيدس" لأحد المرشحين لمجلس الشعب، والذي ينزل وهو "مبوز وقرفان" يتصنع الابتسامة والتعاطف مع الغلابة، ويوزع لهم قطعة قماش وبضعة جنيهات. هذه الأعمال العبقرية وأمثالها هو ما يشكل الوعي الاجتماعي والصور النمطية في أذهان الناس، وأزعم أن بداية الثورات العربية الحالية تعود لما تشكل في أذهان الناس من أفكار من هذه الأعمال، عن الهوة السحيقة بين عالم الفقراء بكل ما فيه من بؤس وشقاء وحرمان، وعالم الأثرياء بكل ما فيه من برود وجشع.

"بين عالمين" صورة نمطية جديدة تتشكل في مجتمعنا اليوم بهدوء، دون أن يكثر لها أحد. تعمق كل يوم الفجوة بين الناس، تمزقهم بحدود مرسومة لكل فئة، وتغذي نزعة الشر الكامنة في نفوسهم وتربيتها لتنتقل في يوم ما بكل وحشية.. حينها سنتساءل وبكل سذاجة وعبط - كالعادة - كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد

كتب السياب:

مدينتنا تَوْرَق ليلها نار بلا لهب

تحمّ دروبها والدور ثم تزول حماها

ويصبغها الغروب بكل ما حملته من سحب

فتوشك أن تطير شرارة ويهب موتها

حديد عتيق لموت جديد

أشفق كثيرا على أبناء هذا الجيل "المعتر"، كنت أعتقد أنهم أفضل ممن سبقوهم لأنهم نشأوا في زمن العولة، حيث الفضاء الرحب هو حدود العالم، وحيث تجتمع ثقافات الدنيا لديهم في جهاز بحجم الكف، يتنقلون من خلاله من أقصى الشرق لأقصى الغرب بكبسة زر. غير أن تأمل الواقع يجعلني أعيد النظر وأتراجع عن اعتقادي الخاطيء، فأبناء اليوم ينشأون على قيم الصراع والانتقام وأخبار القتل والحروب التي لا تنتهي، إنهم باختصار يجنون ثمار 50 عاما من الكبت والطغيان والكراهية والإقصاء، والتي نضجت وحن قطافها في أيامهم الغابرة.

كيف سمحنا لمثل هذه الثقافة المرعبة بأن تتغلغل في أدمغة أطفالنا دون أن نفعل أي شيء؟ أطفالنا اليوم يتحدثون عن المظاهرات وأخذ "الحقوق" بالقوة، فماذا تتوقعون لعدد الجرائم وأنواعها بعد عشرة أعوام، ماذا تتوقعون من أطفال يشاهدون كل يوم جثثا تسحل وترمى في أكوام، كيف تتوقعون سلوك أطفالنا بعد عشرة أعوام وكل شيء حولهم ينطق بالعنف والقتل والتمزيق والنبذ والتشردم، حتى ألعابهم ما عادت تجمعهم ولا تستفز عقولهم بقدر ما تصنفهم وتوغر صدورهم وتزرع الحقد وكراهية الآخر في نفوسهم !

إننا اليوم بإزاء جيل كامل ينشأ ويتربى على تراجع قيم الانسانية وأخلاق التسامح والتعاون والاجتماع البشري الآمن والمسالم، في مقابل تفوق القيم السلبية، حيث لم يعد للخجل أو الخوف أي وجود، وحيث أصبحت المجاهرة بالسرقة والرشوة والكذب مصدر فخر بعد أن شوهت مفاهيمها وانقلبت معانيها إلى أضدادها، فالرشوة أصبحت كرم، والسرقة تحولت إلى شطارة، وسحق آلاف البشر بالدبابات والقنابل والرشاشات بات "شأنا داخليا"، وكأن البشر خراف يذبهم الزعيم متى شاء لأنهم "شعبه"، ثم بعد كل هذا الانحدار والتراجع إلى مرحلة الإنسان البدائي المتوحش، ماذا تقدم مدارسنا لهؤلاء الصغار لتنشئتهم، وماذا تقدم لهم وسائل الإعلام وماذا يقدم لهم "رجال الدين" بل ماذا يقدم لهم الأهل ؟

* كتب السياب في رائعته "أمام باب الله" :

منطرحا أمام بابك الكبير
أصرخ في الظلام أستجير
يا راعي النمل في الرمال
وسامع الحصاة في قرارة الغدير
أصيح كالرعود في مغاور الجبال
كأهة الهجير

منطرحا أمام بابك الكبير
أحس بانكسارة الظنون في الضمير
أريد أن أعيش في سلام
كشمعة تذوب في الظلام
بدمعة أموت وابتسام
تعبت من توقد الهجير
تعبت من صراعي الكبير
تعبت من تصنع الحياة
تعبت.. كالطفل إذا أتعبه بكاه

لأننا عنصريون وبلا مبدأ

من يتتبع تاريخ الكويت، يدرك أن ممارسات الحكومة التي ضج منها الناس اليوم ليست جديدة، فهذا ديدن الحكومة وكل الحكومات في أي زمان وأي دولة، فهي تسعى دائماً إلى تقريب فئة ما وإقصاء فئات أخرى بحسب المصالح السياسية، فهذا ما يعطي أي حكومة القدرة على البقاء والمناورة والهرب وإشغال الناس بقضايا وصراعات بدلا من الانشغال بمتابعة انجازاتها وسرقات ذوي الياقات البيضاء فيها.

هذا ما حدث ولا يزال يحدث في الكويت، فالحكومة قربت "البدو" أو أبناء القبائل في فترة من الفترات وأقصت بقية فئات المجتمع، حينها لم يعترض أبناء القبائل على هذه الممارسة، وإنما تفرغوا وبكل أنانية للاستفادة من هذه العلاقة المتميزة، ثم تغيرت الظروف وتطلبت مصالح الحكومة التخلي عن أبناء القبائل وتقريب "الحضر"، ففعلوا وبكل أنانية كما فعل "البدو"، حلبوا الدولة ولم يباليوا ببقية المواطنين، ثم اقتضت مصالح الحكومة أن تتخلى عن الحضر فتخلت عنهم، فجاء دور الإخوان المسلمين، ثم دور السلفيين ثم الليبراليين وغيرهم، ففعلوا جميعهم ما فعل من قبلهم، واليوم جاء دور الشيعة هذه المرة ليتحالفوا مع الحكومة، وها هم يمارسون دورهم وبكل أنانية وبنفس الطريقة التي مارس بها البدو والحضر والإخوان والسلفيون والليبراليون والعلمانيون، يستغلون الفرصة كما استغلها من قبلهم، فلا أحد أفضل من أحد، كلهم أنانيون وعنصريون وإقصائيون ويتصرفون وفقا للمثل البشع "من صاها عشا عياله".

الآن وبعد هذه التجارب المريرة التي لم تفرز سوى الإقصاء والنبذ والأنانية وتدمير الدولة، أما أن الأوان أن يعي أبناء الكويت من كل هذه الفئات - وبعيدا عن أكاذيب السياسيين - أن الحكمة تقتضي عدم القبول بإقصاء أي فئة، وأننا لن نحصل على حقوقنا وأدميتنا إلا في إطار العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجميع وسيادة مفاهيم المواطنة الحقة دون تمييز ودون إقصاء؟ كان الفرس قديما يتركون الناس بلا قانون لمدة يوم كامل، يفعل فيه الناس ما يشاءون من القتل والنهب والسرقة دون عقوبة، فقط ليدرك الناس أهمية القانون والعقوبات بعد هذا اليوم العصيب. وكل ما أتمناه أن نتعلم جميعنا سنة وشيعة، حضرا وبدوا، تجارا وموظفين أن القبول بإقصاء وظلم إحدى الفئات اليوم عواقبه وخيمة على

الجميع في المستقبل، إذا قبل الشيوعي اليوم أن تظلم الحكومة اخوانه السنة فسيقبل السنة بظلمه غدا.

الموقف اليوم يتطلب جهودا عقلانية من جميع الفئات، و"الانتصار" المؤقت الذي تعيشه إحدى الفئات عند تحالفها مع الحكومة على حساب بقية فئات المجتمع ليس انتصارا ولا مكسبا، فهو مؤقت وسرعان ما يتحول إلى وبال وألم كما هو حاصل الآن من أغلب فئات المجتمع وهم يراقبون لحظات العز التي يتمتع بها الشيعة، ولكن تذكروا أنكم قبلتم بهذا الوضع سابقا وكان الشيعة يومها في نفس موقفكم يعانون ما تعانيون اليوم من الإقصاء والحرمان. لا سبيل لنا إلا بتجاوز عقلية وثقافة الانتقام والحقد والحسد، لن نرتاح ولن نتفرغ لبناء بلدنا وتأمين مستقبل أطفالنا إلا إذا رسخت في ثقافتنا مفاهيم التسامح والمحبة والإيثار واحترام الاختلاف.

هتلر والبدون

في الثلاثينيات، وصف هتلر اليهود بكلمة "Untermenschen" والتي تعني باللغة الألمانية "أقل من إنسان" بمعنى أنهم بدرجة أقل وأدنى من بقية البشر، وبسبب هذا الوصف تعرض اليهود المذنبون وغير المذنبين، رجالا ونساء وأطفالا لكل أنواع التعذيب والشقاء، لأن الفوهرر زرع في أدمغة أبناء شعبه أن اليهود ليسوا بشرا، بل بدرجة أقل من البشر، ولذلك بلغت درجة التنكيل والتعذيب والإبادة الجماعية التي ارتكبتها النازيون ضد اليهود درجة غير مسبوقة في التاريخ، حتى انهم استعملوا في التجارب الطبية بكل بشاعة على يدي الطبيب النازي يوسف منجيل، فكان يتعامل معهم كما يتعامل مع الفئران في المختبر، ولم لا، فقائده اعتبرهم "أونترمنشن"، عندما تتصرف الدولة بصورة عنصرية ضد فئة من الناس، فهي تعطي مواطنيها المبرر لممارسة أبشع ما في الإنسان من لؤم وفجور، وهذا ما يحدث بكل أسف مع البدون في الكويت، لولا بقية من دين وتقوى وضمير في قلوب أكثر أهل الكويت، الذين لا يقبلون بالظلم على أنفسهم ولا على غيرهم.

لماذا تتصرف وزارة الداخلية مع تجمعات البدون السلمية بطريقة مختلفة عن تصرفها مع تجمعات الكويتيين؟ لأنها تنظر لهم على أنهم بدرجة أدنى من البشر.

ولماذا يتحدث بعض المرضى من ذوي الدماء الزرقاء بكل وقاحة ويطالب بقتلهم أو نفيهم وحرمانهم من كل مقومات الحياة والحقوق الإنسانية؟ لأنهم عنصريون ويستمدون عنصريتهم من الدولة التي اعتبرت البدون "أونترمنشن" وليست لهم أي حقوق.

لا أظن أننا بحاجة إلى اجترار كل تلك الأحاديث المكررة عن الإنسانية والحلال والحرام، لأنه من الواضح أنها لغة لا يفهمها العنصريون، ولو كانت لدى المسؤولين عن ملف البدون ذرة من الإنسانية لما استمرت معاناتهم كل هذه السنين، فما نحتاجه إذن شيء آخر، أن ندرك أن العالم تغير بعد صفقة البوعزيزي، فخرج الناس بالملايين في تونس ومصر وليبيا واليمن وسورية والبحرين وفلسطين وأميركا وبريطانيا وألمانيا وتشيلي وهندوراس واليونان واسبانيا وإيطاليا وو... ما هو إلا بداية النهاية لعقود القهر والاستبداد واستعباد البشر واستغلالهم أبشع استغلال من أجل جموح ونزوات أصحاب السلطة.

شعوب العالم لم تعد تقبل أن يستأثر 10% من الناس بـ 90% من الثروة، ولن يقبلوا المزيد من الطغيان والظلم والنظر إليهم وكأنهم عبيد أو حشرات، ولذلك من مصلحة الكويت أولاً وقبل كل شيء ألا نقبل باستمرار التعسف والتعامل بعنف مع مطالبات البدون بحقوقهم، والأهم ألا يستمر البعض بالكذب ونفي استخدام العنف غير المبرر لأن كل ما يحدث ينقل لحظة بلحظة للعالم كله، فمثل تلك التبريرات الساذجة والأكاذيب الوقحة كانت دائماً الشرارة التي تفجر براكين الغضب التي تتراكم عبر السنين.

هل تعلم ؟

هل تعلم ان عدد اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية 6 ملايين، بينما عدد المسلمين 10 ملايين، ومع هذا ينص الدستور الأمريكي على أن يؤدي الرئيس المنتخب قبل توليه مهامه اليمين الدستورية أمام ممثلين عن الطوائف الرئيسية وهي الكاثوليك، البروتستانت واليهود فقط؟ (القوة في التنظيم وليس في العدد).

وهل تعلم أن أميركا ليس فيها حكومة بالمعنى البرلماني المتعارف عليه، إذ تتركز السلطة التنفيذية كلها بيد الرئيس، والذي يختار معاونين يطلق عليهم اسم "سكرتير"، مثل سكرتير الدفاع وسكرتير الخارجية.. (السكرتير يعادل الوزير). والأغرب أن عدد السكرتاريا - أو الوزراء مجازا - لا يتجاوز 13 وزيرا، وأن كثيرا من الرؤساء الأميركيين لم يختاروا 13 وزيرا، بل منهم من اختار 7 فقط مثل الرئيس لنكولن؟ (ونحن لدينا 16 وزيرا في بلد أصغر من نيويورك والباقي تعرفونه).

وهل تعلم أن الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة تمر بمرحلتين، الأولى تسمى المرحلة التحضيرية وهي "غير دستورية"، ومع ذلك جرت "العادة" على وجودها في كل الانتخابات الرئاسية. والغريب أن الناخبين يختارون الرئيس لعوامل شخصية فقط وليس من أجل البرنامج الانتخابي؟ وهل تعلم أن الدستور الأمريكي ينص على 7 صلاحيات دستورية فقط للرئيس، والبقية اكتسبها عن طريق أحكام قضائية صادرة من المحكمة العليا بمرور الزمن ؟

وهل تعلم أن الرئيس الأميركي رغم كونه القائد الأعلى للقوات المسلحة، إلا أن قرارات الحرب وميزانية الجيش بيد الكونغرس وليس الرئيس (توازن قوى)، كما أن موازنة الدولة يضعها مكتب الموازنة التابع للبيت الأبيض، إلا أن السلطة المطلقة في تحديد الواردات والنفقات هي للكونغرس وليس للرئيس. (البرلمان لدينا أيضا يملك صلاحيات دستورية حول ميزانية الدولة، لكننا لا نرى أي توازن للقوى مع الحكومة).

وهل تعلم أن مدة عضوية النواب في مجلس الممثلين ومجلس الشيوخ سنتان فقط. وقد فشلت محاولات عدة رؤساء لجعلها 4 سنوات؟ (عندنا مدة العضوية 4 سنوات لكنها تكاد تكون خالية من الإنجاز).

وهل تعلم أن شروط الترشح لمجلس الممثلين أن يكون سن المرشح 25 عاما، وأن يكون أميركيا لأكثر من 7 سنوات فقط؟ (ونحن لدينا بدون يعيشون في الكويت منذ الثلاثينيات ولا يحصلون على أبسط الحقوق الإنسانية وليس السياسية).

وهل تعلم أن الدستور الأميركي يعطي المواطنين الحق في إقالة أي نائب منتخب (سواء في البرلمان أو المجالس البلدية أو الشريف في الشرطة.. الخ) وذلك من خلال تقديم عريضة من قبل عدد محدد من المواطنين، وذلك استنادا إلى نظرية السيادة الشعبية التي تقول بالوكالة الإلزامية للنواب، ويسمى هذا الحق باسم الـ "راكال"؟ (لو كان لدينا هذا الحق، لخلعنا نصف النواب).

أخيراً، هل تعلم أن قراءة النظام الدستوري في الولايات المتحدة ممتعة جداً؟ ومع هذا سيصيبك الحزن لأنك ستكتشف مقدار التخلف الذي يعيش فيه عالمنا العربي

إيكونوموس

بالنسبة لهيدجر، الفيلسوف الألماني الكبير، كان الشعب اليوناني الذي عاش قبل الميلاد هو أكثر الشعوب الناضجة عقليا، وأن اللغة اليونانية هي مصدر الأفكار العظيمة، لذلك كان هيدجر شديد الحرص على البحث التيرمينولوجي (دراسة تطور المصطلحات) والعودة بالمصطلح إلى أصله اليوناني غالبا ومعرفة كيف فهم اليونان هذه الكلمة أو تلك. ومع هيدجر نتتبع كلمة "اقتصاد" Economy، لنجد أنها كلمة يونانية تتكون من مقطعين، إيكوس وتعني "المنزل"، ونيمو والتي تعني "الإدارة أو التدبير". فقد كان اليونان يفهمون الاقتصاد على أنه فن إدارة المنزل وتدبيره بصورة سليمة، وبهذا تحدث أرسطو وحدد للمرأة الدور الأكبر في هذا الجانب.

وتطور الاقتصاد إلى "نظام اجتماعي" يفترض أنه لا يخرج عن هذا التصور اليوناني الدقيق، فالنظام الاقتصادي يعني باختصار "فن إدارة وتدبير شؤون الدولة"، التحكم بالمصروفات والعمل على زيادة الدخل وتنويع مصادره والادخار للمستقبل، كل هذا بالتوازن مع توفير كل متطلبات الشعب بحسب قدرة الدولة ومستوى دخلها. هذا هو الاقتصاد، وهذه هي مهمة أي حكومة تجاه الشعب في أي دولة، وأي خلل في ذلك يعني ببساطة فشل الحكومة، أو الحكومات!

في الكويت لدينا خلل كبير في نظامنا الاقتصادي، واضح ومعروف للجميع. لدينا خلل في إدارة ثروة الشعب، خلل في المصروفات، وخلل في تنمية الموجودات، وخلل في تنويع مصادر الدخل، وخلل في توفير متطلبات الشعب.. والخلل ليس جديدا وهو غير مرتبط بأداء هذه الحكومة فقط، بل هو فشل كبير لأكثر من حكومة على مدى تاريخ الكويت، على سبيل المثال: جامعة الكويت تأسست عام 1966، ونحن في 2011 أي مضي 45 عاما ولم تقم أي حكومة بتأسيس جامعة ثانية هذا يعني أن الحكومات التي جاءت بعد 20 عاما على الأقل على تأسيس جامعة الكويت كلها فشلت في مهمة تقدير حاجة البلاد لوجود جامعة أخرى، ثم نفاجأ بالمشكلة اليوم ونبحث عن حلول ترقيعية لقبول الطلبة ونتهم

هذه الحكومة بالفشل وننسى مسؤولية من سبق، والأمر ينسحب على كل قطاعات الخدمات الأخرى كالصحة والمواصلات وغيرها وليس التعليم فقط.

فمن غير الانصاف أن نلقي باللوم على هذه الحكومة فقط، فكل الحكومات السابقة شريكة - مع هذه الحكومة - فيما نعيشه من فشل في إدارة وتدبير شؤون الدولة، بل إن عدم محاسبة المقصرين والمخطئين طوال تاريخ الكويت هو السبب الرئيسي في هذا الفشل الذريع.

أما الأصوات المطالبة بفرض الضرائب بحجة تصحيح مسار الانحراف الاقتصادي الكبير الذي نعيشه، فهي نفس الأصوات التي تسببت في هذا الفشل الذريع وتبديد ثروات الشعب، وبالتالي فمن غير المقبول أن يتصدى لحل المشكلة من تسبب في صنعها. كما أن فرض الضرائب في الكويت الآن خطوة خطيرة ستؤدي إلى مزيد من التدهور في نظامنا الاقتصادي لأن الضرائب باختصار ستقضي على أصحاب الدخل المتوسط والمحدود، وهم عماد الاقتصاد في أي بلد.

ما نحتاجه حقا ليس مزيدا من الأموال، فوضعنا الاقتصادي يختلف تماما عن وضع الولايات المتحدة الأميركية، فأميركا لديها عجز مالي بسبب زيادة المصروفات أكثر من الدخل، ولكننا بحاجة إلى إدارة رشيدة عاقلة تهتم حقا بالعمل من أجل الكويت ومستقبلها فعلا وليس قولاً.

المسألة في غاية البساطة ولا تحتاج "فذلكات" وقصص طويلة عريضة معروفة ومكتشوفة، لف ودوران بمصطلحات اقتصادية معقدة على شاكلة "العجز الاكتواري" لإيهام الناس بوجود مشكلة اقتصادية عالمية كبرى من أجل "سرقة" اللقمة من أفواههم. القضية قضية "إدارة وتدبير" واع وعاقل يستهدف الصالح العام، تماما كما تستهدف الأم مصلحة أسرته كلها.

تعديل الدستور لعقلنة السياسة

بعد الحرب العالمية الاولى ونتيجة لكثرة الخلافات بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، لجأت ألمانيا الى اجراء تعديلات دستورية لتنظيم العلاقة بين البرلمان والحكومة عرفت فيما بعد باسم "البرلمانية المعقلنة"، وقد أخذت عدة بلدان أوروبية وأهمها إيطاليا وفرنسا هذه التجربة من ألمانيا، ومن أهم ملامح هذه التعديلات الدستورية قوانين تجبر الحكومة الجديدة على أن تتقدم لنيل الثقة من البرلمان على أساس برنامج عمل محدد من أجل منع الازمات الوزارية المتكررة والمتعلقة باستمرارية الحكومة، يقابلها تعديلات تتعلق بوضع ضوابط تحد من تحريك المساءلة السياسية للحكومة أمام البرلمان بسهولة.

والحق أن كل الدول الديموقراطية عانت الكثير ولا تزال تعاني حتى اليوم من التوتر الدائم للعلاقة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وستبقى العلاقة المتوترة بينهما كنتيجة طبيعية لشكل العلاقات الاجتماعية بين البشر، ومخطئ من يظن أنه بالإمكان وقف الصراعات في العلاقات الاجتماعية، وجهود البشر لا تهدف على الاطلاق الى منع الصراع وانما الى ترشيده وعقلنته وجعله انسانيا وتحت السيطرة التي تؤدي في النهاية الى ضبط السلوك البشري. وتجارب الدول مليئة بنماذج وصور جميلة أحيانا ومشوهة أحيانا أخرى في محاولاتها لاحتواء الازمات السياسية ووضع برامج تنتج نظما سياسية قابلة لفرض مبدأ التعاون بين السلطات، بل ان تاريخ البشرية بأكمله ما هو الا نوع من هذه التجارب، سعي دائم لإيجاد صيغة توافقية بين البشر المختلفين دائما.

تجربتنا السياسية في الكويت رغم أنها تجربة فريدة في محيطها الجغرافي، الا أنها لاتزال تجربة فنية لا يتجاوز عمرها 50 عاما، لم تشهد خلالها تعديلات دستورية تعكس الرغبة الحقيقية للإصلاح السياسي، وهو الوضع الطبيعي المفترض لكل نظام دستوري. ومرد ذلك كما يبدو بوضوح هو انعدام الثقة بين الجميع، وفقدان الثقة لم يأت من فراغ، وانما من واقع ممارسة يومية يشهد فيها الناس تحالفات مريبة بين أصحاب المال وأصحاب القرار، فهذا التحالف بين المال والسلطة هو أكبر عوامل انهيار الانظمة وهو الآفة التي حذرت منها جميع الاديان والشرائع السماوية وغير السماوية.

وتأمل الحالة السياسية في الكويت اليوم يبين بوضوح مقدار الخلل في العلاقة بين البرلمان والحكومة، خلل ناتج عن قصور دستوري واضح، والمسألة لم تعد متوقفة على شخص سمو رئيس مجلس الوزراء وبقائه في منصبه أو رحيله، وإنما في الاطر الدستورية التي تحدد شكل العلاقة بين السلطتين، والتي حددها الدستور بمفهوم "التعاون" الا أن القوانين الاجرائية التي تترجم هذا المبدأ الى واقع عملي لم تعد كافية لتحقيق هذا التعاون المنشود، وبالتالي بات من الضروري اجراء تعديلات دستورية تعيد تنظيم العلاقة بين السلطتين بصورة قانونية واضحة وعقلانية لا تعتمد فقط على حسن النوايا، لان الزمن تغير ومعظم البشر اليوم بلا ضمير ولا أخلاق ولا دين، فلم يبق سوى عقلنة العمل السياسي عن طريق القوانين التي تضع حدودا واضحة لكل طرف من طرفي العلاقة السياسية، وأعني البرلمان والحكومة، فوجود حكومة لا تحظى بثقة البرلمان منذ البداية وليس لديها برنامج عمل من جهة، وعدم وجود ضوابط لحسن تحريك المسألة السياسية من جهة أخرى لن ينتجا بالتأكيد سوى المزيد من الازمات السياسية المتلاحقة والمتكررة وبالتالي جمود وتراجع ثم انهيار.

بالمناسبة، الدستور الاميركي تم تعديله 27 مرة منذ التصديق عليه، وآخر تعديل كان في مايو 1992.

حول الثورات العربية

في المواقف تتكشف العديد من الحقائق، وتسقط الكثير من الأقنعة، ثمة من يحاول جاهداً أن يقلل من قيمة الثورات العربية المباركة في تونس ومصر وليبيا واليمن و"غيرها"، من خلال وصفها بالفوضى أو "المؤامرة الخارجية"، إلا أن أبشع تلك المحاولات الانهزامية ما يروج له بعض "المفكرين" من ترهات حول نتائج هذه الثورات، حيث يقومون باسترجاع نتائج الانقلابات العسكرية التي قام بها "الصمصم السلطنة" أمثال صدام حسين ومعمار القذافي والتي لم تجلب لتلك البلدان سوى الخراب والدمار وملايين الضحايا والثكالي والأيتام، ثم يستنتجون - بكل سذاجة - أن هذه الثورات تشبه تلك الانقلابات. إن مقارنة "الثورات الشعبية" بالانقلابات العسكرية ليس خطأً علمياً فحسب، بل هي فعل غير أخلاقي أيضاً، ففي محاولة تخويف الناس من الثورات من خلال ربطها بتجارب انقلابات عسكرية فاشلة خيانة لدماء الشهداء والضحايا، الثورات تقارن بالثورات، والانقلابات العسكرية لا تقارن إلا بمثلها من الانقلابات.

كانت أوروبا تزرع تحت وطأة الحكم الاستبدادي لطبقة النبلاء والإكليروس وتعاني شعوبها من الظلم والفقر والجوع والجهل في العصور الوسطى، حفنة من "النبلاء" استحوذت على كل شيء واستعبدت البشر باسم الدين بعد أن تحالفوا مع رجال الكنيسة، فاندلعت الثورة الفرنسية العظيمة عام 1789 ووضعت حداً لمئات السنين من السخرة والاستعباد، لم يحدث ذلك بين يوم وليلة، وإنما تطلب الأمر 10 أعوام من الكفاح والنضال والتضحيات التي نقلت أوروبا من عصر الفقر والجهل والظلام إلى عصر التنوير والعلم وحقوق الإنسان ودولة المؤسسات، فقد استمرت الثورة الفرنسية من عام 1789 إلى عام 1799 وتطلب الأمر في البداية 3 أعوام فقط لتأسيس الجمعية الوطنية وكتابة دستور وفتح سجن الباستيل وإصدار بيان حقوق الإنسان، ثم يأتي الآن من يطالب بنتائج فورية لثورة الياسمين وثورة ميدان التحرير وكأن الناس تملك عصا سحرية. ماذا باعتقادكم يمكن أن تفعل 40 عاماً من القمع والتعذيب والتجويع وانتهاك الأعراض التي مارستها

الأنظمة الديكتاتورية في الدول العربية، هل تعتقدون أن ملايين الجياع بإمكانهم أن يضربوا الأرض لتتحول مصر المحروسة إلى دولة تشبه السويد مثلاً ؟

واقع الشعوب العربية مؤلم، وإصلاح ما أفسده الديكتاتوريون وحاشيتهم في 40 عاماً مهمة ليست هينة بالتأكيد، فالمسألة ليست بإصلاح مبنى هنا أو تشغيل منشأة هناك، المسألة أكبر من ذلك بكثير، وتتطلب أولاً إصلاح النظم الاجتماعية، وأهمها مؤسسات التنشئة الاجتماعية وإصلاح منظومة القيم التي أتلفتها تلك الأنظمة الاستبدادية، ولمن يبحث عن المعجزات نقول، يكفي أن هذه الثورات العربية المباركة قد أوقفت نزيف الهدر وبدأت مرحلة التحول إلى دول مدنية تحكمها مؤسسات وقوانين بدلاً من مزاج الحاكم ونزوات أبنائه، وجعلت ضباط الشرطة يحيون الشباب في الشوارع بعد أن كانوا يضربونهم على قفاهم بلا سبب.

حضارة القتل

أسامة بن لادن إرهابي لأنه قتل آلاف الأبرياء، فماذا عن بقية المجرمين الذين قتلوا ملايين الأبرياء؟ ما الذي يميز القادة الذين تسببوا في قتل ملايين البشر حتى وهم في الملاجئ والمستشفيات والمنازل وسيارات الإسعاف عن أسامة بن لادن؟ ماذا عن قادة الكيان الصهيوني الذين يقتلون الفلسطينيين كل يوم؟ بماذا يختلف تفجير برج التجارة العالمية في منهاتن عن قصف ملجأ العامرية في بغداد؟

واضح جدا أننا نكوّن آراءنا وقناعاتنا من خلال خطاب وسائل الاعلام الأميركية، والتي هي أصلا مجيرة بالكامل لخدمة الكيان الصهيوني المحتل، أصبحنا مجرد آلات تسجيل تردد بلا وعي ما يبثه الأميركيان، حتى وصل بنا الأمر إلى تقبل الباطل على أنه حق، وقبول الحق على أنه باطل، وإلا كيف أصبحنا ننتقد ونهاجم "حماس" ونصفهم بما يصفهم به الأميركيان والصهاينة بـ "الإرهابيين" وهم لم يفعلوا شيئا سوى الدفاع عن أرضهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم من الصهاينة المحتلين؟ ولماذا يوجد بيننا "مسلمون" يفرحون ويتبادلون التهنة لقتل رجل مسلم؟ لاحظوا أن الفاتيكان أعلن أن "المسيحي الحقيقي لا يفرح بموت أي إنسان"!

عالمنا يتجه إلى اللاعقلانية والجنون بصورة أكبر يوما بعد يوم، قتل البشر أصبح أمرا مقبولا وعاديا جدا وكأننا نتحدث عن قتل ذبابة أو نملة، بل إننا في أحسن الأحوال ننتقد قتل المدنيين ونتقبل قتل الجنود وكأنه أمر طبيعي أن يقتلوا، لماذا، أليسوا بشرا ولهم حق الحياة؟ الرئيس الأميركي أوباما خرج بكامل أناقته وأعلن بكل فخر عن "قتل" إنسان، صفق المشاهدون ورقص الناس بهذا النبأ، يا لها من انتكاسة في مسيرة الإنسان ويا له من تراجع، علينا إذن أن نعترف بأن حضارتنا اليوم هي حضارة قتل وتدمير.. بامتياز!

من هنا.. وهناك

جلس رجل في غرفة التدخين في أحد المطارات ليدخن قبل موعد الاقلاع، وعند خروجه من غرفة التدخين أوقفه أحد "الملاقيف" وسأله: كم علبة تدخن في اليوم؟ رد الرجل: ولماذا هذا السؤال؟ فقال الملقوف: هل تعلم أنك لو جمعت قيمة ما تنفقه على التدخين لكانت الطائرة التي ستصعدنا الآن ملكا لك! سأله المدخن: وهل أنت تدخن؟ قال الملقوف: لا، سأله مرة ثانية: وهل تملك تلك الطائرة؟ قال: أيضا لا. فرد عليه المدخن: أنا أدخن وأنا أملك تلك الطائرة. كان الرجل المدخن ريتشارد برنسون صاحب شركة طيران فيرجن.

في مدينة صغيرة تكاد تكون مهجورة كغيرها بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية، يدخل رجل سائح غني على أحد الفنادق، ويضع 100 دولار على كاونتر الاستقبال ويصعد ليتفقد الغرفة. في هذه الأثناء يستغل موظف الاستقبال الفرصة ويأخذ المائة دولار ويذهب مسرعا إلى الجزار ليسدد دينه، الجزار يفرح بهذا الفرج ويتجه مسرعا إلى تاجر المواشي ليسدد جزءا من ديونه المتراكمة، تاجر المواشي يذهب بدوره إلى تاجر الأعلاف ويعطيه المائة دولار ليكف عن التذمر، تاجر الأعلاف يأخذ المال ويعطيه لصديقه الذي اقترض منه قبل أيام مائة دولار، وصديقه يتجه مسرعا للفندق ويضع المائة دولار على كاونتر الاستقبال ليسدد دينه السابق، وفي هذه اللحظة ينزل السائح الثري الذي يأخذ المائة دولار ويمضي لأن الغرفة لم تعجبه. هكذا تدير أسواق المال في الولايات المتحدة الاميركية اقتصاديات العالم، أموال تلف وتدور دون أن يحصل أحد على شيء.. رأسمالية.

تحدثنا إحدى الأساطير الصينية القديمة عن ملك أراد أن يصنع له ناقوسا ضخما من الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكلف أحد الوزراء بصنعه، لكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد، وكاد الوقت يمضي دون أن يجد الوزير المسكين حلا، وحين رأت ابنته واسمها "كونغاي" ما يعانیه والدها ذهبت إلى بعض العرافين لتستشيرهم في الأمر، فأشاروا عليها بأن المعادن المختلفة لن تتحد معا إلا إذا امتزجت بدماء فتاة عذراء، فما كان منها إلا أن ألفت بنفسها في القدر الكبيرة لتمتزج المعادن وتنقذ والدها، غير أن صدى الناقوس ظل يردد اسمها كلما دق.. "كونغاي.. كونغاي".

كتب الشاعر بدر شاكر السياب:

هياي.. كونغاي، كونغاي
مازال ناقوس أبيك يقلق المساء
بأفجع الرثاء
"هياي.. كونغاي، كونغاي"
فيفزع الصغار في الدروب
وتخفق القلوب
وتغلق الدور ببكين وشنغهاي
من رجع: كونغاي.. كونغاي
فلتحرقي وطفلك الوليد
ليجمع الحديد بالحديد
والفحم والنحاس بالنظار
والعالم القديم بالجديد
آلهة الحديد والنحاس.. والدمار

من أدب الحروب

في مثل هذه الأيام العجاف، التي أصبح فيها قتل البشر مثل قتل الذباب، أجد نفسي منكبا على أعمال الأديب الألماني الرائع هاينريش بول التي أجد فيها شيئا من المواساة والتربيت. هاينريش بول الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام 1972 هو أحد أدباء ما بعد الحرب العالمية الثانية، كرس معظم أعماله لمناقشة عبثية الحروب وانكسار الشعوب المهزومة، وتميز بوصف الحالة النفسية للجنود العائدين من ميادين المعارك، بما خلفته فيهم تلك التجارب القاسية من خوف وياس وضعف، كما اهتم بشكل كبير بوصف مشاعر العجز وقلة الحيلة التي اعترت الإنسان البسيط خلال تلك الفترة المؤلمة، حيث تحول ملايين البشر إلى مجرد أدوات وكائنات ضعيفة تنتظر الموت وتعيشه كل لحظة، بحسب خطط القائد ونزواته.

لم يعد لهاينريش بول حضور كبير في ألمانيا اليوم، فهو بالنسبة لهم مجرد "أديب مرحلة"، هي مرحلة الحروب العالمية وما خلفته من مآسي، لكنه ربما يكون أهم أدباء هذا "الزمن الأغبر" الذي نعيشه الآن، ففي أعماله الكبيرة مثل رواية "عند الجسر" و"موت إلزة باسكولايت" و"أيها المتجول" وغيرها وصف رائع يعبر - من جديد - عما نشعر به نحن أبناء عصر "مكافحة الإرهاب".

متابعة ما يجري في عالمنا العربي أمر مرهق ومرعب، يستهلك عمر الإنسان وصحته، ومتابعة ما يجري في الكويت يدعو للبكاء والحسرة، توقف فينا الزمن، وماتت فينا الفرحة والأحلام واعترانا اليأس والإحباط. خمسة أعوام ونحن نجتز الحديث ذاته، ونتابع "الموت السياسي" ذاته، ونقرأ الأخبار ذاتها بتكرار ممل، حالنا كحال العجائز ومبتوري الأرجل الذين كانوا ينتظرون ساعة الفرج في أقبية برلين وملاجئ فرايبورغ.

يا للحسرة ويا للغثيان، هل نبكي؟ "وما فائدة البكاء في زمن النحيب" كما يقول الشاعر الألماني هولدرلين!

كتب الفيلسوف والأديب الفرنسي الوجودي ألبير كامو رواية بعنوان "الطاعون" يصف فيها ما عاناه أهل مدينة وهران في الجزائر بسبب الطاعون في الستينيات يقول فيها: "لقد كانوا ينكرون في هدوء، أنه قد مر بنا وقت عرفنا فيه ذلك العالم المجنون الذي كان مقتل الرجل فيه من الأمور التي تحدث كل يوم كمقتل الذباب، وأننا قد عرفنا تلك الوحشية المحددة المعالم، ذلك الهذيان المدبر، ذلك السجن الذي يجلب معه نوعا من الحرية البشعة بالنسبة لكل ما لم يكن حاضرا، رائحة الموت التي كانت تذهل جميع من تلتهم. وكنا كشعب يذهب منه كل يوم جزء - في شكل كومة - إلى الأتون، فما يلبث أن يتحول إلى دخان دسم بينما ينتظر جزءا آخر دوره مكبلا بأصفاد العجز والخوف".

وكتب السياب في رائعته "رسالة من مقبرة" :

النور من طين هنا أو زجاج
قفلى على باب سور!
النور في قبوري دجى دون نور
النور في شباك دارى زجاج
كم حدقت بي خلفه من عيون
سوداء كالعار
يجرحن بالأهداب أسرارى
فالليوم دارى لم تعد دارى
والنور فى شباك دارى ظنون
تمتص أغوارى !

سيكولوجية الحشود

يعد "علم نفس الحشود" أحد فروع علم النفس الاجتماعي الذي يهتم بدراسة الحالة النفسية التي تحرك الأفراد وتتحكم في سلوكهم أثناء تواجدهم ضمن الحشود، إذ أثبتت الدراسات العلمية أن الأفراد العاديين يتصرفون عادة بطريقة لا تعبر عن حقيقتهم، كأن يصبحون عدوانيين ويلجأون للعنف غير المبرر نتيجة اكتسابهم شعورا بالقوة الإضافية وهم ضمن الحشد. كما أن الشعور بالذنب ومحاسبة الذات تتضاءل إلى درجة الصفر أثناء قيام الأفراد بالتخريب أو حتى القتل خلال مشاركاتهم في المظاهرات والثورات، ومرد ذلك حالة الفوضى التي تصاحب المظاهرات أو الثورات الشعبية والتي يصبح فيها من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحديد المسؤولية الجنائية عن حوادث القتل والتخريب.

وقد تناول جوستاف لوبون أحد علماء الاجتماع الفرنسيين في القرن التاسع عشر دور البروبوغاندا (الدعاية) والشعارات الحماسية (بغض النظر عن كونها عقلانية أم لا) في تكوين الرأي العام وإثارة الجماهير وحفزهم على المشاركة في الحشود، كما قام سكرن وميلر وتارد وغيرهما من علماء الاجتماع بدراسة ظاهرة "الحشد" في محاولة لفهم آليات عملها وطرق هيمنتها على سلوك الأفراد، وربما يعد أهم ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم من نتائج هو أن الفرد عندما يدخل ضمن الحشد فإنه يفقد القدرة على السيطرة والتحكم في أفعاله بصورة كبيرة، فيجد نفسه مضطرا للتصرف كما يتصرف الآخرون دون وعي بأبعاد ونتائج أفعاله، ففي الحشد تتحرك الجموع وكأنها كتلة بشرية ضخمة، تتسارع فيها الأحداث بشكل غير مدروس أو غير مخطط له مسبقا، ولردود الأفعال هنا دور كبير في تشكيل السلوك الجمعي وتحريك الجماهير باتجاهات عشوائية، ويسيطر على الأفراد خلال الحشود استعداد خاص لفعل أي شيء، ومحاولة التميز عن الآخرين بفعل ما لم يفعله غيرهم، وهذا ما يفسر عشوائية السلوك العدواني الذي ينتشر أثناء المظاهرات أو الثورات، إذ يجد الأفراد أنفسهم بحاجة إلى فعل أي شيء ليشعروا بأنهم جزء من هذا الحشد وأنهم منسجمون مع ما يحدث، وليتخلصوا من عقدة الشعور "بالنبت والإقصاء" التي تطاردتهم خلال تواجدهم في الحشود.

باختصار، في الحشد يتصرف الناس بمنطق يختلف عن منطق الأفراد، أي بمنطق الجماعة أو الحشد، والذي هو أصلاً يكون بلا منطق ولا تخطيط مسبق وهنا يكمن سر قوة الحشود وخطورتها أيضاً.

الحكمة تقتضي ألا يترك المجال للشعوب حتى تصل إلى مرحلة الثورة وتكوين الحشود، لأن النهاية معروفة ومتكررة في كل الثورات الشعبية، ليس من خلال قمعها ومحاولة منع الناس من التجمع، لأن ذلك أكبر من قدرة أي نظام، والتاريخ مليء بالدروس، وإنما من خلال العدل في الحكم والمساواة بين الناس، فهو الضمانة الأكيدة لبقاء أي نظام واستمراره. العالم يتغير وثورة الاتصالات قلصت الزمن، ومن لا يتعلم من تجارب الآخرين لن يجديه البكاء على الأطلال أو الملك !

في العقد الاجتماعي

ما يجري في العالم العربي من توتر وحراك اجتماعي وسياسي يستدعي الحديث عن نظرية العقد الاجتماعي، والتي يشكل فهمها بصورة دقيقة وعيا أكبر وتصبح الصورة عندها أكثر وضوحا. وعندما يدور الحديث عن نظرية العقد الاجتماعي فلا شك أن اسم توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو هو أول ما يتبادر إلى الأذهان بوصفهم أهم منظري العقد الاجتماعي، وإن كان موضوع النظرية قديم ونجد بداياته عند أفلاطون وأرسطو. بالنسبة لهوبز، كان السؤال الأساسي لديه: لماذا علينا أن نخضع للسلطة؟ فوجد أن الإنسان في حقيقته ما هو إلا "ذئب لأخيه الإنسان" Homo Homini Lupus، سيلتهمه عند أول فرصة تسنح له، وهذا ما كان سائدا في مرحلة ما قبل الدولة والتي يسميها هوبز الحالة الطبيعية (State of Nature)، ولأن الإنسان لن يتمكن من مواصلة الحياة في ظل هذا الوضع الهمجى، وجد نفسه "مضطرا" إلى التنازل عن حريته للحاكم، مقابل أن يحظى بالأمن والاستقرار التي يتوجب على الحاكم تأمينها للجميع. أما جون لوك فقد اتفق مع هوبز بشأن الحالة الطبيعية الهمجية، ولكنه اختلف قليلا بقوله بأنها ليست خالية من المسؤولية الأخلاقية والعيش فيها ليس مستحيلا كما قال هوبز. وهناك شواهد واقعية عبر التاريخ الإنساني، ولذلك جاء موقف لوك من الثورة على الحاكم أكثر انسجاما من هوبز، حيث كان يرى أن الأفراد تنازلوا عن "جزء" من حرياتهم للحاكم مقابل الحصول على الاستقرار والنظام، ولكن متى ما أخل الحاكم بواجباته فمن حق الأفراد أن يثوروا عليه ويستعيدوا ما كان لهم من منطلق مبدأ "الدفاع عن النفس". أما جان جاك روسو فقد خالف الاثنين كليا، حين اعتبر الحالة الطبيعية للبشر أنها حالة نقاء إنساني وأخلاقي دنستها يد الحضارة والتقدم، والتي أنتجت قيما جديدة قوامها الحسد والتنافس والجشع (الرأسمالية) والتي أدت فيما بعد وخاصة بعد ظهور "الملكية الخاصة" إلى الحاجة لوجود السلطة أو الدولة من أجل تنظيم هذه العلاقات الجديدة. هذا باختصار شديد أهم ملامح نظرية العقد الاجتماعي عند أهم فلاسفتها، وما يهمنا منها التأكيد على أن العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم هي علاقة "عقد اجتماعي" قوامها تنازل الأفراد عن جزء من حرياتهم للحاكم مقابل حصولهم على الأمن والاستقرار وتنظيم شؤون الحياة بالعدل والمساواة، وهي نظرية تخالف تماما ما روج له "منظرو السلطة" عبر التاريخ حين اعتبروا الحكم نوعا من "الالوهية" وهو ما يسمى بالحكم "الإلهي" على الأرض، والذي

يحارب أي فكرة للثورة على الحاكم مهما بلغ به الطغيان والظلم، وهو فهم صارخ الوقاحة والانحطاط، إذ أنه يجعل الحاكم وهو إنسان مثله مثل بقية البشر بمثابة إله ومركز الكون والحياة، من أجله وباسمه تبرر كل الجرائم والمظالم دون اعتبار لحياة ملايين الناس وحقوقهم، وشواهد شاخصة في التاريخ منذ القدم وحتى اليوم، ونهاياته المأساوية أيضا عالقة في أذهان البشر في كل مكان.

ما حدث في تونس وفي مصر وبقية البلدان الثائرة ليس جديدا على البشرية، رغم أنه جديد على عالمنا العربي، وهنا نصل إلى وقفة مستحقة من بعض الأنظمة الحاكمة لتراجع حساباتها مع شعوبها المسحوقة والجائعة، وتتأمل فيما يحدث بعين راصدة وعقل متفتح بعيدا عن تضليل "الحرس القديم" ممن يعيشون خارج الزمن ولا يعون حجم التغيرات التي أصابت العالم الجديد ويعتقدون أنه لا يزال بإمكانهم حكم الناس بالحديد والنار والسجون والتعذيب. عالمنا اليوم تحركه تكنولوجيا الاتصالات العابرة للقارات وليس الصواريخ، والجوع كافر والفقير ليس لديه ما يخسره، فلا سبيل إذن إلا العدل في حكم الناس، فبالعدل وحده تستقر الشعوب ويستقر الملك، والحكيم من اعتبر بغيره قبل أن يعتبر به الناس.

ألمانيا بين الأمس واليوم

خلال كلمته بمناسبة مرور 20 عاما على الوحدة بين ألمانيا الشرقية والغربية منذ ايام، قال الرئيس الألماني كريستيان فولف "المسيحية جزء من ألمانيا، واليهودية جزء من ألمانيا، وكذلك الإسلام أصبح جزءا من ألمانيا"، وحذر فولف من أي ممارسات من شأنها التمييز بين المواطنين مهما كانت أصولهم.

وقبل ذلك قال خلفه الرئيس السابق هورست كولر ان "الإسلام دين سلام، ولا يوجد مبرر لمنع المسلمات من ارتداء الحجاب في أوروبا"، والرئيس كولر استقال في مايو الماضي من منصبه كرئيس لألمانيا الاتحادية بسبب "ادعاء" إحدى الصحف الألمانية بأنه مؤيد لمهمة الجيش الألماني في أفغانستان، فقد اعتبر هذه المزاعم بأنها "تفقد الاحترام الضروري لأعلى منصب في الدولة" كما صرح بذلك في خطاب استقالته، ومن يتابع أخبار ألمانيا سيعرف أنها أصبحت من أكثر البلدان الأوروبية تسامحا وانفتاحا مع المهاجرين وبشكل خاص مع المسلمين، رغم أن عدد المسلمين في ألمانيا لا يتجاوز مليوناً وتسعمائة ألف من أصل 82 مليوناً، أي ان نسبة المسلمين في ألمانيا لا تتجاوز 2.3%، ومع هذا تعد ألمانيا اليوم من أكثر الدول الأوروبية التي تمنح المسلمين حقوقهم الدينية وحریتهم في ممارسة شعائرهم بنفس القدر الذي تعطيه لبقية المواطنين مهما كانت دياناتهم وأعراقهم، في الوقت الذي تتزايد فيه حدة التيارات العنصرية في دول أوروبية "كانت" في يوم من الأيام مصدرا للتنوير والدعوة إلى المساواة. ألمانيا اليوم ليست كما كانت بالأمس، ألمانيا اليوم للجميع على قدر المساواة وليست للعنصر الآري فقط، ألمانيا اليوم حطمت العنصرية والتمييز بين البشر بتحطيم جدار برلين الذي لم يمض على سقوطه سوى عشرون عاماً، في حين أننا في الكويت نصر على استخدام "سور الكويت" للتمييز بين المواطنين ووضعهم في مراتب وطبقات، رغم أن السور كان رمزا للوحدة الوطنية وتكاتف الشعب للدفاع عن الكويت !

تهنئة من القلب إلى سفير جمهورية ألمانيا الاتحادية في الكويت فرانك ماركوس وللشعب الألماني الصديق بمناسبة ذكرى مرور 20 عاما على الوحدة بين الألمانيتين، وشكرا لجهود

السفير من أجل افتتاح مدرسة ألمانية في الكويت قريبا رغم مفاوضات وزارة التربية، وأرجو أن يحجز لي مقعدا فيها من الآن لنهل من ثقافة هذا الشعب العظيم.

مذكرة خلية CIA الحمراء

نشر موقع "ويكي ليكس" مذكرة وكالة الاستخبارات الأميركية cia التي تحمل عنوان "ماذا لو نظر الأجانب لأميركا بوصفها مصدرة للإرهاب؟"، وهي مذكرة مهمة تحمل الكثير أنقلها مختصرة وبترجمة بتصريف للمساهمة في حملة "ويكي ليكس" الهادفة إلى نشر الحقائق للجميع على أمل أن تصيبنا مثل هذه العدوى الرائعة في عالمنا العربي.

"خلافًا لما هو شائع، الحديث عن أميركا بوصفها راعية أو مصدرة للإرهاب لا يمثل ظاهرة جديدة، كما أنه لا يقتصر على المتطرفين من المسلمين ولا في الشرق الأوسط أو أفريقيا أو غيرها، فهناك اعتقاد خفي لدى الأميركيين بأن الحرية والتنوع الاثنى والثقافي الذي يميز المجتمع الأميركي وما يتمتع به المواطن الأميركي من امتيازات بحرية التنقل عبر دول العالم كل ذلك يغري الإرهابيين لاستغلال مواطنين أميركيين وتجنيدهم للقيام بعمليات إرهابية. ومن الشواهد على ذلك قيام خمسة شباب مسلمين أميركيين بالسفر من شمال فيرجينيا إلى باكستان للانضمام إلى صفوفهم وتنفيذ عمليات إرهابية لصالح طالبان، وفي نوفمبر 2008 شارك مواطن أميركي من أصل باكستاني في عملية تفجير في مومباي راح ضحيتها 16 قتيلًا، وهناك طبيب أميركي يهودي اسمه باروخ جولدشتين سافر إلى إسرائيل عام 1994 وانضم إلى مجموعة يهودية متطرفة اسمها كاش وقام بفتح النار على المسلمين الفلسطينيين وقتل منهم 29 شخصًا، كما قام كثير من الأميركيين من أصل أيرلندي بتمويل ودعم عمليات العنف التي كان الجيش الجمهوري الأيرلندي يقوم بها ضد المملكة المتحدة.

مؤخرًا تتزايد المخاوف من قيام تنظيم القاعدة بتجنيد مواطنين أميركيين للقيام بأعمال إرهابية داخل الولايات المتحدة، لكن الخوف الأكبر هو استغلالهم للقيام بأعمال عنف خارج الولايات المتحدة كونهم يحملون جوازات سفر أميركية ما يتيح لهم حرية التنقل عبر البلدان دون أن يثيروا الشكوك حولهم ماداموا لا يحملون الطابع الإسلامي الشائع، كل ذلك يثير العديد من المخاطر على مصالح الولايات المتحدة الأميركية وقد يتسبب في إثارة بعض الصعوبات مع حكومات كثير من الدول الحليفة لأميركا ويعيق حركتها وحملتها لمكافحة الإرهاب".

من أحاديث الضجر

قال ننتشه "في العزلة تلتهم ذاتك، وفي الحشد يلتهمك الناس" !

وما بين العزلة والحشد، ومسؤوليات تطاردني ليل نهار بلا انتهاء، لا تهدأ ولا تستكين حتى تأكل مني العمر كله والأعصاب يتجاوز مداها حدود العدم، تحيلني إلى ما يشبه الآلة، وتجعلني أدور في دائرة من فراغ، أبحث فيها منذ سنين عن "زاوية" تكسر وتيرة هذا العماء، فلا شيء غير الضجر، "رحى تدور.. وحولها بشر".

البعض يعيش كالألات التي تعمل بلا توقف، حتى إذا ما أصابها الخراب سيقت إلى حيث مكب الخرداوات، ترمى ويطويها النسيان وكأنها لم تكن، غارقون في الهموم إلى حد الانحدار، والمستقبل مجهول غامض، وجه شائه بلا ملامح ولا تفاصيل، لا يخبرك - إن أخبرك - بأكثر مما تعرف

بالنسبة لمتفرج مثلي، يراقب من بعيد - وبلا اكتراث - عالم يدور ويطحن، تتحاشر فيه الوجوه المتلصقة وتتدلى منه الأجساد المتلاصقة للظفر ببعض ما يحمله هذا الكون من رتابة وجنون، تتساوى عنده الشكوك باليقين، والسكون بالضياع، والغربة بالوطن، وتصبح في ناظريه كل الأشياء وكأنها مرصوصة على جدار عتيق، يمتد عبر حوارى مدينة مهجورة ليس فيها أكثر مما تأخذه الريح من البلاط (Cum Deus calculat, fit mundus).

الأبله يضع على اليمين ما ينبغي أن يوضع على اليسار، ويضع على اليسار ما ينبغي أن يوضع على اليمين، لأنه لا يميز الاتجاهات. بالنسبة "للأسوياء" هو مجرد أبله لا يعي ما يدور في هذا العالم، وهم بالنسبة له مجموعة من "المجانين" يدورون في هذا العالم بلا وعي، رحى تدور.. وحولها ضجر !

دولة تختنق

المدن تشبه جسد الإنسان، فبقدر ما تتميز حركة المرور والتنقل فيها بالانسيابية والارتياح بقدر ما تكون بقية الأمور فيها سليمة، والمدن التي تعاني من ازدحام مروري وتوقف فإنها ستختنق وتموت، تماما كما يختنق الإنسان المريض بانسداد الشرايين ويموت، والكويت اليوم وصلت مع الأسف الشديد إلى مستويات غير مسبوقة من الاختناق المروري الذي بات يشل الحركة في معظم مدنها وضواحيها، وهو أمر خطير لا نجد في مقابله جهودا مخلصه وصادقة لوضع الحلول الحقيقية، فلا طرق جديدة تبني ولا جسور تشيد ولا حتى ضوابط لوقف تدفق العمالة الهامشية التي تعد أحد الأسباب الرئيسية في هذا الاختناق. كل دول العالم تعاني من هذه المشكلة، غير أن الدول تضع حلولاً عملية لتفادي آثارها المدمرة، خاصة أن كثيراً من هذه الحلول لن تظهر نتائجها إلا بعد عشرة أعوام على أقل تقدير، ولذلك تسعى جاهدة من الآن للبدء في رحلة الألف ميل، في حين نتعثر نحن هنا ومنذ سنين في قضايا هامشية ولا نشعر بما يحدث وبما سيحدث، الزمن يمضي وإذا لم نعمل اليوم فلن يكون لنا غد، وسنجد أنفسنا خلال فترة بسيطة عاجزين عن الفعل حتى وإن توافرت حينها الإرادة الصادقة والحرّة، وعلينا أن نعي بأننا كلما بدأنا أسرع كلما وفرنا أكثر، فما سيكلفنا اليوم مليارا سيكلفنا غدا 10 مليارات.. الكويت تختنق فهل من مغيث ؟

اطلب له الرحمة

جمعت أوراقتي وتوجهت إلى قسم الإخراج، كنت سعيدا ذلك المساء على غير العادة، ربما لأنني لم أتابع الأخبار يومها.. بحثت عن "صديقي" فلم أجده، سألت الزميل زين عبدو: أين الحاج طلعت؟ رد بصوت حزين، عطاك عمره، اطلب له الرحمة !

يا لهذه الكلمة، كم هي قاسية ويا لوقعها على مسامعنا كم هو مؤلم، قلبت كياني وغيّرت حالتي في لحظتين، اعتراني الانكسار وأصبح وجهي شاحبا، لملت أوراقتي وأجزائي وخرجت، توارت ابتسامات الفرح خلف أستار الحزن، رغم أنني لم أظهر ذلك، أه.. كم نحن بارعون في إخفاء مشاعرنا والتظاهر بالصلابة، يا لها من بلاهة.

رغم طول المدة التي كنت ألتقي فيها بالحاج طلعت، رحمه الله، في الجريدة، إلا أننا لم نتحدث كثيرا، فالكل منهمك بأوراقه المبعثرة في كل اتجاه، العمل كثير والوقت قليل. قبل أشهر قليلة فقط تكونت بينه وبينني صداقة، جلست معه ليصمم لي إحدى الصفحات، اقترحت عليه أن تكون الصفحة بشكل معين، فقال "وريني الصور"، وأخذ يتفحصها بسرعة، ثم رد "ما ينفعش"، أنا جعلها بالشكل ده، وراح يضرب على الآلة الحاسبة ويحسب الكلمات والأسطر ويرسم ويخطط على "الماكيت". قلت له بس يا حاج يا ليت تخليها بالشكل ده، وأخذت ألقى عليه اقتراحاتي السخيفة والمزعجة، فصرخ بصوت متقطع ومتعب من أثر السعال: "يا بني ما ينفعش انت عندك صور تمانية عمود والكلام كثير، متتعبنيش أنا راجل عيان وبشتغل بنص رئة"، قلت خلاص أسف يا حاج وألف لا بأس عليك. بعد أيام عدت إليه وقلت له ألف ألف شكر يا حاج، فإكر الموضوع اللي عملناه، فزت فيه بجائزة الصحافة. ابتسم وقال "تعال اقعد، هو الموضوع كان عن إيه بالظبط؟"

وأخذت أحدثه بكل سعادة، وأستمع إليه بكل فرح، اكتشفنا في ذلك المساء أن بيننا اهتمامات مشتركة، واكتشفت أنه "مخترع" وقارئ جيد للأدب، يعشق التكنولوجيا والعلوم، كنت أستمع كثيرا وأنا أستمع إليه حين يحكي.. "كان عندنا في مصر واحد اخترع جهاز، بتاع صغير كده تحط فيه موس الحلاقة القديمة يرجع جديد خالص، حاربوه

ومعرفش يبيعه، ده لو كان في أميركا كان زمانه دولقتي مليونير.. بس خد بالك، همه أصلا مش حيسيبيوه يعمله، عارف ليه.. الشركات الكبيرة مش حتخليه لأنه حيسرههم."،
رحمك الله يا حاج طلعت وأسكنك الجنة، أفتقد وجودك، رغم أنني ما زلت أراك جالساً في
مكتبك كلما نظرت إلى قسم الإخراج، أراك متأملاً صابراً.. في انتظار ما لا يأتي.

نحو إسلام بلا مذاهب

هل يحتاج المسلمون اليوم إلى أكثر مما كان سائداً في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور دينهم، حيث لم يكن للمذاهب ولا الطوائف وجود، هل نحتاج إلى أكثر من أركان الإسلام الخمسة والتي لا يختلف عليها سنة ولا شيعة ولا خوارج ولا زيدية ولا معتزلة؟ الإسلام كما علمنا إياه الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدد بنطق الشهادتين، والصلاة والصوم والزكاة والحج، أما ما دون ذلك ففي الأمر سعة واجتهاد، ومن يقل غير ذلك فإنه يكذب حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يتفق عليه كل المسلمين. لسنا بحاجة إلى كل هذه التعقيدات التي يحاول أصحابها أن يحجروا بها على عقول البشر ويحولوهم إلى قطيع من البهائم لا تجرؤ على التفكير، لسنا بحاجة إلى أكثر من نطق الشهادتين والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله في العقيدة، أما الفقه فما هو إلا اجتهاد هدفه توضيح كيفية العبادة وتنظيم حياة الناس في معاملاتهم، وفي كل هذا يسر وسعة لا تخرج من الإسلام مادامت النية خالصة لله عز وجل، وهو أمر لا يعلمه إلا الله سبحانه. لن ندخل النار إذا لم نقرأ مجموع الفتاوى لابن تيمية أو كتاب الكافي للكليني، وإلا أين سيذهب ملايين البشر ممن ولدوا وماتوا قبل أن يولد ابن تيمية والكليني مع احترامي لاجتهادهما؟

هنالك ملايين البشر من المسلمين ممن لا يصلون ولا يصومون ولا يدفعون الزكاة ولا يحجون رغم قدرتهم، ملايين البشر لا يعرفون شيئاً عن أركان الإسلام في مختلف بلدان العالم، وملايين غيرهم من أديان أخرى أو بلا دين لم يسمعوا عن الإسلام غير ما تبثه وسائل الإعلام الغربية من افتراءات بأنه دين عنف وقتل وإرهاب، أليسوا أولى بهذه الجهود والوقت والأموال التي تبذل في مهاترات التكفير والفسوسة الزائدة التي تجري بين المسلمين؟ ملايين البشر يعيشون في ضياع ولا يعرفون ما هو الإسلام، وهناك من يفني عمره في حروب وصراعات مذهبية بلا طائل ولا غاية، أي دين هذا الذي لا نعرف فيه أبسط الأولويات؟!

في عام 1997 كنت أدرس في جامعة واشنطن، وكانت إحدى الكنائس القريبة من الجامعة ترسل كل يوم مجموعة من أتباعها للجامعة، كانوا يضعون طاولة صغيرة على

مدخل الكلية ويوزعون بعض الكتب التبشيرية ويدعون الطلبة إلى المسيحية. كنت أقضي بعض الوقت مع إحدى المتطوعات في نقاش حول المسيحية والإسلام، وخلال أقل من شهر واحد أعلنت تلك الفتاة إسلامها، رغم ضحالة معلوماتي عن الإسلام بكل صراحة، فالإسلام بالنسبة لي واضح وبسيط مادامت بعيدا عن تعقيدات التكفير والمذهبية. هذه الحكاية تـؤرقني كثيرا وتشكل هاجسا مستمرا لدي، فدائما أحدث نفسي بأنني إذا استطعت أن أقنع فتاة أميركية مكلفة بالتبشير ودعوة الناس للمسيحية بالدخول إلى الإسلام وأنا الساذج الجاهل الذي لا يملك في الدين علما، فما الذي يمكن أن يفعله العلماء وطلبة العلم ورجال الدين لو بذلوا جهدا صادقا في دعوة الناس وهدايتهم لما نسميه دين الفطرة السليمة؟ اتقوا الله في الناس أيها العلماء والمشايخ، فالمسلمون اليوم يفجرون المساجد بمن فيها من المصلين بسبب خطابكم المذهبي، ملايين الشباب لا يصلون وأنتم لاهون في مناقشة جزئية ضمن جزئية ضمن جزئية في قضية فرعية فأني خواء هذا؟!!

العصبية في فكر ابن خلدون

عندما شرع ابن خلدون في كتابة التاريخ، كان لديه سؤال جوهري شكّل فيما بعد أساس بحثه الاجتماعي وهو: كيف تقوم الدولة وكيف تنهار؟ وكان ابن خلدون يعتقد بأن للدولة دورة حياة تشبه دورة حياة الإنسان، وقد أقام نظريته هذه على أساس الآية 54 من سورة الروم (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير). وبناءً على هذه الآية وضع ابن خلدون لقيام الدولة وانهارها أربعة أطوار: طور الظفر والاستيلاء على الحكم، طور الاستبداد والانفراد بالسلطة والتتكر للعصبية، طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك وفيه تسود الراحة والطمأنينة، وطور الهرم والانقراض بسبب الإسراف والتبذير. وعلى الرغم من أنه وضع نظريته هذه بناءً على مشاهداته لدول المغرب العربي إلا أنها أثبتت صدقها على كثير من دول العالم.

لفهم فكر ابن خلدون نحتاج إلى أن نفهم المصطلحات التي يستخدمها، وأهمها مفهوم "العصبية"، إذ فهم كثير من المفكرين هذا المفهوم بطريقة خاطئة واعتقدوا أنه يقصد "التعصب" للقبيلة أو الطائفة، خاصة أنه قال إن العصبية تقوم إما على روابط الدم أو الدين. غير أن ما يقصده ابن خلدون من مفهوم العصبية يعني تحديداً مفهوم "التضامن الاجتماعي" Solidarity بمفاهيم علم الاجتماع الحديث، وهذا ما يؤكد المفكر الكبير محمد عابد الجابري في "معالم النظرية الخلدونية". والعصبية بمعنى التضامن الاجتماعي تعطينا أهم مفاتيح فهم حركة المجتمع وقيام الدول وانهارها، فالمجتمعات إما تقليدية تحكمها معايير المكانة الاجتماعية والحظوة، وهو ما نراه بقوة في المجتمعات الريفية أو البدوية، وإما مجتمعات حديثة تقوم على أساس القانون ومؤسسات المجتمع التي تنظم حياة البشر.

مشكلتنا في الكويت أننا نقف اليوم في "منزلة بين المنزلتين"، فلا نحن مجتمع عشائري تقليدي تنتهي مشاكله بكلمة من شيخ القبيلة أو كبير العائلة، ولا نحن مجتمع حديث تشكل فيه المؤسسات القانونية المرجع النهائي. فنحن لا نزال نستخدم عبارات "الفرعة" التي توصل نائباً للبرلمان بسبب "رفع العقال"، ونتأرجح في قضايا بين الاحتكام

للدستور وبين "تدخل العقلاء" الذين ننتظر منهم - خارج إطار المؤسسات القانونية - أن يقوموا بحل المشاكل كلما تأزمت وكأنهم يملكون عصا سحرية. المجتمع الكويتي يتجه فعليا - لكن ببطء - نحو المجتمع الحديث، الذي من أبرز سماته تحول الأسرة من أسرة ممتدة إلى الأسرة النووية، حيث يؤدي هذا التحول إلى إضعاف تأثير العصبية، إذ لا يعود لكبير العائلة أو القبيلة كلمة نافذة على جموع الناس طالما أن حاجاتهم ومصالحهم بيد المؤسسات وليس الأفراد. قبل ثلاثين عاما مثلا كنا نحضر "بيت الشعر" من فلان، و"جدور الطبخ" من آخر، وسجادة من هذا و"دلة قهوة وغوري شاي" من ذاك، و"عانية" من أبناء العمومة والأصدقاء ليتمكن أحدنا من إقامة عرس، فهذا الحدث الصغير ما هو إلا تعبير واضح عن العصبية بمعنى التضامن الاجتماعي، أما اليوم فقد اختفت هذه الحاجة وأصبح بإمكان أي شخص أن يزوج ابنه وينجز كل متطلبات حفلة العرس باستخدام التلفون، بل ويكتب على بطاقات الدعوة "نعذر عن قبول العانية". المسألة بالتأكيد ليست بهذه البساطة، فهذا مجرد مثال يوضح التحول الاجتماعي الكبير الذي أصاب المجتمع الكويتي، فكل مظاهر الحياة تتجه بالأفراد صوب المجتمع الحديث القائم على الفردية والقانون والمؤسسات. وما نعيشه اليوم من فوضى توحى بتخلخل الدولة مرده أننا نقف في مرحلة الانتقال، فالتحول لم ينجز بعد، ولذلك علينا ألا نتوقع الكثير من مجتمع يتأرجح بين مفاهيم العشائرية ومفاهيم الدستور، خاصة أن مؤسسات التنشئة الاجتماعية (الأسرة، المدرسة، المسجد، الإعلام) لا تقوم بدورها المطلوب لترسيخ مفاهيم الدولة الحديثة، بل إنها تقوضها في كثير من الأحيان كما يحدث في "الواسطة" مثلا وهي أحد أكبر معوقات التحول إلى المجتمع الحديث.

من ذاكرة الاحتلال

عشرون عاما مضت، كأنها أيام أو بضع شهور، لاتزال تملأ الذاكرة بعشرات المواقف والأحداث الأليمة، غير أن ما يؤلم أكثر هو هذا التخازل الحكومي الذي يكاد يتسبب في نسيان كل ما جرى، رغم أنه حدث جلل تجاوزت آثاره حدود الكويت لتصيب العالم العربي بأكمله بجرح غائر، ومع ذلك تقف حكومتنا عاجزة عن فعل أي شيء لتوثيق تلك التجربة ودراسة أحداثها وتفصيلها والاستفادة من أخطائها ونقلها لمن لم يشهدها، بل إنها أصبحت تساهم بشكل أساسي في تشويه التاريخ وقلب الحقائق، لست مع التبكيث واجترار الماضي وإحياء حالة العداء مع العراقيين فهم أهلنا وجيراننا قبل كل شيء، ولكن ليس على حساب بلدنا، ولا على حساب التاريخ، لنسمي الأمور بمسمياتها ونتعامل معهم بعقول وقلوب مفتوحة ولكن على أساس الوضوح والحقيقة، على أساس أنهم اعتدوا علينا واحتلوا أرضنا ودمروها وقتلوا وشردوا وأخطأوا بحقنا، وعليهم أن يبادروا هم بتصحيح ذلك الخطأ والاعتراف به والاعتذار عنه وبذل كل ما يمكن لتأكيد تجاوز تلك المرحلة وعدم تكرار ما حدث، لا عيب في أن تعود الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها ونبدأ مع إخوتنا في العراق صفحة جديدة من العلاقات، ولكن مرة أخرى دون المساس بتاريخنا ودون تشويه للحقائق وتلاعب بالمفاهيم، ففي ذلك خيانة لكل التضحيات التي قدمت والدماء التي سالت من أجل الكويت.

كان الفتى الذي لم يتجاوز حينها التاسعة عشرة من عمره قد اعتاد المبيت في منزل خاله الكبير مع بداية الاحتلال العراقي، وذات ليلة اضطر للعودة إلى منزل أبيه في وقت متأخر، كان جيش الاحتلال قد فرض حظرا للتجول لا يذكر بالتحديد متى يبدأ، في السابعة أو الثامنة مساء وحتى الصباح، وبطيش الشباب ركب سيارته ومضى وهو على ثقة بمعرفة طرق لا يعرفها العراقيون، غير أن المشوار الذي كان لا يتطلب أكثر من 5 دقائق تطلب منه ساعتين قضاها في هروب من دوريات "الأشأوس" الذين ملأوا البلاد بالرعب والخوف والجفاف، وصاحبنا لا يزال يذكر وجوه العساكر الشاحبة بملابسهم الرثة وبنادقهم الجاهزة والمصوبة دائما نحو الناس، لا يزال يذكر وجه ذلك المذيع المزعج في برنامج "حياكم الله" ويذكر اشمئزازه وشعوره بالانكسار والقرف كلما سمع صيحاته وهتافات الجنود معه: "ها خوتي ها" لا يزال يذكر طوابير البشر على المخابز والتي كانت

تبدأ مع ساعات الفجر، ولايزال يذكر "صديقه" وجاره إياد الفلسطيني عندما جاء مع 4 من الجنود العراقيين ليستولوا على سيارته الصغيرة، لايزال يذكر أنه خرج ذات مرة في الساعة السادسة صباحاً وعاد في الثامنة مساءً من أجل علبة واحدة من حليب الأطفال، ويذكر آلام غربته ونومه في الحدائق والمساجد عندما اضطر للخروج من بلده، ويذكر ذلك الدخان الأسود الكثيف الذي ملأ سماء بلاده بالظلام، ويذكر خروج الناس واستقبالهم للجنود بفرحة ودموع وبكاء وضحك وسجود وابتهاج بعد التحرير، يذكر الكثير ولكنه يكاد ينسى لأن حكومة بلاده لم تفعل أي شيء لتوثيق تاريخها، ولا حتى بجدار صغير تكتب عليه أسماء من ماتوا من أجل الكويت !

رأس المال الاجتماعي

في علم الاقتصاد يسمى التنوع الاثنى أو القبلي أو الطائفي وبالجملة التنوع الاجتماعي بمصطلح "رأس المال الاجتماعي"، أي أنه ثروة تضيف للدولة ميزة إضافية، والمجتمعات التي استطاعت أن تعي أهمية هذه الثروة استطاعت أن تحقق مكاسب اقتصادية كبيرة، وتمكنت من النهوض ببلدانها والاستفادة من هذه الميزة، والولايات المتحدة الأميركية خير مثال على ذلك. وفي الكويت أيضا نجد حالة مشابهة للحالة الأميركية، فالكويت منذ نشأتها كانت تضم هذا التنوع الاجتماعي بكل أطيافه، حضر وبدو، سنة وشيعة ومسيحيين، بل وحتى من اليهود قبل أن يضطروا للرحيل بعد وصول الرئيس جمال عبدالناصر وزيادة "الشعور" العروبي الذي جلب معه خلطا جديدا للمفاهيم أصبحنا معه لا نميز بين اليهودي والصهيوني، ولا بين المنصفين وغير المنصفين من أبناء الدول الغربية، وضعناهم كلهم في سلة واحدة وعزلنا أنفسنا عنهم في انفصال غريب من نوعه، فلا هو عداء واضح ولا هو تواصل بين.

يردد الكثيرون أن الكويت لم تكن تعرف هذا التمييز الصارخ بين البشر، وهم يحاولون جاهدين أن يثبتوا أن ما نعيشه اليوم من أجواء مشحونة بالصراع الطائفي والقبلي مجرد حالة "طارئة" ليست من طبيعة المجتمع الكويتي، ولكن من يتأمل في تاريخ الكويت القديم والحديث سيصاب بالدهشة والاستغراب، إذ كيف نفسر هذا الكم الهائل من "العنصرية" والتراتبية في قانون الجنسية الذي ظهر عام 1959، قبل ظهور النفط وقبل وجود البرلمان وحتى قبل استقلال الكويت، من أين جاءت تلك النظرة التي ميزت بين المواطنين وأقرت فوارق بينهم على أساس الزمان أو المكان؟ ثم ما الذي فعلته الدولة سواء على المستوى الرسمي (الحكومة والبرلمان) أو على المستوى الاجتماعي (مؤسسات المجتمع المدني) منذ ذلك الوقت وإلى اليوم لإزالة هذه الفوارق والتمييزات بين المواطنين، فهل الحديث عن "أبناء المناطق الداخلية" و"أبناء المناطق الخارجية" جديد على مسامع أهل الكويت، وهل في الحديث الذي يعطي أفضلية "مواطنة" للمناطق "داخل السور" على مناطق "خارج السور" أي جديد منذ بناء تلك الأسوار أصلا؟ فلماذا نستغرب الآن هذا الاحتقان والصراع الاجتماعي وهو متأصل في قوانيننا وثقافتنا، أم أننا لم ندرك بعد أن ما تغير

هو مجرد "سقف الحرية" الذي جعل ما كان يدور بين الناس همسا، يقال اليوم علنا في "ساحة الإرادة"؟

إذا كنا جادين في إزالة الفوارق بين المواطنين، حتى على المستوى الثقافي المتأصل في نفوس الكثيرين، فعلينا أن نعي أن البداية لا يمكن أن تكون إلا من خلال تغيير القوانين أولا، وتطبيقها ثانيا، وحينها ستتغير ثقافة الناس ونظرتهم لبعضهم البعض، أما إذا استمر الحال على ما هو عليه اليوم، فمن السذاجة والغباء الاعتقاد بأن هذا الصراع السياسي لن يتطور إلى صراع اجتماعي، ومن حماقة أن نراهن على الوقت بأنه كفيـل بحل مشاكلنا، فكلما أجلنا مواجهة المشاكل وحلها ازدادت تعقيدا وخطرا، ومخطئ من يظن أن في أحاديث المجاملات بين السياسيين والمبالغة الكاذبة في قصائد بعض الشعراء والكتّاب حول الوحدة الوطنية أي حصانة من ويلات الفتن القادمة.

إلى بن لادن

كل الأديان تدعو للسلام والتآخي بين البشر، ومع ذلك يعيش العالم أبشع الصراعات والعنف الموجه ضد الأبرياء باسم الدين، هذا يعني أن غالبية "رجال الدين" غير صادقين. يقول الانجيل "من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر" (لوقا)، ويقول القرآن الكريم (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم - البقرة)، غير أن ما يحدث هو العكس تماما، فالغرب "المسيحي" بدلا من أن يتسامح ويدير خده الأيسر لتلقي صفة أخرى يبادر هو بالاعتداء، ونحن العرب "المسلمين" ومنذ ستين عاما وأكثر نتلقى الصفة تلو الصفة، وندير الخد الأيمن والأيسر ونستقبل الصفعات والركلات والرفسات بكل تواضع وأدب، كم نحن مسيحيون !

عندما كان الايرلنديون يناضلون لنيل استقلالهم، كانوا يفجرون بعض الأماكن العامة في وسط العاصمة البريطانية لندن أيضا، غير أنهم كانوا يرسلون للحكومة تحذيرا بمكان الانفجار قبل 15 دقيقة حتى يتسنى لها ابعاد الناس عن مكان الانفجار، فالنتيجة واحدة ولكن من دون قتل للأبرياء. فيا سيد أسامة بن لادن حتى القتال فيه قيم وله قواعد، فأرجوك توقف وتأمل مدى الدمار الذي ألحقته بالعالم، عشرة أعوام من التفجيرات العشوائية لم تضعف أميركا ولم ترجع القدس ولم تخرج القوات الأجنبية من بلاد المسلمين، بل دمرت القيم وأفرزت العشرات من المجانين في عالم يكتظ بهم أصلا، أرجوك توقف وأعد حساباتك فلا أظن عنقك يحتمل كل هذه الأرواح التي أزهقت بسبب "جهادك" وجنونك وجنون أعدائك، وليس هناك أي انتصارات أو أرباح سوى لتجار السلاح.

ملايين المسلمين خرجوا في مظاهرات غضب ضد رسام الكاريكاتور الدنماركي لأنه أساء لرسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، ونفس الملايين خرجت غاضبة على وصف الاسلام بالارهاب من قبل المتطرفين الغربيين، وعلى دعوات حرق القرآن الكريم من متطرف وارهابي أميركي، ثم يخرج متطرف كويتي ويتناول على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وينصب نفسه إليها ويقرر وضعها في النار، مؤلم أن يتداول العالم هذا الخبر بأن "كويتيا" تناول على أم المؤمنين.

إشكالية الرأسمالية والديموقراطية

الرأسمالية نظام اقتصادي، والديموقراطية نظام حكم سياسي، ورغم ما بينهما من تآلف وانسجام، إلا أن ثمة إشكالية كبرى تحكم العلاقة بين كلا النظامين. فالديموقراطية رغم أنها حاضن رئيسي مهم للرأسمالية، إلا أن هناك دولا كثيرة غير ديموقراطية تعتمد الرأسمالية ككل بوصفها النظام الاقتصادي أو تأخذ منها العديد من المبادئ كما هو الحال مع الصين ودول الشرق الأوسط مثلا، وتكاد الرأسمالية أن تكون النظام الاقتصادي لمعظم دول العالم، باستثناء كوريا وكوريا الشمالية، مع التأكيد على الاختلاف في درجة التطبيق واعتماد مبادئ الرأسمالية وتنويعات تطبيقاتها، فالرأسمالية الأميركية ليست هي الرأسمالية المطبقة في أوروبا، ولا هي الرأسمالية المطبقة في الهند أو اليابان والأمر كذلك مع الديموقراطية، فليست كل أنظمة الحكم الديموقراطية تتبع نموذجا واحدا للديموقراطية. ورغم أن الخلاف الدائر بين كلا النظامين الرأسمالية والديموقراطية ليس جديدا، إلا أن آثار هيمنة الرأسمالية على الديموقراطية باتت اليوم أشد وطأة، فالرأسمالية اليوم تسببت في فساد كثير من القيم الديموقراطية وأدت إلى تراجع وانحسار العديد مما كان يعتبر من المسلمات البديهية في النظم الديموقراطية. ويكفي أن نلاحظ من بعيد هيمنة لغة رأس المال على سياسة الولايات المتحدة الأميركية التي تدعي أنها راعية الديموقراطية وحاميتها، فالיום صفقة سلاح واحدة مع دولة ما كفيلا بأن تخرس السنة دعاء الحرية ومبادئ الديموقراطية وتجعلهم يعضون الطرف تماما عن كل انتهاكات حقوق البشر في تلك الدولة، ويتجاهلون تماما دعمهم لأنظمة حكم ديكتاتورية وفاشستية، لأن هيمنة الرأسماليين الجشعين على القرار السياسي باتت أمرا واقعا، وحسابات الرأسماليين أصبحت أهم وأكثر نفوذا وهي التي تحدد مسارات العملية السياسية برمتها، ألا يثبت ذلك ما قال به ماركس حين اعتبر العامل الاقتصادي هو المحرك الأساسي لكل ما يحدث؟!

الغريب في عالمنا العربي، كالعادة، أن الدول الرأسمالية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية أصبحت تدرك يوما بعد يوم مخاطر الرأسمالية البشعة، وأدركت حاجتها إلى إعادة النظر في نظمها الاقتصادية والاعتراف بضرورة إعادة صياغة تلك النظم للحد من الآثار المدمرة للرأسمالية وجموحها نحو الهيمنة واستعباد البشر، في حين أننا في

الكويت نريد أن نبدأ من نقطة الصفر ويصر البعض على التحول إلى الرأسمالية المطلقة، وكأننا لا نشعر بما يدور في العالم ولا نرى كيف أصبحت الدول الرأسمالية العريقة تتجه إلى الإصلاحات الاقتصادية للحد من ويلات الرأسمالية الجشعة بعد أن اكتوت بلهبها، فنحن أشبه بطفل لا يريد أن يصدق أن النار تحرق وتؤلم إلا إذا جرب وأحرق يده، مهما حاولت أن تثبت له ذلك بشتى الطرق.

درس صغير من ألمانيا

خلال إحدى زياراتها الدورية على مدن وأقاليم ألمانيا الاتحادية، لاحظت المستشارة انجيلا ميركل وجود تدن في نتائج طلبة المرحلة الابتدائية في مادة الرياضيات، ولاحظت أيضا أن هذا الضعف يتركز بصورة أكبر في المدن الشمالية، وعندما نتحدث عن المدن الشمالية لألمانيا فإننا نتحدث عن الصناعة بالتأكيد، عصب الاقتصاد الألماني. عادت ميركل إلى برلين وطلبت الاجتماع بمسؤولي التربية والتعليم، وقالت لهم: لن تعودوا لبيوتكم قبل أن تجدوا حلا لهذه المشكلة. بدأ قياديو التربية والتعليم بالبحث في أسباب المشكلة تمهيدا للوصول إلى حل، "واشتغلت المكيبة الألمانية" وتوصل فريق العمل إلى حل بسيط جدا، لكنني عبقري جدا ولا يخرج إلا من عقل ألماني أصلي.

اقترح المسؤولون تخصيص أحد الفصول الدراسية في كل مدرسة ليكون بمثابة مؤسسة تجارية صغيرة، وصرف للطلبة الصغار "شيكات" بمبالغ مالية صغيرة، وأعطوهم الحرية في التصرف بهذه الشيكات وعقد صفقات تجارية بسيطة، فوجد الطلبة الصغار أنفسهم في ممارسة عملية ممتعة لعمليات البيع والشراء، أي الحساب. في العام التالي قفزت نتائج هؤلاء الصغار بنسب كبيرة جدا في الرياضيات، والتي تعتبرها ألمانيا أهم العلوم كونها تمثل أساسا للهندسة وبالتالي للصناعة وبالتالي للاقتصاد الألماني. في الكويت لدينا أيضا "عباقره" في وزارة التربية، خاصة من القيادات النسائية أمثال ميركل، ولذلك لا غرابة أن يقوم "عباقرتنا" بإلغاء كثير من المواد العلمية التي لها علاقة بصورة مباشرة بالاقتصاد وعلم الاجتماع، بل إن هناك "عباقره" آخرين يريدون إلغاء الفلسفة على اعتبار أنها "بلا فائدة"، في الوقت الذي تقوم فيه أغلب دول العالم بتدريس الفلسفة من المرحلة الابتدائية نظرا لأهميتها في بناء شخصية الطالب وتنمية مهارات التفكير لديه. ولو سألت أي قيادي في وزارة التربية عن الهدف العام للتربية في الكويت وعلاقة ما يدرس لأبنائنا في المدارس بهذا الهدف، ستجد العجب العجاب، وتكتشف أن تعليمنا في واد والعالم في واد آخر!

في الحقيقة الدرس المستفاد من تجربة المستشارة الألمانية انجيلا ميركل باعتقادي ليس فقط في حل مشكلة الرياضيات عند طلابهم، فالأمر لا يقتصر على مشكلة التعليم في

الكويت، بل يتعدى ذلك إلى طريقة عمل ميركل وإدارتها لشؤون بلادها، فكونها المستشارية الاتحادية (أي رئيسة الوزراء) لم تركز للتقارير وما ينقله لها الآخرون، وإنما تقوم بنفسها بجولات ميدانية وتلتقي الناس وتتعرف منهم على مشكلاتهم، تلتقي الطلبة في المدارس وتستمع إليهم، وتلتقي العمال في المصانع ورجال الأعمال في الشركات، هكذا تكون معرفتها بواقع بلادها. أما نحن، فكل ما نتمناه أن يتكرم علينا السادة وكلاء الوزارات والوكلاء المساعدون والمديرون بل حتى رؤساء الأقسام على الأقل بالخروج من مكاتبهم ومتابعة ما يجري في أرض الواقع، أن يستمعوا للناس ويتعرفوا على مشاكلهم ليتمكنوا من حلها بعد ذلك، بل أن يقرأوا على أقل تقدير ما يكتب في الصحف من شكاوى وهموم.

كوارث طبيعية وأخرى صناعية

تتعرض اليابان لآلاف الزلازل سنويا بما نسبته 20% من الزلازل الكبيرة التي تصيب دول العالم بقوة 6 درجات على مقياس ريختر أو أكثر، وتتسبب هذه الزلازل في موت آلاف البشر وهدم آلاف البيوت والطرق والجسور وولحاق خسائر مادية لا تحصى. تصارع اليابان هذه الظاهرة الطبيعية بالعلم حتى إنهم توصلوا إلى اختراع ألياف خرسانية قادرة على التمدد ومقاومة الهزات الأرضية القاتلة. وتتعرض الولايات المتحدة الأمريكية سنويا لحرائق هائلة تتسبب هي الأخرى في موت الآلاف ونزوح الملايين وتوقع خسائر مادية وبشرية لا تحصى. دول كثيرة تعاني من الفيضانات التي تسحق البيوت وتقتلع الحياة من مدن وقرى بأكملها، وتعاني دول كثيرة من أعاصير وسونامي وبراكين وجفاف وعواصف ثلجية تجعل الحياة أكثر صعوبة وتخلف وراءها سنويا ملايين المشردين والجوعى والجثث. ومع هذا تبذل هذه الدول جهودا مضيئة وتصرف المليارات من أجل مقاومة تلك الكوارث الطبيعية لتحافظ على حياة البشر وممتلكاتهم.

العالم اليوم مشغول بأكمله بظاهرة الاحتباس الحراري التي تهدد الحياة على سطح الأرض، فحرارة الأرض زادت عن الماضي بمقدار درجة واحدة، وهي سبب ما تعانيه الكرة الأرضية اليوم من خلل واضطراب نتيجة ذوبان الجليد وتخلخل تركيبة سطح الأرض، فضلا عما يثيره ثقب الأوزون من خلل في توازن الأشعة في عالمنا الصغير. ويشهد عالمنا اضطرابا مقلقا، وحياة الإنسان مهددة في أي لحظة بالانهيار، والعلماء منهمكون في أبحاثهم ومعاملهم لإيجاد حلول فاعلة تحمي هذا الكوكب الصغير من الدمار الذي تسببت فيه آلة الصناعة الرأسمالية البشعة. مليارات الدولارات رصدت من دول عدة للدفع بجهود العلماء وآلاف المراكز العلمية تواصل العمل ليل نهار، إذ أن العالم اليوم مهدد بارتفاع درجة حرارته درجة أخرى، وهو ما يعني الدمار الشامل بلا مبالغة. الكوارث الطبيعية باتت قلقا حقيقيا يؤرق الجميع، فضلا عن الكوارث الأخرى التي تسببها أطماع البشر وسياسات بعض الحكومات الاستعمارية ما يدفعها إلى صنع المزيد من أسلحة الدمار الشامل، عالمنا يغلي فوق صفيح ساخن، فيماذا نحن مشغولون؟ أترك الإجابة لحكومتنا "الرشيدة" ونواب الأمة وعشاق "الخطبات الإعلامية التافهة".

أبطال سفن الحرية

ما فعله أبطال سفن الحرية لغزة يتجاوز بكثير كل الكلمات، ويثبت بكل وضوح قدرة الشعوب الحية على فعل ما تعجز عنه الحكومات المتخاذلة والأمم المتحدة المتواطئة مع المحتل، فقد حققوا بفعلهم المشرف العديد من الانجازات لأهل غزة بالدرجة الأولى، وفلسطين المحتلة وشعبها المنكوب. فمن أهم تلك الانجازات هذا التحرك الدولي الكبير والذي أعاد إبراز موضوع حصار غزة الظالم، فنتج عن ذلك أن قامت مصر الشقيقة بفتح معبر رفح لمرور مواد الإغاثة لإخوتنا في غزة، كما هيأ الفرصة لقيام مصالحة بين فتح وحماس نأمل أن تكتمل قريباً، وتوحدت أصوات المسلمين وأحرار العالم لنصرة الحق الفلسطيني والتنديد بجرائم الكيان الصهيوني وفضحه وفضح الانظمة السياسية المتواطئة معه مثل اميركا والغرب أدعياء الحرية والديموقراطية الكاذبة، كما ساهم هؤلاء الأبطال في إعطاء تركيا فرصة اكبر لممارسة دورها السياسي الكبير والذي يجعلنا نشعر بالفخر تجاهه كونه بديلاً لعجزنا وتخاذلنا نحن العرب، فضلاً عن قيام كثير من دول العالم بسحب سفرائها من الكيان الصهيوني المحتل واستدعاء سفراء الكيان الصهيوني لديها، ومراجعة علاقاتها بهذا الكيان المجرم وهي كلها مكاسب لا ينكرها سوى متخاذل بلا أخلاق.

لله دركم يا أبطال الكويت المشاركين في سفن الحرية، فقد رفعتم بفعلكم البطولي رؤوسنا وأثبتتم للعالم كله أن الكويت بلد الشرفاء الذي لا يتخلى عن مناصرة قضايا الشعوب المظلومة، وحمداً لله على سلامتكم وعودتكم لوطنكم وأهلكم، فشكراً لكم ولكل الشرفاء في العالم، وشكراً لمصر العروبة التي أعادت فتح معبر رفح، وشكراً لتركيا وشعبها العظيم على هذه المواقف المشرفة، والشكر موصول لنواب الأمة الذين عملوا على اقرار توصية انسحاب الكويت من مبادرة السلام المشؤومة والتي لم تجلب للعرب سوى الذل والهوان والاحتقار، فالحقوق لا تأتي بالخنوع والذل، وليتنا نتعلم من بطولات حزب الله وحماس معاني الكرامة.

في أي شيء يختلف الرئيس أوباما عن الرئيس السابق بوش؟ يا سيد أوباما تستطيع أن تستمر بكلامك الجميل، ولكن لن تستطيع أن تستمر بإقناع الناس بأنك مختلف عن سابقك، فقد سئمتنا الكلام والوعود التي لا تصاحبها أفعال، فأنت لم تقدم للعالم أي جيد، وما زالت سياسة بلادك وإدارتك كما هي بميزانها الأعوج ووقوفها المخجل مع الباطل

ومناصرة المجرمين القتلة من عصابات الكيان الصهيوني، فإن كانت حقا تريد من شعوب الشرق الأوسط أن تغير نظرتها لأميركا، فعليك أولا أن تغير من مواقف بلادك تجاه هذه الشعوب وقضاياها.

الديموقراطية بين الشكل والمضمون

الأصل في الممارسة السياسية أن تقوم العلاقة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية على "التعاون" كما ينص على ذلك الدستور، والهدف من ذلك هو تحقيق مصلحة الدولة العليا بالدرجة الأولى ومصالح المواطنين. وفي هذا النوع من العلاقات لا ينبغي أن نفهم من موافقة بعض النواب وتأييدهم لبعض مشاريع الحكومة على أنها "احتواء" ولا يعني أن هؤلاء النواب "حكوميين" بالمعنى السلبي للكلمة، كما لا ينبغي أن يوصف من لا يوافق على تلك المشاريع بأنه "معارضة" وضد الحكومة، هذا من حيث الأصل وما ينبغي أن يكون وهو مضمون العملية الديموقراطية. غير أن الديموقراطية تحمل في أحشائها عيباً شرعياً خطيراً، إذ من السهل جداً أن تتحول الممارسة السياسية إلى ممارسة "شكلية" تستخدم فيها نفس أدوات الديموقراطية لتمير مصالح خاصة على حساب مصلحة الدولة والشعب، وذلك عن طريق تزوير إرادة الشعب سواء بصورة مباشرة، أي التزوير في صناديق الاقتراع أو بصورة غير مباشرة عن طريق شراء ذمم بعض النواب والتأثير عليهم لاتخاذ مواقف لا تعبر عن رغبات من يمثلونهم، فالحصول واحدة وهي العمل ضد إرادة الشعب مصدر السلطات جميعها.

وعندما نتأمل في طبيعة العلاقة بين السلطتين في الكويت نلاحظ بوضوح أنها ليست علاقة تعاون على الاطلاق، فالانقسام حاد جداً بين البرلمان والحكومة من جهة، وبين النواب أنفسهم من جهة ثانية، ما يجعل مسألة القبول بنتائج العملية الديموقراطية أمراً صعباً، فعلى الرغم من أن مطالبة النائب الفاضل مسلم البراك بحل البرلمان وإجراء انتخابات مبكرة أمر مخالف لقواعد الديموقراطية الحقة، إلا أنها مطالبة تستند إلى معطيات واقعية وليست مثالية قوامها ما يشعر به كثير من المواطنين بأن ما يجري في قاعة عبدالله السالم لا يعبر فعلاً عن إرادة الشعب، وهي ليست المرة الأولى التي ينادي بها البعض بحل المجلس وإجراء انتخابات جديدة كما أنها ليست بدعة كويتية، فهي جزء من قواعد اللعبة الديموقراطية وتتمارس في مختلف دول العالم، والسبب فيها عدم احترام بعض النواب لقسمهم ودورهم التشريعي والرقابي تجاه من انتخبوهم ووعدوهم بحماية المال العام وتطوير الخدمات ورفع اسم الكويت بين الدول، ولناخذ قانون الخصخصة على سبيل المثال، فالواقع يؤكد أن غالبية الشعب الكويتي ضد الخصخصة، ومع ذلك لم يحم

النواب المؤيدون للقانون باستشارة المواطنين واستطلاع آرائهم، ففي النهاية هم ليسوا أكثر من ممثلين عنهم، وهنا نكون في مجال الديمقراطية الشكلية التي تظهر من الخارج على أنها تسيير ضمن قواعد اللعبة الديمقراطية في حين أنها ممارسة فردية من بعض النواب، ناهيك عن الأخبار التي تتحدث عن امتيازات ومكافآت كبيرة منحت لبعض النواب المؤيدين للخصخصة أو غيرها سواء من خلال المشاريع أو المناصب العليا لأقربائهم أو حتى من خلال "الكاش"، فإن صدقت مثل هذه الأخبار فهل تكون الممارسة الديمقراطية الحالية حقيقية أم شكلية لا تخدم سوى مصالح شخصية على حساب المصالح العامة ؟

3 هزات في الحضارة العربية والإسلامية

يرى أوليفيه روا، وهو عالم اجتماع فرنسي معاصر، في كتابه "سياسة الفوضى في الشرق الأوسط" أن الحضارة العربية والإسلامية قد تعرضت لثلاث هزات كبرى عبر التاريخ، الأولى تتمثل في فشل الوحدة بين السنة والشيعة منذ مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان وما نتج بعده من خلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً، ووصل ذروة الشقاق بين الفريقين خلال الصراع المرير بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية، ولم تفلح كثير من محاولات التقريب التي بذلت طوال التاريخ الإسلامي خاصة المحاولة المستنيرة التي قام بها محمد عبده وجمال الدين الأفغاني أو من خلال فتوى الأزهر التي أجازت التعبد وفقاً للمذهب الاثني عشري أو الزيدي.

إن لا يزال كلا الطرفين يترصد للآخر ويعتبره خصمه اللدود أكثر من خصومتهم مع أي دين آخر مهما بلغت درجة انحرافه، فما بين السنة والشيعة من توتر أكثر مما بينهما وبين الأديان الوثنية بل حتى بينهم وبين الملحدين، فهم مثلاً لا يتخرجون من تسمية أي ديانة باسمها، ولكنهم لا يسمون بعضهم إلا بأسماء تحمل في داخلها معاني التكفير والكراهية، وأعني "الروافض والنواصب".

والهزة الثانية تتمثل في فشل الوحدة بين الأقطار العربية منذ سقوط الدولة العثمانية عام 1923، إذ من الواضح أن جامعة الدول العربية لم تنجح حتى الآن في إثبات حضورها وفعاليتها تجاه ما يحدث في العالم العربي، ولم تستطع رغم مرور 65 عاماً على تأسيسها في مارس 1945 أن تحقق الوحدة المنشودة ولم تنجز حتى الآن أي إنجازات حقيقية يمكن مقارنتها بإنجازات الاتحاد الأوروبي على سبيل المثال، فالحدود بين البلدان العربية كما هي منذ 1945 والانتقال بين هذه الدول أكثر صعوبة من الوصول إلى المريخ.

أما الهزة الثالثة فتتمثل في زرع الكيان الصهيوني المحتل في قلب الوطن العربي باحتلال سافر منذ عام 1948، حيث عجزت الدول العربية والإسلامية مجتمعة عن أن تفعل أي شيء ليس لاجتثاث هذا الكيان المحتل وتحرير فلسطين الدولة العربية الإسلامية فحسب،

بل انها عاجزة حتى اليوم عن فعل أي شيء لوقف حملات التصفية والتعذيب الوحشي التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني المنكوب، أو فعل أي شيء لصد الانتهاكات المستمرة على مقدساتهم بالرغم من أنها تمثل للمسلمين أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

والمرء يدهش حقا من حضارة بهذا القدم وبما تملكه 22 دولة عربية و58 دولة إسلامية من مقومات وثروات بشرية ومادية تعجز عن لعب أي دور آخر غير دور الضحية الذي يتلقى كل يوم صفعة تلو صفعة بلا حراك!

نحو خصخصة عادلة

التحول إلى خصخصة الخدمات العامة بات أمرا واقعا لا محالة، والمسألة لم تعد سوى وقت لا أكثر، إذ إن للتاريخ حركة "سيرورة" أكبر بكثير مما نعتقد، وأضخم من أي محاولة لوقفها مهما بلغت درجتها من القوة، كما أن تردي الخدمات العامة التي تقدمها مؤسسات الدولة - سواء عن قصد للدفع بالخصخصة أو عن غير قصد نتيجة تراجع قيم العمل والانجاز لدى الموظفين - تساهم بشكل كبير في تسريع عملية التحول، إضافة إلى أن نماذج تقديم الخدمات العامة للمواطنين في القطاع الخاص أثبتت أنها أفضل بكثير من نماذج المؤسسات الحكومية في مختلف دول العالم، وبالتالي أصبح كل شيء تقريبا يدعو إلى الخصخصة باعتبارها الحل السحري للخروج من دائرة تردي الخدمات.

غير أن حتمية الانتقال من هيمنة الدولة على الخدمات العامة إلى هيمنة القطاع الخاص، لا تعني بالضرورة أن يكون هذا التحول والانتقال ظالما يستنزف ثروات الدولة لصالح "الرأسماليين الجشعين"، كما ينبغي ألا نتوقع أن يبادر أي رأسمالي إلى شراء أحد قطاعات الخدمات العامة دون أن يحقق ربحا يستحق ذلك الاستثمار، وبالتالي فنحن إزاء معادلة ينبغي أن تتحقق فيها عملية الخصخصة وفقا لمبدأ العدالة بحيث يحصل المواطن على خدمات جيدة ويحصل الرأسمالي المستثمر على ربح معقول وعادل، وهذه مسؤولية تاريخية تقع على عاتق وضمير أعضاء مجلس الأمة والحكومة بالدرجة الأولى.

ثمة من يعتقد أن النموذج الأميركي للاقتصاد الحر هو النموذج الأوحى والأصلح، والواقع أن تتالي الأزمات الاقتصادية الكبرى خير دليل على فشل الرأسمالية الجشعة، ومن غير المعقول أن نجد من يناهز باعتبار ذلك النموذج الفاشل مثالا يجب أن يحتذى، فالعالم مليء بتجارب اقتصادية أكثر اتزاناً وثباتاً، منها على سبيل المثال تجربة فرنسا والتي تجمع فيها حسنات النظام الرأسمالي دون بشاعته مع حسنات النظام الاشتراكي بعيدا عن مثاليته، ففي فرنسا 4 خدمات أساسية لا تسمح الدولة بخصخصتها، أولا الخدمات الصحية، فصحة البشر ليست سلعة ومن غير المقبول تركها بيد التجار، وإنما هي مسؤولية الدولة التي لا تسمح للقطاع الخاص بأن يتاجر بصحة البشر. وثانيا قطاع التعليم، إذ إن التعليم من الحقوق الأساسية لكل الناس "وليس فقط للمواطنين" ولا يجوز

ترك التعليم بيد القطاع الخاص الذي أثبت الواقع أنه على استعداد للانحدار بمستوى التعليم لأدنى مستوياته من أجل تحقيق الربح، ثالثا السكن، فهو يرتبط أيضا بحق أصيل من حقوق الإنسان وإذا ما ترك الأمر للقطاع الخاص فلن نحصل على أكثر من آلاف المشردين ومئات الأزمات الاقتصادية الشبيهة بما يعانيه العالم اليوم من أزمة اقتصادية خانقة، رابعا الأمن والذي لا تسمح الدولة أيضا بتحويله للقطاع الخاص لأن أمن المجتمع مسؤولية عظيمة لا مجال للتلاعب فيها وتركها كسلعة للتكسب. أما غير ذلك من خدمات فيمكن للقطاع الخاص أن يساهم فيها كما يشاء وبحسب قوانين السوق واليد الخفية التي نادى بها آدم سميث.

فإذا كانت الدولة تتجه لا محالة نحو الخصخصة، فلا أقل من ترك تلك الخدمات الأساسية بيد الدولة، خاصة أنها ستتخلص من عبء كبير من الخدمات الثانوية وتتفرغ لتقديم الخدمات الأساسية، فهل تعجز الدولة عن إدارة 4 قطاعات خدمية حينها ؟

مغالطات منطقية

زيد: باعتقادي أن بن لادن تفوق على الولايات المتحدة حتى الآن.

عبيد: أنت تؤيد الإرهاب وقتل الأبرياء إذن !

في هذا الحوار البسيط نموذج لإحدى المغالطات المنطقية التي نمارسها في حياتنا اليومية، والتي بسببها تتصادم معظم الحوارات وتنتهي بإساءة فهم الطرف الآخر دون أن يخرج أحد بفائدة. يسمى هذا النوع من المغالطات المنطقية باسم "مغالطة رجل القش" Straw man fallacy وفيها يتم إساءة فهم كلام المتحدث واختراع كلام آخر لم يقله ومن ثم مهاجمته وكأنه قاله فعلا، فكأن الخصم هنا يصنع رجلا من القش ليسهل الانتصار عليه. زيد في ذلك الحوار لم يؤيد الإرهاب ولم يقل ان قتل الأبرياء جائز، فقط قال انه يعتقد أن بن لادن تفوق حتى الآن على أميركا. ومثال آخر: زيد: أنا مع إعطاء المرأة حقوقها السياسية. عبيد: وهل تريد أن تخرج نساؤنا عرايا في الشارع؟ مرة أخرى زيد لم يقل ذلك، عبيد اخترع كلاما من عنده وهاجم زيدا وكأنه قاله بمغالطة منطقية واضحة، وهذا النوع من المغالطات المنطقية يكثر بين السياسيين بشكل خاص.

هناك أيضا نوع آخر من المغالطات التي يكثر استخدامها في ثقافتنا، خاصة في البرامج الحوارية وتصريحات الخصوم بالصحف، المغالطة اسمها "الشخصنة" وتعتمد على الإساءة للشخص واتهامه بشخصه - وليس رأيه - ثم الإدعاء بأن رأيه غير سليم، مثلا كأن يقول زيد: الربا هو سبب الأزمة الاقتصادية العالمية، فيرد عبيد: كيف ذلك؟ أنت يا زيد لديك حساب في بنك ربوي وتتحدث عن الربا وهذا الشكل الشائع من المغالطات المنطقية يختلف عن الإساءة الشخصية في الحوار من خلال التجريح والقذف، ومع أن التجريح والإساءة الشخصية هي مظاهر غير أخلاقية وسلوك مردول، إلا أنها ليست مغالطة منطقية بل قلة أدب، فالمقصود بالمغالطة المنطقية هو فساد الاستدلال المنطقي، عندما ينتقل شخص من مقدمات لا تؤدي بالضرورة إلى النتائج التي يصل إليها المغالط، أو التي يريد أن يصل إليها - عنوة، ومعظم من يسمونهم "المثقفين" في البرامج الحوارية يمارسون هذه المغالطة بأبشع صورها، يقول أحدهم حجة، فيرد الآخر عليه من خلال

الطعن في صفة من صفاته الشخصية ويستنتج من ذلك أن كلامه غير صحيح (تأملوا مثلا عندما ينتقد شخص سياسة الغرب، فيقول له الخصم أنت تعيش في بريطانيا أو لديك جنسية أميركية وتتهم الغرب، وهذه مغالطة لأن جنسيته ليست جزءا من الحجة المنطقية)، وهذا النوع من المغالطات يكثر عادة عندما يتعلق الحوار بالعقائد والأفكار الراسخة، مثلا عندما يؤيد شخصا ما حقوق المرأة أو بعض السلوكيات التي يعتقد أنها من حقوق المرأة، يلجأ الخصم عادة إلى التقليل من شأنه ومحاولة وصفه بأوصاف دنيئة ووضيعة ليسهل عليه رفض كل ما يقول بعد ذلك، أن يقول له بكل بساطة بأنه "ليس رجلا" على سبيل المثال.

هناك أيضا مغالطة التصنيف، وفيها يتم تصنيف الشخص ونسبته إلى جماعة معينة تتصف بأوصاف سلبية، ثم الادعاء بأن رأيه غير سليم لأنه ينتمي إلى تلك الفئة، كأن يقول شخص إن زيدا "ماركسي" والماركسيين ملحدون لا يعترفون بوجود الله ثم يستنتج - بمغالطة منطقية - أن رأي زيد غير صحيح. وهناك أنواع عديدة من المغالطات المنطقية التي لا مجال لحصرها في مقال، مثل المغالطات العاطفية التي فيها تستخدم العواطف للوصول إلى نتائج لا تؤدي إليها المقدمات (الآراء)، فيحاول الشخص الحصول على موافقة الآخرين على رأيه بالاستعطاف وليس بالمنطق، كأن يقال: "دعهم (أي الحكومة) يسرقون بكيفهم، المهم يوزعون على المواطنين "الغلابة" شوي" .. آه آسف، هذه ليست مغالطة منطقية في الحقيقة، هذا "يأس وإحباط سببه" واقع الحال"، لأن في أعماقنا باتت تترسخ ثقافة "القرف" واليأس وعدم الاكتراث بأي خلل من كثرة المغالطات وقلة "العقل".

خطابان في الخصخصة

ثمة خطابان عندما يتعلق الموضوع بالخصخصة، الأول "خطاب نظري" يتجه إلى الحديث عن مزايا الخصخصة وأهميتها ودورها في عملية التنمية وتحسين نوعية الخدمات وغيرها. غالبا من يستخدم هذا الخطاب هم المستفيدون بصورة مباشرة من عمليات الخصخصة، أي من الرأسماليين الجشعين. أما الخطاب الثاني فهو "خطاب واقعي" يتجه إلى سلبيات الخصخصة ويحاول أن يشخص الآثار المدمرة لها على المستوى الاجتماعي قبل الاقتصادي، كما وينظر بواقعية إلى "واقع" البلد ودور الحكومة التي لا يدعو أداؤها المتواضع جدا لأي تفاؤل، ويستخدم هذا الخطاب بالتأكيد عامة الشعب ممن يعرفون أنهم أول المتضررين من عمليات الخصخصة، ولذلك لا غرابة أن يسموا الخصخصة باسم "بيع البلد" لأنهم يعرفون تماما ماذا يحصل بعيدا عن التنظير والحديث المثالي "المخادع". فتجاربنا مع خصخصة بعض القطاعات لم تنتج أي شيء من تلك الأحلام الوردية التي يتغنى بها "منظرو الخصخصة"، فلم يتغير أي شيء في مستوى الخدمات ولم تفتح فرص عمل جديدة للشباب الكويتي ولم تساهم في نهوض الاقتصاد الوطني، بل على العكس تماما قام الرأسماليون الجشعون بطرد الكويتيين وتخفيض رواتب من صمد منهم، ثم جاءت حكومتنا "الرشيدة" التي تتغنى اليوم بجمال الخصخصة وقامت بدفع جزء من رواتب الموظفين المسرحين لمدة ستة أشهر ثم تخلت عنهم بعد ذلك، دون أن تفعل أي شيء ضد الرأسماليين الجشعين الذين يتحايلون على قوانين التكويت وغيرها بألف طريقة وطريقة.

من السهل جدا التنظير حول مزايا الخصخصة وتصويرها وكأنها الحل السحري الذي سيقضي على كل مشاكلنا بضربة عصا سحرية بين ليلة وضحاها، غير أن هذا الحديث النظري المخادع لن ينطلي على الناس بالتأكيد، خاصة أن المسألة تتعلق بأرزاقهم ومستقبل أبنائهم. ولو كان التنظير كافيا فليس هناك أجمل ولا أفضل من النظام الشيوعي على الورق، فالشيوعية نظريا أشبه بالجنة، بينما الواقع شيء آخر، فقر وجوع وامتهان لكرامة البشر. والحال مع الرأسمالية أشد فتكا وضراوة، وما سنجنه من عمليات الخصخصة في ظل واقعنا الحالي لن يختلف عما جناه السوفييتيون من تجربة

الاشتراكية الليبنية والستالينية، فسند أنفسنا نكدح الليل والنهار فقط لدفع فاتورة الكهرباء للرأسمالي الجشع.

لا أظن أن هناك وقاحة واستخفافا بعقول الناس أكثر من محاولة تبرير الخصخصة بالقول إن ترهل القطاع العام وانتشار الفساد فيه يدعوان إلى الخصخصة، والأولى بدعاة هذا التنظير السماح أن يطالبوا الحكومة بالإصلاح بدلا من إيجاد التبريرات السخيفة التي تريد أن تعفي الحكومة من مسؤولياتها.

حول مفهوم الإنسانية

يحمل مفهوم "الإنسانية" في طياته شيئاً من الغموض واللبس، ويسمح - بسبب تداخله مع تصوراتنا عن الأخلاق - بتمرير الكثير من الأفكار التي تمثل نوعاً من "كلمة حق يراد بها باطل"، فهو مفهوم مخادع وحمال أوجه، يصعب نقده لأنه ببساطة سيحيل الناقد إلى شخص متناقض ينفي ذاته.

ولفهم هذا الغموض في مفهوم الإنسانية علينا أن نعرف تاريخ المصطلح، أو تحديداً الحدث الذي تسبب في ذلك الغموض، فقد نشأت في أوروبا المسيحية خلال العصور الوسطى (عصور الظلام) حركة مناهضة لهيمنة الكنيسة التي كانت تتحدث وقتذاك باسم الله، فتقرر للبشر ما يجب وما لا يجب فعله في هذه الدنيا. وللخروج من تلك الهيمنة نادى فلاسفة التحرر (الليبراليون) بفكرة أن "الإنسان" قادر بذاته على فهم العالم وتقرير مصيره دون الحاجة لوجود إله يقول له كيف يتصرف وكيف يدير شؤون حياته، ووجدوا ضالتهم في مقولة بروتاجوراس السفسطائي "الإنسان مقياس الأشياء جميعاً"، وبدأت مع عصر النهضة حركة "انسانوية" واسعة النطاق في الأدب "الأدب الإنساني" Litera Humaniores والفن والفلسفة وغيرها، وتحدد بذلك معنى جديد لمفهوم "الإنسانية" والذي أصبح مقابلاً للإله، خاصة بعد النقد اللاذع الذي وجهه فولتير للدين.

وارتبط المفهوم أكثر بمفهوم "الفردية" الذي يشكل أساس الفلسفة الليبرالية، وبيات الاستخدام أكثر وضوحاً وتطرفاً ومهداً لظهور "العلمانية"، فالإنسان بهذا المعنى لا يقبل بأي سلطة أعلى من سلطته هو ولا بسطان آخر غير سلطان العقل، فهو الوحيد القادر على تحديد معنى الخير والشر، وهو الوحيد القادر على "صنع" منظومته الأخلاقية، وهو الوحيد القادر على إدارة شؤون حياته الدنيوية، والله في هذه الحالة يصبح مجرد "فكرة زائدة عن الحاجة" كما يقول فويرباخ. من هنا نفهم المقصود بالغموض والتداخل في مفهوم الإنسانية، إذ يستخدم هذا اللفظ عادة للدلالة على الجانب الأخلاقي وما يحمله من مضامين تتعلق بحقوق البشر والدعوة إلى المساواة والعدالة والحرية والإخاء وغيرها، وهو ما ينبغي الحذر منه حتى لا تختلط المفاهيم ويتهم كل من يناهز بالمساواة وحقوق الإنسان بتهمة الإلحاد التي أصبحت رائجة هذه الأيام.

في عام 1933 صدر "بيان الإنسانيين الأول" Humanist Manifesto والذي كتبه روي سيلر وريموند براغ ووقع عليه أكثر من 40 شخصية مرموقة، من بينهم الفيلسوف البراجماتي الأميركي جون ديوي، تضمن البيان 15 بندا شكلت منذ ذلك الحين وحتى اليوم أهم مبادئ الأيديولوجيا الانسانية، من بينها البند الأول الذي ينص على أن "الإنسانيين يعتبرون الكون موجودا بذاته وليس مخلوقا"، والبند الثاني يقول "الإنسان جزء من الطبيعة". وللخروج من هذا التداخل المبهم لمفهوم الإنسانية وما لحق به من سوء السمعة، يستخدم كثير من المثقفين لفظ "الانسانية" للدلالة على المذهب الفلسفي وتمييزه عن كلمة "الإنسانية" التي ربما يستخدمها كثير منا بحسن نية.

شأن داخلي

وصلتني رسالة من مجموعة طلبة عرب وإيرانيين يدرسون في جامعة ستوكهولم بالسويد، أسسوا مؤخرا جمعية طلابية تهتم بقضايا حقوق الإنسان في الشرق الأوسط، ويقومون حاليا بجمع معلومات ووثائق عن انتهاكات حقوق الإنسان في الشرق الأوسط، وقد طلب مني أحد الطلبة الإيرانيين أن أبحث له عن معلومات حول صور انتهاكات حقوق الإنسان في إيران تحديدا. ما فهمته منهم أنهم بصدد تحريك دعاوى قضائية ضد السلطات التي تنتهك حقوق البشر في هذه البلدان، وأخشى ما أخشاه أن تصل الأمور إلينا وتتحرك مجموعة مماثلة ضد الكويت فيما يتعلق بقضية البدون، ولذلك نتمنى من حكومتنا "الرشيدة" أن تبادر إلى حل هذه القضية العالقة منذ ما يزيد على أربعين عاما، حتى لا تضطر إلى تقبل حلول أخرى تفرض علينا من الخارج.

ثمة من يعتقد بأن كل ما يدور داخل البلد (أي بلد) هو شأن داخلي ولا يحق لأي دولة أن تتدخل فيه، غير أن هذا الاعتقاد غير صحيح بالتأكيد، فهناك دوما قضايا تستدعي التدخل الخارجي، وأحد أهم تلك القضايا هي انتهاكات حقوق الإنسان، فالمجازر والقتل الجماعي التي قام بها الصرب ضد مسلمي البوسنة والهرسك خلال الفترة من عام 1992 إلى 1995 والتي راح ضحيتها قرابة 8 آلاف مسلم لم تمنع قوات حلف الناتو بقيادة الولايات المتحدة الأميركية من التدخل العسكري لوقف تلك الانتهاكات الصارخة، كما أن انتهاكات حقوق الإنسان في العراق إبان حكم حزب البعث كانت أحد أسباب حرب الخليج الثالثة، وما يحدث الآن من ضغط عالمي على إيران التي باتت تقارير انتهاكات حقوق الإنسان تصدر عنها بصورة مقلقة بسبب تصرفات الحكومة الإيرانية ضد المعارضين لحكم الرئيس أحمددي نجاد ينذر بتطورات بالغة الخطورة، فالعالم لن يبقى ساكنا يتفرج على صور القتل الجماعي والانتهاك المتواصل لحقوق الإنسان، ولن يغني أي دولة التحجج، أو التبجح بمعنى أدق بمسألة "الشأن الداخلي"، فالشؤون الداخلية لأي دولة لا تعني الوصاية على كرامات البشر والتصرف بحياتهم دون حسيب أو رقيب. العالم اليوم يشهد ثورة دولية ربما يشكل فضاء الانترنت أحد مرتكزاتها، وطلاب الجامعات والشباب بشكل خاص باتوا أكثر تنظيما ووعيا، خاصة في الدول الغربية، وهم دائما على اطلاع بما يحدث في العالم كله، ولديهم دائما العزيمة والنشاط والوسائل للضغط على

حكومات بلدانهم لتتحرك من أجل نصرة المستضعفين وحمايتهم من طغيان السلطات المطلقة التي تنتهك حقوق البشر وكراماتهم.

التاريخ معلم كبير، فيه دروس وعبر، وأحد أعظم دروس التاريخ أن قضايا حقوق الإنسان ليست شأنًا داخليًا.

أشياء صغيرة لكنها كبيرة

قبل أيام نشرت جريدة "الرأي" خبرا صغيرا جاء فيه مناقشة شاب "بدون" مريض ويعالج منذ ثمانية أعوام في مستشفى الطب النفسي، يناشد النائب علي الدقباسي أن يساعده في استخراج جواز سفر ليتمكن من أداء العمرة مع والدته "الكويتية"، حيث باءت كل محاولاته باستخراج جواز سفر بالفشل طوال عامين.

وهو يسعى ويحاول ويطلق كل باب ليتمكن من أداء فريضة العمرة من الكويت، البلد المسلم الذي تنص المادة الثانية من دستوره على أن دين الدولة هو الاسلام، والشريعة الاسلامية مصدر رئيسي للتشريع !

في اليوم التالي لنشر ذلك الخبر المؤلم، نشرت جريدة "الرأي" أيضا خبرا طريفا كشفت فيه نائبة المدير العام لشؤون الثروة الحيوانية في الهيئة العامة للزراعة عن عزم الهيئة استخراج جوازات سفر للحيوانات الاليفة والطيور النادرة. أي صفقة هذه على وجه الانسانية، أي عار هذا على جبين "حقوق الانسان".

قبل أيام أيضا نشر الزميل الكاتب ماضي الخميس مقالا مؤثرا نقل فيه رسالة شاب "بدون" يسرد معاناته مع رحلة الحرمان من أبسط الحقوق الانسانية، ويصرح فيها بكل ألم انه "يصحو كل يوم وهو يتمنى ألا يصحو من نومه" حتى ينتهي هذا الكابوس المزعج.

اتقوا الله فينا يا حكومة، فللمظلوم دعوة لا ترد، وليس بين المظلوم وربّه حجاب. اتقوا الله في هؤلاء "البشر"، انصفوهم لعل الله يرجع البركة لهذا البلد الذي أصبحت كل زاوية فيه تنن من الفساد، اتقوا الله فما يعانيه هؤلاء البشر لا تحتمله جبال الارض قاطبة، بشر يعانون البؤس والشقاء لدرجة تمنى الموت وتتشدقون بالحديث عن حقوق الحيوان !

الغرب العنصري

تصدر كثير من المؤسسات الغربية تقارير سنوية عن صور انتهاكات عديدة لحقوق الإنسان في العالم العربي، دون أن تتطرق إلى نفس الانتهاكات، بل وأخطر منها أحيانا في بلاد العم سام وأوروبا المسيحية، وكأنها دول مثالية وسكانها من الملائكة، ولا أدري لماذا لا تصدر مؤسساتنا العربية تقارير مشابهة عن ممارسات تلك الدول العنصرية ضد حرية الرأي مثلا، خاصة عندما يتعلق الأمر بـ "انتقاد" الصهيونية، فأين حرية الرأي التي يزعمونها من روجيه غارودي ونعوم تشومسكي وإسرائيل شاحاك وغيرهم من مئات المنصفين، أليست مصادرة كتبهم ومنع دور النشر والمكتبات من نشرها وتداولها انتهاكا صارخا لحرية الرأي التي يهاجمون بقية دول العالم بسببها؟ نشر رسوم كاركاتورية تسيء للرسول محمد عليه الصلاة والسلام حرية فكر وحرية رأي، بينما منع "كتب" علمية لغارودي وتشومسكي مسألة فيها وجهة نظر، هكذا يفهم الغرب العنصري حرية الرأي وحرية التفكير، باتجاه واحد

من منكم سمع أو شاهد شخصا واحدا من "مدعي الليبرالية" عندنا وقف وانتقد منع نشر كتب غارودي وشاحاك وتشومسكي في الغرب؟ وفي المقابل كم مرة خرج هؤلاء المدعون في مظاهرات وانتقادات بسبب منع "مهرج" ممن يقاتلون على تصنع القضايا الإعلامية من خلال التناول على معتقدات الملايين من المسلمين كتب غارودي وتشومسكي وشاحاك كتب علمية رزينة تقوم على الحجة والمنطق والتحليل الفلسفي العقلاني، ومع هذا تمنع ويحارب أصحابها وكل من يؤيد فكرهم، ومع هذا أيضا لا يحرك مدعو الليبرالية ساكنا ولا ينتقدون قمع الحريات في بلاد الغرب، بينما ينتفضون بسرعة البرق وبكل همة ونشاط مع كل معرض للكتاب ليوجهوا سهام نقدهم ضد الدولة وضد الدين بل وضد الطبيعة، فأين مبادئكم "الإنسانية"؟

قبل شهرين تقريبا، صدر في إسرائيل كتاب Breaking the Silence لمجموعة من المجندين والمجنذات السابقين في الجيش الإسرائيلي، يفضحون من خلاله جرائم الصهاينة وممارسات كبار الضباط الذين يجبرون الجنود على تعذيب الفلسطينيين، ويبينون في الكتاب تشجيع الضباط الصهاينة للجنود على ممارسة أشد أنواع التعذيب

ضد النساء والأطفال، لدرجة أن الامتيازات والترقيات تتحدد بناء على درجة التعذيب، فكلما مارس الجندي تعذيباً أبشع وأكثر حصل على امتيازات أكثر، ولا غرابة في ذلك من هذه العصابة، ولكن أين تقارير الغرب من منع تداول هذا الكتاب في إسرائيل التي يصفونها بالدولة الديموقراطية الوحيدة في المنطقة؟ الغرب عنصري جداً وعنصريته بغیضة إلى أبعد الحدود، فبشاعتها تكمن في تغليفها بغلاف "الإنسانية" المفترى عليها، فهذا الغرب العنصري يصبح أعمى و"أطرماً" عندما تتعلق انتهاكات حقوق الإنسان ضد المسلمين والعرب، ولكنه يصبح "مفتحاً" ودقيقاً جداً ويحصي كل صغيرة وكبيرة لأي انتهاك يحدث في عالمنا الإسلامي والعربي. لا أقول إننا أفضل منهم ولا أدعي عدم وجود انتهاكات صارخة في بلداننا، فحالنا أبشع من أن يدافع عنه أحد، ولكن على الغرب أن يعي أنهم لا يختلفون عنا في شيء، بل هم أشد عنصرية وانتهاكاً لأنهم يدعون الإنسانية ويتدخلون في شؤون بقية البلدان باسم الحرية.

همسة في أذن الليبراليين

أثيرت في تاريخ الفكر الإنساني مسألة أسبقية الفرد والمجتمع، فقال أصحاب الاتجاه الاجتماعي بصورة عامة إن المجتمع هو الأساس، فالفرد لا يستطيع أن يتواجد أو يستمر في الحياة إلا في مجتمع، وبالتالي فالأولية يجب أن تكون للمجتمع بوصفه الإطار العام الذي يحمي الأفراد ويوفر لهم بيئة الحياة. وفي المقابل نادى أصحاب الاتجاه الفردي بأسبقية الفرد على المجتمع قائلين إن المجتمع عبارة عن تصور رمزي وليس كيانا حقيقيا، فالوجود الحقيقي هو وجود الفرد، وما يسمى مجازا بالمجتمع ما هو إلا "مجموعة" أفراد وبالتالي فالأسبقية يجب أن تكون للفرد وليس للمجتمع.

من أصحاب الاتجاه الاجتماعي خرجت التجربة الاشتراكية بصورتها العلمية على يد كارل ماركس وبصورتها التطبيقية المشوهة على يد لينين ثم الأكثر تشوها بعد ذلك مع ستالين، ومن أصحاب الاتجاه الفردي خرجت "الليبرالية" التي تطورت فكرا في إنجلترا وتطبيقا في الولايات المتحدة الأميركية ثم عادت لتكتسح العالم الغربي بعد ذلك بدرجات متفاوتة، إلى أن وصلتنا - كالعادة - في عالمنا العربي البائس على هيئة "مسخ" بلا ملامح ولا مضمون. ولا عجب في ذلك فالليبرالية في عالمنا العربي مثلها مثل الديمقراطية والرأسمالية وحتى الاشتراكية، فكلها أسماء "لا تعرف البارد من الحامي" ولا تحمل من مسمياتها سوى الاسم، إلا إذا اعتبرنا تجربة سورية وليبيا على أنها اشتراكية حقيقية وصدقنا أن في الكويت ولبنان ديموقراطية وأن النظام الاقتصادي في مصر نظام رأسمالي.

المشكلة ليست في هذه النظم الاجتماعية بالتأكيد، وإلا لما نمت وترعرعت واستطاعت أن تنتشر في بلاد الله الواسعة، فالرأسمالية ظهرت أول ما ظهرت في إنجلترا، حالها حال الليبرالية، ومع ذلك أصبحت هي النظم الرسمية لكثير من الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة.

المشكلة في عقل الإنسان العربي، في جينات المخ والمخيخ تحديدا فهو عقل غير قادر على استيعاب "الفكر الإنساني"، وليس صحيحا أن الإسلام هو السبب، فهذا هي اندونيسيا

وماليزيا وإيران استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه جميع الدول العربية مع أنها تطبق الإسلام أكثر مما هو مطبق في عالمنا المريض. المشكلة تكمن في أن من يتبنى هذه الأفكار الكبيرة يمتلك عقلا صغيرا لا يستطيع أن يستوعبها، ولذلك من الطبيعي أن تتحول الاشتراكية عندنا إلى "تعميم الفقر" وتختزل الليبرالية - هذه الايديولوجيا الضخمة - في "صعلوك" يصنع لنفسه هالة إعلامية من خلال سب معتقدات الآخرين. المشكلة أن من يدعي الليبرالية لدينا لا يقدم للناس "فكرا" ولا تجربة عملية لما ينبغي أن يكون عليه السلوك الفردي القويم، وإنما يكتفي بالسخرية من حجاب المرأة ومن لحية "المطاوعة".

تصور الناس في عالمنا العربي عن الليبرالية تصور سلبي، فهم يرونها "زندقة" وكفر، وهم معذورون في ذلك، فهذا ما يسمعونه ويشاهدونه من مدعي الليبرالية، وإلا كيف سيستوعبون مفهوم "الفردية" في الوقت الذي يقوم فيه "مثقف ليبرالي" بوصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالفشل - مع أنه كان قادرا على أن يقول بأنه "لم يتمكن" بدلا من استخدام كلمة "فشل" - باستضافة "مفكر عربي" (أسماء بيلاش) يقول إن القرآن الكريم من تأليف الرسول؟ هكذا تقدمون الليبرالية للناس - أيها الليبراليون الأعزاء - ثم تولولون وتتباكون على "حرية الرأي" و"حرية الفكر".

وطن ودوائر

يرتبط المواطن بالدرجة الأولى بوطنه، فالوطن هو الدائرة الكبرى التي يشعر أول ما يشعر بالانتماء إليها، وفيها يجتمع ويلتقي بكل أفراد وطنه الآخرين، مادام هذا الوطن يعاملهم بعدالة ومساواة ويطبق عليهم جميعا نفس المعايير والقوانين بلا تمييز، غير أن هذه الدائرة حتما ستضيق أكثر كلما شعر المواطن بأن وطنه لم يعد تلك الدائرة التي تحتويه وتحتوي غيره، فمن الطبيعي أن يلجأ عندئذ إلى "الاحتماء" بدائرة أخرى تضمن له حقوقه وتحميه من تعسف الدولة، وهكذا يتحول الوطن من دائرة تضم الجميع، إلى "دوائر" تتصارع أمام عجز النظام أو تخاذله، ويتحول الولاء شيئا فشيئا من الولاء للوطن إلى الولاء لتلك الدوائر الصغيرة، أيا كانت مسمياتها، قبيلة، طائفة، حزبا، عائلة... الخ لا يهم التسمية، المهم أن يجد أقرب دائرة تحتويه وتعوضه عن الشعور بالعزلة والخوف من تخلي الدولة عنه والبقاء بلا "ظهر".

إنه منطق بسيط وواضح عاشت عليه البشرية منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض، فالإنسان "اجتماعي بطبعه" كما قال أرسطو وبحق، فإن تخلت الدولة عن دورها في أن تكون هي الدائرة الأم التي تضم كل أبنائها، فسوف يبحث هؤلاء الأبناء - تلقائيا - عن أم بديلة، ما يعني نهاية الأم الأصلية وزوالها.

يبدو أن جرعة الحرية التي قدمها لنا قانون المطبوعات الجديد أكبر من قدرتنا على استيعابها، غير أن الغريب في الأمر أننا لسنا حديثي عهد بالحرية، ولم يكن هذا القانون فتحا جديدا ونقله سريعة من حال إلى حال كما حدث في العراق بعد سقوط النظام الديكتاتوري الذي عشنش فيهم لأكثر من ثلاثين عاما. فنحن لم نكن محرومين من الكلام ثم سمح لنا هذا القانون بهذه الميزة، ولم تكن وسائل إعلامنا مكبلة أو مسيرة يوما، فما الحكاية؟! لماذا لم نعد قادرين على استيعاب الحرية؟ لماذا نعيش كل هذه الفوضى؟ إنه أمر محزن حقا أن نمتلك كل شيء من مقومات السعادة والرخاء، ومع ذلك نعيش كل هذه المعاناة والتشردم والفوضى والصراع والفسل، أمر محبط وواقع "مقرف"، خاصة لمن ليس لديه "دائرة" أخرى غير دائرة الوطن ليحتمي بها من تخاذل الدولة وطغيان الدوائر المديبة.

حادث ضد مجهول

ما يحدث في الكويت حكاية لا يقبلها العقل ولا يحتملها الواقع، خليط مهلهل من التراجيديا والكوميديا السخيفة، انتصار لليأس والحزن، وخيانة للمنطق وإجحاف للتاريخ وخذلان للبشر.

رياح لا تهدأ ونفوس لا تستقر وسفن لا تصل ومعاناة لا تنتهي، مأساة تتكرر كالنبض في الوريد، والهلم في صدر الفقير أو الغريب.

وطن يتباهى بديموقراطية عمرها 300 عام وهو لا يزال "يحبو"، يقوم ويسقط ويدور حول ذاته وكأنه ولد بالأمس

كم هي رائعة أعمال الفنان سامي محمد، رغم ما فيها من تصوير لمعاناة الإنسان في صراعه مع الحياة، تحكي - رغم صمتها - أكثر مما تحكيه فلسفة هيدجر وألبير كامو وقصائد جوته والسياب.

هكذا أشعر بها كلما وقفت أتأمل تمثال "الاختراق"، ذلك العمل العبقري الذي يصور إنسانا وهو يخترق جدارا بكل قواه، ثم يصطدم بعمود حديدي يكسر عزيمته ويعيده حيث كان، وهكذا أشعر عندما أتأمل تمثال "محاولة خروج" والذي يصور معاناة الإنسان في محاولته للخروج من "صندوق" الأحزان.. بلا فائدة، وهكذا أشعر عندما أتأمل تمثال "حادث ضد مجهول" الذي يحكي قصة إنسان "ملقى" على الطريق ومغطى بقطعة قماش، وعلى ساقيه آثار عجلات سيارة دهسته وغادر صاحبها دون اكتراث، هكذا أفهم حقيقة الإنسان في عالم سامي محمد، هكذا أراها في تمثال "الكابوس" وتمثال "الحشر" و"الازدحام عند الهروب" وغيرها.

سامي محمد فنان عبقري وصاحب قضية، بصمته في الفن مميزة، يجعلك حين تقف أمام تماثيله في مواجهة مباشرة مع حقيقة العالم بما فيه من قيود وآلام وعذابات، يفجئك بهذه الحقيقة التي ندركها ولكننا نتوارى منها ونتهرب من قولها، يصدك بواقع الإنسان حين يجوع وحين يخاف وحين يقوم ويتعثر وحين يعيش كابوسا مرعبا لا يقبل أن ينتهي.

وعلى الرغم من أن تماثيل سامي محمد تتحدث عن معاناة "الإنسان" إلا أنني أصبحت أراها تتحدث عن وطني، فكأن هناك من دهمس هذا الوطن، وفر هاربا ليقيد الحادث "ضد مجهول"!

إهداء إلى صناع الحضارة وبناء المستقبل، إلى أعضاء السلطتين "المتناحرتين"، حيث يقول الشاعر عبدالله البردوني في قصيدته زمان بلا نوعية.

عرفت لماذا كنت قتلي وقاتلي
لأن الذي يعطيني الخبز، أكلي
أروي حكاياتي ؟ جفوني محابر
لأقلام غيري، حبر غيري أناملي
لأنني دخلت السجن شهرا وليلة
خرجت، ولكن أصبح السجن داخلي
فمن يطلق السجن الذي صرت سجنه ؟
ومن يطرح العبء الذي صار كاهلي ؟

مفهوم "المثقف" عند غرامشي

يرى أنطونيو غرامشي - الفيلسوف الماركسي الإيطالي الذي قضى تحت التعذيب في سجون موسوليني عام 1937 - أن ما يحكم تعريف المثقف ليس الخصائص الجوهرية لنشاطه الذهني فحسب، بل الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المثقف لمجتمعه.

فكل عمل مهما كان بدائياً ففيه إلى حد ما شيء من النشاط الذهني، بهذا المعنى نفهم مقولة غرامشي "كل الناس مثقفون"، ولكن ليس كل نشاط ذهني يقوم بوظيفة المثقف، وليس لكل إنسان وظيفة المثقف في المجتمع. يقول غرامشي في دفاتر السجن "عندما نميز بين المثقفين وغير المثقفين فإننا في الحقيقة نشير فقط إلى الوظيفة الاجتماعية المباشرة التي يؤديها المثقف في المجتمع".

المسألة إذن لا علاقة لها بالبلاغة أو كم المعلومات ولا حتى بالإنتاج العلمي أو الأدبي وكثرة الكلام بالندوات والمحاضرات، وإنما تحديداً بما يقدمه المثقف لمجتمعه من دور قيادي يوجهه - من خلاله - إلى الخلاص من هيمنة الدولة، والخلاص من هيمنة الدولة لا تعني أبداً الخروج على القانون أو العصيان والتمرد على النظام، وإنما تعني تحديداً عدم السماح للدولة بأجهزتها البيروقراطية القمعية بالتلاعب بمقدرات الشعب وتبديد ثرواته وحرمانه من حقه في حياة كريمة، وهو ما يحدث بصورة "فوضوية" في الكويت هذه الأيام في ظل غياب دور حقيقي وفاعل للمثقفين الحقيقيين. فالدولة في نهاية المطاف ليست سوى كيان رمزي أو اعتباري هدفه توفير تلك الحياة الكريمة للأفراد، والسلطة ليست سوى "جهاز منظم" مطلوب منه فقط تحقيق هذا الهدف، وهذا هو المعنى الدقيق لفكرة العقد الاجتماعي.

يبين غرامشي أن الدولة (المجتمع السياسي) تتكون من أجهزة يغلب عليها القمع، فهي تتكون من أجهزة ذات طبيعة قسرية (الجيش، الشرطة، القضاء) ومن أجهزة تصنع القانون وتطبقه (البرلمان، الحكومة)، كما تتكون من أجهزة يغلب عليها الدور الأيديولوجي (المدرسة، دور العبادة، الأحزاب السياسية) والتي تؤمن للسلطة تمرير دورها السلطوي. وهنا بالتحديد تأتي أهمية دور المثقف الذي يفترض أن يوجد تصوراً شاملاً أو وعياً

اجتماعيا لمواجهة أي خرق أو انحراف في تعهدات الدولة والتزاماتها المطلوبة تجاه المجتمع. وهو ما يسميه غرامشي Philosophy of Praxis (وهو مصطلح يصعب ترجمته، ولكنه يعني الجانب النظري والعملي في أن معا بالنسبة لدور المثقف، وهو مبدأ أصيل من مبادئ الماركسية)، فالمثقف الحقيقي هو من لا يكتفي بالتنظير الفكري - وهو ما يقوم به معظم من يعتبرون أنفسهم مثقفين - وإنما عليه أن يمارس فعليا دورا سياسيا فاعلا من شأنه أن يوجد سلطة أخرى في مقابل سلطة الدولة إذا جنحت (وهي تجنح دائما)، أي أن يؤسس لحالة من التوازن بين السلطات.

واقعيًا، دخلت الكويت مرحلة من التفكك والانحيار بدرجة خطيرة رغم أنها ليست دولة حديثة وتجربتها الديمقراطية ليست بسيطة، فعمر الكويت من عمر الولايات المتحدة الأمريكية ومع ذلك لم تتقدم الحياة الاجتماعية نحو النظام والديموقراطية الحقيقية بقدر يكفي لمقارنتها بشركة صغيرة من شركات أميركا، كل هذا بسبب غياب دور المثقف الواعي، باستثناء فترة الخمسينيات والستينيات والتي كانت تضم نخبة من المثقفين الحقيقيين ممن ساهموا في ظهور أغلب ما نتمتع به اليوم من حرية وحضارة. أما الأعراب من ذلك فهو أن يواجه المثقفون الحقيقيون بهجمة شرسة لا تتطرق على الإطلاق لمضمون رسالتهم بل تتناول فقط أشخاصهم وتشكك في نواياهم وأعني مجموعة الـ 26، فنشاط هذه المجموعة يكاد يكون النشاط الوحيد الذي يمكن أن ينطبق عليه مفهوم "البراكسيس" الذي نادى به غرامشي، فهو ليس مجرد تنظير فكري لما يحدث في البلاد من عبث، بل هو نشاط عملي أيضا يستهدف صناع القرار، وهو ما نحتاجه فعلا فلسنا بحاجة إلى كل هذا الاجترار لوصف حالة العبث والجمود والتراجع، فكل هذا أصبح مفهوما حتى لدى الأطفال، فما الخطوة التالية ؟

وحده الماضي أجمل

تتملكنا في كثير من الأحيان ذكريات الماضي، نعشقها ونعشق لحظاتها لدرجة أننا نتمنى أن يعود الزمن بنا للوراء لنعيش تفاصيلها من جديد، دون أن نفهم لماذا، ربما بسبب خوفنا من المستقبل أو عجزنا أمام الحاضر.

كان يفتش عن ورقة وسط زحام الأوراق المبعثرة على مكتبه، فإذا بصورة قديمة تقفز من بين عشرات الأوراق، وكأنها تناديه، وجهه بالأبيض والأسود، بملامح يغلب عليها تعب السنين، ومكابدة العيش وعشرات الهموم والآهات المكبوتة، عينان غائرتان، حزينتان حد اليأس. أخذ يتأمل في الصورة، في تفاصيلها، في تقاطيع الوجه ونظرة العينين.. وجه لإنسان كانت له حياة وحضور غيبه الموت، وما أكثر ما غيب الموت من أحباب، أغرق في التمعن، وكأنه يقرأ حكاية عن زمن غابر، لحظات قليلة من الزمن كُنَّ كالأعوام، أرجعت إليه آلاف الذكريات، ذكريات مؤلة وأخرى حزينة.

يبتسم، يتحسس الوجه الصامت في الصورة، يشعر وكأنه يحدثه أو يستمع إليه، سياتن. يغرق في بحر من الذكريات والمواقف، وينفث من صدره الهموم تنهيدة طويلة، تعبر أنفاسها المحترقة في عمق الماضي، تختصر عشرات السنين في لحظتين. يرتشف من كوب القهوة الساخن، ويستقبل رائحة البن المتصاعدة بشيء من الهدوء والارتياح، يغمض عينيه ويغوص أكثر في أحداث أصبحت تمر أمامه كمشهد سينمائي سريع، يشعر برغبة كبيرة في البكاء، لا يعرف لماذا... يريد أن يبكي فقط. صورة لوجه إنسان توفي كفيلا بأن تتركك مع يأسك وعبراتك، وكثير من الذكريات المحفورة في أغوارك، إنه الماضي الذي لطالما يشعرك بأنه الأجمل!

كتب السياب:

وتلتف حولي دروب المدينة
حبالا من الطين يمضغن قلبي
ويعطين، عن جمرة فيه، طينة
حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينة
ويحرقن جيكور في قاع روعي
ويزرعن فيها رماد الضغينة
دروب تقول الأساطير عنها
على موقد نام، ما عاد منها
ولا عاد من ضفة الموت سارٍ
كأن الصدى والسكينة
جناحا أبي الهول فيها
جناحان من صخرة في تراها دفيئة
فمن يفجر الماء منها عيونا لتبنى قرانا عليها؟
ومن يرجع الله يوما إليها !

بين الفلسفة والسفسطة

عندما كانت الفلسفة هي الأساس، بلغت الحضارة اليونانية القديمة قمة مجدها، فأنجبت هراقليطس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ومدارس فكرية قدمت للبشرية فكرا لايزال حيا حتى اليوم، وعندما تراجعت مكانة الفلاسفة وساد الفكر السوفسطائي انهارت الحضارة اليونانية ولم تقم لها قائمة منذ ذلك الحين. والتاريخ يعلمنا أن ما من أمة تقدم الشك على اليقين، وتقدم الشكك الذين يقتاتون على "الهوامش" ويتصنعون المشكلات الصغيرة من تفاصيل التفاصيل على أصحاب الفكر، إلا ويصيبها مثل ما أصاب اليونان من تراجع وانهايار. فهكذا ضيعنا الأندلس بعد أن كانت الحضارة الإسلامية مصدر تنوير للعالم كله، عندما كان العلماء والمفكرون هم جلساء الملوك والخلفاء وهم أصحاب الرأي والمشورة. فالشك الذي قام عليه الفكر السوفسطائي لم ينتج شيئا ولم يقدم للبشرية ما ينفعهم ويعالج قضاياهم، تماما كما أن انشغال علماء الكلام في العصور الوسطى الإسلامية بصفات الله عز وجل وأسمائه وعرشه وانشغال الفقهاء بمسائل فقهية زائفة لم يقدم للمسلمين أي شيء سوى مزيد من التشردم والانشقاق.

وما ينطبق على الحضارات ينطبق أيضا على الدول، فالكويت كانت رائدة في كل شيء على مستوى المنطقة، عندما كانت المكانة والحظوة والتقدير هي لمن يستحق من أصحاب الانجازات الحقيقية، ممن ينظرون لمصلحة الكويت بحاضرها ومستقبلها، ولكن عندما استبعد هؤلاء واقترب "الجهلة" واللصوص والمتنفعون والمتسلقون من صناع القرار شغلت البلاد والعباد بالآف المشاكل الوهمية، وأصبحنا نقتات على "هوامش الهوامش" ونصنع من اللاشيء ألف معضلة ومعضلة، لا نترك شاردة ولا واردة إلا ونتناقش حولها ونحللها ونشكك في أصحابها ونمضغ تفاصيلها بمئات الندوات والمحاضرات والتجمعات والحركات والتكتلات ونستخرج منها آلاف أخرى من المشكلات التافهة، فما أكثر الكلام في هذا البلد وما أقل العمل، ثم نتساءل بكل بلاهة وغباء لماذا تأخرنا ولماذا تجاوزتنا بقية الشعوب والدول رغم توافر كل إمكانيات التفوق والتقدم والنجاح؟!

نعم لدينا برلمان ولكن أعضائه أصبحوا سوفسطائيين لا ينتجون سوى الشك والكلام، لدينا حكومة ولكنها مشغولة بتصنيف الناس وتقسيمهم وتقريب السفهاء منهم واستبعاد

أهل الحكمة والرأي السديد، لدينا مئات الجمعيات المعنية بالرصد والرقابة والدراسات ولكنها لم تعد تقدم أكثر من القهوة والشاي لأعضائها في جلسات لا تختلف عن جلسات الديوانية، لدينا ثروة كبيرة لمساحة صغيرة وشعب قليل ولكنها تدار بعقلية لا تختلف عن عقلية رجل سفيه يبدد أمواله في كل اتجاه باستثناء الاتجاه الصحيح، لدينا شعب حر يملك حق الاختيار ولكنه يأبى إلا أن يكون أسيرا مقيدا لنائب يدفع عنه خمسة دنانير قيمة مخالفة مرورية ويوهمه بأنه قام بإلغائها. كلنا شركاء في صنع هذا الواقع المزري، فلم نقدم لوطننا ولأنفسنا سوى الكثير من الغثيان.

خربشات منتصف الليل

أحيانا تصبح جميع الأشياء في عيوني بلون واحد، هو الأبيض. والأبيض لون غامض، لا يقول لك شيئا محددًا، يوهمني بالنقاء، ولكن التمعن فيه يجرني إلى الوحدة والفراغ، وما أكثر اللون الأبيض في محيطي، يصيبني بالعمى أو الضجر، أحيانا لا أطيعه، فكل هذا البياض يذكرني بالكفن !

هيدجر فيلسوف ملغز، أشعر بهالة كبيرة تحيط به من كل جانب، اجتماع "الهاء" مع "الذال" و"الجيم" مع "الراء" يعطي اسمه مزيدًا من الهيلمان والعبقرية، هكذا أشعر كلما لمحت اسمه من بعيد على زاوية كتاب "الحقيقة"، حيث تتجلى فيه الأفكار "بوضوح غامض". أحيانا أشعر أنه أكثر من مجرد كتاب، أنه حالة تصوف، أو ضرب من الصلاة بهيئة "حروف".

عينان ناعستان، في غوريهما هالتان من سواد ليل بهيم، وفي نظرتيهما حزن عميق كأنما تخبئان سرا من الأسرار، أو أودع في محجريهما شيء من تفاصيل المستقبل، وفي صمتهما بلاغة تغني عن ألف بيان وبيان، تقولان الكثير أو تقولان لا شيء.. بلمحة !

لا أعرف من الذي قال "وراء كل رجل عظيم امرأة"، ولكنه بالتأكيد ليس كويتيا. أغلب رجال الثقافات الأخرى يقولون عن زوجاتهم "رفيقة دربي"، أما نحن فنستخدم عبارة لا توحى بأكثر من دور بيولوجي، "أم العيال". لا أدري، هل هذا بسبب "عقدة" في عقل الرجل أم "نقص" في دور المرأة؟!

المهرولون، أراهم كلما التفت هنا أو هناك.. يتخطونك بسرعة جنونية وكأن كل ثانية لها قيمتها في حياتهم، مع أن الحياة بأكملها قد تكون بلا قيمة عند أكثرهم. وجودهم زائد على الدنيا، لا يضيفون إليها سوى الكثير من الأسى وبقايا من "رميم". وجوههم بلا ملامح من كثرة الأقنعة، حديثهم يقف بك عند حافة الجنون، فإما أن يرديك وإما أن يكتب الله لك النجاة فتهرب. أراهم بلون واحد.. هو الأبيض !

التمييز بين السياسة والثقافة

محكمة بريطانية أصدرت حكماً ألزمت به إحدى الكنائس الموجودة في وولثمستو شرق لندن بعدم رفع صوت الموسيقى الكنائسية ولدة لا تزيد على 20 دقيقة، والسبب أن أحد المسلمين الذين يعيشون بالجوار من هذه الكنيسة اشتكى من "الإزعاج". الرجل المسلم واسمه بهاء الدين اشتكى من أن ترانيم المصلين أيام الأحاد أزعجته وأزعجت طفلة الصغيرة التي يبلغ عمرها عاماً واحداً. في حين أن القس راعي الكنيسة واسمه أوديتوينبو قال إن هذا الحكم تسبب في خسارة ثلثي المصلين. ألا يحق لنا كمسلمين أن نعتبر هذا الحكم "انتصاراً" ونطلق عليه "غزوة وولثمستو".

بريطانيا تكاد تكون هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي يمكنك أن تسمع فيها صوت الأذان، وهو أمر من سابع المستحيلات في ألمانيا أو فرنسا على سبيل المثال، وفي بريطانيا يوجد أكبر عدد من المساجد مقارنة ببقية الدول غير الإسلامية، وفيها كما يعلم الجميع يعيش المسلمون بكل حرية ودون خوف، كما تتمتع المسلمات بكامل الحرية في لبس ما يردن من حجاب أو نقاب، ولذلك لا غرابة أن تحتضن لندن وحدها أكبر جالية عربية في العالم، ولا غرابة أيضاً أن يقول عنها نزار قباني إنها "أجمل عاصمة عربية".

كنت في باريس العام الماضي وجلست في أحد مطاعم البييتزا، أخذت أقرأ لائحة الطعام ثم قلت للجرسون: أريد كذا ولكن من دون لحم خنزير أجلكم الله، نظر إليّ باشمئزاز وقال: نحن نقدم البييتزا بهذه المكونات فإما أن تأكلها كما هي وإما أن تخرج. في بريطانيا ربما لا تحتاج أن تسأل عن مكونات الطعام حتى، فقبل أن تسأل ستلاحظ أن الجرسون سينبهك بأن هذه الأكلة تحتوي على لحم خنزير بمجرد أن يعرف من ملامحك أنك مسلم.

لا أقول هذا للترويج أو الدعاية لبريطانيا، وإنما من باب الدعوة للتمييز بين السياسة وثقافة الشعوب، فنحن مع الأسف لا نميز بينهما، ونصدر عادة أحكامنا بصورة عامة وشاملة ضد شعوب العالم بسبب مواقف بعض السياسيين فيها. بريطانيا سياسياً هي المسؤولة عن كل هذا الدمار الذي حل بالشرق الأوسط، فهي التي زرعت الكيان

الصهيوني في قلب عالمنا العربي من خلال وعد بلفور المشؤوم، ولكن ثقافة الشعب البريطاني أمر مختلف، والحياة فيها تجعلك تشعر بإنسانيتك وتتذوق ربما للمرة الأولى في حياتك طعم الحرية والمساواة والنظام، حتى وإن كنت غريباً. أما من حيث السياسة، فلسنا أفضل منهم، بل إننا أشد فتكاً وظلماً خاصة ضد بعضنا البعض، ويكفي أن نتأمل في وضع البدون في الكويت قبل أن ننتقد بوش الابن أو غيره.

الحاج جرجس

لا أدري كيف تسلكت الفلسفة الوجودية إلى نفسي، ولماذا سيطرت عليَّ رغم ما فيها من تشاؤم وسواد، ربما لأنها انعكاس لما حولي، الفلسفة الوجودية فلسفة غريبة، أظن أن فيها شيئاً من السحر، تصيب كل من يقترب منها في عقله، تسحبه عنوة إلى محرابها، وتتقف به عند حافة الجنون، فإما أن ترديه وإما أن يقدر الله له مخرجاً فيهرب.

منذ يومين تقريباً كنت أقرأ رواية "الطاعون" للأديب والفيلسوف الفرنسي ألبير كامو، كنت أستمع أيضاً لصوت فيروز تغني من بعيد "وحدون بيبقوا مثل زهر البيلسان"، وكنت أنظر إلى صورة لمنحوتة من أعمال الفنان الكويتي العبقري سامي محمد اسمها "حادث ضد مجهول"، فجأة توقفت، اكتشفت أن هذا "الثلاثي" يمثل وصفاً سريعة للجنون، اتصلت بأحد الأصدقاء وجلسنا في احد المقاهي، على أمل أن أتخلص من حالة الإحباط هذه، فجأة بدأ الحديث يتجه - إجبارياً - لأداء الحكومة، فاكشفت أن الحديث عن حكومتنا يمثل وصفاً سريعة للانتحار.

لا أدري كيف زرعت في أدمغتنا تلك الفكرة الغريبة، ان جميع أصحاب الديانات الأخرى من غير المسلمين والذين نسميهم "كفاراً" كما يسموننا هم بنفس التسمية، بلا أخلاق وكل شيء جائز عندهم، لا أدري إن كانت هذه الفكرة موجودة عند الآخرين من أبناء ثقافتنا العربية ولكنني أعلم أنها موجودة في رأسي منذ كنا صغاراً نلعب في الشوارع. كنا نذهب مجموعة من الأولاد إلى مخبز "الحاج جرجس" في ناصية الشارع، هكذا كنا نسمع الخبازين من غرفة الفرن ينادونه، الحاج جرجس، وجرجس هذا رجل صعيدي كبير في السن، ضخم وكرشه ممدود بشكل غريب للأمام، لم نكن نرى أبداً الكرسي الذي كان يجلس عليه لأنه يصبح مثل كرسي الأطفال في الروضة تحت جسمه العملاق. لم نكن نعرف حينها معنى المسيحي ولا اليهودي، فلم نسمع بغير كلمة "كافر" لوصف كل من يخالفنا في الدين، كنا نكره "جرجس" دون سبب واضح، مع أننا كنا نشترى منه الخبز كل يوم.

الخطوة رقم 2

يقوم النظام الديموقراطي على أساس المشاركة الشعبية في صنع القرار، وهو أمر أصبح يتم في البرلمانات حيث يتم التصويت على الاقتراحات المقدمة لتمضي إرادة الأكثرية، وهذا النظام يعتمد بشكل أساسي على مناقشة الاقتراحات ودراستها ومن ثم التصويت عليها، وهنا نكون في الخطوة رقم واحد، وعندما يتم الانتهاء من التصويت على قانون ما واعتماده تتحول الجهود التي كانت تعارضه أو التي كانت تؤيده إلى جهد واحد ومشترك لدعمه وضمان تنفيذه ونجاحه، وهنا ندخل في الخطوة رقم 2 حيث تبدأ عملية متابعة القانون الجديد ورصد نتائجه وآثاره على المجتمع ومصصلحة الدولة.

مشكلتنا في الكويت تكمن في الخطوة رقم 2، فنحن أفضل من يخطط ويقترح ويتكاتف، فليس لدينا مشكلة في الخطوة الأولى، ولكن ما أن يتم التصويت على قانون ما ويعتمد حتى تبدأ جهود المعارضين لإفشاله بدلا من دعمه ومحاولة الاستفادة منه كما يحدث في بلاد الله الواسعة، بل تتحول المسألة إلى عناد وصراع شخصي، وتبدأ عملية الانتقام من الحكومة إذا كان الاقتراح صادرا منها أو من المجلس إذا كان هو صاحب الاقتراح، تصبح المسألة شخصية جدا لدرجة التهديد بإسقاط الوزير أو افشال العضو في الانتخابات، أما القانون ذاته فلا أحد يهتم به أو يكثره، لم تعد المسألة تتعلق بنتائج القانون الجديد وآثاره السلبية أو الإيجابية، بل بتكسير الرؤوس والانتصار الوهمي في صراع وهمي.

مشكلتنا تكمن في الخطوة رقم 2 حيث تسود عقلية الانتقام، وتترعرع مفاهيم الحسد الرخيصة. عندما دعا الرئيس السابق للولايات المتحدة بوش الابن إلى شن الحرب على نظام صدام حسين عارضه من عارضه في الكونجرس، ولكن ما أن تم التصويت على قرار الحرب حتى تحول الجميع إلى مؤيدين ووقفوا جميعا وراء رئيسهم، ليس حبا فيه ولا بقراره، ولكن نزولا عند رغبة الأكثرية، فهكذا يسير النظام الديموقراطي، حتى وإن اعتقد الأقلية بأن القرار خاطئ، فالمسألة تحولت الآن من المناقشة والتصويت إلى العمل

والإنجاز ومن غير المعقول أن تستمر عملية الصراع على إبطال القرار أو القانون بعد إقراره وإلا فما فائدة البرلمان وجلسات التصويت إذا كنا لا نقبل بنتائجها ؟

قد يقول قائل بأن قرار الأكثرية ليس بالضرورة على صواب دائماً، وهناك احتمال كبير أن يكون القانون الذي يعتمد قانوناً خاطئاً ولا يخدم المجتمع بل يضر بمصالح البلاد والعباد، وهذا أمر صحيح وممكن بالتأكيد، فهو جهد بشري تشوبه النواقص والمصالح من كل ناحية، ولكن هناك أيضاً وسائل سليمة يوفرها النظام الديموقراطي أيضاً، ومنها تقييم نتائج القرار بعد تطبيقه من قبل المختصين (مؤسسات المجتمع المدني بشكل خاص)، ومن ثم تقديم تقارير موضوعية حول الآثار السلبية لهذا القرار وبالتالي إعادة التصويت عليه مرة أخرى فإما أن يلغى أو يعدل بنفس الطريقة التي اعتمد فيها أول مرة، وهذه هي الطريقة الديموقراطية السليمة التي يفترض أن نعمل من خلالها، فإما أن نقبل بهذا النظام الديموقراطي ونتبع قواعده وأصوله ونحترم رغبة الأكثرية، وإما أن نكف عن الادعاء بأننا ديموقراطيين ونتوقف عن التباهي بهذه الديموقراطية "الديكتاتورية".

استراحة العيد

تقبل الله طاعتكم وعيدكم مبارك، مضى شهر رمضان سريعا نسأل الله العلي القدير أن يتقبل من الجميع صالح الأعمال. في نفس هذه الأيام من العام الماضي كنت في لندن للعلاج، وفي أول أيام عيد الفطر خرجت من شقتي الصغيرة، أخذت أجوب شوارع لندن علني أجد من "أعياده ويعايدني" فلم أجد أحدا. ما أصعب الغربة عن الوطن وما أقسى الفراق عن الأحباب، كان الله في عون المغتربين أينما كانوا. في الأخير قمت بمعايدة "راعي البقالة" وعدت لشقتي الصغيرة ووحدتي.

قبل أيام وقع لي حادث بسيط مع شاحنة كبيرة، خرجنا من سيارتنا والجميع بخير والله الحمد، مجرد خدوش بسيطة في السيارة. سائق الشاحنة الصعيدي كان في حالة غضب شديدة، أخذ يلومني لماذا لم أتوقف ولماذا لم أنتبه ويصرخ "طب أعمل إيبينيه أنا دلوقتتي؟"، قلت له "يا عم صبرك علي شوي، انت تعورت؟ قال: لااااااااا، قلت: سيارتك جرالها حاجة؟ قال: برضو لااااااااا، قلت: طيب انت حتخطط الحادث وتوزع الأخطاء بكيفك، هو انت خبير بالحوادث؟ قال: لااااااااا، قلت طب استنى لمه تيجي الدورية ونشوف". جاءت الدورية وقام الشرطي بعمل تخطيط بسيط للحادث وأحالنا للمخفر، وفي المخفر عينك ما تشوف إلا النور، عشرات المصابين يجلسون في انتظار دورهم للدخول على المحقق، الدماء تغطي وجوههم والجبس يحيط بعظامهم من كل جانب، واضح أنهم قد خرجوا لتوهم من معركة حامية الوطيس، واضح أيضا أنهم استخدموا فيها "العجرات" والسكاكين والعقال. المهم انتظرنا دورنا ودخلنا على المحقق بعد ساعتين فقط لا غير، سألني المحقق كيف جرى الحادث، قلت له كيت وكيت، سأل الصعيدي هل هذا صحيح؟ قال: أيوه (أول مرة ما يقول لاااااااا)، قال المحقق: انت غلطان (وأشار إلي)، قلت خير إن شاء الله، قال المحقق للصعيدي: تبي تسجل قضية؟ قال الصعيدي: لااااااااااا بس سيارتي فيها خدش من قوووودام، قال له المحقق: يعني تبي تسجل قضية؟ قال الصعيدي: لااااااااا، خلاص مسامح وربنا كريم. خرجنا من المخفر وشكرت الصعيدي على تسامحه، قال لي وهو يبتسم: مش قووولت لك انت اللي غلطان أصل بالعقل كده لو أنا اللي غلطان كنت فرمتك فرم (قالها وهو يشير بحركة الفرمة بيديه ويضحك هههه) قلت له:

طب ليه بس تفرمني يا عم، هو أنا عملت لك حاجة؟ قال: لااااااااااا ع مش قصدي، أقصد سيارتي كانت حتقرم سيارتك، أصل لما موأخزة سيارتك صغيرة قوي وسيارتي زي منته شايف. قلت له: أهأ.. عموما حوووصل خير، ومشكور مرة ثانية، ودلوقتي عاوز مني حاجة؟ قال: لاااااااااااااااااااااااااااا ع.

"كوهين الساعاتي" رجل بخيل.. يهودي كلاسيكي، توفي ولده في حادث أليم، فكتب نعيًا صغيرًا في إحدى الصحف البريطانية يقول فيه "ينعى كوهين ابنه الذي توفي في حادث أليم، ويذكر زبائنه بأن المحل مفتوح ومستمر في خدمتهم، ويعلن عن وصول دفعة جديدة من الساعات السويسرية الفاخرة" (حلل فلوس الإعلان وزيادة).

قال الرئيس القذافي للرئيس الفرنسي ساركوزي: انتو طلعتوا القمر لكن احنا راح نسبقكم ونطلع للشمس. ضحك الرئيس ساركوزي ورد عليه: ساعتها راح تحرقكم الشمس، قال الرئيس القذافي: لا احنا منتبهين للنقطة هذي، راح نروح بالليل مش بالنهار !

منهم سوى عنفهم وتعنيفهم وغضبهم الجامح بلا سبب. قال أينشتاين "التعليم هو ما يتبقى للمرء بعد أن يترك المدارس".

الدين والنظم الاجتماعية

إن أي تنظيم اجتماعي يتضمن معنيين الأول وظيفي يتعلق بالجهود المبذولة من أجل تحقيق أهداف معينة مثل تأمين السلع والخدمات، والثاني بنائي يتعلق بما ينشأ عن هذه الجهود من "نظم اجتماعية" تختص بتحقيق المعنى الوظيفي كالنظام التعليمي والنظام الصحي والنظام الاقتصادي والسياسي وكذلك الديني. بهذا المعنى نفهم أن الدين (أي دين سماوي أو غير سماوي) هو في النهاية "نظام اجتماعي" له ماله وعليه ما عليه كسائر الأنظمة الاجتماعية الأخرى مادامت هناك مجموعة من الجهود والعناصر التي تهدف إلى تحقيق شيء (العبادة والمعاملات) ويمارس داخل المجتمع بصورة جماعية.

من الغريب ألا تتضمن صحائف التخرج في جميع تخصصات كلية الشريعة أي مقرر عن علم الاجتماع، ولذلك نلاحظ أن معظم الدراسات والأبحاث الشرعية مغلقة على ذاتها وتدور في حلقة الصراعات ذاتها التي انطلقت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تقدم هذه العلوم حلولاً عملية ناجحة للمشكلات الدينية ذات الطابع الاجتماعي البحت. الإسلام يتضمن إلى جانب العقيدة والعبادات جانب المعاملات (وهنا نكون بالتحديد في مجال علم الاجتماع) وبالتالي من غير المعقول فصل الشريعة عن فهم المجتمع وطبيعة التغيير الاجتماعي، بل حتى العبادات ذاتها والأحكام المتعلقة بها تتطلب فهماً جيداً للنظريات الاجتماعية حتى نضمن عملية ضبط الفتاوى الشرعية، وليس أدل على ذلك من الخلاف الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية حول الحجاب والعصمة وخروج المرأة والتعاملات التجارية وغيرها بسبب غياب الدراسات الاجتماعية عن دائرة البحث الشرعي. ومن هنا أعتقد أنه من الضروري أن تتضمن مناهج كلية الشريعة بجميع تخصصاتها مقرر مبادئ علم الاجتماع لفهم هذا العلم ومصطلحاته الأساسية، ومقرر النظريات الاجتماعية لفهم طبيعة النظم والظواهر الاجتماعية والتفسيرات المختلفة لها على الأقل حتى يسهل بعد ذلك فهم الدين وتقديمه للمجتمع بصورة سليمة.

أما الأغرب فهو الحديث عن اتجاهات دينية تتأرجح بين العودة للتراث (الاتجاه السلفي) والقطيعة مع التراث (الاتجاه الليبرالي) والاتجاه التوفيقي بينهما بمعزل عن مبادئ علم الاجتماع، مع أن الحديث هنا وإن كان دينياً إلا أنه يتعلق بالمجتمع، فالحل في تصور

الاتجاه السلفي الذي يرى أن "المجتمع" الإسلامي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين هو النموذج المثالي الذي ينبغي أن يحتذى، لا يقول لنا هل من الممكن فعليا تكرار تجربة هذا المجتمع في الوقت الراهن، هل هناك أوجه تشابه بين خصائص المجتمع الإسلامي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والمجتمع الإسلامي الحديث؟ فالحديث هنا عن "مجتمع" ولا بد من فهم أبعاده وطبيعته ونظمه قبل الحكم على ما يصلح له وما لا يصلح. وفي المقابل لا يزال البحث "الشرعي الاجتماعي" غائبا حتى اليوم عن كثير من المسائل التي تشكل عصب الخلافات في المجتمع الإسلامي الحديث، ومن أهمها الخلاف المذهبي والطائفي الناتج عن عدم التمييز بدقة بين ما هو إلهي قطعي وما هو اجتماعي متغير.

مناهاات

وحيدا كان يسير على كورنيش الروشة في إحدى ليالي بيروت الباردة، منظر البحر وخطى العشاق وانعكاس الأضواء على سطح الماء كلها كانت تخرق في أعماقه أسوار الضجر. فاجأته بندائها من بعيد: تعال.. تعال أقولك. سيدة في منتصف العمر تلبس ثيابا بدوية، ربما كانت من الجنوب، توقف وفي لحظات مرت بسرعة أخذ يقلب الاحتمالات، فماذا عساها تريد؟ ربما تكون متسولة، لا بأس سأعطيها ما تجود به النفس، قد تكون "نصابة"، أستغفر الله كيف حكمت عليها بهذه السرعة!

خطواتها بطيئة، لماذا لا تسرع؟ اقترب هو لتقليص المسافة، وتقليص حالة الفضول أيضا.

قالت له السلام عليكم يا "خوي"، وعليكم السلام أهلين، تعال أشوف لك الفال، مشكورة لا أريد. ومضى في طريقه غير أنها ألحت عليه، وظلت تتبعه في خطاه. تعال أقولك وأعلمك الصحيح، يا ستي مشكورة لا أريد "واستمر في المسير"، تعال أقولك على اللي شاغل بالك و...، اللي شاغل بالي أعرفه ولا أحتاج إلى أحد ليخبرني عنه فأرجو أن تتركيني "ومضى غير أنها لاتزال تحت الخطى من ورائه، وتصر على أن تدخل قلبه وتحفر في أعماقه"، تعال أشوف لك الفال، اسمعني بس ولا تعطيني شي "يستمر في المشي دون أن يرد"، أقولك لا تعطيني فلوس بس اسمعني.. هذا مو دجل لا تخاف، أشوف لك النصيب بس. نصيبي أخذته خلاص "يبتسم".

لا مو خلاص "قالتها بثقة"، تسارعت النبضات في قلبه، وتزايدت كمية الدماء في عروقه، لاحظت ارتبাকে فزادت عليه: انت تحب، عطني ايدك وأنا أقول لك اللي يريح بالك. بضع قطرات من العرق بدأت تتصبب من جبينه، أصبح غير قادر على إخفاء حالة الارتباك في محياه، يعرف في داخله أنها تكذب، أنه دجل وشعوذة، غير أن الفضول جارح قالت: طيب أقولك اسمها علشان تصدقني؟ توقف، التفت ناحية اليمين وأطلق بصره إلى "صخرة الحب" في عمق البحر، تردد.. أنفاسه تتصاعد، تردد أكثر.. ثم وفي لحظة استسلام قال:

طيب.. تفضلني يدي وقولي ما عندك، ولكن بعدها تتركيني أوكي؟ ردت بضحكة غجرية:
yes.. تراني أحجي انجليزي بعد ههههه.

ضحكتها باردة، وشعوره بالفضول بات أقوى. قالت: اسمها (...)، رعشة خفيفة أصابت أطرافه.. تصلبت شرايينه.. وتحجرت مقلتاها، صمت للحظات كن كالأعوام، أخذ يستغفر ويقرأ المعوذات ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكنها ظلت تهمهم وتزيد عليه وتؤمله بما يخبؤه له القدر، واصل المشي وهو اجس الكون كلها أصبحت تدور في رأسه، واستمرت هي تتبعه، باتت تزعجه، مثل حصاة في حذائه، لكنه سارع الخطى... وفي لحظتين من الزمان غاب عنها، وكأنه يريد الهرب من سماع شيء قد يحبسه في دهاليز ذلك العالم المرعب!

جدار برلين

بعد أيام ستحتفل ألمانيا ومعها العالم بذكرى مرور 20 عاما على سقوط جدار برلين، ذلك الجدار الذي قام عام 1961 ليمزق ألمانيا ويفرق شعبها ويفصل العالم إلى كتلتين شرقية شيوعية وغربية رأسمالية بكل ما يحمله ذلك التقسيم من ويلات ومعاناة كابدها ملايين البشر لسنوات عديدة بلا معنى.

جدار برلين لم يكن مجرد حجر يعزل الشعوب عن الالتقاء، بل كان وسيلة للتمييز بين الناس فتسبب في تغيير مسيرة التاريخ وملامح الثقافة.

واليوم عندما ينظر المرء إلى ألمانيا بعد تلك التجربة القاسية والدمار الهائل الذي خلفته تلك الحروب العنيفة يجد نفسه مذهولا أمام عظمة هذا الشعب الذي تجاوز كل آلامه وطوى صفحة مظلمة من تاريخه ليصنع من جديد دولة موحدة وعظيمة قدمت للبشرية أضعاف ما أخذت. فتحية لهذه الشعوب الحية التي تتعلم من أخطائها وتتجاوز مآسيها وتنهض فوق خرائبها.

قبل أيام وفي شهر مايو الماضي تحديدا احتفلت اليمن أيضا بذكرى مرور 20 عاما على الوحدة بين اليمن الشمالي واليمن الجنوبي، وبعد أقل من شهر واحد قامت بين أبناء البلد الواحد حرب أهلية وأصوات تنادي بإلغاء الوحدة والانفصال والعودة إلى المربع الأول، إلى حالة حرب بدائية.

وبعد أيام قليلة أيضا ستحتفل الكويت بذكرى مرور 18 عاما على تحريرها من الاحتلال العراقي، بعد أن احتفل العراقيون أنفسهم قبل أيام بمرور 6 أعوام على خلاصهم من ذاك النظام الدموي البائس، ومع ذلك نجد أنفسنا اليوم في حالة شد وصراع مع هذا البلد واجترار لخطاب ثوري حصد أرواح الملايين من الأبرياء بلا ذنب.

أوروبا عانت من ماضيها ولكنها تجاوزته وبنّت على أنقاض ذاك الماضي حضارة إنسانية تنهل من معينها شعوب العالم أجمع، استبدلت أنظمتها الشمولية بأنظمة ديمقراطية يتم

فيها تبادل السلطة بتنافس سلمي وحضاري فتقدمت، ونحن لا نزال نجتر الماضي ونعيش على الصراعات الاثنية والعرقية والدينية ذاتها منذ عصر الجاهلية ولا نزال نستخدم كلمات مثل أبناء القبائل والعوائل والمناطق الداخلية والخارجية وكأن الزمن ثابت عندنا لا يتحرك، صراعنا لا يختلف عن صراع أجدادنا الذين اقتتلوا 40 عاما بسبب سباق للخيل، إنها العقلية ذاتها والعناد ذاته، عقلية "داحس والغبرا" والصراع على السلطة والثروة وملايين الجوعى يبحثون عن رغيف العيش، مشاكلنا بدائية جدا نعيش في 2009 بعد الميلاد وكأننا في 2009 قبل الميلاد.

شعوب العالم تتقدم وتطور أنظمتها ووسائل ترفيهها وجماليات مدنها ونحن لا نزال نبحت في الأسس البدايات ونفرح ونحتفل بمناسبة "مصافحة" زعمائنا وقادتنا وبناء نهضتنا وتقدمنا وتطورنا الوهمي، فماذا قدمنا للبشرية؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق، فنحن أمة تعيش على أقبح ما في ماضيها من تقاهات.

عشرون عاما فقط مضت على سقوط جدار برلين وقيام وحدة أوروبا ونهضتها من جديد، خمسون عاما فقط مضت على نهضة كوريا وتقدمها، 30 عاما فقط مضت على نهضة ماليزيا وتفوقها، 10 سنوات فقط مضت على تحول سنغافورة من بلد متخلف إلى البلد الخامس بالتعليم على مستوى العالم، وانظروا إلى تركيا وإيران والهند والصين واليابان، انظروا إلى العالم من شرقه إلى غربه فماذا تجدون؟ كل شعوب العالم تتطور وتتجاوز ماضيها إلا نحن أمة التخلف والفوضى لأن العقل العربي على ما يبدو ليس فيه خلايا التفكير المنطقي الموجودة في عقول بقية البشر.

تلغراف هوفل !

يرى كثير من المؤرخين أن الهولوكوست كانت من أكثر عمليات الإبادة الجماعية تنظيماً وتطوراً إذ كان لدى السلطات النازية "قائمة" دقيقة بأعداد وأسماء وعناوين اليهود المراد تصفيتهم، ومن بين الوثائق المهمة في تلك المرحلة تلغراف أرسله هيرمان هوفل (الرجل الثاني المسؤول عن عمليات التصفية) إلى هتلر يخبره عن تطور العملية وأعداد اليهود الذين تمت تصفيتهم في غرف الغاز حتى أصبحت هذه الوثيقة (تلغراف هوفل) أحد أهم الوثائق التي استند إليها اليهود في محاكمات نورمبرغ. لا أعرف لماذا أتذكر هذا التلغراف كلما قرأت البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية والتي تتحدث فيها "قوائم" بأسماء وعناوين وأرقام حسابات البنوك لعدد كبير من المواطنين ممن قاموا بتصفح مواقع إباحية أو تجمهروا في ساحة الإرادة للتعبير عن رأيهم و"سخطهم" من ضعف الحكومة وجمودها.

لا أستطيع أن أقنع صراحة بأن هدف وزارة الداخلية من هذه القائمة السوداء حماية المواطنين من تصفح المواقع الإباحية، وإلا فأين دورها من القنوات الفضائية وأجهزة الاستقبال المفتوحة التي تباع علناً بالمحلات، وأين دورها من شقق الدعارة التي يعرفون مواقعها جيداً ويعرفون مرتاديه، وأين دورهم من "مصانع" الخمور المحلي في الجليب وغيرها والتي أصبحت مناطق غير كويتية بالكامل، وأين دورهم من تحرشات المراهقين ببنات خلق الله في الأسواق والشوارع، وأين دورهم من حرب الشوارع التي باتت تحصد أرواح البشر بالمئات في حوادث عبثية، وأين دورهم من العمالة السائبة الذين يتسولون عند إشارات المرور وأين.. وأين؟ لو كانت وزارة الداخلية حريصة بالفعل على حماية المجتمع من السلوكيات الضارة لوجهت جهودها إلى هذه المظاهر التي تهدد أمن المجتمع بدلاً من تفرغها للتجسس على عباد الله وتشكيل قوائم بأسماء وعناوين وأرقام تشبه قوائم النازيين ضد اليهود.

يا لها من انتكاسة كبرى أن تتحول الكويت، هذا البلد الذي يفخر أهله بمساحة الحرية والأمان، إلى دولة بوليسية تطارد وزارة الداخلية فيها المواطنين وترصد تحركاتهم وتتجسس على تصرفاتهم الشخصية وتدون لهم قوائم وتنصب كاميرات مراقبة في أماكن

تجمعاتهم السلمية، ولا ندري أي مصيبة أخرى في جعبة "حماة الوطن" ربما تكشف عنها الأيام القادمة. قائمة وزارة الداخلية السوداء وتصريح المسؤولين عنها لا تدل إلا على لغة تهديد مبطن تشبه لغة تهديد المحافظين الجدد لدول العالم، فهي قائمة مفتوحة وتتسع بالتأكيد لكل شخص غير مرغوب فيه، تماما كما اتسعت قائمة "الإرهابيين" عند المحافظين الجدد.

مقتطفات من خطاب كلينتون

ألقت السيدة هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأميركية خطابا في مجلس العلاقات الخارجية تضمن العديد من النقاط المهمة، ولكن الأهم في هذا الخطاب ربما يكون في "قيم" العمل التي أصبحنا نفتقدها في الكويت مع الأسف الشديد، فتأملوا في خطاب السيدة كلينتون وكيف تتحدث عن الرئيس أوباما الذي نافسته على الرئاسة وحاولت جاهدة التفوق عليه للوصول إلى البيت الأبيض، انظروا كيف تحول التنافس إلى تعاون بعد انتهاء الانتخابات لأن الهدف الآن هو مصلحة أميركا، فأين نحن من هذه القيم ولماذا يتحول التنافس عندنا إلى صراع وخصومة فاجرة تستخدم فيها كل الممنوعات؟ وقبل أن نورد مقتطفات من خطاب السيدة كلينتون لأبد من تقديم كلمة شكر للأخ العزيز حاتم قربي المسؤول الإعلامي بالسفارة الأميركية الذي زودنا بهذه المادة.

"لقد قادنا الرئيس أوباما إلى التفكير خارج الحدود المعتادة، فقد أطلق حقبة جديدة من التواصل القائمة على المصالح المشتركة، والقيم المشتركة والاحترام المتبادل، ونحن نتجه إلى الأمام، وبالاعتماد على عوامل قوة أميركا الفريدة، علينا الدفع قدما بهذه المصالح عبر الشراكة وأن نروج للقيم العالمية عبر قوة قوتنا وعبر تمكين الناس، وبهذه الطريقة، نستطيع صوغ الاتفاق العام العالمي المطلوب لدحر التهديدات وإدارة المخاطر واغتنام فرص القرن الحادي والعشرين، أميركا ستظل دائما قائدا عالميا ما دمنا مخلصين لمثلنا ونتبنى الاستراتيجيات التي تناسب الزمن الذي نعيشه، وعليه فإننا سنمارس القيادة الأميركية لبناء الشراكات وحل المشاكل التي لا تستطيع دولة لوحدها حلها، وسوف نتبع سياسات لحشد المزيد من الشركاء وتحقيق النتائج. وفي تعاطينا مع السياسة الخارجية، علينا أن نتعامل مع القضايا الملحة، المهمة، والطويلة الأجل في وقت واحد. غير أنه وفي حين أننا نضطر إلى القيام بأكثر من مهمة في وقت واحد يجب أن تكون لدينا أولويات، وهي التي لخصها الرئيس أوباما في الخطاب التي ألقاها من براغ إلى القاهرة، فموسكو وأكرانيا. إننا نريد عكس مسار انتشار الأسلحة النووية، ومنع استخدامها، وبناء عالم خال من تهديداتها. نريد أن نهزم وندحر الإرهابيين ونتصدى للمتطرفين العنيفين مع التواصل مع المسلمين حول العالم. نريد أن نشجع ونسهل تحقيق سلام شامل في الشرق الأوسط. نريد السعي إلى تحقيق تعاف ونمو اقتصادي عالمي - عن طريق تقوية

اقتصادنا، والدفع قدما بأجندة تنمية نشطة، وتوسيع التجارة الحرة والمنصفة، وزيادة الاستثمارات التي توفر فرص العمل الكريمة.

نريد أن نتصدى للتغير المناخي، وأن نزيد أمن الطاقة، وأن نضع الأساس لمستقبل مزدهر تستخدم فيه الطاقة النظيفة. نريد أن ندعم ونشجع الحكومات الديمقراطية التي تحمي الحقوق وتقدم النتائج لشعوبها. ونعتزم الدفاع عن حقوق الإنسان في كل مكان. وسواء في أميركا اللاتينية أو في لبنان أو إيران أو ليبيريا، فإن أولئك الذين تلهمهم الديمقراطية، أولئك الذين يفهمون أن الديمقراطية هي أكثر من مجرد إجراء الانتخابات – أي أن عليها أيضا أن تحمي حقوق الأقليات وحرية الصحافة وعليها أن تبني أجهزة قضائية قوية، كفاءة ومستقلة، وتبني المجالس التشريعية والوكالات التنفيذية، والملتزمة بالديموقراطية لتقديم النتائج – هؤلاء الناس هم الذين سيجدون أن الأميركيين هم أصدقائهم، وليسوا خصومهم. وكما أوضح الرئيس أوباما في غانا الأسبوع الماضي، فإن هذه الحكومة ستدافع عن الحكم الشفاف الخاضع للمحاسبة، وستدعم أولئك الذين يعملون لبناء المؤسسات الديمقراطية أينما يعيشون.

لقد أقيمت مؤسساتنا العالمية والإقليمية لعالم خضع لتحول، وبالتالي يجب تحويلها وإصلاحها كذلك. وكما أعلن الرئيس أوباما عقب قمة الدول الثماني الأخيرة في إيطاليا، فإننا نسعى لمؤسسات "تجمع بين الكفاءة والقدرة على العمل بصورة جامعة". ومن الأمم المتحدة إلى البنك الدولي، ومن صندوق النقد الدولي إلى مجموعة الدول الثماني ومجموعة العشرين، ومن منظمة الدول الأميركية وقمة الأمريكيتين إلى منظمتي آسيان وأبيك – كل تلك وسواها من منظومات لديها دور تضطلع به، إلا أن استمرار حيويتها وكونها ذات أهمية يعتمدان على شرعيتها ومدى تمثيلها، وكذلك قدرة أعضائها على العمل على وجه السرعة وبصورة مسؤولة حينما تنشأ المشاكل.

منذ ما يزيد على 230 عاما قال توماس بين "إننا نستطيع بما يتوفر لدينا من قوة أن نعيد تشكيل العالم من جديد". واليوم، وفي عصر جديد ومختلف جدا، فإننا مدعوون إلى استخدام تلك القوة. وإنني أعتقد أن لدينا الإستراتيجية الصحيحة، والأولويات الصحيحة، والسياسات الصحيحة، ولدينا الرئيس المناسب، كما لدينا الشعب الأميركي المتنوع والملتزم والمنفتح على المستقبل، والآن لم يبق علينا إلا التنفيذ".

لماذا ننكر الهولوكوست ؟

الهولوكوست عملية إبادة وتصفية جماعية ووحشية بكل المقاييس قام بها الحزب الاشتراكي الوطني الألماني بزعامة هتلر ضد اليهود لأنه كان يعتقد أن اليهود أخطر الكائنات على البشرية وأكثرهم شرا وفسادا وكان يسميهم *Unte Menschen*، أي ما دون البشرية، وعندما نتحدث عن هتلر وحزبه النازي فإننا نتحدث عن الغرب الأوروبي المسيحي بالتأكيد، والقتل الوحشي والتعذيب كان ضد اليهود لأنهم خطر على البشرية، فما مصلحتنا نحن العرب والمسلمين من إنكار هذه الإبادة وهي لا تقول أكثر من أن الغرب الأوروبي المسيحي قتل وعذب وشرذ اليهود الأشرار، فهل نريد أن ندافع عن هتلر والنازية والغرب المسيحي مثلا أم أننا نريد أن نقول إن اليهود لم يستحقوا هذا التنكيل من هتلر ورفاقه؟ بحسب ما أعرف فإن هناك عداً بين الدول الإسلامية والغرب المسيحي من جهة ومع اليهود بشكل أكبر من جهة ثانية وبالتالي يفترض - منطقيا - أن يروج المسلمون والعرب أكثر من غيرهم تلك الجريمة الغربية الأوروبية ضد اليهود، لنتأمل على سبيل المثال بعض ما قاله هتلر عن اليهود ليبرر حربه ضدهم، قال هتلر "اليهود هم أسياد الكلام وأسياد الكذب، إنهم جنس حقير وعدو للجنس البشري وسبب كل ما ألم بالبشرية من معاناة، ولو تمكنوا من حكم العالم فسيفسدونه، ولذلك عاهدت الله وعاهدت الشعب أن أخلص البشرية من هذا الجنس الحقير". هكذا كان يرى الغرب الأوروبي اليهود وهذه بالمناسبة لم تكن نظرة شخصية من هتلر فحسب، بل كانت نظرة غالبية المسيحيين قبل تمكن اليهود من استصدار "صك الغفران" لهم من البابا ويكفي أن نتذكر خطاب الرئيس الأميركي فرانكلين خلال وضع الدستور الأميركي وتحذيره من اليهود ووصفه لهم بأنهم "طفيليات يعيشون بين المسيحيين ليدمروا العالم".

غير أن ما يحدث هو أننا أصبحنا نردد دون وعي مع من يردد إنكار حدوث الهولوكوست والمحرقه وتعذيب اليهود، والسبب واضح وهو أن الكيان الصهيوني استثمر هذه القضية لاستعطاف الولايات المتحدة وحلفائها بعد سقوط برلين وانتحار هتلر، فما كان منا إلا أن ننكر الهولوكوست وكأن إنكارها يعني قطع الطريق على الصهاينة قبل أن يكسروا خاطر" الأميركيين والانجليز ويكسبوا ودهم ودعمهم، بهذه السذاجة يعمل العقل العربي المبدع !

الهولوكوست حقيقة تاريخية حدثت فعلا وتم خلالها تعذيب ملايين اليهود وقتلهم بأبشع وسائل التعذيب والقتل وحشية ودموية، وغرف الغاز التي كان أتباع هتلر يحرقون فيها اليهود لاتزال آثارها شاخصة حتى اليوم في بولندا وألمانيا والنمسا، وهذا دليل واضح على وحشية القاتل الذي يحاول أن يعطي العالم اليوم دروسا في الإنسانية ويصنف الدول إلى دول إرهابية ودول معتدلة، صحيح ان الغرب تغير بعد سقوط جدار برلين وتجاوز هذه التجربة القاسية، ولكن هذا تاريخهم وعليهم أن يعرفوه قبل أن يتحدثوا عن تاريخ الآخرين. فلماذا ننكر نحن هذا التاريخ الأسود الذي يدل على وحشية القاتل وخبث المقتول، كان حريا بنا أن ندافع عن حقيقة الهولوكوست ونوضح للعالم أجمع حقيقة الغرب وحقيقة اليهود على مر التاريخ، وأن نسأل لماذا قتل هتلر اليهود بالذات وحرقتهم في غرف الغاز واقتلع أعينهم وأسنانهم وهم أحياء وجعلهم "فئرانا للتجارب الطبية" بكل هذه القسوة والوحشية؟ فالمشكلة ليست في المسلمين والعرب الذين يعادون اليهود، مع أن من حقهم أن يفعلوا ذلك لأن الصهاينة يحتلون أرضهم ويدنسون مقدساتهم، المشكلة في اليهود أنفسهم الذين لا عهد لهم ولا أمان وهي حقيقة تاريخية مؤكدة ويعرفها حتى الغرب المسيحي الذي قام بقتلهم والتنكيل بهم أبشع تنكيل، ومع هذا تجدنا ننكر بكل سذاجة وسطحية تلك المحارق وكأننا نريد أن نقول إن هتلر الزعيم الأوروبي الغربي المسيحي لم يكن سفاحا ومجرما واليهود لم يستحقوا ذلك التعذيب والقتل الجماعي.

لست على أي حال من دعاة القتل وتعذيب البشر حتى إن كانوا من الصهاينة، فهم لصوص اغتصبوا أرضا ليست لهم، فإما أن نقاتلهم قتال الفرسان وإما أن "نخرس" خرس الجبناء كما نفعل اليوم، ولكنني أستغرب من العقلية والمنطق الذي يسير عليه العقل العربي، ذلك العقل الذي على ما يبدو لا يسير على منطق معقول بقدر ما "يتدحرج" حسب الريح.

مدارات

مؤلم أن تكتشف حين تتأمل في حياتك أنك تدور في مدارات، كلما انطلقت من نقطة تجد نفسك بعد فترة تعود إليها من جديد، أن حياتك مجرد أحداث تتكرر كل عام، كل شهر، كل يوم، وأنت في هذا كله إنما تمضي إلى نقطة محددة، موتك. دوائر... حياتنا كلها دوائر تشبه مسارات الأفلاك في دورتها حول ذاتها، الكون كله يدور وكأنه "اسطوانة" تطلق من صندوقها العتيق حكاية العالم.

غريبة هي علاقاتنا بالأمكان والأشياء والأشخاص، غريبة بمعانيها ودلالاتها المتحولة، قلوب الناس صناديق مغلقة، تدنيك وتقصيك، حالها كحال المطارات و منافذ السفر، تراها أماكن مشرقة عند اللقاء، وأماكن موحشة عند الرحيل. الدرب إليها واحد غير أنه يتحول في داخلنا بين البعد والقرب بتحول المشاعر، كالمنازل التي تتحول بتحول ساكنيها، تعمر بهم أحيانا وتضيق بهم أحيانا أخرى، تلك هي حال القلوب، وما أبشع أن تتحول القلوب إلى "مطارات"، تعج بالمسافرين دون أن تكترث لأحد منهم، وجوه تمضي دون التقاء، طوابير من البشر تعبر بلا انتهاء، بلا تواصل إنساني، دمة هنا.. وابتسامة هناك.

ولكن عندما تتحول المسارات العابرة من خطى في دوائر مبعثرة، إلى خطوات مبرمجة وممزوجة بالأحاسيس، عندما تتحول النظرات إلى مشاعر والنبض إلى معاني، عندما تصبح اللحظة أكبر من مجرد خفقة قلب، عندما يورق غصن ما، في مكان ما، تعلم حينها أن شخصا ما قد "حل" في قلبك، لا كمسافر أو عابر سبيل، وإنما كجزء من كيائك، تدرك حينها أن الأرض أكثر رحابة، وأن القلوب يمكن أن تصبح ملتقى للأحباب، أنها "أوطان" وليست صالة مطار.

بيني وبينني مسافة، أكبر من مساحات الوقت، بآلامه وأحزانه وهمومه الكثار، أطول من تعاريج الزمان على وجوه العجائز، وأشد من قسوة الدموع عند الجنائز، بيني وبينك فضاء يمتد أمامي كالبحر، كعالم مظلم، كحفرة بلا قرار... كابوس مرعب أن تمتد يديك عبر المجهول، فلا تقبض فيهما غير الفراغ، بلا انتهاء، ولا شيء غير السراب.

البنية التحتية والبنية الفوقية

استخدم مفهوم البنية التحتية للدلالة على المجتمع بأفراده ومؤسساته المدنية، ومفهوم البنية الفوقية للدلالة على السلطة في الدولة (الحكومة والبرلمان والقوانين بمعنى أدق)، وهي مفاهيم تختلف بالتأكيد عن استخدامها العلمي كما قال بها ماركس وجرامشي بشكل خاص، وذلك بهدف طرح فكرة جديدة حول التدهور الاجتماعي الذي تعاني منه الكويت اليوم.

تنسب معظم الأطروحات التي تحاول تشخيص المشكلة الاجتماعية في الكويت أسباب هذا التدهور إلى الحكومة أو البرلمان أو التشريعات أو كلها معاً، أي إلى البنية الفوقية بمفهومنا في هذا المقال، ولذلك من المنطقي أن تقدم هذه الأطروحات محاولات وأفكاراً وحلولاً للخروج من هذا التدهور تتعلق بالبنية الفوقية، حلولاً تتعلق بإصلاحات في مجلس الوزراء أو في مجلس الأمة أو في الدستور معتقدين أن إصلاح الخلل في البنية الفوقية سيؤدي بالضرورة إلى الإصلاح في جميع مؤسسات الدولة وبالتالي الخروج من عنق الزجاجة. ربما لا أحد يختلف على وجود خلل كبير في البنية الفوقية (خاصة في الحكومة والمجلس)، ولكن في باعتقادي الحل يجب ألا يتجه إلى البنية الفوقية وإنما إلى البنية التحتية، إلى المجتمع ذاته بأفراده ومؤسساته المدنية، فالخلل تحت وليس فوق.

تتكون الدولة الحديثة من مؤسسات تنظم شؤون ومصالح المجتمع (الوزارات والهيئات)، ومن يقود هذه المؤسسات ويديرها ويرسم سياساتها وينفذ قراراتها ويستفيد منها هم أفراد المجتمع، وللوصول إلى أفراد صالحين يؤدون واجباتهم بنزاهة وفاعلية ويأخذون حقوقهم بأمانة نحتاج إلى عملية تنشئة اجتماعية سليمة، والتنشئة الاجتماعية عملية معقدة تشترك فيها عدة مؤسسات أهمها الأسرة، النظام التعليمي، والنظام الديني، وهنا نحن نتحدث عن البنية التحتية والتي تعاني من الخلل.

الأسرة بصورة عامة تقوم بتنشئة أبنائها بصورة نمطية وفقاً لقاعدة (اسمع الكلام)، النظام التعليمي نظام فاشل يكمل هذه المسيرة ويحول الفرد (الطالب) إلى قرص لتخزين المعلومات واسترجاعها وقت الاختبار لا أكثر، والنظام الديني يرسخ فيهم كل ذلك ويمنعهم

من أي محاولة للتفكير، والنتيجة أفراد محرومون من استخدام عقولهم إلا بتوجيه من إنسان آخر، من الأب أو كبير العائلة أو شيخ القبيلة، من المعلم والمسؤول المباشر والمدير، ومن رجل الدين والمفتي (كهنوت)، ولذلك لا عجب في أننا مهووسون بفكرة "المخلص" والزعيم والقائد الملهم.

الآن، هل تعتقدون أن إجراء تغيير وزارتي في الحكومة، وطريقة توزيع الحقائق الوزارية، أو تغيير بعض الوجوه في البرلمان (ودخول وجوه نسائية كما يعتقد البعض أنه سيكون الخلاص) أو تغيير بعض مواد الدستور سيؤدي إلى أن تتحول الكويت إلى بلد ديموقراطي ومتحضر ودولة متقدمة في شتى المجالات؟ ماذا عن الرشوة التي استشرت بين صغار الموظفين، وماذا عن الفوضى والاستهتار بقوانين المرور في الشوارع، ماذا عن التزام الموظفين بإنجاز أعمالهم، وماذا عن احترام الطابور واحترام الرأي الآخر واحترام اللوائح والنظم وو.. الخ؟ باختصار قد نحصل على حكومة ممتازة وبرلمان ممتاز وقوانين ممتازة تفرز كلها مشاريع ممتازة ولكن عندما يبدأ العمل، سيبدأ "الأفراد" باختراق القانون، والنهب والسرقة وتوزيع المناصب على الأقرب فالأقرب وليس على الأكفأ فالأكفأ.. الخ، باختصار أكثر هناك خلل في البنية التحتية للمجتمع، فإذا كنا نريد مجتمعا جيدا علينا إذن أن نتجه إلى معالجة الخلل في النظام التربوي غير الرسمي (الأسرة) والرسمي (المدرسة والمسجد).

"فضاوة الألمان"

كنت أتابع قنواتي المفضلة "دويتشه فيله" فشاهدت كيف يتعامل الألمان مع المشكلة العويصة التي تدور حاليا بين رئيس بلدية مدينة ميونيخ الجميلة والعازفين الهواة الذين يمارسون هوايتهم في الطرقات الرئيسية والأسواق، ومع نهاية البرنامج اكتشفت أن الألمان شعب "فاضي"، عكس الشعب الكويتي "المليان" بالقضايا الكبيرة والمثقل بالهموم التي تشغل الجميع بلا استثناء حتى الأطفال في بطون أمهاتهم.

تصوروا أن الألمان المساكين مشغولون بمسألة مثل هذه بعد أن أصدر رئيس بلدية ميونيخ قرارا يمنع بموجبه العازفين الهواة من ممارسة هوايتهم في الأسواق والأماكن السياحية لأنه يعتقد أنهم يشوهون الصورة الجميلة لهذه المدينة الرائعة من خلال عزفهم غير المنظم والعشوائي الذي قد يزعج السياح.

الأغرب من ذلك أن هؤلاء العازفين الهواة لم يتجهوا إلى البرلمان ولم يحرضوا نوابهم على رئيس البلدية ولم يكفروه بالتأكيد، مع أنه تسبب في قطع أرزاقهم من "الخردة" التي يحصلون عليها من كرم السياح، وإنما توجه بعضهم مباشرة إلى رئيس البلدية، وصدق أو لا تصدق، الرجل كان موجودا في مكتبه ولم تقل لهم السكرتيرة إنه في اجتماع، ثم تحدثوا إليه بكل هدوء وأبلغوه بأنهم لا يقصدون إزعاج السياح ولا يفرضون على أحد أن يدفع لهم شيئا، فلماذا يحرمهم من ممارسة هوايتهم "وأكل عيشهم"؟ فما كان من الرجل إلا أن تجاوب معهم وقرر أن يدخلهم في دورات لتعليم أصول الموسيقى الراقية على أيدي أساتذة متخصصين وعلى حساب البلدية، تخيلوا بهذه البساطة خرج الجميع وهم سعداء دون أن تستقيل الحكومة أو يحل البرلمان.

ألم أقل لكم إنهم شعب "فاضي" ومسكين، فلو كانت عندهم مشاكل حقيقية في نظام تعليمي يتغير كل نصف ساعة، ومشاكل حقيقية في نظام أمني يتحول إلى نظام بوليسي قمعي يراقب الناس ويرصد تحركاتهم ويتنصت على أحاديثهم ويراقب حتى نزواتهم في تصفح الانترنت، ولو كانت عندهم مشاكل حقيقية بين سكان مقاطعة بافاريا وسكان هامبورغ أو برلين أو هانوفر، ولو كان عندهم 7 أنواع للجنسية الألمانية تصنف المواطنين

إلى فئات وطبقات وتقسّمهم إلى أصحاب "حظوة" ومواطنين من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، ولو كانت الكهرباء تنقطع كل يوم عن بيوت الألمان المساكين ولو كانت فيها جامعة واحدة منذ 60 عاما وأولادهم يتشردون هنا وهناك لتحسين أوضاعهم ويتلاعب بمستقبلهم "تصريح" هنا وتصريح هناك ولو كان في ألمانيا 2 مليون من العمالة الهامشية تملأ بلادهم بالجرائم فهل تتوقعون أن تعرض قناة "دويتشه فيله" رجلا فقيرا يحمل جيتارا قديما وهو يناقش رئيس البلدية حول نوع الموسيقى التي يجب أن تعزف في أسواق ميونيخ وطرقاتها الجميلة؟!

فقراؤنا وفقراؤهم

عرضت الفضائيات الإخبارية موجة الغضب ومظاهرات الاحتجاج التي اجتاحت العالم الغربي خلال الأيام الماضية احتجاجا على سياسات حكوماتهم تجاه معالجة الأزمة الاقتصادية العالمية، الغريب في الأمر أن كل تلك الحشود من الفقراء والبسطاء وعامة الشعب الذين خرجوا للتعبير عن رفضهم واعتراضهم على إجراءات حكومات بلدانهم تجاه هذه الأزمة في مختلف البلدان الغربية أنهم عبروا جميعا عن موقف واحد فكانوا وكأنهم يتحدثون بلسان واحد وفكرة واحدة مفادها أن تلك الإجراءات الحكومية غير كافية وهدفها حماية كبار المستثمرين وأصحاب البنوك والأثرياء على حساب باقي أفراد الشعب من الفقراء.

وعندما نتأمل في مضمون هذه الاحتجاجات نجد أننا لا نختلف عنهم في شيء، فعامة الشعب الكويتي غير راض أيضا عن إجراءات الحكومة في معالجة الأزمة الاقتصادية لأنهم أيضا يعتبرونها إجراءات هدفها حماية الأثرياء من الرأسماليين الجشعين الذين تسببوا بجشعهم في انهيار السوق وفشلوا في إدارة مؤسساتهم التجارية والمصرفية والآن يولولون ويهولون القضية ويصفونها بالكارثة من أجل الاستيلاء على ثروات الوطن وليس من أجل الاقتصاد الوطني كما يدعي الكثيرون.

سئل أحد المتظاهرين في بريطانيا: لماذا لا تعطون الحكومة فرصة للعمل على حل هذه الأزمة فربما يأتي الوقت بعد ذلك لحل مشكلة الفقراء بعد الانتهاء من حل مشكلة المصارف؟ فأجاب "كم فرصة يريدون؟ لقد عملت حكومات متعاقبة على دعم الرأسماليين وترسيخ نفوذ الأثرياء على حسابنا نحن الفقراء طوال خمسين عاما وأكثر، كل هذه الأعوام وهم يمارسون ضدنا التمييز وعندما يفشل هؤلاء الأثرياء في إدارة مصارفهم واستثماراتهم نجد الحكومة تسارع لدعمهم ولكنها أبدا لا تلتفت إلينا نحن الأفراد العاديين والفقراء، إننا لم نر سوى مزيد من دعم الحكومة للأغنياء والاحتكار والظلم، أصحاب المصارف هم سبب هذه الأزمة والمتضرر نحن أفراد الشعب والنتيجة أن الحكومة تدعم البنوك وتترك المتضررين الحقيقيين".

هذا الاحتجاج الصادر عن رجل من عامة الشعب البريطاني المتضرر من إجراءات الحكومة البريطانية هو ذاته يتكرر عن الإنسان الألماني والهولندي والنرويجي والفرنسي.. الخ ولا أحد يتهم هؤلاء بالغوغائية ولا أحد يتهم أعضاء البرلمان الذين يدافعون عنهم بالنواب "الشعبيين" أو الفوضويين، ولكن مثل هذا الكلام عندما يقال من المواطن الكويتي البسيط يصبح غوغائية، وعندما يخرج من عضو مجلس أمة يسعى للدفاع عن مصالح الناس يصبح "مشروع تأزيم" !

وَأَدِ الْأَفْكَارَ

كان العرب قديماً يمارسون "وَأَدِ الْبَنَاتِ"، أما اليوم فهم يمارسون "وَأَدِ الْأَفْكَارَ"، وهو نوع آخر من القتل نراه بوضوح في أغلب الحوارات حيث يقمع المتحدث ويمنع من الاسترسال في الكلام وتوضيح رأيه والتعبير عن ذاته وأفكاره، ربما خشية من أن تكبر الفكرة ثم تجلب بعدها "العار".

كم نحن مهووسون بإلقاء اللوم على الآخرين، كل شيء يمكن أن يكون السبب في تراجعنا وتخلفنا إلا نحن، كل الناس وكل الدول وكل الأنظمة هي سبب ما نحن فيه من بؤس، حتى الطبيعة تقف ضدنا عندما توجد علينا ببضع قطرات من المطر يمكن أن تكون سبباً في تعطيل المعاملات ومصالح الناس ووقف عجلة التنمية، أما نحن المواطنين الذين نتهرب من أداء العمل والإنجاز، الذين يقضون ساعات العمل في "السوالف" والأكل وشرب القهوة وتصفح "الجرايد" وحل الكلمات المتقاطعة وترك المراجعين "ملطوعين" بالساعات فلا ذنب لنا على الإطلاق، إننا غير مسؤولين عن هذا الوضع المزري لأن أميركا تحاربنا وأوربا تريد نهب ثرواتنا وآسيا تضمّر لنا الشر وافريقيا تحسدنا، الكون كله هو السبب أما نحن "مساكين ما لنا ذنب".

عندما نشاهد أي برنامج حوارى يضم بعض العقول العربية فإننا في الحقيقة لا نخرج بأي معلومة جديدة ولا نفهم موقف أو أفكار أي من المتحاورين بقدر ما نشاهد عملية "وَأَدِ الْأَفْكَارَ" وعلى الهواء مباشرة بسلاح الصراخ والضرب على الطاولة، فقد شاهدت الكثير من المواقف المضحكة في هذه البرامج المزعجة، والكثير من الطرق "الغوغائية" لقمع الآخر وقتل أفكاره، ولكن أعجب ما شاهدت أن يصرخ أحد الضيوف على الضيف الآخر قائلاً له: "لا تتحدث عن هذا الموضوع" كلما حاول ذلك المسكين أن يتحدث.

وهذا شيء عجيب لا يمكن أن تراه إلا على الفضائيات العربية رحم الله السياب الذي كتب هذه الأبيات التي أعيدها إلى من يهمله الأمر:

النور من طين هنا أو زجاج
قفل على باب سور

النور في قبري دجى دون نور
النور في شباك داري زجاج
كم حدقت بي خلفه من عيون
سوداء كالعار
يجرحن بالأهداب أسراري
فاليوم داري لم تعد داري
والنور في شباك داري ظنون
تمتص أغواري

لدينا نظام ديموقراطي وليس ديموقراطية

الديموقراطية ليست مجرد تسمية لنظام سياسي وصناديق انتخابات، بل هي أيديولوجيا أو "مكون ثقافي" بمفاهيم علم الاجتماع، والمكون الثقافي يتضمن عدة عناصر ثقافية هي بمثابة شروط أساسية لأبد من توافرها.

مشكلتنا في العالم العربي عموما وفي الكويت خاصة أننا نستورد بعض المكونات الثقافية بمعزل عن كثير من عناصرها الأساسية، والنظام الديموقراطي الحالي في الكويت هو مثال واضح على ذلك، فنحن استوردنا "نظام ديموقراطي" أو انتخابي بمعنى أصح، ولكننا استوردناه بمعزل عن عناصره الأساسية مثل الوعي السياسي وحرية القرار الفردي واحترام الرأي الآخر والقبول برأي الأغلبية، ولذلك ليس غريبا أن تخرج أصوات "تهدد" إما بقبول هذا المقترح أو "تخريب" العملية الديموقراطية.

الديموقراطية بوصفها مكونا ثقافيا مثلها مثل بقية المكونات الثقافية الأخرى، كالزواج مثلا فهو منظومة ثقافية تختلف من مجتمع لآخر من حيث العناصر الثقافية المكونة له، فكما أننا لا نتوقع أن ينجح نظام الزواج على الطريقة الكويتية مثلا - بما فيه من عناصر هي من خصوصية المجتمع الكويتي كالخطبة والعانية والسكن في بيت الأسرة وغيرها - في مجتمع غربي مثل المجتمع الأميركي، فإن فرصة نجاح النموذج الغربي في الديموقراطية في بلد لا يزال تحكمه العادات الاجتماعية وتحرك كثيرا من أبنائه كلمة من "شيخ القبيلة" أو "رجل الدين"، تعتبر ضئيلة جدا.

ثقافة المجتمع الأميركي لا يمكن أن تتقبل الزواج على الطريقة الكويتية، وثقافة المجتمع الكويتي لا يمكن أن تتكيف مع نموذج الديموقراطية الغربية مادامت قد بقيت المعايير الاجتماعية التقليدية هي السائدة، ومادام النظام التربوي الرسمي (التعليم) وغير الرسمي (الأسرة، المسجد) لاتزال بعيدة جدا عن تأصيل عناصر هذا المكون الثقافي (الديموقراطية).

مدير إحدى الشركات قام بزيارة لشركة غربية كبرى، أعجب بنظام الاتصالات في هذه الشركة حيث كل المراسلات تتم إلكترونياً عن طريق الكمبيوتر، فقرر أن يشتري هذا النظام ويطبقه في شركته لضمان السرعة وتوفير الأوراق، ثم ذلك وأصبح لديه كمبيوتر في كل مكتب ولكن المشكلة أن الموظفين العاملين في هذه الشركة لا أحد منهم يعرف كيف يعمل هذا الجهاز، كيف يكتب رسالة وكيف يتلقى نشرة وكيف يرسل إعلاناً للموظفين، والنتيجة أن هذه الشركة تملك "شكلاً" نظام مراسلات إلكترونياً متطوراً ولكن الموظفين لا يزالون يتعاملون بأطنان من الورق وبطريقة تقليدية وعقلية شرقية لا تقبل إلا بتوثيق كل شاردة وواردة في سجل الصادر والوارد، ترى في أي شيء تختلف الديمقراطية الكويتية عن هذه الشركة؟

أخبار × أخبار

أصبحت حياتنا سلسلة متلاحقة من الأخبار وخاصة الأخبار السياسية، وأصبح الإنسان العربي اليوم مطحونا بكمية هائلة من الأخبار تطارده أينما حل وأينما توجه رغما عنه، المذيع يقرأ نشرة الأخبار كل ساعة ثم يقرأ موجزا للأخبار كل نصف ساعة، وشريط الأخبار يمر على شاشات التلفزيون على مدار اليوم، وشريط آخر يقفز فوقه بين لحظة وأخرى ليصعقنا بخبر "عاجل"، البرامج الحوارية أغلبها عن السياسة وأخبار السياسيين، الصحف اليومية تعج بالأخبار السياسية، وما بين هذا وذاك يرن جهاز الهاتف النقال في محاولة لإثبات وجوده هو الآخر وسط هذه المعمة الإخبارية ويقول لك "لديك رسالة" هي أيضا خبر سياسي حزين!

مسكين هذا المواطن العربي، حياته رحلة شقاء تمتد من صرخة الميلاد إلى صرخة الموت، لا وقت لديه للاستمتاع بالحياة، فهو مشغول من مطلع النهار إلى منتصف الليل في ملاحقة "لقمة العيش"، مهموم وقلق في كل لحظة من لحظات حياته على مستقبل أولاده، وهو معذور فالواقع مؤلم ومرعب ويكفي أن يفكر مجرد تفكير فيما يمكن أن يفعله لو تعرض أحد أبنائه للمرض وهو يعلم أنه عاجز وأن وطنه لن يبالى به ولا بمرض أولاده.

المواطن العربي مكسور ومهزوم من الداخل، يعلم في قرارة نفسه أن وطنه ليس للجميع وإنما هو لفئة خاصة جدا، وأنه بالتأكيد ليس من هذه الفئة، ولا يملك سوى متابعة "الأخبار" التي تكسر انكساره وشعوره باليأس والخنوع.

الغريب في الأمر أن الإنسان العربي أصبح متقبلا لهذا الوضع وكأنه في حالة عشق مع هذا الألم والمرارة، فهو حتى لا يستسيغ سوى أخبار الحروب ولا يتابع سوى أعداد القتلى من الانفجارات، بل إنه لا يستمتع إلا بمواويل الحزن ولا تطربه سوى "نايات الصبا" ولا تعجبه سوى قصائد البؤس والشقاء ولا ترضيه سوى المسلسلات المليئة بالمآسي والنكد، أصبح في حالة انسجام وتوافق مع الحزن والشعور بالمرارة لدرجة أنه يرفض أي مساحة للفرح والاحتفال ويعتبرها أمورا "دخيلة" على المجتمع، فهو يسمع الأغاني الحزينة (عادي)، أغاني أم كلثوم وفيروز لأنها تبكيه، ولكن أغاني الفرح و"الفرفشة" تصبح

بالنسبة له "مسخرة وقلّة أدب" ويربطها مباشرة بحال "الأمة" التي يجب أن تبقى متشحة بالسواد، هكذا يتقبل الأمر ويتعايش معه ويحارب أي محاولة لتميرير الابتسامة لأنه يؤمن بأنّ الحزن والمعاناة في الحياة الدنيا جزء من كينونة الإنسان.

دمعة وابتسامة

إلى أبي.. في قبره !

ما أسهل المشاعر عندما نختصرها ببضع كلمات! وما أجمل الحياة عندما نختزلها في دمعة وابتسامة! عندما نقنع أنفسنا بأن الموت هو ذروة الحياة، وأنه "حق" علينا جميعا، هكذا نسلي أنفسنا في مواجهة هذا المجهول المرعب ليكون سلاحنا عند الشدائد، ولكن ما أن نواجهه بفقد عزيز، حتى تنهار كل تلك الأسلحة، ويختفي كل ذلك الإيمان المفرط وتسقط كل أقنعة الالتزام والتظاهر بالصلابة، لنجد أنفسنا محاصرين رغما عنا بالحزن والخوف والألم.

ما أبشع الفراق! وما أصعب تأثيره في النفس! نظن أننا قادرون على احتماله عندما تكون الأمور بخير، ولكن ما أن تحين ساعة الوداع حتى نجد أنفسنا في عوالم من الانهيار والشعور بالوحدة المرعبة، نرى أحبابنا كل يوم، لا نبالي لوجودهم بيننا ولا نهتم لانشغالهم أو ابتعادهم أو حتى لسفرهم الطويل، فهم في النهاية موجودون، هكذا نشعر في قرارة أنفسنا، ولكن عندما يموتون، يرحلون، ندرك حينها معنى الفراق وألم اللاعودة، نشعر حينها بأننا نتضاءل حول ذاتنا، نصغر ونصغر حد التلاشي، نشعر بالحزن وربما نبكي، هذه طبيعتنا.

كنت أراقب والدي، رحمه الله، وهو يموت ببطء على سريرته في المستشفى، كنت أشعر بخناجر الألم تجتث أحشائي كلما نظرت إليه وهو مقعد لا يقوى على الحراك، عبثا كان يحاول إخفاء شعوره بالألم عني، كنت أشعر به من الداخل، كنت أرى نظرات الحزن والبؤس في عينيه، وعبثا أحاول رسم ابتسامة بلهاء على وجهي الشاحب، كنا نعرف كلانا أننا كنا نتألم، ألمي عليه وألمه علي !

استمر حديث العيون والحزن العميق هذا لمدة عام كامل، عام من الأوجاع والأثين، صرخاته كانت تفرزني حد الهلع، تبكييني وتحقر الحياة في ناظري حد الشقاء، عجزتي وقصوري عن فعل أي شيء كان مصدر يأس وخنوع دائمين، وها أنا ذا اليوم، بعد مرور

عام آخر على رحيلك يا والدي، ما زلت من بعدك، أكابد نفس الألم، الشعور ذاته والأنين
الصامت كما تركته، ورغم ذلك، ما زلت أعاند نفسي برسم ابتسامتي البلهاء أمام الناس،
بشر نحن، نختصر الحياة في دمة وابسامة !

درست في أميركا

كثيرا ما نلجأ في أحاديثنا مع بعضنا البعض إلى إعطاء مقدمة نعتبرها ضرورية جدا قبل البدء بالكلام، كأن نقول "أنا درست في أميركا وأعرف المجتمع الأميركي" إذا كان موضوع الحوار عن أميركا، أو نقول "أنا درست مادة في الاقتصاد بالجامعة" إذا كان الموضوع عن الاقتصاد، أو نقول "أنا خريج المعهد الديني" إذا كان الحديث في مسألة شرعية، أو نقول "أنا أخذت دورة تدريبية في التعامل مع الآخرين وأفهم الناس" عند الحديث عن شخصية عامة.. الخ هكذا بكل بساطة نلجأ إلى تكوين هالة من العظمة والتخصص لأنفسنا قبل أن ندلي بأي رأي حول أي موضوع.

أما لماذا نلجأ إلى هذا الأسلوب وندعي لأنفسنا القدرة والتمكن من الحديث في كل المواضيع؟ لأننا لا نؤمن بتبادل الآراء ولا نسعى للتعبير عن أفكارنا وأرائنا من خلال الحوار، وإنما نريد "فرض" تلك الاعتقادات والأفكار على الآخرين من خلال إيهامهم بأن ما نقوله هو الصحيح، أنه كلام علمي، أنه "حقيقة" صادرة من شخص متمرس عاش في أميركا أو درس مدخل إلى علم النفس (مش أي كلام يعني).

كنت أستمع إلى اثنين من المعلمين يتناقشان حول مسألة علمية، أحدهما معلم فيزياء والثاني معلم مواد تجارية (إدارة أعمال) فكان الفيزيائي يقول "أنا متخصص في الفيزياء وأتكلم عن علم" عندما كان الحديث عن مفهوم "الحقائق العلمية"، ثم قال "والذي شاعر وأنا مش بتكلم كلام عبط" عندما تحول الحديث إلى الأدب، ثم قال "دراستي أساسا في فلسفة الفيزياء" عندما تحول الحديث مرة أخرى صوب الفلسفة، ثم قال "أنا مهتم بالاقتصاد وقرأت كتبا كثيرة في الاقتصاد" عندما تحول الحديث مرة ثالثة إلى الاقتصاد الإسلامي، وأتوقع بأنه سيكون رجلا خارقا لو استمر الحديث أكثر لأنه على ما يبدو لديه سبب وجيه يجعله قادرا على "فرض" رأيه في كل المواضيع.

واضح إذن أنه لم يكن يريد التعبير عن وجهة نظره أو رأيه، وإنما كان يقول ضمنا "كلامي هو الحقيقة التي يجب أن تأخذ بها". وهذا أمر نلاحظه عند الكثيرين، وهو

أسلوب يمارسه بشكل أبشع كثير من رجال الدين عندما يخلطون آراءهم الشخصية وفهمهم الخاص بنصوص مقدسة ويدعون أن ما يقولونه هو "الحقيقة المطلقة" في الدين، ولذلك ليس من الغريب أن نطلق على علمائنا ألقاباً مثل "بحر العلوم" و"حجة الزمان" و"فريد عصره" وغيرها من أوصاف العظمة ليسهل بعد ذلك اعتبار "كل" ما يقولونه "فرض عين" على كل مسلم.

حقائق وآراء

عندما نقول "هناك لوحة فنية معلقة على الحائط" فهذه حقيقة (على افتراض أن هناك فعلا لوحة فنية معلقة على الحائط)، ولكن عندما نقول "اللوحة المعلقة على الحائط جميلة" فهذا "رأي".

مشكلة عويصة يعاني منها العقل العربي تتعلق بعدم التمييز بين الرأي والحقائق، وأزعم بأن في الخلط بينهما تكمن كثير من المشكلات الثقافية في حياتنا.

الحقائق يحكم عليها من الواقع فإما أنها صادقة أو كاذبة ولا مجال للخلاف الكبير هنا، أما الآراء فالأمر مختلف، قد نقبل هذا الرأي أو نرفضه، نتفق أو نختلف، نوافق عليه أو لا نوافق... الخ وهذا أمر طبيعي جدا بين البشر، ولكنه بكل بساطة – وسذاجة أيضا – يصبح مسألة معقدة في العقل العربي

عندما نقول إن "هتلر رجل نمساوي حكم ألمانيا عام 1933 وانتحر عام 1945" فهذه حقيقة تاريخية لا مجال إلى إنكارها، ولا يوجد ضرورة للاختلاف حولها.

ولكن عندما نقول إن "هتلر ديكتاتور ووحش قاتل ومجرم حرب..".

فهنا ندخل في مجال "الرأي" الذي يحتمل النقاش وعرض الحجج العقلية وبالتالي الاتفاق معه أو الاختلاف.

وهنا علينا أن ننتبه إلى مفهوم "الرأي" وكيفية تكونه في الذهن وتحوله إلى "قناعة" راسخة والدفاع عنه ومحاولة إقناع الآخرين به، وهذه مسألة مهمة تحتاج إلى وقفة و"تربية".

والسؤال المهم هنا "هل يحق لأي شخص أن يجبر الآخرين على قبول الآراء التي يؤمن بها ويراهما صحيحة؟" هذه مسألة تتعلق بالأخلاق بلا شك، وأعتقد أن محاولة "إجبار" الآخرين على تبني آرائنا هي فعل غير أخلاقي (وهذا مجرد رأي وليس حقيقة).

والإجبار يأخذ صوراً عديدة أبسطها الاستهزاء بآراء الآخرين وأقصاها التكفير أو القتل، وما بين هذا وذاك يعيش العقل العربي أسوأ حالاته.

لنعد صياغة السؤال، وأعترف بأنني كنت "ألف وأدور" لكي أصل إلى هنا، لنتأمل في واقع "الصراع" - وليس الخلاف - الطائفي بين السنة والشيعة على وجه التحديد، والذي باتت ملامح وجهه القبيح تظهر في كثير مما يقال اليوم، هل المسألة تتعلق بـ "حقائق" أم "آراء"؟ مشكلة العقل العربي أنه يتبنى في كثير من الأحيان مجموعة من "الآراء" بوصفها "حقائق"، وهذه المشكلة لا تظهر خطورتها عندما يتعلق الأمر بآرائنا حول الأعمال الفنية أو آرائنا حول فرق كرة القدم ولا حتى بآرائنا حول ديكتاتورية هتلر أو بطولاته، ولكن تظهر خطورتها الكبيرة عندما يتعلق الأمر باختلاف حول من الذي كان يفترض أن يتولى الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ منذ 1500 عام، فهل العقل الذي يفكر بهذه الطريقة عقل سليم؟

بين السياسة والاجتماع

أتصور أن المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الكويت اليوم هي مشكلة اجتماعية أكثر منها سياسية، على الرغم من أن الصراع السياسي هو الموضوع الذي يحظى بالتركيز الإعلامي أكثر من غيره.

فنحن لا نعاني من مشكلة في النظام السياسي على الإطلاق، نظامنا السياسي مستقر وعلى درجة كبيرة من التطور والرقي ودستورنا يتمتع بدرجة كبيرة من الضمانات الأساسية واحترام الحقوق والعلاقة بين الحاكم والمحكوم واضحة ومحل تقدير من قبل الجميع.

المشكلة إذن ليست في النظام السياسي كنظام (بمعنى القانون)، إنما في النظرة إلى هذا النظام والتعامل وفقاً لمعاييره، وهذه مسألة اجتماعية صرفة.

بات واضحاً أن الأمر بدأ ينتقل من "اختلاف" في وجهات النظر حول كيفية إدارة الدولة (وهنا نكون في مجال السياسة)، إلى "صراع" على مفهوم الولاء وهل هو للدولة أم للقبيلة أم للعائلة أم للطائفة (وهنا ندخل في مجال الاجتماع).

لذلك، فمن الطبيعي أن يتحول الخطاب إلى مهرجان سخيف من تبادل التهم بعدم الولاء للكويت وازدواج الجنسية والتشكيك في الانتماء الوطني بل وحتى التشكيك في تاريخ من رحل من أهل الكويت وإنكار مساهماتهم في بناء الدولة (اجتماع)، بدلاً من أن يكون الخطاب حول البرامج السياسية وخطط التنمية ورؤية الدولة للتعليم والخدمات الصحية وغيرها (سياسة).

أصبحت مشاهد المرشحين على شاشات التلفزيون وهم يخرجون المصحف الشريف ويطالبون بعضهم بأن يقسموا بالله العظيم أن ولاءهم للكويت وأنهم لا يحملون أي جنسية أخرى أمراً مألوفاً، وربما نجد أنفسنا بعد ذلك مضطرين إلى أن يؤدي كل مواطن منا

القسم ذاته كل يوم لنثبت وطنيتنا وولاءنا لبلدنا، وهي نتيجة طبيعية إذا ما استمر هذا المهرجان الخطابى السخيف بهذه الصورة السخيفة.

والسؤال المهم الذى يتبادر هنا هو: لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ والجواب فى ظنى يكمن فى تراجع كثير من القيم الأخلاقية فى المجتمع فى ظل غياب الدور الفاعل لمؤسسات التعليم ومؤسسات المجتمع المدنى، فضلا عن توافر الأرضية الخصبة لظهور مثل هذه المشكلات الاجتماعية وأولها موضوع الجنسية ودرجاتها التى تميز بين المواطنين فتجعل من هذا كويتيا "أصليا ودرجة أولى" وذاك كويتيا "غير أصلي ودرجة ثانية".

فإذا كانت الدولة هى التى تمارس التمييز بين المواطنين (والأمر لا يتعلق فقط بتصنيفات ومسميات للجنسية بقدر ما يتعلق بتبعات ذلك التمييز واقعيا)، فكيف نتوقع الوصول إلى حالة من الاستقرار الاجتماعى بين الناس؟

ما تعيشه الكويت اليوم هو مقدمة لصراع اجتماعى (طائفى، قبلى، عائلى) كبير ربما لا يدرك كثير ممن يمارسونه سواء عن وعى أو بغير وعى وإدراك خطورته والنتائج الكارثية التى قد تؤدى إليه، فالصراع الاجتماعى إذا انطلق سيكون من الصعب جدا إيقافه، وعلينا أن ننتبه لخطورة الأمر قبل فوات الأوان وقبل أن تنتقل الأمور إلى المرحلة التالية من الصراع (وأعني العنف)!

عذراً سقراط

قديمًا كان سقراط يقول لمن يقابله ويراه "تكلم حتى أراك"، فعندما يتحدث الشخص فهو لا يتواصل مع الآخرين فحسب وإنما هو يعطي عن نفسه صورة ويكون عندهم انطباع خاص حول "شخصيته" وأفكاره وتصوراتهِ ومستواه الفكري والأخلاقي.

ولكن هذا البعد الإنساني الذي يتشكل من خلال الحديث بين الناس كثيرا ما يخدعنا، خاصة في عالمنا العربي حيث ازدواجية في شخصية الإنسان العربي أصبحت أمرا مألوفًا بل ومقبولًا إلى درجة كبيرة بين الناس (وبشكل أكبر عند السياسيين).

فأنت لا تستطيع أن تفهم حقيقة الناس من خلال حديثهم ولا تستطيع أن تحدد ملامح شخصياتهم وانتماءاتهم الإيديولوجية ولا تستطيع أن تعرف حقيقة مواقفهم تجاه القضايا العامة حتى وإن تحدثوا وصرخوا وأعلنوا عن تبني اتجاهات فكرية ومواقف محددة، ببساطة لأنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يقولون ويظهرون غير ما يبطنون ويبطنون غير ما يظهرون.

كثيرًا ما نلتقي أشخاصًا تكون لدينا عنهم صورة مسبقة تتكون عندها من خلال مقالاتهم أو أحاديثهم في وسائل الإعلام المختلفة أو حتى من خلال الحوار المباشر، وهي صورة تكاد تكون مثالية لفرط ما في أحاديثهم من أفكار كبيرة وانتقادات تعكس موقفًا إنسانيًا عظيمًا وتأكيدًا على قيم أخلاقية نبيلة، غير أن هذه الصورة الجميلة سرعان ما يصيبها شيء من الغموض والتشويش عندما نتأمل في تصرفاتهم التي تناقض تمامًا تلك الهالة الرومانسية الحاملة والجميلة التي رسموها لأنفسهم عبر "الكلام"، لدرجة تجعلنا ننظر إلى أنفسنا باستغراب ونشعر معها أننا سذج نصدق كل ما نسمعه بحسن نية.

المشكلة أن هذه الصفة الغريبة وأعني ازدواجية الشخصية لا نراها إلا في الإنسان العربي تقريبا، فعندما نتعامل مع أي شخص غربي لا نشعر في قرارة أنفسنا أنه يخدعنا أو أنه يخفي قناعات أخرى غير التي يعبر بها في حديثه أو تصرفاته، فهو عندما يكون ليبراليا يتصرف كليبرالي، وعندما يدافع عن الديمقراطية فهو يمارسها أيضا،

وعندما ينادي بحقوق الفقراء والمستضعفين فهو يعيش بينهم ويشعر بهمومهم وألامهم، أما في عالمنا العربي فالأمر مختلف تماما، لأنك ببساطة قد تلتقي كل يوم بشخص "يدعي" أنه ديموقراطي ولكنه لا يحترم حتى الرأي الآخر، بشخص "يدعي" أنه من دعاة حقوق الإنسان ولكنه يزدري الناس ويحمل في شرايينه دم أزرق، بشخص "يدعي" أنه متدين ولكنه يمارس كل المحرمات

عذرا سقراط فمقولتك أريكتني، جعلتني لا أفهم الناس من حولي بوضوح.

ربما لأنك كنت تتحدث عن إنسان آخر غير الذي نعرفه في عالمنا المتناقض، ذلك الإنسان الذي يحمل في جيبه ألف قناع وقناع.

مفهوم الليبرالية

أبدأ بمدخل تيرمينولوجي حول أصل كلمة "ليبرالي".

تشير الأساطير اليونانية إلى أن "زيوس" كبير الآلهة قد تزوج من الإلهة "سيميله" Semele والتي كانت فائقة الجمال وفائقة الحياء أيضا، فأنجبت له ولدا هو الإله "باخوس" وكلمة باخوس باليونانية تعني الجانب السيئ من آثار الخمر (أي زهاب العقل)، وعندما دخلت كلمة "باخوس" إلى بلاد الرومان امتزجت هذه الشخصية بشخصية أحد آلهة الرومان وهو "ليبر" Liber والذي كان عندهم ربا للزراعة والحدائق.

وقد كان عند اليونان عيداً مميزاً من أعيادهم يسمى عيد "الديونيزيا" وهو الذي يتم فيه عصر الخمر، وقد انتقل هذا العيد مع ما انتقل إلى الرومان تحت اسم "الباخاناليا"، ولكن مع قليل من التغيير فقد أصبح هذا العيد عند الرومان يعبر عن ألوان الفسق وأشكال الفساد والعريضة، ومن هنا ارتبط اسم الإله "ليبر" liber بالعريضة والفساد فيما بعد، وأدى التطور اللغوي الذي حصل لهذا المصطلح بعد ذلك إلى استخدامه للدلالة على "الحرية" في فعل ما يشاء المرء أن يفعله، ثم انتقلت إلى اللغات الأجنبية الأخرى تحت مفهوم "الحرية" واشتقت منها كلمات مثل Liberty (الحرية) و Liberal (حر) وكذلك - وهذا ما يهمنا - Liberalism (وهي الفلسفة القائلة بالتحرية).

نشأت الليبرالية كأيدولوجيا مع نشأة الطبقة البرجوازية في بداية ما يسمى بعصر النهضة الغربية، ولذلك فهي تعتبر الأيدولوجيا الرسمية لهذه الطبقة، ولم تظهر الليبرالية بالتأكيد مكتملة في صورتها الحالية في بادئ الأمر وإنما جرى عليها الكثير من التعديلات، وعلينا أن ننتبه إلى أن الليبرالية ليست مذهباً سياسياً فحسب، بل هي إيدولوجيا تجد تطبيقاتها العملية في مجال السياسة (التعددية الحزبية وحرية المواطنين) وفي مجال الاقتصاد (سيادة السوق ومبدأ ريكاردو "دعه يعمل، دعه يمر")، بل وحتى على المستوى الشعبي وذلك من خلال المؤسسات الاجتماعية والهيئات الخاصة.

هذا مجرد مدخل تيرمينولوجي بسيط لمفهوم الليبرالية، لكن ماذا عن الأيديولوجيا الليبرالية كفكرة؟

إن القيمة الأساسية التي تمثل الليبرالية أو تقوم عليها هي "الحرية الفردية"، والمعيار الأساسي لهذه الأيديولوجيا هو "المنفعة" وهذا ما نجده لدى فلاسفة الليبرالية الكلاسيكيين مثل بنتام ومل ولوك، ونذكر هنا بالمبدأ الشهير الذي قاله بنتام مثلاً: "تحقيق أكبر قدر من المنفعة مقابل أقل قدر من الألم"، وهذا المبدأ الذي نادى به بنتام في فلسفة الأخلاق، ما برح أن أصبح شعاراً لليبرالية.

تحولت الليبرالية بعد ذلك من الفردية المتطرفة إلى الفردية المعتدلة شيئاً فشيئاً، حيث بدأت تسمح بتدخل الجماعات والدولة وقد ساهم في هذه النقلة النوعية الأزمة الاقتصادية الكبرى التي أصابت الولايات المتحدة الأمريكية عقب انهيار بورصة نيويورك وما تلاها من أحداث مأساوية من بطالة وجوع وفقر في الأعوام 1923-1929 م والتي انتهت بإعلان الرئيس الأمريكي السابق "روزفلت" السياسة الجديدة التي سميت بالعهد الجديد والتي تدعو إلى تبني الدولة للضمان الاجتماعي للأفراد.

والليبرالية الحديثة تقوم على مجموعة من المقومات منها على سبيل المثال: مبدأ تكافؤ الفرص، وهو مبدأ عادل ومهم ولكنه ليس حكراً على الليبرالية وحدها، فمن الممكن أن ننادي بمبدأ تكافؤ الفرص دون أن نكون بالضرورة ليبراليين، مبدأ الإصلاح "أي معالجة القضايا عن طريق الإصلاح وليس الثورة كما هو الحال مع الأيديولوجيا الماركسية"، وكذلك اعتماد البرلمانية كمنهج للوصول إلى الحكم، كما أخذت هذه الأيديولوجيا بفكرة فلاسفة العقد الاجتماعي "لوك ومونتسكيو وروسو" الداعية إلى فصل السلطات التشريعية، التنفيذية، والقضائية.

لقد تشكلت الأيديولوجيا الليبرالية من خلال أفكار ونظريات بعض الفلاسفة وعلى وجه الخصوص الفلاسفة التجريبيون وأصحاب مذهب المنفعة في الأخلاق نلاحظ أن المذهب

التجريبي يقوم على إنكار كل ما لا يمكن فحصه والتحقق منه بالتجربة، ومذهب المنفعة يبيح كل ما من شأنه تحقيق المنفعة الفردية أولاً ثم الجماعية ثانياً مادامت تؤدي في النهاية إلى منفعة الفرد أيضاً" وتجسدت من خلال إعلان الثورة الأميركية عام 1776 وإعلان الثورة الفرنسية عام 1789 وإعلان حقوق الإنسان عام 1948 والإعلان العالمي للأمم المتحدة عام 1949 وما تلا ذلك من معاهدات وظهور للدساتير.

والمحصلة أن الليبرالية نشأت وترعرعت في أحضان الحضارة الغربية منذ بدايتها وحتى يومنا هذا، ولهذا لا يمكن أن نفهم الليبرالية إلا من خلال وضعها في إطارها التاريخي الصحيح ضمن مفهوم الحضارة الغربية بشكل عام، ويمكن القول ان توجه الحضارة الغربية منذ بدايتها فيما يسمى "بعصر النهضة الأوروبية" كان يتجه بالضرورة نحو إنتاج الأيديولوجيا الليبرالية، ولكن السؤال هل الحضارة العربية أو الإسلامية ينطبق عليها ما ينطبق على الحضارة الغربية؟!

سوق عجيب غريب

السوق في الكويت أمر عجيب، لا أستطيع أن أفهم كيف يسير وما المعايير التي تتحدد الأسعار بناء عليها، فعلى ما يبدو أن السوق لدينا لا يخضع لأي نظريات اقتصادية ولا يجدي معه أفكار آدم سميث وريكاردو وكينز ولا حتى ماركس، ففي حين تتحرك أسواق العالم في اتجاه تجد السوق عندنا في اتجاه آخر وكأننا معزولون عن هذا العالم، غير أن هذه العزلة لا نراها إلا في حالة واحدة فقط هي حالة نزول الأسعار بسبب الأزمات الاقتصادية المتكررة خاصة في العقد الماضي والى اليوم، فعندما يتعلق الأمر بزيادة الأسعار يصبح السوق في الكويت وبسرعة البرق جزءاً من المنظومة الاقتصادية العالمية والكل يبدأ بالترويج والتبرير لارتفاع الأسعار بحجة أن اقتصادنا مرتبط بالعالم ويتأثر بأي زيادة في أسعار البترول وما يتبعها من ارتفاع في بقية الخدمات مثل النقل والشحن وأجور العمال.

ومع أن ارتفاع البترول هو أمر ايجابي بالنسبة لنا في الكويت على اعتبار أننا دولة منتجة ومصدرة لهذه السلعة الحيوية، ومع هذا كلما ارتفعت أسعار البترول لا نسمع من المسؤولين سوى "اللولولة والنواح" ورفع الأسعار، فإذا كان ارتفاع الأسعار في العالم سيؤدي بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار في الكويت على اعتبار أننا جزء من هذه المنظومة الاقتصادية العالمية، فلماذا لا تهبط الأسعار في الكويت عندما تهبط في كل أنحاء المعمورة؟ لماذا لا نشاهد آثار هذا الارتباط بالاقتصاد العالمي إلا في حالة ارتفاع الأسعار فقط أيها التجار؟!

العالم كله يعيش اليوم حالة من الكساد الكبير والبضائع بمختلف أنواعها تعاني من التكدس، ومفاهيم "العرض والطلب" هي من أبسط مبادئ الاقتصاد وبالتالي لا غرابة أن تهبط الأسعار في كل دول العالم على اعتبار أنها كلها تعاني من أزمة اقتصادية، ولكن الأمر مختلف في الكويت، فأسعار السيارات تزداد كل يوم في الوقت الذي وصلت إلى نصف السعر في دول أخرى، وبقية البضائع التي ازدادت بشكل جنوني خلال العام الماضي بسبب ارتفاع أسعار البترول لم يطرأ عليها أي تغيير بعد أن انهار سعر النفط، فإما أننا جزء من هذا العالم ومنظومته الاقتصادية وبالتالي يفترض أن تتناسب الأسعار

عندنا مع ما يحدث في بقية الدول، وإما أننا معزولون وبالتالي لا نفهم سر هذا "التباكي" ولطم الخدود المفاجئ والتحذير من تبعات الأزمة الاقتصادية العالمية والمطالبة بضخ المليارات لإنقاذ "بعض الشركات".

أين اختفت تلك الأصوات التي كانت "تلعلع" وتبرر الزيادة الكبيرة في الأسعار قبل عام بحجة ارتفاع الأسعار في كل دول العالم؟ أين تحليلاتكم الاقتصادية ونظرياتكم الحلمنتيشية ومصطلحاتكم "الاكتوارية" ؟

إلى أستاذاي د. أحمد الربيعي

في مثل هذه الأيام من العام الماضي كنت أحضر جلسات مؤتمر الكويت الخامس "من الكويت نبدأ وإلى الكويت ننتهي"، والذي كرمت فيه شخصيات كبيرة من رجال الكويت ومنهم د. أحمد الربيعي - رحمه الله، المؤتمر استمر لـ 4 أيام وكان في كل يوم يتحدث ممثل عن أسرة الشخصية المكرمة، في اليوم الأخير تحدث الأخ عبدالرحمن الربيعي عن شقيقه د. أحمد حديثاً مؤثراً، أثار في على الأقل، وفي نهاية حديثه قال إنه يقوم حالياً بجمع ما تيسر عن سيرة شقيقه الراحل - رحمه الله - وطلب من الحضور ممن لديه أي شيء يمكن إضافته أن يعطيه إياه.

بعد انتهاء الحفل توجهت إلى الأخ عبدالرحمن الربيعي وكان الأخ عبدالله الربيعي شقيقهم الأكبر جالسا بجانبه، قلت له أريد أن أخبرك بحادثة حصلت لي مع د. أحمد الربيعي رحمه الله.

في عام 1992 كنت طالبا بقسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة الكويت وكنت أدرس حينها أول مقرر لي في الجامعة وهو "مبادئ الفلسفة" عند أستاذاي د. أحمد الربيعي، وكنت أيضا موظفا في وزارة التربية فكان الدوام يعيقني عن حضور المحاضرات في الفترة الصباحية، وكان الأمر يزداد صعوبة عاما بعد عام حيث كانت مقررات التخصص لا تتوافر إلا نفس أوقات الدوام، وعندما أصبح د. أحمد الربيعي وزيرا للتربية آنذاك لم تنقطع صلته بقسم الفلسفة ولا بالطلبة، فكان يزورنا كل أربعاء ويلقي علينا محاضرات في التصوف الإسلامي وفلاسفة الإسلام، فقلت في نفسي حسنا لقد أصبح أستاذاي وزيرا للتربية وبحكم علاقته الطيبة وروحه المرححة معنا نحن الطلبة اعتقدت أنني أستطيع أن أطلب منه "طلبا صغيرا" ليساعدني على مواصلة دراستي بدون عناء الدوام في المدرسة صباحا، فذهبت ذات يوم من أيام الأربعاء التي يزورنا فيها د. أحمد - رحمه الله - وقلت له دكتور أريد أن أقول لك شيئا، الموضوع "كيت وكيت" وحضرتك وزير التربية أرجوك ساعدني، فقال لي ماذا تريد بالتحديد؟ قلت له أن تنتقلني إلى مكان آخر ليس فيه عمل حتى أستطيع حضور المحاضرات صباحا، فرد علي بابتسامته المتفائلة: قدم أوراقك

بصورة قانونية، فقلت له حاولت ولم يقبلوا، أريدها خدمة منك، فقال متعجبا: مني أطلب عيوني أعطيك لكن أن أكسر القانون مستحيل.

هنا أطرق الأخ عبدالرحمن الربعي وهز رأسه ونزلت من عيونه دمعة، وقال لي: زعلت؟ قلت له بالعكس والله من يومها أحببته أكثر وأعتقد أن "فيروس الالتزام بالقانون" قد أصابني منه منذ تلك اللحظة، فرد علي: سأقول لك شيئا، كان لإحدى شقيقتي وهي معلمة بوزارة التربية استثناء خاص حصلت عليه من أحد الوزراء السابقين لأبوقتيبة، وعندما تسلم أبوقتيبة حقيبة وزارة التربية قام بإلغاء هذا الاستثناء، وعندما عاتبته وطلبت منه الإبقاء على وضعها قال لها: اطلبي عيوني حاضر لكن أن أتجاوز القانون مستحيل.

هذه الحكاية أذكرها اليوم في ذكرى مرور عام على رحيل أستاذي ومعلمي وقدوتي د. أحمد الربعي رحمه الله، أذكرها وأنا أتحسر على الحال التي وصلت إليها بلادي من الفوضى وتجاوز القانون، فأليك يا معلمي تحية إجلال وتقدير واحترام عن كل حرف وكل معلومة وكل قيمة أخلاقية تعلمتها منك، إليك دعائي الصادق بالرحمة والغفران من العلي القدير، فمثلك لا ينسى.

أميركا ودعم إسرائيل

قالت وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون خلال لقائها قبل أيام مع رئيس الكيان الصهيوني المحتل شيمون بيريز، إن "أميركا ستدعم أي حكومة إسرائيلية قادمة"، كما قالت أيضا "سنعمل مع حكومة إسرائيل التي تمثل الإرادة الديمقراطية لشعب إسرائيل"، لا جديد في هذا الخطاب المنحاز بالتأكيد ونحن لا نلوم الأميركيين على سياستهم الخارجية المنحازة دوما لإسرائيل فهذا اختيارهم، وإنما نلوم المؤيدين لهذه السياسة والمتعاطفين معها من أبناء جلدتنا مع الأسف الشديد.

نريد أن نفهم كيف سيتحقق السلام العادل الذي تتبناه الإدارة الأميركية الجديدة - وحتى القديمة من قبلها - في ظل هذا التناقض الصارخ؟! كيف نفهم دعم الإدارة الأميركية "لأي حكومة" إسرائيلية بما فيها من مجرمي حرب وقتلة نساء وأطفال بحجة أنها حكومة ديموقراطية تمثل إرادة الشعب الإسرائيلي وفي الوقت ذاته تحارب حماس والتي هي أيضا تمثل اختيار الشعب الفلسطيني وتدافع عن أرضها المغتصبة وهو حقها المشروع؟!!

هذا السؤال وجهته لأكثر من مسؤول وأكاديمي أميركي ممن قابلتهم خلال زيارتهم للكويت وما أكثرها، وفي كل مرة لا أحصل على إجابة سوى التهرب بطريقة ديبلوماسية، وهذا مفهوم إذ بأي منطق يمكن أن يبرروا "الكذبة الكبرى" التي يرددها كل مسؤول أميركي حول دعم أميركا للقيم الديمقراطية في العالم؟! حماس جاءت بانتخاب ديموقراطي نزيه، والحكومة الإيرانية حكومة منتخبة بانتخابات نزيهة ومع ذلك فهي من أكثر الأنظمة التي تحارب في مقابل دعم الولايات المتحدة لأنظمة ديكتاتورية يعرف حتى الأطفال وهم في بطون أمهاتهم أنها تتولى السلطة إما بانقلاب دموي أو بالتزوير.

الحقيقة أن أميركا لا تدعم الديمقراطية ولا يهتمها لا من قريب ولا من بعيد نشر مبادئها، وهي على استعداد لدعم "أي حكومة" إسرائيلية حتى لو كانت تضم أكبر مجرمي الحرب دموية وديكتاتورية في التاريخ لأنها لا تحترم إرادة الشعوب المسلمة ولا الشعوب العربية ولا تعترف باختياراتهم الديمقراطية ثم يستغربون بعد ذلك "كراهية" العرب والمسلمين لأميركا، فالمسألة يا سادة أكبر من "صمونة همبرغر" وأغنيتين في راديو "سوا"!

سلاح المقاطعة

تساهم كثير من الشركات العالمية وسلسلة المطاعم والمقاهي المشهورة والمنتشرة في مختلف دول العالم بتبرعات تصل للمليارات كل عام للحكومة الإسرائيلية، وتعتبر تلك التبرعات مصدرا أساسيا من مصادر بقاء إسرائيل وتعزيز ترسانتها العسكرية التي تطحن البشر كل يوم في فلسطين المحتلة، ولعلنا نعرف كثيرا من تلك الشركات.

بكلام آخر إذا علمنا أن المحافظة على المستوطنين اليهود داخل إسرائيل تشكل أحد أكبر التحديات التي تواجهها الحكومة الإسرائيلية، حيث تبذل جهودا كبيرة للحد مما يسمى بالهجرة المضادة المتمثلة بخروج هؤلاء اليهود من فلسطين المحتلة والعودة إلى أوطانهم الأصلية بعد أن يروا بأنفسهم أن الحياة هناك عبارة عن جحيم لا يطاق.

وإذا علمنا أن وجود تلك المستوطنات ابتداء من الصرف على بنائها وتجهيزها وصرف المساعدات المالية والمعيشية للمستوطنين فيها يقوم كله بأموال التبرعات التي تأتي لإسرائيل وليس من الحكومة، وإذا علمنا أن الجزء الأكبر من تلك التبرعات يأتي من شركات وسلسلة مطاعم ومقاهي عالمية يمثل فيها المواطن العربي بشكل خاص أحد أكبر المستهلكين، ندرك حينها بوضوح أننا جزء أساسي ولاعب رئيسي في عملية تأصيل وترسيخ الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، بل وشريك في تلك المجازر التي ترتكب بين الحين والآخر ضد الأبرياء في كل أنحاء فلسطين المحتلة، الذين هم اخواننا في الدين والعروبة والإنسانية.

خروج الناس للشوارع للتعبير عن حالة الغضب والتنديد بالمجازر الصهيونية ضد الأبرياء في غزة حدث مهم ويشكل ضغطا إعلاميا كبيرا على قادة العالم، وهو أمر يساهم بكل تأكيد في وقف تلك المجازر والحد من إطالة أمدها، وعلى كل حال إسرائيل لا تستطيع أن تصمد في عمليات مثل هذه لفترات طويلة خاصة في ظل هذا التواطؤ العالمي الذي يحاول أن يعطي غطاء شرعيا لتلك المجازر على اعتبار أنها دفاع عن النفس، فالشعوب تدرك بوضوح ما يحدث ونبرة الغضب ستزيد وتشكل ناقوس خطر لا يستهان به لكثير من الأنظمة الحاكمة.

وبالتالي فإن استمرار هذه الحملات الشعبية المنددة بالجرائم الصهيونية والتخاذل العالمي الصامت أمر بالغ الأهمية والفعالية أيضا.

غير أن ذلك لا يكفي بكل تأكيد، فهناك مخطط واضح وهدف معروف من عمليات الإبادة الجماعية ضد أهل غزة وهو القضاء على حركة حماس وفصائل المقاومة الوطنية كونها العقبة الأخيرة أمام تمرير مبادرات الاستسلام المذلة مع إسرائيل.

وعليه فإن الشعوب المسلمة والعربية بشكل خاص إذا كانت تريد حقا المساهمة في عمل شيء يخدم القضية الفلسطينية بصورة عامة والتخفيف عن أهل غزة ألام هذه الهجمة البشعة ونتائجها المدمرة فعليهم الاستمرار في هذه المظاهرات والاعتصامات ومطالبة أنظمتها الحاكمة بقطع العلاقات مع إسرائيل وفتح المعابر وتدخل مجلس الأمن من جهة، ومقاطعة تلك الشركات وغيرها ممن يعرفها الناس جيدا لتجفيف منابع التبرعات للعدو الصهيوني، ولو أن كل شخص فينا قرر بينه وبين نفسه مقاطعة تلك الشركات الداعمة لإسرائيل لخسرت تلك الشركات المليارات يوميا وهو أمر بالغ الأهمية في حسابات الرأسماليين الجشعين.

فليس لنا أي عذر في هذه الحملة مادامنا أصحاب القرار في هذه العملية فنحن الذين نشترى ونساهم في دعم إسرائيل وبأيدينا أن نتوقف عن ذلك ولا تملك أي حكومة في العالم القدرة على إجبارنا على الشراء، فهل نفعلها ونساهم بالفعل وليس بمجرد الكلام في التخفيف عن بشر يسحقون بلا رحمة أم نكتفي بإلقاء اللوم على حكوماتنا ونحن نجلس في مطاعم ومقاهي تدعم إسرائيل ؟

أصبحت حياتنا روتيناً مملاً وتكراراً مزعجاً لأحداث مأساوية نتابعها كل يوم وكأنها جزء من كياننا أو حقيقة لابد من تقبلها، نفتح التلفزيون ونتابع ما وصلت إليه أعداد القتلى في غزة؟ وكم انفجاراً حصل اليوم في العراق؟ وعدد من ماتوا في أفغانستان؟ ومن غرق من سفن المهاجرين؟ وعدد الضحايا في ميانمار وكم مشرداً في الهند وكم لاجئاً في لندن؟ وكم.. وكم.

أصبحنا ننظر لكل تلك المآسي وكأنها شيء عادي جداً في حياتنا اليومية، نفتح الصحف ونقرأ كل يوم أخبار بشر يقتلون ويسحقون ويشردون ويجوعون ويهجرون وكأننا نتابع نتيجة مباراة أو مؤشراً للبورصة، سلسلة أرقام تطوف أمامنا دون أن يستوقفنا أنها تتحدث عن "بشر".

مؤلم أن يختزل "الإنسان" هذا الكائن العظيم في خلقه وتكوينه وقيمه في "رقم" على شاشات التلفاز أو صفحات الجرائد، أن يتحول إلى مجرد "رقم" في حسابات التجار، ومجرد "رقم" في سجلات الدولة، ومجرد "رقم" في دليل الهاتف، ومن يبالي لوجود "رقم" بسيط في حياتنا ومن يهتم لزوال "صفر على الشمال" من سلسلة الأرقام "المهمة" في سجلاتنا؟

عالم مجنون، نعيش على كوكب تشكل المياه ثلثي مساحة سطحه، ولو صرفت على تحلية مياه بحر واحد من بحاره تكلفه حرب واحدة لكانت كافية لتلبية احتياجات كل البشر والحيوانات والنباتات في كل جزء من أجزاء هذه الأرض، ومع هذا نختر أن نتصارع ونقتل بعضنا بعضاً ونصرف المليارات للاستحواذ على منابع المياه الحلوة، ترى هل يستحق فعلاً هذا الصراع على المياه كل تلك الحروب وكل تلك الدماء والضحايا والآلام وكل تلك "الأرقام" المهولة التي فقدتها البشرية في صراع الإنسان المجنون هذا، هل تستحق الأهداف التي يضعها قلة من المهوسين بالسلطة كل تلك التضحيات والمآسي التي يكابدها البشر على مر التاريخ؟

تشكل العواصف 70% من حجم الكوارث الطبيعية سنويا، بينما تشكل الزلازل 18% منها، و6% فيضانات و6% براكين وحرائق غابات، بلغت حصيلة الكوارث الطبيعية لعام 2008 فقط 53 ألف قتيل عبر العالم، وهناك 3 ملايين شخص يموتون بسبب الدرن كل عام، 8 ملايين شخص في أثيوبيا و3 ملايين في كينيا ومليون في الصومال و376 ألف في إريتيريا و200 ألف في أوغندا و100 ألف في جيبوتي و75 ألف شخص في السودان كلهم مهددون بـ "الموت جوعا" خلال هذا العام.

كم شخصا سيموت بسبب التدخين؟ وكم سيموت بسبب حوادث السيارات؟ وكم سيموت بسبب الحروب هذا العام؟ "رقم" .. فنحن مجرد "رقم" يراقب ويتابع "رقما".

خطاب الشتم والسباب العربي

انتهى الإمام من خطبته العصماء، ثم رفع يديه ورفع معه مئات المصلين أيديهم وبدأوا جميعهم بالدعاء بصوت واحد "اللهم العن اليهود والنصارى، اللهم احرق اليهود والنصارى، اللهم اقتلهم ويتم أطفالهم وشرذ نساءهم و و و".

هكذا بكل "تقوى وورع" نشتم ونسب من سماهم الله عز وجل بـ "أهل الكتاب" وأباح لنا الزواج منهم ونحن نعلم علم اليقين أن فيهم سواء من اليهود أو النصارى من هو أكثر إنصافاً وأعظم خلقاً من آلاف المسلمين المتصهينين والمتأمركين.

أمثل د.عزمي بشارة المناضل العربي المسيحي الذي وقف أمام منزل رجل فلسطيني مسلم وتعرض لإطلاق الرصاص ليمنع هدمه يُسب ويُشتم ويدعى عليه بالقتل والحرق والعذاب؟ أمثل د.إسرائيل شاحاك اليهودي الذي كتب وانتقد الممارسات العنصرية لإسرائيل يُسب ويُشتم؟ أمثل يهوشوع لبيوفيتس اليهودي الذي فضح الجرائم الإسرائيلية ضد الفلسطينيين يُسب ويُشتم؟ أمثل آلاف اليهود والمسيحيين المنصفين الذين يخرجون كل يوم في مظاهرات ضد حكومات بلدانهم في مختلف أنحاء العالم ويتعرضون بسبب ذلك لأضرار بالغة ومع ذلك يصرون على مواقفهم الإنسانية والدفاع عن المستضعفين من المسلمين في فلسطين وغيرها يُسب ويُشتم وترفع الأيدي المتوضئة كل جمعة للدعاء عليهم بالفناء والحرق وتيتيم الأطفال؟ هل الإسلام يأمركم بذلك يا أئمة المساجد؟ هل يعقل أن يوجد دين (أي دين) يأمر بالشتم والسباب للتقرب إلى الله عز وجل؟ وهل الدين إلا الإنصاف؟ يقول الله تعالى: (ما لكم كيف تحكمون)، ثم إذا كان هناك من يجزع لسب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين - وهو مصيب بكل تأكيد - فكيف يبرر إذن سب أصحاب الديانات الأخرى؟ سب الناس والدعاء على غير الظالمين عادة سيئة، وإذا كان هناك من يستحق السب واللعن فلا أظنه سوى من أدخل هذه العادة الشيطانية ضمن "العبادات" التي صوروا للناس أنها تقربهم إلى الله.

أولم يأمرنا الله عز وجل بقوله في سورة الأنعام(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما

كانوا يعملون)، وهل في سيرة رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام كلمة بذية قالها في حياته كلها وهو قدوتنا ومعلمنا؟ فمن أين جئت بهذه الادعية التي تسبون فيها الناس ودون تمييز بين ظالم ومظلوم وبين مجرم ومنصف حتى أصبحنا أمة السب والشتم بلا منازع؟

قصة حياة

لكل شخص منا "قصة حياة" تختلف في تفاصيلها وأحداثها عن الآخرين، فلا أحد يتطابق مع غيره، حتى الإخوة التوائم يختلف بعضهم عن بعض، ولكل منهم "قصة حياة" مختلفة، يولد الإنسان في زمان ومكان وبيئة اجتماعية يعيش فيها تفاصيل حياته التي تشكل شخصيته وتكوينه ومعتقداته وأفكاره، ولا توجد طريقة تجعله يغير تلك الأفكار والمعتقدات سوى "الحوار" حتى يقتنع.

قصة حياتنا هي كياننا، هي حقيقة وجودنا في هذا العالم، وعلينا ألا نتوقع أن يصبح الآخرون نسخة مطابقة لنا، فكل ما نملكه تجاه الآخرين هو محاولة إقناعهم بما نعتقد أنه صواب، حق، جميل... الخ وبالتالي من العبث أن ننتقد الآخرين على قناعاتهم - والتي هي نتاج "قصة حياة" مختلفة عن قصة حياتنا - فقط لأنها لا تشبه قناعاتنا وأفكارنا، بإمكاننا أن نتحاور، أن نتحدث بعقول وقلوب مفتوحة ومستعدة للتراجع عن أي أفكار والتخلي عن أي معتقدات يمكن أن يتبين أنها خطأ هذه هي الطريقة "الإنسانية" الوحيدة التي يمكن أن نمارس من خلالها آدميتنا ودون أن ننتهك فيها آدمية الآخرين.

علينا أن نتعلم كيف نتقبل الآخرين كما هم، بأفكارهم ومعتقداتهم وميولهم الخاصة وحتى أذواقهم الشخصية، لا يصح أن ننبد شخصا مجرد أنه يعشق تلك الموسيقى أو يهوى ذاك المطرب، ولا يجوز أن نكره شخصا مجرد أنه عاش "قصة حياة" مختلفة جعلته ينتمي لهذا المذهب أو تلك الطائفة، لا يمكن أن نجبر شخصا على اعتناق ايديولوجياتنا أو معتقداتنا الدينية فقط لأننا نريد ذلك، فالقناعات ترتبط بقبول العقل لها، وعقول البشر ليس فيها "زر" يمكن أن نضغطه ليتحول الشخص بسرعة من حال إلى حال، فهي تعمل بطريقة واحدة فقط، بالافتناع الذاتي الذي ينتج عن الحوار والتفكير السليم.

كان الفيلسوف الوجودي الألماني هيدجر يقول إن الإنسان مشروع لا يكتمل إلا بالموت، فنحن لا نستطيع أن نصف شخصا ما بأنه كذا أو كذا خلال حياته ونكون عندها جازمين، فالإنسان يتغير لأن طبيعة الحياة هكذا، الكون كله يتغير وبالتالي لا يمكن الحكم على الناس في حياتهم وكأنهم سيبقون هكذا إلى الأبد، فمن يدري أي أحداث

يخبئها لنا القدر لتضاف إلى "قصة حياتنا" وتجعلنا حينها أشخاصا آخرين غير ما نحن عليه اليوم.

النظرة الخامسة

فن الاستماع

الاستماع للآخرين قيمة أخلاقية عظيمة ينبغي أن نتحلى بها، وهي تعبير عن احترام للطرف الآخر والاهتمام بما يقول دون مقاطعة أو استهزاء أو تسخيف للرأي حتى إن كان مخالفا لما نعتقد به، ففي النهاية لكل إنسان شخصيته وطبيعته وتكوينه الخاص الذي من خلاله تتشكل آراؤه وأفكاره وانطباعاته عن العالم وعن الآخرين، لكل إنسان "قصة حياة" تختلف عن غيره ولا يمكن أن تتكرر بأحداثها وتفصيلها.

علينا ألا نتوقع أن يصبح جميع الناس صورة طبق الأصل عنا، وليس من المفروض أن يقتنع كل الناس بما نعتقد أنه صواب، فكما أن لنا الحق في تكوين قناعاتنا وأفكارنا، للآخرين أيضا نفس الحق.

أراقب في كثير من الأحيان طريقة الحوار بين الناس، تستحضرني دائما خلال عملية "التلصص" هذه المعنى الجميل للكلمة اليونانية "ديالوج" والتي تتكون من مقطعين، "ديا" أي الذهاب والمجيء و"لوج" أي الكلام، فالحوار في حقيقته هو كلام بين طرفين يذهب ويجيء، إرسال واستقبال.

غير أن ما ألاحظه في الغالب هو صراع حناجر ومبارزة خطابية ومحاولة لوأد كل فكرة قبل أن تولد حتى، فماذا نسمي أغلب ما نشاهده بين الناس من مقاطعة وكلام مرسل في اتجاه واحد وهم يتحدثون ولا يسمعون ؟

عندما يتحدث الإنسان فهو يعبر عن ذاته، عن أفكاره ومشاعره، يتواصل مع الآخرين ليحقق إنسانيته بهذا التواصل، ومن غير اللائق أن يحرم أي إنسان من حقه في التعبير عن نفسه ومشاعره، كما أنه ليس من المفروض أن يكون في كل حوار نية لتغيير ما يعتقد به الطرف الآخر ومحاولة إجباره على تبني ما نعتقد، يكفي أن يتواصل الناس فيما بينهم ويعبرون عن ذواتهم وآرائهم بحرية دون أن نضطر إلى تغيير أفكارنا ومعتقداتنا، يكفي أن نستمع لبعضنا بطريقة آدمية تعبر عن احترامنا وتقديرنا لأنفسنا وللآخرين دون

التربص لما يقوله الطرف الآخر في محاولة للإيقاع به أو اكتشاف خطأ في حديثه وكأننا نكتشف كنزا عندما نكتشف خطأ أو زلة لسان.

"مؤلم أن تكون حياتك فارغة مما يستحق الذكر، مؤلم أكثر أن يكون لديك الكثير لتقوله، عن حياة فارغة!".

العمل من منظور ماركسي

إذا كان أرسطو قد عرف الإنسان بأنه "حيوان ناطق"، وعرفه كانط بأنه "حيوان أخلاقي"، فإن كارل ماركس قد عرف الإنسان بأنه "حيوان عامل"، ليس فقط لأن الإنسان هو الكائن الوحيد من بين الكائنات التي تتميز بالقدرة على العمل، وإنما أيضا لأنه من خلال العمل يحقق الإنسان ذاته ويدرك آدميته.

فقد كان الإنسان في المرحلة التاريخية الأولى "يعمل ليعيش"، يجمع الطعام من هنا وهناك ليس من أجل تكديس الثروة وإنما ليؤمن قوت يومه فحسب، فكان الإنسان في هذه المرحلة يشعر بأنه "جزء من الطبيعة" وفي حالة انسجام معها، مفهوم العمل في هذه المرحلة هو ما تطلق عليه هنا أرنت ومن منظور ماركسي مصطلح labor ، والذي يحمل معنى ارتباط العمل بمفهوم الحياة، وهو المعنى الأصيل للإنسانية.

ولكن بعد أن دخلت على الإنسان مفاهيم العمل الحديث كالبيروقراطية وتقسيم العمل وخط سير الإنتاج التي تسببت في اغتراب الإنسان عن العالم، عندما دخلت مفاهيم تكديس الثروة وسيطرت على الإنسان فكرة الغائية حتى أصبح كل شيء بالنسبة له يجب أن يكون وسيلة لغاية، هنا تحول شعور الإنسان من كونه جزءا من الطبيعة إلى كونه "مقابل الطبيعة".

وبات شعور الإنسان بالاغتراب أقوى وأشد عنفا حتى بدأ يفقد قيمة الأشياء من حوله مادام كل شيء قابلاً للتحويل من غاية إلى وسيلة لغاية أخرى في سلسلة لا تنتهي من الغايات، تحول الإنسان هنا إلى ترس صغير جدا في آلة عمل ضخمة جدا لا يعرف كيف تسير وكيف تطحن البشر من خلال المصانع، في هذه المرحلة أصبح الإنسان يعرف باسم "الإنسان العامل بالمعنى الميكانيكي للكلمة".

ولم تعد الحياة ذاتها هي الغاية بل أصبحت الأشياء هي الأهم، وبات تقييم البشر يتم بناء على ما يملكون وليس بناء على شخصياتهم وطبيعتهم الإنسانية، ولا غرابة أن تظهر أمثال شعبية تقول "معاك قرش تسوى قرش" مادام تقييم البشر أصبح بهذه الطريقة

التي لا تختلف عن تقييم الأشياء، مشكلة الماركسية كما أعتقد تكمن في لينين، فما أدخله لينين من تعديلات أفقدت الماركسية روحها وأصالتها، أما مشكلة الماركسية في عالمنا العربي فإنها لم ينظر إليها إلا من خلال مقولة ماركس "الدين أفيون الشعوب" فتم اختزال كل التحليلات الاقتصادية ذات البعد الإنساني والتغاضي عنها والتركيز فقط على هذا الجانب وبالتالي الحكم على ماركس وإنتاجه الفكري بالإعدام.

ولكن: هل سيستمر هذا التجاهل على الرغم من معاناة البشر اليومية من ويلات الرأسمالية التي حولت الإنسان إلى أداة فارغة من الحياة والمضمون الإنساني؟ لا أعتقد.

التمييز بين اليهودية والصهيونية

الصهيونية حركة فكرية وسياسية تنفيذية متطرفة هدفها جمع اليهود من الشتات ليستوطنوا في "أرض الميعاد" بفلسطين، وصهيون هو اسم لجبل يقع بالقرب من هيكل سليمان جنوب بيت المقدس، وأول من استخدم هذا المصطلح للدلالة على الحركة السياسية الصهيونية هو الفيلسوف اليهودي النمساوي ناثن برنباوم عام 1890، وعلى الرغم من أن الفكر الصهيوني ليس جديداً ويصعب تتبع بداياته، إلا أن نشأة الحركة بوصفها نشاط سياسي فعلي يمكن تحديده مع المؤتمر اليهودي العالمي الذي نظمه هرتزل في مدينة بال في سويسرا عام 1897 والذي تمخض عن "خارطة طريق" للعمل المنظم بهدف تحقيق هدف الاستيطان في فلسطين وبذلك أصبح هذا المؤتمر هو البداية لنشأة "الصهيونية الجديدة".

والصهيونية تسعى إلى تهويد فلسطين من خلال تشجيع اليهود في كل أنحاء العالم على الهجرة إلى فلسطين والإقامة في المستوطنات فيها وهي عبارة عن مرافق سكنية متكاملة بنيت بأموال التبرعات العالمية المستمرة وتخصص للمستوطنين امتيازات مالية كثيرة لإغراء هؤلاء المهاجرين للبقاء في تلك الأرض المحتلة، كما تسعى الصهيونية إلى انتزاع الاعتراف الدولي بالكيان الإسرائيلي كدولة ذات سيادة على أرض فلسطين المحتلة وهذا أحد الأهداف التي استطاعت الصهيونية أن تحشد له الطاقات والدعم من الدول الكبرى كأميركا وبريطانيا وفرنسا وغيرها.

ولا شك في أن الحركة الصهيونية على الرغم من بشاعة أهدافها وعدوانية وسائلها، إلا أنها استطاعت أن تحقق وبنجاح أغلب أهدافها ويكفي أننا بتنا نعيش اليوم في ظل انبطاح عربي يستجدي قبول هذا الكيان المحتل للاعتراف بأجزاء من فلسطين مقابل الاعتراف بإسرائيل كدولة ومع هذا ترفض الدولة المحتلة التي تغتصب أرضاً ووطناً ليست لها هذه العروض المغرية، ومعهم الحق فلماذا تقبل بالجزء وهي قادرة على أخذ الكل في ظل هذا الذل والانكسار ؟

أما اليهودية فهي ديانة سماوية كتابها المقدس هو التوراة التي أنزلت على سيدنا موسى (عليه السلام)، جرى تحريفها ونسخت بنزول السيد المسيح (عليه السلام) ثم بنزول محمد (صلى الله عليه وسلم).

سميت اليهودية بهذا الاسم نسبة إلى "يهوذا" ابن يعقوب الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل الذي بعث الله عز وجل إليهم موسى (عليه السلام).

وعلى الرغم من أن الصهيونية تتخذ من تعاليم التلمود "وهو كتاب من وضع الأخبار اليهود يضم أحكاما فقهية شديدة التطرف تعتبر كل من هو غير يهودي بمنزلة أقل من الإنسانية ويجوز استغلاله ونهب ثرواته وحتى قتله" أساسا فكريا لها إلا أنها أبعد ما تكون عن اليهودية الحقة، ومن الواجب التمييز بين الصهيونية واليهودية خاصة أن هناك يهودا معتدلين وفيهم من يعتبر الاستيطان في فلسطين بمنزلة احتلال وأمرًا مخالفًا لتعاليم الله عز وجل ويؤمنون بحرمة ذلك بصورة أكبر من كثير من المسلمين الذين باتوا لا يجدون في هذا الاحتلال السافر أي عيب أو تعد على حقوق الآخرين، بل إن هناك من المثقفين والكتاب والناشطين السياسيين اليهود المعتدلين من هم أكثر إنصافا وعدلا وأكثر شجاعة في قول الحق من كثير من المسلمين المتخاذلين ممن أصبحوا أكثر صهيونية ووقاحة من الصهاينة أنفسهم.

الأزمة الاقتصادية وإحياء فكر ماركس

في حديث مع إحدى المحطات التلفزيونية الألمانية، قال مدير دار كارل ديبيز فيرلانغو للنشر في برلين والتي تهتم بنشر أعمال كارل ماركس الكاملة جويرن شويترومبف بأن "الإقبال على مؤلفات ماركس أصبح لافتا للنظر بسبب أزمة الليبرالية الجديدة"، وأضاف "أن دار النشر كانت تباع في السابق 100 كتاب فقط من الأعمال الكاملة لماركس في السنة، ولكن منذ بداية ما يسمى بالأزمة الاقتصادية العالمية باعت دار أكثر من 2500 كتاب في شهر واحد".

عندما تعرضت الولايات المتحدة الأميركية للأزمة الاقتصادية الكبرى (أزمة الكساد) عام 1929 ظهرت آنذاك أصوات تنادي بإلغاء النظام الرأسمالي واستبداله بالشيوعية، واليوم يعيد التاريخ نفسه مع الأزمة الاقتصادية العالمية التي يعيشها عالمنا حيث ظهرت في مختلف دول العالم أصوات بدأت تنادي بمراجعة شاملة للنظام الرأسمالي مع الأخذ بعين الاعتبار انتقادات ماركس وتحليلاته الاقتصادية.

ومع أن التاريخ أثبت قوة النظام الرأسمالي وقدرته على الصمود أمام التحديات والأزمات الكبرى التي أصابته، وبالتالي يصبح من الصعب الحديث عن إلغاء كامل للرأسمالية فضلا عن الحديث عن عودة الشيوعية، إلا أن ذلك لا يمنع من القول بأن النظام الرأسمالي سيشهد تغييرات جذرية في كثير من مبادئه الأصلية ومن أهمها مبدأ عدم تدخل الدولة وإلغاء الفائدة.

إن مبدأ عدم تدخل الدولة في النظام الاقتصادي يعد من أهم المبادئ الرأسمالية التي طالما دافع عنها كبار منظري الرأسمالية وأصحاب رأس المال، ولكنه هو ذاته من أكثر المبادئ التي تخترق وتلغى بين ليلة وضحاها ومن أصحاب رؤوس الأموال أنفسهم قبل غيرهم عندما تتعرض مصالحهم للخطر، فيا للمفارقة! بالأمس القريب كانت تصريحات أصحاب البنوك والشركات الكبرى تندد بتدخل الدولة ومحاولتها تحديد الأسعار بصورة عادلة تتناسب مع متوسط دخل الفرد العادي حتى قال كثير منهم "بأننا لسنا في دولة

شيوعية حتى تتدخل الدولة"، واليوم هم أنفسهم أول من يطالب الدولة بالتدخل وضخ المليارات من أجل إنقاذ البنوك والشركات.

لقد أحدثت الأزمة الاقتصادية الكبرى التي انتقلت من كونها أزمة أميركية إلى كونها أزمة عالمية بسبب إجراءات الرئيس الأسبق "روزفلت" تحولات كبرى في النظام الرأسمالي حيث تحول النظام الاقتصادي الحر إلى نظام اقتصادي "موجه" تراجعت بسببه كثير من مبادئ الرأسمالية الأساسية، وربما سيشهد العالم المزيد من هذا التراجع بعد الأزمة الاقتصادية الحالية بكل تأكيد.

وعندما نتأمل في وضعنا في الكويت وانشغال السلطتين التشريعية والتنفيذية بصراعات هامشية واستجابات سخيفة على طريقة "ليش مو لابس قحفية" التي أشار إليها الزميل ذعار الرشيد في مقال سابق، نجد أنفسنا في حالة يأس وإحباط شامل وخوف مرعب مما ينتظرنا في المستقبل.

قد لا يعرف كثير منا الأبعاد الحقيقية للأزمة الاقتصادية التي يعاني منها عالمنا اليوم، وقد لا يملك أكثر الناس أي شيء للمساهمة في حل هذه الأزمة وربما يعتقد الكثيرون بأننا غير المعنيين أصلاً بما يحدث، غير أن النتائج الوخيمة التي ستترتب على هذه الأزمة حين تعلن آلاف الشركات الكبرى قبل الصغرى خسارتها ويعلن كثير من البنوك الإفلاس ويجد ملايين البشر أنفسهم بلا عمل ولا سكن ولا مصدر للدخل وحين تذهب مدخراتهم في البنوك وأسواق المال بين ليلة وضحاها سيدرك الجميع حينها قيمة التحليلات الماركسية وسيجد السيد شويترومبف نفسه بالتأكيد غير قادر على توفير نسخ كافية من كتاب "رأس المال".

صرخة اسمها الإلحاد

تعرفت بالمصادفة على وجود مواقع "بلوجات" أو مدونات في شبكة الإنترنت متخصصة فيمن يسمون أنفسهم "ملحدين" أو "لا دينيين"، وفيها كثير من المواقع خاصة بشباب كويتيين وسعوديين وإماراتيين ومن البحرين ومصر وغيرها، فأخذني الفضول لمعرفة ما يدور فيها من أحاديث، ولم يدر في خلدي على الإطلاق أن أشاهد هذا الكم الهائل من البذاءة والتطاول على الذات الإلهية وعلى الرسل والأنبياء وكل ما هو ديني ومقدس لدرجة تجعلك تترحم على رسام الكاريكاتور الدنماركي لأنه أقل إساءة مقارنة بهذه البذاءة والجرأة في سب الذات الإلهية بهذه الوقاحة والتي تخرج من شباب مسلم مع الأسف الشديد.

كنت أتصور أن أجد بعض الأفكار الفلسفية التي تستحق المناقشة والرد، إلا أن ما قرأته في تلك المواقع والمنتديات يدعو للسخط، لأنه لا يحمل فكرا بقدر ما يحمل صرخة ألم وتمرد على المجتمع بكل ما فيه من ثوابت ومقدسات لأسباب وإن كان كثير من هذه الأمور يستحق التأمل والدراسة إلا أنها في كل الأحوال لا يمكن أن تبرر - أو تؤدي إلى حد - السخرية بذات الله عز وجل ورسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومن أكثر الأمور التي لاحظتها طوال فترة متابعتي لما يكتب في هذه المدونات والمنتديات وجود عامل مشترك عند أغلب أتباعها، فهم في الغالب شاذون جنسيا ومدمنو خمر كما يعترفون هم بأنفسهم بذلك بكل فخر، حتى من خلال الأسماء المستعارة التي يستخدمونها، وربما يعطينا ذلك مؤشرا لوجود حالة مرضية عند هؤلاء تجعلهم يتخذون من المجتمع بكل ما فيه من قيم وثوابت دينية ومقدسات موقفا سلبيا رافضا بسبب شعورهم بالعزلة والنبذ الاجتماعي، حتى وجدوا أنفسهم إزاء حالة من السخرية ضد كل ما هو مقدس وديني على اعتبار أن سبب ذلك هو المنع والتحریم لمثل هذه السلوكيات المنحرفة والتي يسمونها هم "حرية شخصية".

وما يزيد الأمر سوءا عند هؤلاء المرضى هو وجود هذا الكم الكبير من التناقضات في فتاوى العلماء والتي يصل بعضها إلى حد الازدراء، فتجدهم يوردون العديد من تلك

الفتاوى على شاكلة فتوى إرضاع الكبير وغيرها من الفتاوى الغريبة، ويعممونها على الإسلام كله ويستنتجون من ذلك أن هذا الإسلام دين جهل وخرافة ثم يعطون لأنفسهم بعد ذلك الحق في السخرية واتخاذ الإلحاد بديلا !

ومع أن الإلحاد الحقيقي هو موقف فلسفي له آراؤه وحججه العقلية التي يقوم عليها، سواء قبلنا تلك الآراء والحجج أم رفضناها، إلا أنه يبقى أنها تمثل موقفا فكريا يمكن مناقشته، غير أن الأمر ليس كذلك مع هؤلاء الشباب والمراهقين، إذ لا يوجد لديهم أي فكر أو موقف عقلاني يمكن للمرء أن يجادلهم فيه، ولذلك نقول إنهم "مرضى" بحاجة إلى علاج وتربية أكثر من حاجتهم إلى براهين وحجج فلسفية.

وهنا بالتحديد أوجه هذا الخطاب أولا إلى العلماء الذين أطلقوا - ولا يزالون - العديد من الفتاوى الساذجة التي تضر ولا تنفع وأذكرهم بأن "في ضلال العالم يضل خلق كثير" وهذه إحدى نتائج تلك الفتاوى.

كما أوجه الخطاب بشكل خاص إلى أولياء الأمور وأدعوهم لمراقبة أولادهم وبناتهم خاصة فيما يتعلق بعالم الانترنت الواسع لأن كثيرا منهم مع الأسف الشديد بدأ المسألة بـ"لعبة عقلية" يتسلى فيها ببعض قضايا علم الكلام بلا خلفية دينية ومعرفية تقيهم الدخول في دهاليز هذا العالم المرعب، فماذا تتوقعون من هؤلاء الصغار علما ومعرفة عندما يقرأون ويشاهدون ويدخلون بحرا لا قرار له وهم بهذا الخواء الفكري والروحي ؟

استراحة العيد

كان يجلس وحيدا يراقب من شبাকে مئات الناس وهم يمشون بانتظام في حركة تكاد تكون آلية، يتوقفون معا ويسيروا معا بخطوات متشابهة "ورتم ثابت" مع أضواء إشارة المرور.

دخان السيارات كثيف وأسود، يثير الغثيان ويبعث على الأسى.

كان يراقب من بعيد فنانا يجلس في زاوية، يلبس قبعة غريبة ويرسم لوحة حزينة، وأشياء قديمة، شعر وكأنه يرسمه.

شاهد فتاة تقطع الطريق مسرعة، تلملم تنورتها القصيرة، تسحبها بقوة إلى الأسفل من هنا وهناك، عيون الرجال تحديق بها، تكاد تلتهمها، تكاد تخترق تلك التنورة، وهي تنظر إليهم وكأنها تقول "سحقا للرجال ولعيونهم الحادة".

جلس يفتش في هاتفه عن بقايا ذكريات قديمة، برفقة كوب قهوة ساخن ورائحة توليب منعشة، وصوت فيروز تغني كأنه هدير. قرأ.. وأطلق من صدره تنهيدة، كلماتها قليلة، تبرم وألقى بالهاتف جانبا.

بجعة صغيرة تمخر هدوء البحيرة تاركة خلفها تموجات، أهات وشريط أحلام الوقت لايزال مبكرا، أمسك الجريدة وراح يقلب صفحاتها بسرعة، كأنه لا يقرأ وماذا عساه أن يقرأ.

ألقى بالجريدة.. عيناه تلمحان خبرا صغيرا، لا يدري ما الذي شده للخبر. مضى لا إلى أين، تلعثم وتغيرت تعابيره، أصبح وجهه شاحبا أكثر، بضع كلمات غيرت مزاجه.. خبر، قدر.

"حادث ضد مجهول" هو اسم لتمثال من أعمال الفنان سامي محمد، كنت في مرسومه عندما كنت طالبا في الجامعة، شاهدت التمثال وقلت له: بومحمد أبي أشترى هذا، قال:

شتبني فيه، هذا يشترونه حق المعارض والصالات الكبرى، قلت: مو مهم، لازم اشتريه، قال: كم عندك فلوس؟ قلت له: عندي 700 دينار (طبعا ما أبي أقول 1000 علشان لا يطمع فيني هههههه)، ضحك وقال: 700 دينار تقدر تشتري فيهم هذي اللوحة (لوحة صغيرة عليها ألوان قليلة، وأنا لا أحب اللوحات لأنني لا أفهمها)، قلت له: ليش چم تبي، چم سعرها؟ قال: 4 آلاف.

قلت له: طيب أوعدني ما تبيعها إلى أن أجمع لك 4 آلاف، قول وعد.

هذه الحكاية كانت في عام 1995 عندما كنت رئيس اللجنة الثقافية برابطة طلبة الآداب وأقمنا حينها معرضا فنيا لأعمال سامي محمد، واليوم بعد مرور 13 سنة استطعت أن أجمع من قيمة التمثال دينارين ونصف الدينار يعني هانت.

بس مو لازم ينزل سعرها بسبب الأزمة الاقتصادية.

عليكم بالعمل الحكومي

لاشك أن تشجيع الشباب على العمل في القطاع الخاص بات أمرا صعبا ومخجلا بعد المطالبات الأخيرة بتسريح بعض الموظفين الكويتيين من البنوك والشركات بحجة تضررها من الأزمة الاقتصادية التي يمر بها العالم اليوم، إذ بأي وجه يمكن أن تدعو شابا حديث التخرج للعمل في القطاع الخاص وبأي منطق يمكن أن تقنعه وهو يرى أن مستقبل العاملين في هذا القطاع مهدد، وكيف يمكن إزالة هاجس "التفنيش" لأي سبب من عقول الشباب؟ إنهم محقون في مخاوفهم بالتأكد، فالعمل في القطاع الخاص يتطلب تشريعات خاصة تحمي الموظف من تعسف بعض أصحاب رؤوس الأموال، ونحن في الكويت مع الأسف الشديد نفتقد مثل هذه التشريعات، بل ونفتقد أكثر من ذلك وهو الالتزام بتطبيق القانون حتى وإن وجدت التشريعات اللازمة.

لذلك أنصح الشباب بالتوجه إلى العمل الحكومي لأنه أضمن، ولا تستمعوا إلى التنظير المثالي والكلام المنمق والجميل عن أهمية القطاع الخاص والفرص السحرية التي تنتظركم، فلا شيء ينتظركم سوى "التسريح من العمل" ولن تسمعوا إلا عبارة واحدة "براتب الكويتي نجلب عشرة موظفين غير الكويتيين" الأزمة الاقتصادية العالمية لاتزال في بداياتها، والضرر الحقيقي لم يبدأ بعد، غير أن هناك من يصطاد بالماء العكر، وهذه الفئة من الرأسماليين الجشعين والانتهازيين ستستغل كل خبر في صحيفة للتخلص من الموظفين الكويتيين، والأمر يزداد رعبا عندما نعلم أن كثيرا من أصحاب رؤوس الأموال هم أنفسهم من أصحاب النفوذ في البلاد، وبالتالي لا تتوقعوا سن تشريعات يمكن أن تنصف المواطن البسيط، لأن الجمع بين التجارة والسلطة لن يفرز إلا مزيدا من "الأصفار" في حساباتهم في البنوك الخارجية وعلى حساب الوطن والمواطن.

ارجعوا للأزمة الاقتصادية وتأملوا في إجراءات الحكومة للتعامل مع هذه الأزمة التي تسبب فيها أساسا جشع التجار وأطماعهم في زيادة أرصدهم في البنوك، ما الذي قامت به الحكومة سوى محاولة ضخ المليارات لإنقاذ شركات وبنوك فشل أصحابها في إدارتها وهم من تسبب أصلا في هذه الأزمة، الحكومة يدها مبسوطة كل البسط لإنقاذ التجار ومغلولة لحد البؤس عندما يتعلق الأمر برفع المعاناة عن المواطن وتوفير حياة كريمة

له، على الرغم من أن هذا الدور هو الدور الحقيقي للحكومة والمنصوص عليه في الدستور، فماذا نأمل من تحالف السلطة مع التجارة أما مجلس الأمة والذي نعتبره الضمانة الأساسية لحماية المواطن البسيط وخط الدفاع عن المصلحة العامة فعلياً ألا نساهم في القضاء عليه، فهناك هجمة شرسة لتشويه صورة البرلمان ودوره، نعم هناك عيوب كثيرة وفساد منتشر بين البعض، لكن واجبنا أن ندافع عن هذه المؤسسة الحضارية وأن نساهم في تطهيرها من خلال حسن اختيارنا لنواب الأمة.

علينا أن نعي أن أصحاب رؤوس الأموال الذين يسيطرون بصورة مباشرة أو غير مباشرة على القرار الحكومي وحتى على قرار البرلمان لن يعملوا أبداً لمصلحة الكويت ولا المواطن الكويتي، وإنما لمصلحة شركاتهم ليس أكثر، فهذه هي طبيعة الرأسمالي، فهو جشع وأناني بالفطرة.

العالم الرابع

بعد سقوط برلين وانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عام 1945، بدأت ما يسمى بالحرب الباردة بين قطبي القوى العظمى (الكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفييتي السابق) في محاولة للاستحواذ على أكبر قدر ممكن من مناطق النفوذ والسيطرة.

وبات يطلق على الكتلة الغربية تسمية "العالم الأول" في حين أطلقت تسمية "العالم الثاني" على الكتلة الشرقية، ولما كانت دول كثيرة اتخذت موقف الحياد من هذا الصراع الأيديولوجي بين الرأسمالية والشيوعية، خرجت تسمية "العالم الثالث" لتصف دول "عدم الانحياز" التي فضلت عدم الاشتراك في هذا الصراع الأيديولوجي والتسابق على التسليح النووي، غير أن هذه التسمية التي لم تكن تحمل في البداية أي مفاهيم للتخلف، خاصة أنها كانت تضم دولاً متقدمة ورأسمالية أيضاً مثل سويسرا والسويد وإيرلندا اختارت الحياد في تلك الحرب الباردة، إلا أن تطورا ما حدث لمفهوم العالم الثالث بعد ذلك وأصبح تقسيم العالم يأخذ منحى آخر، فأعطيت لأميركا وحلفائها في الناتو (فرنسا، إيطاليا، بريطانيا، كندا...) تسمية "العالم الأول" على أساس أنها دول متقدمة صناعياً، وديموقراطية سياسياً، ويتمتع الفرد فيها بحرية التفكير ومستوى معيشة جيد، في حين وسمت دول حلف وارسو (الاتحاد السوفييتي، ألمانيا الشرقية، رومانيا، بولندا...) بدول "العالم الثاني" كونها تتمتع بتقدم صناعي كبير ولكنها ديكتاتورية في السياسة وحقوق الإنسان الذي يفتقر فيها للحرية ويعيش في مستويات متدنية من المعيشة.

أما الدول "المتخلفة" الأخرى التي تعيش في ظل أنظمة اقتصادية "متخلفة" وغير منتجة ولا صناعية، وأنظمة سياسية ديكتاتورية بعيدة كل البعد عن "الديموقراطية" الغربية، ويعاني مواطنوها من الجهل والفقر بأبشع صورته، فهي تستحق عن جدارة وصفها بدول "العالم الثالث"، وهي تسمية أصبحت تحمل بكل وضوح مفاهيم التخلف والتراجع عن ركب الحضارة الغربية بعد انتهاء الدور الأول لهذه التسميات خلال فترة الحرب الباردة وظهور "حاجة" جديدة لاستخدام آخر!

فعندما انتهت الحرب الباردة بسقوط جدار برلين وانتهاء الاتحاد السوفييتي وتفككه إلى جمهوريات بدأت سريعا بالتحول إلى الرأسمالية منذ عام 1990 اختفى عندئذ مصطلح "العالم الثاني" في حين بقيت تسمية العالم الثالث حتى اليوم حاضرة في أدبيات السياسة والاقتصاد على الرغم من عدم وجود عالم ثان وصعود دول كثيرة في مجال التنمية البشرية والتقدم الصناعي.

الأمر الذي استدعى ظهور مصطلحات جديدة مثل "الدول المتطورة" والدول "الأقل تطورا" والدول "غير المتطورة" بهدف تمييز البلدان التي استطاعت أن تخط لنفسها خطا جديدا تخرج فيه من دائرة العالم الثالث لتلتحق بركب "العالم الأول" العالم الأميركي.

وعلى الرغم من أن مثل هذه التسميات قد توحي بوجود معايير علمية لتصنيف الدول وفقا للأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما يوحي أيضا بأنها تصنيفات علمية عادلة، إلا أنها تخفي وراءها بعدا آخر ربما يفسر لنا كثيرا مما يحدث في منطقة الشرق الأوسط بالتحديد من تدخل سافر يحمل في طياته تبريرات مثالية وحججا واهية تدعي محاولة النهوض بدول هذه المنطقة وسحبها "عنوة" من عالمها الثالث المتخلف في كل شيء إلى رحاب "العالم الأول" الجميل!

ومع أن مصطلح "العالم الرابع" قد استخدم حديثا لتمييز 50 دولة من أفريقيا وآسيا مثل أنجولا وبنين وتشاد وجيبوتي وبنغلاديش وغيرها، على اعتبار أن هذه الدول تقع في مرتبة أقل من مرتبة دول العالم الثالث الذي يتمتع على الأقل بثروات طبيعية يمكن استغلالها إلى حد ما في التنمية، فدول العالم الرابع تعاني من الفقر والجوع والتخلف وانعدام أي مظهر من مظاهر الصناعة الحديثة وفيها من الصراعات الإثنية والعرقية والطائفية أكثر بكثير من دول العالم الثالث، إلا أن هناك حقيقة لا بد من ملاحظتها من كل تلك التقسيمات تتعلق بالهدف منها أساسا وهو بكل وضوح "تبرير" احتلال هذه الدول ونهب ثرواتها باسم التقدم، وهو ما نقرأه جيدا في خطاب الرئيس بوش، والمحافظين الجدد تجاه الشرق الأوسط، حيث يرددون بكل وضوح "عزم" الولايات المتحدة و"حلفائها" على استئصال الديكتاتوريات واستبدال أنظمة "ديموقراطية" ورأسمالية تعمل وفقا لنظام

السوق العالمي المفتوح بها، بل حتى تصدير قيم الغرب ومفاهيمه الدينية ليصبح العالم كما تصوره فوكوياما ديموقراطيا رأسماليا على الطريقة الأميركية فقط !

ولكننا نتساءل لماذا لا توجه أميركا وحلفاؤها من دعاة العمل على استئصال الديكتاتوريات والنهوض بالدول المتخلفة جهودها إلى دول "العالم الرابع" أولا كونها بحاجة أكبر لمثل تلك الجهود، لماذا تتلف الولايات المتحدة الأميركية ملايين الأطنان من القمح والبطاطا والفواكه سنويا لتحافظ على أسعارها المرتفعة بدلا من إطعام جياح العالم الرابع؟ لماذا تحتل منطقة الشرق الأوسط بالتحديد مركز اهتمام هذا العالم الأول المتقدم على الرغم من أن معظم دول هذه المنطقة تمتلك مقومات النهوض والانطلاق بدرجة أكبر بكثير من دول العالم الرابع، فهل العراق أو إيران أو سورية على سبيل المثال متخلفة بصورة أكبر من رواندا وتنزانيا وأوغندا وبنغلاديش؟! أم أن المسألة أبعد بكثير من مجرد دعوى وشعارات براقية لتصدير الديموقراطية وهي التي لا يصدقها أغلب شعوب منطقة الشرق الأوسط ولا يثقون بمن وراءها، خاصة انهم يرون كل يوم إخوانهم يقتلون ويعذبون في فلسطين دون أن يتحرك هذا العالم المثالي المتقدم الذي يدعو للتسامح والتعايش السلمي ولا يفعل شيئا ضد آلة القتل الإسرائيلية التي لا ندري إلى أي عالم تنتمي !

بيو ديزل

تتسابق اليوم دول كثيرة في مجال إنتاج مصادر بديلة للبترول خاصة في ظل الارتفاع المتزايد لأسعاره مما سيتسبب في خسارة كثير من المصانع وشركات الطيران في حال تجاوزه 180 دولارا أو أكثر للبرميل كما يتوقع خبراء الاقتصاد، كما أن الحروب والنزاعات التي لا تكاد تتوقف في أهم مناطق إنتاج البترول وأكثرها حيوية تعد عاملا رئيسيا من عوامل البحث عن مصادر بديلة لهذه الطاقة، والتي ستنضب خلال سنوات محددة على كل حال، والغريب أن الحروب من أجل الاستيلاء على منابع البترول هي ذاتها التي تشكل سببا في ارتفاع أسعاره، وبالتالي ارتفاع أسعار كل شيء، وكأن العالم تنقصه كوارث طبيعية حتى يصنع لنفسه كوارث أخرى.

وتعد البرازيل من بين أكثر الدول التي قطعت شوطا كبيرا في مجال إنتاج ما يسمى بالوقود الحيوي "بيو وقود" حيث استطاعت أن تنشئ واحدا من أكبر مصانع إنتاج الـ "بيو ديزل" في العالم بتكنولوجيا ألمانية، والذي يمكن استخدامه في تشغيل السيارات دون إجراء أي تعديل في محركاتها، وهو وقود أقل تكلفة وأكثر حماية للبيئة من البترول، حيث تشكل حبوب الذرة وفول الصويا والقطن مكوناته الأساسية.

وعلى الرغم من أن العالم مهدد بمجاعة حقيقية قد تحصد الملايين من البشر بسبب سياسات أنظمة الحكم في مختلف بلدان العالم والتي تختلق الحروب ثم ترصد المليارات كميزانية لتعزيز "آلة الحرب" وصناعة الأسلحة على حساب الإنسان نفسه، وعلى الرغم من أن تسخير الطعام لصناعة الوقود في ظل تزايد الأسعار وتزايد المجاعات هو أمر في منتهى الدناءة وانعدام الحس الإنساني عند هؤلاء، إلا أن هذا الأمر بات واقعا لا يمكن إجماعه لأن الواقع عبارة عن "آلة ضخمة" لا تشكل فيها المنظمات الإنسانية ودعاة حقوق الإنسان سوى "ترس" صغير وتافه لا يقدم ولا يؤخر في عملية "طحنها" للبشر فإلسؤال لم يعد يتعلق بالأخلاق ومصير الإنسان المجهول في عالم هو أبعد ما يكون عن العقلانية وأقرب ما يكون إلى الجنون والتوحش، وإنما عن "إجراءات" عملية ملموسة بالنسبة لنا نحن الدول التي تعيش "فقط" على بيع البترول وعن مصيرنا بعد أن تصبح هذه السلعة من مخلفات الماضي، ماذا أعدنا لمثل هذا اليوم غير "التصريحات" الجميلة والحديث عن

"البركة" والرعاية الإلهية التي لا نعرفها إلا عند المصائب في الوقت الذي نحارب فيه الله ورسوله بكل وقاحة وقت الرخاء، وعندما نسأل كيف ستوفر الحكومات الحد الأدنى من المعيشة لمواطنيها بعد 50 عاما مثلا تتحول هذه الحكومات بقدرة قادر إلى "شيخ دين" طيب وورع يتحدث بلغة الوعظ والإرشاد ويلخص كل شيء في جملة واحدة "ربك الحامي" !

المشكلة أننا لسنا مسلمين كما يجب فنعتمد على الله عز وجل في كل أمورنا، ولا علمانيين يعتمدون على عقولهم ولا خليطا من هذا وذاك، وإنما مجرد كيانات بلا ملامح تقفز هنا وهناك بحسب ما يتطلبه واقع "الهروب" من المسؤولية.

الحق في الحياة

تجمع كل الأديان وعلى رأسها الإسلام على حرمة النفس البشرية، وتشير جميع المواثيق الدولية وعلى رأسها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وإعلان فيرجينيا ووثيقة الاتحاد الأوروبي وغيرها الى ان "الحق في الحياة" هو أول وأهم الحقوق الإنسانية.

وبنظرة عابرة لما يحدث اليوم في العالم نكتشف بكل وضوح ان هذا الحق بالذات هو من أكثر الحقوق الانسانية انتهاكا في كل مكان، وبشكل خاص في منطقة الشرق الأوسط، بل ان حرية الرأي والتفكير باتت تحتل مكانة أعلى بكثير من الحق في الحياة على الرغم من انها لا تساوي شيئاً أمام هذا الحق، ان ما فائدة حرية التعبير بعد قتل البشر؟ كل هذا يحدث اليوم علنا وبصورة جماعية حيث تباد أمم ويقتل الآلاف من الأبرياء بلا ذنب نتيجة لصراعات طائفية لا معنى لها وحروب انتهازية غير مبررة، كل ذلك يحدث اليوم بسبب "المشايع" الدينين أو السياسيين، سواء من نصبوا أنفسهم عنوة واستباحوا دماء البشر باسم الثورات الإصلاحية أو من اختارهم الناس بإرادتهم ليكونوا حماة لتلك الحقوق الإنسانية المنتهكة، فماذا يفسر لنا ذلك سوى أنهم خذلوا البشر على أقل تقدير !

يعيش معظم البشر اليوم أسوأ حالاتهم، ولا فرق هنا بين غني وفقير، ولا بين متعلم وجاهل، فآلة القتل لم تعد تميز أحدا من الآخر، وهاجس الموت قتلا وبلا ذنب أصبح جزءا من كيان الإنسان ومصدر قلقه وخوفه الدائم كل يوم في هذا العالم المجنون، أما الموت على فراش دافئ ولأسباب طبيعية فعلى ما يبدو بات من الأحلام التي وجد الإنسان نفسه مضطرا اليوم لإضافتها ضمن قائمة الأحلام الوردية الأخرى وما أكثرها! إن إنسان اليوم أشد بشاعة وفتكا من أي مرحلة من مراحل التاريخ على الإطلاق، فلا حتى وحشية وسائل القتل والتعذيب التي عرفها العالم في العصور الماضية يمكنها ان تضاهي جريمة قتل واحدة مما يشهده عصرنا الحالي من قتل جماعي ودون سبب.

حقوق الإنسان قائمة طويلة لا يختلف على أهميتها أحد، ولكن علينا ان ننتبه الى ان أول هذه الحقوق هو ما يستحق اليوم بذل الجهد تلو الجهد للمحافظة عليه، فأمام وحشية القتل بالجملة نتيجة تلك الصراعات الهمجية تتضاءل كل المطالب الأخرى، والغريب ان

أكثر الدول انتهاكا لحقوق الإنسان اليوم هي أكثر الدول حديثا عن الدفاع عن تلك الحقوق، كما أن أكثر الدول التي تسعى "الأمم المتحدة" إلى حماية أفرادها من انتهاكات حقوق الإنسان هي أكثر الدول التي تعاني من انتهاك "حق الحياة" بسبب تلك "الحماية"، فأأي جنون وأي عبثية يشهدها كوكبنا الصغير؟

غداء في لندن عشاء في باريس

في عام 1993 أعلن عن قيام الاتحاد الأوروبي وولادة عصر جديد من العلاقات بين دول أوروبا، تقوم على التعاون واحترام المصالح المشتركة بما لا يخل بخصوصية كل بلد منها وسيادته، وهكذا وضعت أوروبا حدا لمئات السنين من الحروب الطاحنة والدمار وبدأت مرحلة جديدة وأصبحت قوة جديدة.

قبل أيام تناولت وجبة الغداء في لندن ثم ركبت القطار الأوروبي متوجها إلى باريس لأتناول وجبة العشاء هناك، هكذا بكل بساطة وسهولة تستطيع اليوم أن تنتقل بين دول الاتحاد الأوروبي بلا قيود وبلا تعقيدات وبفيزا واحدة وعملة واحدة وبواسطة قطار سريع ينتقل بك عبر تلك العواصم الجميلة بكل حرية وكرامة، لتشهد آلاف الإنجازات الحضارية والتقدم في شتى المجالات ومظاهر النهضة وفنون العمارة والتنظيم والروعة في كل زاوية.

في عام 1981 أعلن عن قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية بين كبرى الدول المنتجة للبتترول، عصب الحياة في هذا العصر، وعلى الرغم من مرور 27 عاما على قيام هذا "التعاون المشترك" لم تتمكن هذه الدول حتى اليوم من تحقيق أي مضمون حقيقي للتعاون والوحدة وأبسرها العملة المشتركة أو حرية التنقل فيما بينها، ويكفي أن ينظر المرء إلى إجراءات السفر من الكويت إلى البحرين مثلا، حيث يضطر إلى ختم جوازه 8 مرات مع أن الفاصل بين النقاط الحدودية لا يتجاوز بضعة أمتار لا أكثر! 27 عاما من العمل المشترك بين مجموعة من الدول الغنية ولا يوجد حتى الآن "مخطط" لبناء شبكة قطارات تربط عواصمها معا على أقل تقدير، ناهيك عن مشاريع الطاقة البديلة والاستعداد لما بعد نضوب البترول.

وحتى لا نظلم هذا المجلس علينا أن نعترف بوجود عمل مشترك تحقق أخيرا، يتمثل في تبادل المعلومات الأمنية وربط أجهزة الأمن بين دول الخليج، لدرجة أنك إذا ارتكبت مخالفة مرورية في أي منها تظهر في بلدك قبل أن تعود إليه، لكن على ما يبدو أننا توقفنا عند هذا الجانب الذي تجيده الدول العربية تماما، جانب الأمن والمخابرات، أما مشاريع التنمية البشرية والبنى التحتية ومشاريع السياحة التي باتت تشكل أحد أهم الموارد

الاقتصادية في كثير من البلدان، فهي على ما يبدو آخر ما تفكر فيه دول مجلس التعاون الخليجي المشترك !

أكثر ما لفت انتباهي في باريس وأنا أتجول بين المعالم السياحية التي يتوافد عليها الناس من كل بقاع الأرض، أفواجا تلو أخرى، أن كثيرا من تلك المعالم عبارة عن "نصب تذكارية" تتحدث عن حقبة الحربين العالميتين الأولى والثانية، تذكر الجميع بمشاهد الألم والدمار والقتل التي تسبب بها هتلر وتشيد بالانتصار عليه، وهو بكل تأكيد أمر مشروع يتعلق بحقائق التاريخ والجغرافيا.

غير أن ما كان يثير الاستغراب ويسبب الألم والمرارة في النفس أن تمر 18 عاما على ذكرى الاحتلال العراقي للكويت والذي خلف من الدمار والقتل والجرائم ضد الإنسانية الشيء الكثير دون أن تفعل الحكومة الكويتية أي شيء لتوثيق تلك الجريمة البشعة والتجربة المريرة من خلال النصب التذكارية والتي لا تحتاج سوى أسمنت وحديد ورؤية فنية، وهي كلها متوافرة بالتأكيد، ولكنها تحتاج أيضا إلى "قرار سياسي" وهنا المشكلة!

من حق الكويت أن توثق تاريخها وتذكر الجميع بتلك الجريمة، ومن واجب الحكومة أن تقوم بذلك وتعمل على بناء صروح ونصب تذكارية وتطلق على الشوارع والأحياء والمساحات أسماء تحكي ما حدث وتخلد أسماء من ضحوا لأجل الكويت وتقول للعالم أجمع هذا هو التاريخ، كل ذلك بطريقة ذكية وسهلة وزهيدة الثمن تشكل استثمارا ناجحا يوثق التاريخ ويحرك عجلة الاقتصاد، ولكن أين القرار؟!

تدريس الفلسفة

نفهم حرص اللجان المختلفة في الكويت التي تعنى بالدفاع عن المعتقدات الدينية وحماية النشء والمحافظة على القيم والعادات والتقاليد الحسنة وغيرها على متابعة كل ما يمكن أن يثير القلق والخوف ويهدد كيان المجتمع، كما نشكر لأعضائها بالتأكيد غيرتهم تلك، غير أن وضع "تدريس الفلسفة" ضمن قائمة المحظورات ومحاولة الغاء تدريسها لطلبة المرحلة الثانوية أمر مبالغ فيه ولا يستدعي كل هذا القلق والخوف من "زعزعة الإيمان وتقويض الدين" كما يرى بعض أعضاء لجنة استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، على الرغم من أن منهج الفلسفة الذي يدرس للصف الثاني عشر في القسم الأدبي لا يرتقي للمستوى المطلوب ولا يقدم مادة علمية مناسبة، الا أن الحل ليس في الغاء تدريس الفلسفة تماما بحجة أن الفلسفة تزعزع الإيمان وان هناك دولا أخرى تمنع تدريسها، فمثل هذه الحلول الحادة لها تأثير سلبي أكبر بكثير من المنفعة المتوقعة منها.

وأنا شخصيا أقوم بتدريس الفلسفة منذ 12 عاما ولم أشهد حتى اليوم أي زعزعة في عقول الطلبة ولا أجد في كتب الفلسفة المختلفة التي قمت بتدريسها أي شيء من ذلك، وعلى كل حال اذا كان هناك عيب في منهج الفلسفة فهو عيب في واضعي الكتاب المدرسي وليس في الفلسفة ذاتها، وهذه مشكلة حقيقية تنطبق على أغلب مناهجنا الدراسية العقيمة.

ومع احترامنا الشديد لجميع اعضاء لجنة استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الكويت ولرأيهم في الفلسفة الا أننا لا نتفق معهم على الإطلاق في هذا التوجه السلبي الذي يمثل هروبا من المشكلة بدلا من وضع الحلول المناسبة لمواجهتها، فالفلسفة طريقة في التفكير النقدي يمكن الاستفادة منها في تشكيل شخصية ناقدة ومنفتحة ومبدعة متى ما أحسنا التعامل معها، وبالتالي فالحاجة للفلسفة كبيرة ومهمة جدا اذا كنا نتطلع لبناء جيل واع ومثقف ومبدع وناقذ جيد، ولسنا بحاجة الى سرد الأدلة العقلية والنقلية للتأكيد على أهمية الفلسفة وعدم تناقضها مع الدين، أما الاعتقاد بأن الفلسفة تؤدي إلى الكفر أو الإلحاد فهو اعتقاد خاطئ ولا يدل الا على عدم الفهم بالفلسفة ومضمونها، فحسن دراسة الفلسفة يعد من أهم عوامل اليقين السليم وتوثيق الإيمان، والا فكيف يفسر أعضاء

لجنة استكمال الشريعة أمر الله عز وجل للناس بالتفكير والتأمل والنظر في أكثر من موضع في القرآن الكريم (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)، (أفلا يتفكرون)، (أفلا يعقلون) ؟

المشكلة الحقيقية ليست في الفلسفة على الإطلاق وإنما هي في المناهج الدراسية لوزارة التربية والتي سئم الجميع من المطالبة بتعديلها والاهتمام بها ولكن من يسمع ومن يهتم؟ فالجماعة في وزارة التربية مشغولون جدا بقضية واحدة هي الترقيات والصراع على المناصب واعطاء المسؤولين المزيد من الصلاحيات والامتيازات على حساب الدور الأساسي لهذه الوزارة وهو التربية والتعليم الذي يؤديه المعلمون والمعلمات ويفترض أن يحظوا بكل الاهتمام والتقدير اللازمين، ولكنهم مع الأسف يقعون في أسفل الهرم.

كنا نتمنى من لجنة استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية التي مضى عليها أكثر من عشرة أعوام دون أي نتائج ملموسة لو أنها وجهت اهتمامها الى تعديل المناهج الدراسية بدلا من إلغائها هكذا بكل بساطة وكأننا نعيش خارج الزمن.

الوعي الاستهلاكي

دار نشر ألمانية عريقة تدعى "شيراند" معروفة بإصدار الخرائط والأطالس الجغرافية الدقيقة، وتعد خريطتها عن جبل بروكن (أعلى جبل في ألمانيا) رائجة جدا بين هواة التسلق والتزحلق على الجليد، غير أن أحدث القياسات أثبت أن ارتفاع ذلك الجبل هو 3747 قدما وليس 3741 كما هو مكتوب في الخريطة، وكى تحافظ المؤسسة على دقة معلوماتها - وتتلافى سحب الخرائط من السوق - كلفت شركة إنشاءات برفع قمة الجبل ستة أقدام إضافية باستعمال كومة من الصخور الطبيعية، هذه الحركة، التي تنم لأول وهلة عن نكاء جيولوجي وتجاري رهيب، هزت ثقة الزبائن بالمؤسسة فانخفضت أسهمها وحقت خسائر متواصلة، وعلى الرغم من أن دار النشر قامت بإزالة الصخور وسحب الخرائط من السوق والاعتذار للزبائن، إلا أن ذلك الحل ترك أثرا يصعب نسيانه وتسبب في زعزعة ثقة الناس بمصداقية دار النشر تلك.

عندما نتأمل في طريقة التعامل مع المستهلكين لدى أغلب الشركات والمحلات التجارية - وخاصة الكبرى - ونعيد قراءة هذه الحكاية البسيطة نكتشف أننا لا نساوي شيئا عند هذه الشركات، ولا نمثل لها أكثر من "رقم" يفتقر إلى أبسط مفاهيم الوعي والنضج، ولذلك لا غرابة أن تستغلنا تلك الشركات أبشع استغلال وتتمادى في تجاهل حقوقنا كمستهلكين وتعاملنا وفق مبدأ "البضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل" ومع ذلك نشترىها.

تصّلني كل يوم وأنا في لندن إعلانات دعائية عن عروض مغرية للهواتف النقالة، أبسطها مكالمات مجانية لمدة 1000 دقيقة شهريا وعدد لا نهائي من الرسائل القصيرة اضافة إلى جهاز تختاره من بين أحدث الأجهزة مع جميع الخدمات الحديثة مجانا، كل ذلك بثلاثين جنيها في الشهر لمدة سنة، وعندما نقارن ذلك مثلا مع عروض شركات الهواتف في الكويت والتي نجد أنفسنا ندفع مقابل كل خدمة على حدة وبلا أي امتيازات مجانية ومع ذلك ندفع أكثر بعشرات المرات خلال السنة، نكتشف أننا زبائن "أونطة" الغريب أن لدينا مؤسسات تعنى بحماية المستهلك ولكننا لا نجد أي صدى أو فائدة لوجود مثل هذه المؤسسات الشكلية حتى أصبحت قضية ارتفاع الأسعار في الكويت قضية تناقش على مستوى مجلس الوزراء ومجلس الأمة و "بجلسات سرية" ومغلقة لا ندري ما الذي يدبر

فيها وأي "اتفاقات" تعقد فيها وهل هي حقا في صالح المستهلك؟! صحيح أن مشكلة ارتفاع الأسعار أصبحت مشكلة عالمية إلا أننا الدولة الوحيدة في العالم التي وصلت فيها هذه المشكلة إلى حد "الأزمة" وكانت احد أسباب حل البرلمان، جزء من المشكلة يتعلق بنا نحن المستهلكين بالتأكد، وعلينا أن نعرف أننا لن نحصل على معاملة جيدة وعادلة من تلك الشركات التجارية ما لم يكن لدينا وعي استهلاكي جيد ونتخذ منها موقفا سليما يجبرها على احترامنا كمستهلكين، فرأس المال بشع لا يتعاطى من منظور إنساني ولا أخلاقي على كل حال، وانما بحسبة "العرض والطلب"، لذلك القضية لم تكن تتعلق بالنسبة لزبائن دار "شيراند" بخطأ في معلومة بستة أقدام، وإنما بإجراءات تلك الدار التي تدل على عدم وجود المصداقية واحترام المستهلك، فكانت ردة فعلهم بمثابة صفة ودرس لن تجرؤ لا هي ولا غيرها من الشركات التجارية على تكرار ما حدث.

إيران والديموقراطية الكويتية

ظهرت الديموقراطية أول ما ظهرت كنظام حكم في الحضارة اليونانية القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت تمارس آنذاك بعدة طرق وأشكال منها مشاركة مواطني أثينا الأحرار في الجمعية العمومية حيث كانوا يتحدثون ويترجون أفكارهم بصورة مباشرة، كما كانت تمارس بطريقة القرعة أيضا لاختيار رأي معين من بين عدة آراء مختلفة، ومن أبرز خصائص الديموقراطية اليونانية أنها كانت مقصورة على الرجال الأحرار من مواطني أثينا فقط.

ثم تطور مفهوم الديموقراطية بعد ذلك ليأخذ معنى التمثيل النيابي بعد تعذر مشاركة جميع أفراد الشعب بصورة مباشرة، والحديث هنا عن قرارات تتعلق بمصلحة البلد وطريقة تسيير أمورها بما يحقق الرخاء والأمن لمواطنيها، أما الحديث عن التداول السلمي للسلطة بوصفه معيارا لمفهوم الديموقراطية فهو معنى حديث نسبيا دخل مع مفاهيم الاستعمار، فتحول معنى الديموقراطية من مجرد "حكم الشعب لنفسه بنفسه" إلى الحديث عن شكل السلطة الحاكمة وكيفية وصولها للحكم، وهنا ينبغي ملاحظة التمييز الواضح بين شكل نظام الحكم والممارسة الفعلية للسلطة.

وعلى الرغم من أن الديموقراطية بذاتها ليست نظاما متكاملًا ولا عادلا تماما، إلا أنها أفضل الأنظمة المتاحة لإدارة شؤون البشر فيما بينهم، ولذلك أصبح التحول إلى الديموقراطية مطلبًا عادلا وشرعيا لكل الشعوب.

ولكن عندما يأتي الحديث عن الديموقراطية خاصة من خلال التصريحات من بعض الدول في فترات الصراع بينها، نلاحظ أن مفهوم الديموقراطية يختزل في جزئية بسيطة جدا تتعلق بشكل النظام بدلا من ممارسة السلطة، وفي تصريحات بعض المسؤولين الإيرانيين عن أنظمة الحكم في الخليج شيء من هذا.

في الكويت لدينا ديموقراطية حقيقية تضرب بجذورها أبعد مما تضمنته المادة السادسة من الدستور "نظام الحكم في الكويت ديموقراطي، السيادة فيه للأمة مصدر السلطات

جميعاً" وذلك من خلال اختيار الشعب الكويتي للشيخ صباح الأول، رحمه الله أميراً لهم، كما أن وجود برلمان منتخب بصورة مباشرة وحرّة ونزيهة إضافة إلى مؤسسات المجتمع المدني وتطبيق مبدأ فصل السلطات كلها متأصلة في الكويت بصورة واضحة لا غموض فيها ولا تزوير كما يحدث في كثير من بلدان العالم.

عاشت إيران طوال تاريخها صراعات سياسية طاحنة، واحتلت من قبل جماعات عدة مارس كل منها طغيانه بوحشية، وكان آخرها الغزو المغولي الذي استمرت آثار تدميره من القرن الحادي عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي حيث تعاقب عليها عشرات الأسر الملكية وآخرها الأسرة البهلوية التي قضت عليها الثورة الإسلامية عام 1979 وسالت فيها دماء كثيرة.

هذه إيران التي لم تعرف معنى الديمقراطية ولا الانتقال السلمي للسلطة وعهدتها بالانتخابات لا يتجاوز 29 عاماً ثم يخرج علينا من يخرج ويتحدث عن الديمقراطية الكويتية التي تمتد لـ 300 عام.

لا تهمنا التسميات ولكن يهمننا الجوهر والمضمون، فقد عاشت الكويت منذ تأسيسها على المشاركة الشعبية في تسيير أمور الدولة، واختيار آل الصباح للحكم لم يكن بثورة ولا بسيف ولا بانقلاب، وهو اختيار الشعب، وقد أثبتت تجربة الاحتلال تجديد ولاء الكويتيين وإصرارهم على اختيار آل الصباح للحكم، فعن أي شيء يريد هؤلاء أن يتحدثوا عندما ينتقدون الديمقراطية الكويتية، عن مؤسسات المجتمع المدني أم عن فصل السلطات أم الانتخابات أم الحريات؟ هذه هي معايير الديمقراطية التي نمتلكها كلها بفضل الله ولا نمتلك منها إيران أي شيء في ظل مؤسساتها العسكرية التي تخنق البشر.

هذه ديموقراطيتنا ونحن فخورون بها ولسنا بحاجة إلى "شكل" آخر من أشكالها مادامنا لا نعاني من أي ديكتاتورية والله الحمد، ولسنا بحاجة أيضاً إلى أن نكون نسخة مكررة من دولة أخرى.

نعم لدينا طائفية

قال نيتشه ذات مرة "إننا نضطر لرفض كثير من الأفكار الصالحة لمجرد أن من قالوها عبروا عنها بصورة سيئة".

وهو محق في قوله متى ما نظرنا إلى خطاب كثير من الدعاة والمشايخ خاصة عند حديثهم عن الطائفية.

فمن أبشع المفارقات أن يكون الحديث حول نبذ الطائفية والدعوة إلى التسامح والوحدة الوطنية بهذه اللغة العنيفة والنفس الإقصائي وأن يحمل في طياته الكثير من التشكيك في ولاء الناس وحتى نواياهم.

ولأن الحديث الطائفي في الكويت أخذ اليوم منحى آخر أشد قسوة وحماسة، فإن ذلك يجعلنا نقول بكل ثقة إننا بتنا نعاني من مشكلة طائفية لم نكن نعرفها قبل اليوم.

غير أنها في بداياتها ولا تحتاج في وأدها إلا إلى القليل من "الحزم" لإخماد شرارة الفتن، ولا أظن أن الحديث عن حسن النوايا ذو جدوى مع مفتعلي هذه الفتن ومستخدمي تلك اللغة البغيضة لأنه حديث لا يفهمونه أصلاً.

لدينا مشكلات قد تحمل في داخلها بذرة الشر وفتيل أزمة طائفية مثل بعض المناهج الدراسية وغيرها، غير أن التعامل مع تلك المشكلات وطريقة طرحها بذلك الخطاب الاستفزازي من كلا الطرفين وتلك اللغة العنيفة وذلك الحديث العنصري البشع والذي يميز الناس ويصنفهم مع هذا أو ضد ذاك بكل بساطة هو تعامل أخرج لنا يوصلنا إلى شيء سوى الصراع والتفتت.

وفي كثير مما يكتب من مقالات وتصريحات وفيما يقال في خطب الجمعة والأشرطة الإسلامية وفي مواقع الانترنت دلالة واضحة على وجود شيء من هذا النفس عند البعض ممن يرون أنهم مكلفون من الله عز وجل ومأجورون على ذلك الخطاب الإقصائي.

هناك بوادر أزمة طائفية علينا أن نعترف بها ونشخصها ونحدد أطرافها بكل وضوح قبل أن تقع الكارثة، وهي أزمة لن يحلها الزمن من تلقاء ذاته وإنما تتطلب عملا حقيقيا واتفقا واضحا على وقف هذا النزيف من التصريحات والأحاديث الهجومية والاستفزازية من الجميع، فعامة الناس يؤمنون بمشايخهم ويصدقون ما يقولون وسيفعلون ما يؤمرون منهم بلا تأمل ولا تفكير وهنا مكنم الخطر، وهنا أيضا مكنم العمل.

لقد بات الجميع يتحدث عن نبذ الطائفية والتنبيه من مخاطرها وهو مؤثر واضح على وجود مشكلة وإلا لما استدعى الأمر كل هذا الغناء، فهل ننتبه ونتحلى بالشجاعة ومنتصر لوحدتنا الوطنية ونقطع دابر الشر في مهده، أم نستمر في دس رؤوسنا في الرمال وندعي المثالية والانسجام بكل سذاجة!؟

ما أحوجنا للتغيير الراديكالي !

يعبر مفهوم الراديكالية عن موقف سياسي متشدد يرى ضرورة التغيير الجذري كطريق لإحداث التغيير المطلوب في المجتمع في مقابل مفهوم الإصلاح المعتدل الذي يؤمن بضرورة اتخاذ خطوات إصلاحية بعيدة المدى للوصول إلى الهدف المنشود.

ويرجع أصل كلمة Radicalism إلى الكلمة اللاتينية Radix والتي تعني حرفيا "الجذر" Root وتعود بداية استخدامها في السياسة مع أواخر القرن الثامن عشر حيث أطلقت كلمة راديكاليين على أعضاء البرلمان البريطاني الذين نادوا بضرورة إجراء تغيير جذري في البرلمان ذاته كما تقول الموسوعة البريطانية، ثم تطور مفهوم الراديكالية حديثا وارتبط بصورة أكبر بمفاهيم العنف والتغيير بالقوة خاصة مع ظهور الأحزاب الشيوعية التي نفذت فعلا التغيير الجذري بالعنف والثورة كما حدث في الاتحاد السوفييتي السابق.

أما حديثا فإننا نجد عدة استخدامات لهذا المفهوم لوصف الأجنحة المتطرفة في الأحزاب السياسية، مثل اليمين الراديكالي واليسار الراديكالي بل وحتى الوسط الراديكالي، وهي تشير في مجملها إلى وجود فكرة أساسية لدى أتباعها بضرورة التغيير الجذري الحاسم وليس الإصلاح بعيد المدى، حيث يؤمن جميع الراديكاليين بضرورة التغيير الجذري في مؤسسة اجتماعية كمؤسسة الحكم أو التشريع أو التعليم وغيرها نظرا لتفشي حالة الفساد بدرجة كبيرة لا تصلح معها أي خطط وبرامج للإصلاح.

كان هذا المدخل ضروريا قبل الحديث عن حاجتنا في الكويت إلى نظرة وفكر راديكاليين لإحداث التغيير المطلوب في كثير من مؤسساتنا الاجتماعية، فما أحوجنا إلى تغيير راديكالي في نظام التعليم الذي يعاني من الترهل وعدم الاستقرار ومخرجاته هي الأسوأ على الإطلاق نتيجة عمليات "الترقيع" والتجارب المستمرة وعشرات المحاولات الفاشلة من هنا ومن هناك لإصلاحه دون فائدة، طالما أن عمليات الإصلاح والتعديل لم تتجاوز قط مضمون النظام التعليمي وفلسفته وآليات تطبيقه، وإنما هي عمليات لا تعدو كونها أشبه بعلميات جراحة التجميل التي تخفي بعض عيوب البشرة ولكنها أبدا لن تعالج تعاريج وخطوط الزمن، وما أحوجنا للتغيير الراديكالي في نظامنا الاقتصادي "الريعي" والانتقال

إلى الاقتصاد المنتج والبدائل المتنوعة، وما أحوجنا إلى التغيير الراديكالي في نظام العمل الحكومي المهلهل في أغلب قطاعات الدولة والذي لا ينتج سوى الكسل وقلة الإنتاجية والتهرب من الانجاز والعمل فضلا عن النهب المنظم وتجيير مصالح الدولة والمجتمع لأفراد بعينهم، وما أحوجنا لتغيير جذري في النظام الصحي وخدمات البريد والمواصلات وغيرها.

لقد جربنا منذ عقود سياسة الترقيع والحلول المؤقتة وآلاف المحاولات الإصلاحية البطيئة في مختلف قطاعات الدولة ومؤسساتها ولم نجن حتى اليوم أية نتائج إيجابية تجعل من الكويت دولة متقدمة تتناسب فيها معيشة المواطنين والخدمات الاجتماعية مع ثرواتها وصغر مساحتها، فالى متى ننوي المضي بهذه التجارب السلحفائية التي باتت كمصانع لإنتاج المزيد من المشكلات؟ ومتى سندرك أن العالم يتطور من حولنا بسرعة هائلة ولا مجال لنا للحاق بركب هذا التطور إذا لم نبدأ بالفعل بسلسلة من التغييرات الراديكالية التي تضع حدا فاصلا بين مرحلة الانحدار ومرحلة النهوض؟ ما فاتنا كثير، وما لم يفتنا أكثر، فلاتزال فرص النهوض قائمة وفي انتظار من يستغلها الاستغلال الصحيح للخروج من دائرة الجمود إلى دائرة الإصلاح الجذري.

أشياء لا يمكن إصلاحها

وصلت إحدى السيدات إلى المطار مبكرة، فوجدت أن لديها بعض الوقت فقررت أن تشتري كتابا وعلبة بسكويت في انتظار موعد الإقلاع، جلست تقرأ ومدت يدها على علبة البسكويت، فلاحظت أن الرجل الذي يجلس بجانبها قد مد يده هو الآخر وتناول قطعة بسكويت من نفس العلبة، تأففت قليلا ثم تناولت قطعة أخرى، فتناول الرجل أيضا قطعة أخرى من البسكويت، ازدادت نبرة التوتر وقالت في نفسها إن هذا الرجل قليل الأدب، كيف يجروء على أخذ ما ليس له.

استمرت في القراءة وكانت كلما تناولت قطعة بسكويت تناول الرجل أيضا قطعة أخرى وهي لاتزال تتأفف وترمقه بنظرات الازدراء والاحتقار، إلى أن بقيت قطعة واحدة فقالت لمر الآن كيف سيتصرف هذا الأحمق، فقام الرجل بكل هدوء وقسم قطعة البسكويت إلى نصفين، تناول نصفًا وترك للسيدة الغاضبة النصف الآخر.

جن جنونها فقامت من مكانها بعد ألقت عليه بضع كلمات بذيئة، أما هو فلم يبادلها إلا ابتسامة هادئة.

في الطائرة، مدت المرأة يدها في حقيبتها لتأخذ غرضا ما، فصعقت عندما وجدت علبة البسكويت خاصتها لاتزال غير مفتوحة، فأدركت أنها طوال تلك الفترة كانت تأكل من علبة الرجل، والذي كان شديد الكرم والذوق لدرجة أنه قاسمها حتى القطعة الأخيرة دون أن يغضب أو يتضايق.

أحست بصفعة قوية على وجهها من فرط الخجل، وتمنت لو أنها تستطيع أن تقفز من الطائرة لتعتذر عن تصرفها ولكن هيهات.

في حياتنا أشياء لا يمكن إصلاحها بعد كسرهما، كما لا يمكن إرجاع الكلمة بعد نطقها، والكلمة المكتوبة أشد خطرا وظلما من غيرها إن لم نراعها ونراقب حقوق الناس علينا ونراقب ضمائرنا قبل ذلك.

ومن يراقب كثيرا مما يكتب في صحافتنا اليوم يلمس بوضوح شدة القسوة في الاتهام وتمادي كثير من الأقلام في التجريح بلا مبرر.

لسنا بحاجة إلى كل هذا العويل والمبالغة في الإساءة إلى الناس بدعوى النقد وهو أبعد ما يكون عن ذلك.

صحافتنا مقروءة في الخارج قبل أن تكون مقروءة في الداخل، ولا بد أن نتحلى بروح النقد السليم والابتعاد عن الشخصية والإساءة إلى الآخرين والتشكيك في الذمم.

فلسنا على كل حال مؤهلين للحكم على البشر وعلى نواياهم.

بعض الكتاب مع الأسف الشديد لا يريدون التمييز بين ما هو من أصول الدين ومبادئ الشريعة، وما هو تصرفات شخصية لأفراد يسيئون جهلا أو عمدا إلى تلك المبادئ والقيم.

فتراهم يجتهدون في القدح والتجريح والتجروء على القيم بسبب تصرفات الأفراد.

وفي كثير مما يكتب اليوم من استهزاء وسخرية من اللحية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها خير دليل على ما نقول، متناسين أن إطالة اللحية هي سنة رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الأطهار، وان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما في الحقيقة آية في القرآن الكريم وليس من ابتداء أعضاء مجلس الأمة "الإسلاميين".

الإنسان موقف

اكتظت قبل ايام ساحة "ترافل جار" في وسط العاصمة البريطانية لندن بألاف الحشود رافعين الاعلام الاسرائيلية وعلى وجوههم علامات النصر والبهجة احتفالاً بمرور 60 عاماً على "اغتصاب" ارض ليست لهم وقتل ملايين الابرياء من الاطفال والعجائز والشباب بلا ذنب سوى انهم مواطنون في بلد اجتمعت قوى العالم على اغتصابه من اهله دون وجه حق، وفي المقابل لم يكن هناك سوى ثلاثة باصات علقت عليها الاعلام الفلسطينية وشعارات تحمل من عبارات الاسى والمرارة في محاولة سانحة ربما لاستدرا العطف او الشفقة، محاولة يائسة للتذكير بجريمة بشعة لا تزال تمارس يوميا ضد شعب اعزل، وعلى مرأى ومسمع كل البشر خاصة دعاة السلام وحقوق الانسان الصامتين.

الغريب ان اعداد العرب والمسلمين في لندن تفوق اعداد اليهود بألاف المرات ومع ذلك امتلات الساحة والشوارع بالاعلام الاسرائيلية دون ان تتحرك في هؤلاء العرب والمسلمين ذرة من حياء او غيرة للوقوف بجانب اخوانهم المستضعفين ومؤازرتهم حتى في ابسط الامور، في التعبير عن موقف انساني.

غير ان مشهدا واحدا من بين تلك المشاهد المؤلمة والمحرزنة كان له اثر بالغ جعلني اشعر بالخجل من نفسي، فقد كانت الباصات الثلاث التي تحمل بضعة مؤيدين من الفلسطينيين تحمل على سطحها عددا من "اليهود" المتدينين بملابس الحاخامات واللحي الطويلة "والتي لا يجرؤ بالتأكيد كتابنا الليبراليون ان يستهزئوا بها" رافعين شعارات تندد بمرور 60 عاماً من العار والتعذيب والقتل!

امر مخجل حقا ان يقف بعض اليهود المنصفين هذا الموقف المشرف في حين يتفرج ملايين العرب والمسلمين على هذا المنظر بلا حراك!

كنت اسير في شارع اكسفورد قبل ايام وعندما وصلت بقرب متجر ماركس آند سبنسر اعطاني شاب بريطاني ورقة تتضمن تحذيرا من الشراء من هذا المتجر لانه يتبرع سنويا

بملايين الدولارات للحكومة الاسرائيلية التي تقتل بواسطتها المزيد من الابرياء في فلسطين المحتلة.

استغربت ان يقوم شاب بريطاني ابيض بهذا العمل المرهق، سألته هل انت مسلم؟ فأجاب بالنفي، فقلت له وما الذي يجعلك اذن تقف الساعات الطوال لتوزيع تحذير من متجر اغلب زبائنه من العرب والمسلمين؟ فقال بكل بساطة لانني "انسان"! موقف آخر جعلني اشعر بالتضاؤل امام نفسي حتى شعرت بأنني قزم اكاد الامس الارض من فرط الانكسار، مضيت أَللم اجزائي واواري سوأتي وعلامات العار من تقصيري.

مشكلتنا اننا انجرفنا وراء اعلام اجوف استطاع بكل مكر ان يسلخنا من ذواتنا وانسانيتنا ويصور لنا تلك الجريمة وذاك الاحتلال على انه مجرد صراع على السلطة بين "فتح" و"حماس" حتى اصبحنا لا نتورع ولا نخجل من قول "فخار يكسر بعضه"، دون ان تهتز فينا شعرة من حياء لنقف ونتأمل ما يحدث لأولئك البشر من قتل وتشريد وتجويع ونسجل موقفا انسانيا ليس من اجلهم، بل من اجل ضمائرنا على الاقل.

خطاب المرأة السياسي

شُغل الفلاسفة والمفكرون واختلفوا حول مفهوم الحضارة والثقافة كثيرا، وأطلقوا العديد من التعريفات لتلك المفاهيم يصل بعضها إلى حد التناقض، ومع ذلك يمكن التماس خيط مشترك بين تلك التعاريف المختلفة والقول إن الثقافة تعني الجانب اللامادي من حياة البشر، العادات والتقاليد واللغة والقانون، الموسيقى وطريقة اللباس والطبخ والزواج وحتى طقوس دفن الموتى.. الخ باختصار الثقافة تعني أسلوب حياة المجتمع.

أما الحضارة فهي مجموع الإنتاج المادي للإنسان، وكل ما ينتجه البشر من أدوات لتحسين حياتهم وجعلها أفضل.

وبهذا المعنى نفهم أن كل المجتمعات البشرية لديها حضارة، حتى الإنسان البدائي كانت لديه حضارة طالما أنه أنتج أدواته الخاصة للعيش والتكيف مع ظروف الحياة.

ولكن ما معنى كلمة "غير متحضر" التي نسمعها كثيرا؟ باختصار شديد يكون الإنسان غير متحضر عندما يسيء استخدام تلك الأدوات، عندما يتعامل مع ما أنتجه الإنسان بطريقة مخالفة لما أنتجت له.

فالسيارة على سبيل المثال هي إحدى المنتجات الحضارية في هذا العصر، وجدت لتسهيل حركة انتقال الأفراد ولكن عندما يقودها شخص بطريقة لا تناسب الغاية منها يكون عندئذ شخصا غير متحضر.

فالحضارة لا تعني على الإطلاق أن يكون الشيء جديدا وبالتالي ليس كل ما هو قديم رجعيا ومتخلفا وغير حضاري.

بل قد يكون الإنسان البدائي الذي عاش قبل آلاف السنين أكثر حضارة من الكثيرين اليوم طالما أنه كان ملتزما باستخدام أدواته والتعامل مع إنتاجه الحضاري بطريقة سليمة.

كما أن التمسك بالقديم لا يعني بالضرورة الرجعية والتخلف، فكثير من إنتاج البشر اليوم لا يتناسب مع إنسانيتهم أصلاً.

وبهذا المعنى أيضاً ينبغي أن نميز بين الثقافة والحضارة، فكثير من الناس يخلطون الأمور فيما بينهم لدرجة أنهم يصفون شخصاً ما بأنه غير متحضر لمجرد تمسكه بعبادات وتقاليد ورثها عن آبائه وأجداده ويجد أنها الأنسب له.

فثقافة الشعوب هي تعبير عن تاريخهم وتراثهم ودينهم ومعتقداتهم، وغالباً ما تنشأ المشكلات الثقافية الكثيرة بسبب هذا الخلط، ومن المقبول أن يتم استيراد مكونات حضارية من مجتمعات أخرى ويمكن التعايش معها واستيعابها بسهولة، كما يحدث الآن مع المجتمعات العربية التي تستورد كل ما ينتجه الغرب من أدوات، غير أن استيراد مكونات ثقافية ليس كذلك، أو ليس بهذه السهولة على أقل تقدير.

وبهذا المعنى أيضاً نفهم العبارة الجميلة لنزار قباني: "لبسنا ثوب الحضارة، والروح جاهلية".

في أوائل الثمانينيات بدأت في مصر عملية واسعة النطاق من أجل حث المواطنين على تحديد النسل بسبب الزيادة الكبيرة في عدد السكان، فبدأت الحكومة بحملة إعلامية ضخمة لإقناع الناس بضرورة تحديد النسل وكانت النتيجة بعد مرور ما يزيد على العشرين عاماً أن الحملة الإعلامية نجحت إلى حد ما في القاهرة والمدن الأخرى ولكنها فشلت بقوة في المناطق الريفية وصعيد مصر.

والسبب واضح بكل تأكيد وهو أن هذا "العنصر الثقافي" (مفهوم الخلفة) يرتبط بعناصر ثقافية أخرى كثيرة منها مفاهيم العزوة والرزق والحلال والحرام والعيب والرجولة و... الخ فلا يمكن إحداث تغيير في أحد هذه المكونات بمعزل عن بقية المكونات الثقافية الأخرى المرتبطة به.

كنت أتحدث ذات مرة مع د. فاطمة العبدلي عن خطاب كثير من المرشحات لمجلس الأمة والذي لا يختلف كثيرا عن محاولة الحكومة المصرية في الثمانينيات لإقناع المواطنين بضرورة تحديد النسل، فكما أنك لا يمكن أن تجعل رجلا يؤمن بأن كثرة الأولاد عزوة وأن الرزق من رب العالمين وأن قلة الإنجاب دليل ضعف الفحولة بتحديد النسل قبل أن تجري عمليات أخرى لتصحيح تلك المفاهيم، كذلك لا يمكن للنساء في الكويت أن يقنعن ليس الرجال فحسب بل النساء أيضا بوصول المرأة للبرلمان قبل أن تتغير مفاهيم "الولاية العامة" وخروج المرأة من المنزل ومخالطة الرجال.

فالحديث عن برنامج انتخابي جميل وملتقن ومكتوب بأسلوب أكاديمي جميل لن يفيد قبل أن تقوم المرأة بواجبها تجاه المكونات الثقافية الأخرى التي ترتبط بمفهوم وصول المرأة للبرلمان.

شخبيط

عندما كنت أدرس في الجامعة كنت حينها ماركسيا حتى النخاع لدرجة أنني درست اللغة الألمانية فقط من أجل قراءة نصوص كارل ماركس كما كتبها بلغتها الأصلية، ومع أن الطلبة كانوا ينادونني "الماركسي" كصفة سلبية إلا أنني كنت حينها أشعر بالسعادة لهذا الوصف.

وفي السنة الثانية سافرت إلى ألمانيا وقمت بزيارة جامعة ميونخ، والتقيت هناك بمجموعة من الطلبة من الحزب الشيوعي، شباب يمارسون حياتهم تماما بناء على معتقداتهم، ظاهرهم كباطنهم.

جلست معهم قرابة الأسبوع وتأثرت كثيرا بطريقتهم في التنظيم والعمل والصدق.

وكنت أنتظر عودتي إلى الكويت بفارغ الصبر للبدء بتأسيس حركة أو مجموعة مثلهم تتبنى الفكر الماركسي الشيوعي.

وعندما عدت بدأت بالفعل الاتصال بعدد من الأصدقاء وزملاء الدراسة واستطعنا أن نكون مجموعة صغيرة من الطلبة المؤمنين بالماركسية كمنهج للحياة، وبدأنا نجتمع ونحاول وضع الأسس لحركتنا الجديدة، والنتيجة؟! طلبة ماركسيون يتحدثون عن المساواة وتوزيع الثروة وحقوق العمال وكل واحد فيهم يركب سيارة ثمنها يكفي لإعالة 10 آلاف أسرة فقيرة، ويحمل قلما مذهباً قيمته تعادل أجور 50 عاملاً من عمال كوريا أو مرسيليا الجائعين.

لم يتطلب الأمر كثيراً حتى ندرك الفجوة الكبيرة بين التنظير والواقع، بين الممارسة والفكر.

فأخذنا نضحك على أنفسنا ونقول "إحنا وين والماركسية وين" ؟

كنت أشاهد مقطع فيديو للشاعر المصري الكبير أحمد فؤاد نجم وهو يقود مظاهرة مكونة من آلاف الشباب المصري ويهتف بأبيات شعر وهم يرددونها معه حفظاً عن ظهر قلب،

رجل عجوز تجاوز الثمانين من عمره (الله يعطيه الصحة والعافية) سجن وعذب منذ أيام جمال عبدالناصر وأنور السادات وحتى الآن، ورغم ذلك لا يزال محافظا على مبادئه وحبه لوطنه.

عجوز فقير ومعدم يعيش في "خرابة" على الرغم من أنه لو عرض مجرد عرض بسيط أن يقبل ويتنازل قليلا عن الروح الثورية التي يحرك بها شباب مصر لأصبح من كبار أغنياء القاهرة !

عندما نتأمل في حال بعض رجال السياسة في الكويت من الوزراء أو النواب أو حتى "الناشطين السياسيين" يصيبنا الذهول، فهم بالتأكيد لا يختلفون عن حال الطلبة الشيوعيين المرفهين وهم يتحدثون عن المساواة والتوزيع العادل للثروة، كلام منمق وعبارات جميلة وشعارات براقية لكن مع الأسف بلا أي مضمون واقعي، لكن الغريب في الأمر أن أمورهم "ماشية عال العال" حتى أصبحوا "رموزا وطنية"! مع أن هناك فارقا كبيرا بين الطلبة الشيوعيين السذج وهؤلاء السياسيين، على الأقل فقد كان الطلبة صادقين مع أنفسهم وتوقفوا عن الاستمرار في "التمثيل".

أما السياسيون فكثير منهم لا يزال يمارس اللعب والضحك على الذقون وكل واحد وشطارته !؟

قبل أن تحكم

أجرت إحدى المؤسسات الأميركية اختبارا صغيرا وظريفا على عدد من طلبة الجامعات لقياس مدى قدرتهم على الحكم على الآخرين، وتضمن الاختبار بعض الأسئلة التي قد تبدو غريبة بعض الشيء، أنقلها هنا مترجمة بشيء من التصرف.

السؤال الأول يقول إذا عرفت أن هناك امرأة حاملا ولديها ثمانية أطفال، ثلاثة منهم مصابون بالصمم، واثنان فاقدوا البصر، وواحد لديه تخلف عقلي، وهي ذاتها مصابة بالزهري، فهل تنصحها بالإجهاض؟ انتظر قليلا.. السؤال الثاني يقول إذا كان صوتك سيرجح فوز أحد المرشحين لانتخابات الرئاسة فمن ستختار من بين هؤلاء الثلاثة؟ الأول يستشير العرافات والمنجمين ويخالط المنحرفين ولديه عشيقتان، يدخن بشراهة ويشرب من 8 إلى 10 كؤوس مارتيني باليوم.

المرشح الثاني كان مدمنا للمخدرات عندما كان طالبا، ويقضي معظم وقته في النوم وطرد من وظيفته مرتين ويشرب ربع زجاجة ويسكي كل مساء.

المرشح الثالث بطل من أبطال الحرب نال عدة أوسمة للشجاعة، لا يدخن ولا يشرب الخمر ولم يخن قط زوجته. فمن تختار؟

تعتقد أن الاختيار سهل، حسنا المرشح الأول هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأميركية روزفلت، والمرشح الثاني هو رئيس الوزراء البريطاني الأسبق ونستون تشرشل، أما المرشح الثالث فهو أدولف هتلر.

بالمناسبة، إذا كانت نصيحتك للمرأة بأن تجهض فتكون قد حكمت بالقتل على أحد عمالقة الموسيقى وهو بيتهوون.

تخيل أنك دعيت للعمل في منظمة فيها أكثر من 500 موظف، 117 منهم تسببوا في خسارة مباشرة لشركتين على الأقل، و29 منهم حوكموا بسبب سوء معاملة زوجاتهم، و19

شخصاً منهم حرروا شيكات بدون رصيد، و3 تم اعتقالهم بسبب الاعتداء على الغير، و15 شخصاً منهم حوكموا بجرائم سرقة واحتيال، و84 آخرون اعتقلوا بسبب قيادتهم للسيارة وهم في حالة سكر.

هل تقبل العمل بهذه المنظمة؟ وماذا إذا كانت هذه المنظمة هي الكونغرس الأميركي الذي يسن مجموعة من القوانين ويراقب سلامة تطبيقها.

ربما نعتقد أننا مؤهلون للحكم على الآخرين، على تصنيفهم وفرزهم كما نشاء بكل سهولة، وكأن كل واحد منا هو مركز الكون.

هل نحتاج إلى تأمل ذواتنا لنذكر أننا مجرد أشخاص عاديين ولا شيء يميزنا عن غيرنا وأن اطلاق الأحكام على البشر مسألة ليست هينة.

التربية وانعدام الثقة

أمضيت قرابة الشهر وأنا أجوب مدن ألمانيا شرقها وغربها، جنوبها وشمالها مستخدماً الباصات والقطارات فوق الأرض وتحت الأرض، ولم يحدث أن سألني أحد ولو لمرة واحدة عن تذكرة الركوب، كبائن بيع التذاكر منتشرة في كل مكان، والجميع يتجه إليها ليضع فيها قطع النقود ويأخذ التذكرة ثم يتوجه إلى الباص أو القطار على الرغم من عدم وجود التفتيش على التذاكر، طريقة غريبة في التعامل تقوم على الثقة بالبشر وعدم تعميم مسؤولية وجود بعض "الحرامية" على الآخرين.

يقول علماء التربية إن التربية الحقيقية تحقق أهدافها متى ما أصبح تطبيق القانون والنظم نابعا من الاحترام والثقة.

عندما زرت هامبورغ العام الماضي كانت ألمانيا كسائر البلدان المسيحية تحتفل بعيد الفصح easter والذي صادف أن كان يومي الأحد والاثنين، فكان دوام يوم الجمعة قبل العطلة ويوم الثلاثاء بعد العطلة عاديا جدا، ولم يحدث أن قام معظم الموظفين هناك بربط العطلة من أول الأسبوع إلى نهاية الأسبوع التالي لمجرد وجود عطلة في منتصف الأسبوع كما يحدث عندنا بكل بساطة، والأهم أنها ليست قضية تحتاج لإثارتها في البرلمان بكل تأكيد.

كنت أشاهد برنامجا تلفزيونيا قبل أيام عن الحوادث الحقيقية، حيث قامت دورية المرور بإيقاف سائق شاحنة بسبب سيره على الجانب الأيسر للطريق وتجاوزه سيارة كانت تسير ببطء على الجانب الأيمن، نزل السائق وكان كبيرا بالسن وعندما سأله الشرطي هل تعلم لماذا أوقفتك، أجاب بنعم لأنه تجاوز الحارة المخصصة للشاحنات، وبعد أن تأكد الشرطي من سجل الرجل ووجده نظيفا تماما قال له إنني لن أسجل لك مخالفة هذه المرة، فاستغرب السائق وقال له إن هذا غير معقول، أنا أخطأت ولا بد أن تسجل مخالفة، هذه أول مرة أرى فيها مثل هذا الموقف في حياتي.

لو تأملنا أوضاعنا وما نعيشه من فوضى وتجاهل تام للقانون على الرغم من الكم الهائل من الإدارات والموظفين المعنيين فقط بمراقبة تطبيق القانون لأصابنا الإحباط والضجر، بقدر ما يصيبنا من الغثيان بسبب تلك المظاهر المخزية من الإجراءات التعسفية والبيروقراطية المريضة، كل ذلك بسبب انعدام الثقة بالناس واعتبارهم بلا استثناء مجرمين، يجب ألا تترك لهم حرية التصرف والعمل، تلك الآفة التي يقتات عليها القابعون خلف مكاتب بعض المسؤولين ويصورون لهم أنها ضرورية ليضمنوا بقاءهم وأننا لا نستطيع أن نتخلى عنهم.

دخل أحد الطلاب إلى مكتب مدير المدرسة وكان وجهه شاحبا من شدة الخوف والقلق، وطلب من المدير أن يعطيه ورقة لإعادة الاختبار الذي فاتته، سأله المدير عن سبب الغياب فقال بكل صراحة "راحت علي نومة"، ولأن الطالب مجتهد ومتفوق ومعروف عند إدارة المدرسة بحسن سلوكه قال له المدير إنه يصدق له ولكن لا بد أن يحضر ورقة تفيد بأنه مريض حتى يمتحنه، قال الطالب لكنني لم أكن مريضا، أجابه المدير "خذ ورقة طبية ودبر نفسك بالمستوصف"، هكذا تربى وزير التربية أبناءنا على الصدق والثقة، فكيف نستغرب أن يصبح اللف والدوران واللعب على الحبلين و"من صاها عشى عياله" القيم السائدة في المجتمع؟

البدون وغربة وطن

نشأت مشكلة البدون بحسب ادعاء الحكومة بسبب دخول بعض الأفراد من دول مجاورة إلى الكويت بصورة غير قانونية، ومع أن المجتمع الكويتي تشكل أساساً من خلال هذه الهجرة إلا أننا لن نخوض في ذلك. ماذا يعني دخول بعض الأشخاص للبلاد بصورة غير قانونية، لا شيء سوى تقصير وزارة الداخلية ممثلة بأمن الحدود في أداء واجباتها تجاه أمن البلاد. ثم ماذا؟ دخل هؤلاء الأشخاص واستوطنوا وعملوا والتحقوا بالجيش والشرطة وبقية وزارات الدولة وهم من يطلق عليهم الجيل الأول من البدون، تزوجوا وأنجبوا من يسمى بالجيل الثاني من البدون ممن لا دخل لهم على الإطلاق في مشكلة آبائهم مخالفين الإقامة، فهم لم يدخلوا البلاد بصورة غير مشروعة فلماذا تتم معاقبتهم على ذنب ارتكبه آبائهم وتقصير وزارة الداخلية في معالجة أوضاعهم ويحرمون من حق المواطنة؟

مشكلة البدون في الحقيقة هي مشكلة وزارة الداخلية منذ البداية، تقصير في حفظ حدود البلاد، ثم تقصير في ملاحقة من يدخل البلاد بصورة غير قانونية، ثم تقصير في معالجة أوضاع آبائهم وأبناءهم حتى وصلنا إلى الجيل الرابع الآن من أطفال محرومين من حقوق المواطنة دون ذنب إلا أن أجدادهم دخلوا البلاد بصورة غير مشروعة عندما كان حرس الحدود "نائمين".

لا أتصور أن قضية البدون في الكويت يمكن أن تحل لأسباب إنسانية، فقد مضى على هذه المعضلة أكثر من 50 عاماً ولم تحل، وما حدث من معاناة وصل حد الجوع منذ تحرير الكويت من الاحتلال العراقي عام 1991 وحتى اليوم دون أن يتحرك ذلك الجانب "الإنساني" لحل هذه المشكلة، يجعلنا نقول بكل ثقة أنه لن تحل هذه القضية لأسباب إنسانية على الإطلاق، ولذلك نتمنى من نواب الأمة ومنهم من كون شعبيته على أساس شعارات إنسانية براءة ووعود بحل هذه المشكلة المزمنة أن يتوقفوا عن استهلاك هذه النبرة التي أفرغت من محتواها وفقدت كل معاني القيم فيها، فالعمل الإنساني له أصحابه من أهل الخير من أمثال "أم البدون" الشيخة أرواد الصباح وغيرها من أصحاب الأيادي البيضاء، بيض الله وجوههم.

مشكلة البدون مشكلة قانونية بحتة، تتحمل وزارة الداخلية منها النصيب الأكبر من الخطأ على مدى السنوات الـ 50 الماضية، فلا هي أمسكت هؤلاء المخالفين منذ البداية وتعاملت معهم بطريقة قانونية، ولا هي أنصفت الجيل الثاني والثالث والرابع منهم والذين لم يرتكبوا أي مخالفة قانونية على الإطلاق ماداموا لم يدخلوا البلاد بصورة غير قانونية، غير أن وزارة الداخلية جعلت دخولهم إلى الحياة بمنزلة نقمة، وأمرًا مخالفًا للقانون.

مؤلم أن يكون في الكويت بشر يعانون كل هذه الأوجاع والشعور بالغربة في وطن ولدوا فيه ولم يغادروه لحظة ولا يعرفون لهم وطنًا غيره، مؤلم أن تصدر تقارير تتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان في بلد يتمتع أهله بفضل من الله بكل معاني الإنسانية النبيلة ويهبون لنجدة البعيد قبل القريب ممن يُبتلون بصروف الدنيا ليخففوا عنهم العذاب والمعاناة، مؤلم أن يدفع كل هؤلاء الشباب والأطفال ثمن تقصير وزارة الداخلية في واجباتها من حاضرهم السيئ ومستقبلهم المظلم، مؤلم أن تضطر الحكومة إلى معالجة أوضاع البدون نتيجة لضغوط خارجية في الوقت الذي تمتلك فيه القرار ليكون حلاً شاملاً وبقرار سيادي حقاً، ولا تفعل !

عندما تصف وزارة الداخلية 300 ألف شخص من البدون بأنهم "مقيمون بصورة غير شرعية" ما يزيد على الـ 50 عاماً فإنها بذلك إنما تدين نفسها، ولذلك من العبث أن تشكل اللجان تلو اللجان لمناقشة "التسمية" القانونية التي يمكن أن تطلق على هؤلاء البشر ويتم التغاضي عن أساس المشكلة ومن وضعهم فيها. وكل ما نتمناه من الداخلية أن تضع حداً لهذا التجاوز بإنصاف كل من ولد على أرض الكويت ممن يسمونهم بالمقيمين بصورة غير قانونية قبل أن تصل الأمور إلى نقطة لا ينفع فيها الندم وتفرض الحلول علينا من الخارج ولا نخرج حينها إلا بسواد الوجه.

فاصل

كتب أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء أبو حيان التوحيدي عن الغريب قائلاً: يا هذا، الغريب في الجملة كُله حُرقة، وبعضه فُرقة، وليلة أسف، ونهاره لهف، وغداؤه حزن، وعشاؤه شجن، وأراؤه ظن، وجميعه فنن، ومفرقه مَحَن، وسِرُّه عَن، وخوفه وَطَن.

مهاتير محمد والقفز إلى الأمام

تولى د.مهاتير محمد رئاسة وزراء بلاده عام 1981 وكانت لديه منذ البداية رؤية واضحة لما يجب أن تكون عليه ماليزيا التي كانت تعج قبل ذلك بثشتى ألوان الفقر والجهل والتخلف، فوضع ما يسمى بخطة 2020 التي تقضي بأن تصبح ماليزيا بحلول عام 2020 دولة صناعية مكتملة البنيان.

وعندما نلاحظ تقارير النمو في هذا البلد خلال فترة تولي د. مهاتير محمد نجد أنها قد حققت نمواً بنسبة 6.7% من سنة 1980 إلى سنة 1990، ثم نسبة نمو 1.7% من سنة 1991 إلى سنة 2000، وهنا سندرك أن هذا الرجل كان يعرف منذ البداية ماذا يريد وكيف يحقق ما يريده لبلاده.

واليوم عندما نتحدث عن ماليزيا فإننا نتحدث عن واحدة من كبرى الدول النامية التي استطاعت أن "تقفز" إلى الأمام بخطوات واثقة ومدروسة، فقد تحولت من مجرد دولة زراعية تعتمد على تصدير المواد الأولية إلى دولة صناعية متقدمة يساهم فيها قطاعا الصناعة والخدمات بحوالي 90% من إجمالي الناتج المحلي، وتبلغ صادراتها من الصناعة حوالي 85%، كما أنها تنتج 80% من السيارات التي تسير على شوارع ماليزيا، إضافة إلى كونها من أكبر مصدري الأكل الحلال إلى الدول الغربية، وعندما سئل د.مهاتير كيف استطعت أن توفق بين الإسلام ومفاهيم العالم الحديث أجاب بأنه ببساطة يفهم الإسلام بوصفه دعوة إلى التقدم والنجاح وليس العكس!

ماليزيا اليوم وبفضل جهود هذا المفكر والسياسي العملاق انخفضت فيها نسبة البطالة لتصل إلى 3% فقط، كما انخفضت نسبة الأفراد الذين يعيشون تحت خط الفقر من 52% عام 1970 إلى 5% عام 2000، وارتفع متوسط دخل المواطن الماليزي إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل تولي د.مهاتير رئاسة الوزراء.

وإذا أردنا معرفة سر هذا النجاح الكبير فعلياً أن نتأمل في فكر د. مهاتير محمد الذي قال في أحد تقاريره أنه قرر منذ البداية اعتناق قيم العمل السائدة في اليابان وكوريا

والتي تقوم أساسا على الانضباط الشديد والإخلاص التام للعمل والحرص على اختيار ذوي الكفاءة مسؤولين ليكونوا قدوة لموظفيهم، وهذه رؤية ثاقبة بلا شك إذ انه لم ينجرف وراء الأفكار السلبية التي تريد أن تقنعنا بأن التقدم مرتبط فقط بقيم الغرب التي لا يمكننا بلوغها !

فقد أدرك د.مهاتير أن قيم الشرق السائدة في اليابان وكوريا هي الأقرب إلى تكوين ماليزيا ويمكن من خلالها تحقيق النهضة، وأصاب.

ماليزيا التي كانت تعاني صراعات عرقية طاحنة قبل وصول د.مهاتير محمد ليست هي ماليزيا اليوم، وسر هذا التحول وهذه النهضة الجبارة التي حققتها حكومة مهاتير ليس في الثروات الطبيعية وإنما تكمن في الإنسان نفسه من خلال تغيير قيم ومفاهيم الحياة لديه، وهو أمر مرتبط بالتأكيد بالتعليم، وهي حقيقة يمكن إدراكها بسهولة من خلال متابعة تجارب النجاح في مختلف دول العالم التي استطاعت أن تحدث ذلك التغيير المطلوب في نظام التعليم مثل سنغافورة التي لا تقل فيها تجربة رئيس وزرائها "لي كون" عبقرية عن تجربة د.مهاتير محمد.

ترى كم نحتاج من الوقت كي ندرك أننا لن نتقدم ولن ننهض ببلادنا ما لم نتخذ هذه الخطوة ونحدث ذلك التغيير؟ كم نحتاج من الوقت كي تسود لدينا مفاهيم الكفاءة وقيم احترام العمل ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب؟ ما الذي ينقصنا في الكويت لكي نخطو هذه الخطوة ؟

ذكرت تقارير صندوق النقد الدولي لعام 2007 أن إجمالي الناتج المحلي للكويت بلغ 97 بليون دولار، بينما بلغ لنفس العام في الإمارات العربية المتحدة 186 بليون دولار، أي الضعف تقريبا على الرغم من أن الكويت والإمارات تصدران نفس كمية النفط تقريبا، وهذا يعني أيضا أن الإمارات الشقيقة استطاعت أن تحقق عائدات بنسبة 50% من مصادر غير نفطية.

أما عن الإنفاق فتشير التقارير نفسها إلى أن تكلفة المشاريع الإنشائية للسنوات الخمس القادمة في الإمارات تبلغ 459 بليون دولار، بينما في الكويت يعلم الله أين تذهب كل هذه البلايين !

لكن حتى لا نظلم الحكومة علينا ألا ننكر أنها قامت أخيراً مشكورة بتغيير البلاط في بعض الشوارع فجزاها الله كل خير، وكذلك شكلت "عدة لجان" وفرق عمل تم اختيار أعضائها "بعناية" لدراسة أفضل الحلول لترحيل العطل الرسمية إذا جاءت في منتصف الأسبوع !

فهرس المحتويات

| | |
|----|--|
| 5 | كورونا.. وعبقرية ألبير كامو في "الطاعون" |
| 8 | جيرمي بنتامو دمار العالم |
| 10 | قضية الطفلة "م" |
| 13 | التحول للسيارات الكهربائية |
| 16 | تناقضات عالمنا العربي |
| 18 | مجزرة كاتين.. 22 ألف رصاص في الرأس |
| 20 | كيف يُرتجى إصلاح من خراب؟! |
| 22 | العالم بعيون رحمانينوف |
| 24 | هابرماس.. من الدفاع عن الحداثة إلى الدفاع عن الدين |
| 26 | شعب الله "المحتال" |
| 28 | محاربة الإسلاموفوبيا بالتاريخ |
| 30 | جينياالوجيا الحمض النووي وخرافة الأعراق |
| 32 | عن "الإنسان الأحمر" |
| 34 | محاولة خروج |
| 36 | ألمانيا وجدل الإسلام والمسلمين |
| 38 | وتترك حزنك بين المقاعد.. ترجوه يُسرق |
| 41 | الطريقة الألمانية في العمل |
| 43 | اللحظات الأولى لخلق الكون |
| 45 | ظاهرة "المتقف الوطني" |
| 47 | الحرب العالمية الثالثة |
| 49 | حول كتاب "الإسلام الديموقراطي المدني" |

| | |
|-----|--|
| 51 | نقد أطروحة شيريل بينارد "الإسلام الديموقراطي المدني" |
| 53 | من الصلابة إلى السيولة.. مع زيجمونت باومان |
| 56 | استراحة العيد |
| 62 | اندماج المسلمين في أوروبا |
| 65 | أن تحب داغستان قبل أن تراها |
| 68 | مراجعة صغيرة لتاريخنا المعاصر |
| 71 | وداعاً زيجمونت بومان |
| 73 | حتى الأساطير تجمعنا |
| 75 | الأقليات.. وجهة نظر فلسفية |
| 77 | ميركل واللاجئون.. حكاية مبادئ |
| 79 | الأرضية المشتركة بين المختلفين |
| 81 | علاقة أميركا بالصهيونية |
| 83 | حديث في الزمن السائل! |
| 85 | الشرق الأوسط العنيد |
| 87 | حول "تشريح التدميرية البشرية" |
| 89 | ميلغرام والانصياع للسلطة |
| 91 | بين الوطنية والعنصرية |
| 93 | عالم جديد يتشكل |
| 95 | الرجل الذي لم يحرق باريس |
| 99 | ماركسيات.. من ذكريات الجامعة |
| 101 | احتكموا لضمائركم |
| 104 | في فلسفة الدين |
| 106 | من يتجاوز تجربته الذاتية إلا العظماء؟! |
| 108 | ويح الذكريات |

| | |
|-----|---|
| 110 | جرافيتي..... |
| 113 | تحشيد الجماهير بالحقد والانتقام..... |
| 118 | بيكسل..... |
| 120 | قليل من القصائد وكثير من العلم..... |
| 123 | حديث في فلسفة الجمال..... |
| 125 | العالم بين نظرية الفوضى والاستقرار..... |
| 130 | خريشات في العلم..... |
| 133 | أزمة الدولار الأميركي.. والعالم..... |
| 136 | التفاعل الاجتماعي لفهم أفضل للإسلام..... |
| 138 | حضارة نصف مخ..... |
| 141 | حول إحساس المسلم بالذنب..... |
| 144 | دروس من علم الاجتماع..... |
| 146 | لا أحد بريئاً..... |
| 148 | إشكالية مصدر التفسير..... |
| 151 | حكايات قصيرة جداً..... |
| 154 | أهل البيت والصحابة..... |
| 156 | لماذا يحقد الغرب على الرسول؟! كارين أرمسترونج تجيب..... |
| 158 | نهاية إسرائيل..... |
| 160 | حول مفهوم القدر..... |
| 162 | شيطنة الإسلام السياسي!..... |
| 165 | رحلة أنتوني فلو من الإلحاد إلى الإيمان..... |
| 168 | نصف وجه.. نصف حقيقة..... |
| 170 | من الإلحاد إلى الإيمان..... |
| 172 | الهندسة الاجتماعية..... |

| | |
|-----|---|
| 175 | قراءة في ملف الشرق الأوسط..... |
| 177 | ما الذي تفعله دول الخليج؟..... |
| 179 | المواطنة فلسفياً..... |
| 181 | مذبحة الأبرياء..... |
| 184 | الطبقة الاجتماعية.. لفهم ما يجري..... |
| 186 | فشل المشاريع العربية..... |
| 188 | المعقول واللامعقول حول "داعش"..... |
| 190 | ميديكوس..... |
| 192 | الإقصاء ينتج خصماً مدمراً..... |
| 194 | يوماً ما..... |
| 195 | العالم أصبح خراباً..... |
| 197 | سوريا.. لتأديب الثوار..... |
| 200 | المجتمع الكويتي من وجهة نظر الوردى..... |
| 202 | المجتمع الكويتي من وجهة نظر الوردى 2..... |
| 204 | بين الورق والإلكترون..... |
| 206 | المستقبل هو ما نفعله اليوم..... |
| 208 | جسر الصين العظيم..... |
| 210 | الحقيقة فلسفياً..... |
| 212 | تموز.. وربيع العرب الدامي..... |
| 214 | تعب الشكاية..... |
| 216 | التجديد في خطاب التجديد..... |
| 218 | حول مفهوم الديمقراطية..... |
| 221 | اللغة العربية والثروة..... |
| 223 | في زمن الهرطقة..... |

| | | |
|-----|-------|--|
| 225 | | جلجامش هذا الزمان |
| 227 | | من ألمانيا |
| 229 | | المساواة بين المرأة والرجل |
| 231 | | التعليم .. حجر الزاوية |
| 233 | | إسلام متحضر |
| 235 | | آفاق الحل في سورية |
| 237 | | بين الجهراء وكوبنهاغن |
| 239 | | النموذج الماليزي مفتاح الحل لمصر |
| 241 | | العالم بعد خمس سنوات |
| 243 | | إيران بين الصفوية والتشيع |
| 245 | | تأملوا .. ففيها عبر |
| 248 | | ثقافة التقاعد |
| 250 | | إشكالية: الثورة أم الإصلاح؟ |
| 252 | | شيزوفرينيا |
| 254 | | هل حقا "الإخوان المسلمين" خطر؟! |
| 256 | | المعقول واللامعقول في ثقافتنا |
| 258 | | بين الثورة والتنوير |
| 260 | | نجوم سيدي مؤمن |
| 262 | | باراداييم.. التفكير خارج الصندوق |
| 264 | | تنامي عنصرية اليسار! |
| 266 | | ألمانيا الجديدة.. ومسلمون يعطلون نشر الإسلام |
| 268 | | بين الحركة و"الحراك" |
| 270 | | شوكولاتة فاخرة |
| 271 | | إسرائيل والنيل |

| | |
|-----|---------------------------------------|
| 273 | الاحتلال العراقي..... |
| 275 | شريط أحمر..... |
| 277 | خريشات حول الرأسالية الجشعة..... |
| 279 | من أحاديث رمضان..... |
| 281 | من مفارقات الثقافة الكويتية..... |
| 283 | مبادرة سسوانتو مع مافيا المسامير..... |
| 285 | ماجليف شنغهاي..... |
| 287 | ربيع براغ وربيع العرب..... |
| 289 | إيران ورقة خاسرة..... |
| 291 | مجرمو اليوم ضحايا الغد..... |
| 293 | بين التاجر واللص..... |
| 295 | المرض من وجهة نظر اقتصادية..... |
| 297 | بين النافذة والباب..... |
| 298 | منطق الخوف..... |
| 300 | المسكوت عنه..... |
| 301 | بين الطائفي والمتدين..... |
| 302 | من عجائب البشر..... |
| 305 | مستقبل الاتحاد الأوروبي..... |
| 307 | مصر والتجربة العراقية..... |
| 309 | جامعة الفشل العربية..... |
| 310 | حكاية بلا ملامح..... |
| 312 | خريشات مواطن محبط..... |
| 313 | بين عالمين..... |
| 315 | حديد عتيق لموت جديد..... |

| | |
|-----|----------------------------------|
| 317 | لأننا عنصريون وبلا مبدأ |
| 319 | هتلر والبدون |
| 321 | هل تعلم؟ |
| 324 | إيكونوموس |
| 326 | تعديل الدستور لعقلنة السياسة |
| 328 | حول الثورات العربية |
| 330 | حضارة القتل |
| 331 | من هنا.. وهناك |
| 333 | من أدب الحروب |
| 335 | سيكولوجية الحشود |
| 337 | في العقد الاجتماعي |
| 339 | ألمانيا بين الأمس واليوم |
| 341 | مذكرة خلية CIA الحمراء |
| 342 | من أحاديث الضجر |
| 343 | دولة تختنق |
| 344 | اطلب له الرحمة |
| 346 | نحو إسلام بلا مذاهب |
| 348 | العصبية في فكر ابن خلدون |
| 350 | من ذاكرة الاحتلال |
| 352 | رأس المال الاجتماعي |
| 354 | إلى بن لادن |
| 355 | إشكالية الرأسمالية والديموقراطية |
| 357 | درس صغير من ألمانيا |
| 359 | كوارث طبيعية وأخرى صناعية |

| | |
|-----|---|
| 360 | أبطال سفن الحرية..... |
| 362 | الديموقراطية بين الشكل والمضمون..... |
| 364 | 3 هزات في الحضارة العربية والإسلامية..... |
| 366 | نحو خصخصة عادلة..... |
| 368 | مغالطات منطقية..... |
| 370 | خطابان في الخصخصة..... |
| 372 | حول مفهوم الإنسانية..... |
| 374 | شأن داخلي..... |
| 376 | أشياء صغيرة لكنها كبيرة..... |
| 377 | الغرب العنصري..... |
| 379 | همسة في أذن الليبراليين..... |
| 381 | وطن ودوائر..... |
| 382 | حادث ضد مجهول..... |
| 384 | مفهوم "الثقف" عند غرامشي..... |
| 386 | وحده الماضي أجمل..... |
| 388 | بين الفلسفة والسفسطة..... |
| 390 | خريشات منتصف الليل..... |
| 391 | التمييز بين السياسة والثقافة..... |
| 393 | الحاج جرجس..... |
| 394 | الخطوة رقم 2..... |
| 396 | استراحة العيد..... |
| 398 | في رأسي شيطان يعبث..... |
| 400 | الدين والنظم الاجتماعية..... |
| 402 | مناهات..... |

| | | |
|-----|-------|--------------------------------------|
| 404 | | جدار برلين |
| 406 | | ! تلغراف هوفل |
| 408 | | مقتطفات من خطاب كلينتون |
| 410 | | لماذا ننكر الهولوكوست؟ |
| 412 | | مدارات |
| 413 | | البنية التحتية والبنية الفوقية |
| 415 | | "فضاوة الألمان" |
| 417 | | فقراؤنا وفقراؤهم |
| 419 | | وَأد الأفكار |
| 421 | | لدينا نظام ديموقراطي وليس ديموقراطية |
| 423 | | أخبار x أخبار |
| 425 | | دمعة وابتسامة |
| 427 | | درست في أميركا |
| 429 | | حقائق وآراء |
| 431 | | بين السياسة والاجتماع |
| 433 | | عذراً سقراط |
| 435 | | مفهوم الليبرالية |
| 438 | | سوق عجيب غريب |
| 440 | | إلى أستاذي د. أحمد الربيعي |
| 442 | | أميركا ودعم إسرائيل |
| 443 | | سلاح المقاطعة |
| 445 | | رقم |
| 447 | | خطاب الشتم والسباب العربي |
| 449 | | قصة حياة |

| | |
|----------|---|
| 452..... | فن الاستماع..... |
| 454..... | العمل من منظور ماركسي..... |
| 456..... | التمييز بين اليهودية والصهيونية..... |
| 458..... | الأزمة الاقتصادية وإحياء فكر ماركس..... |
| 460..... | صرخة اسمها الإلحاد..... |
| 462..... | استراحة العيد..... |
| 464..... | عليكم بالعمل الحكومي..... |
| 466..... | العالم الرابع..... |
| 469..... | بيو ديزل..... |
| 471..... | الحق في الحياة..... |
| 473..... | غداء في لندن عشاء في باريس..... |
| 475..... | تدريس الفلسفة..... |
| 477..... | الوعي الاستهلاكي..... |
| 479..... | إيران والديموقراطية الكويتية..... |
| 481..... | نعم لدينا طائفية..... |
| 483..... | ما أحوجنا للتغيير الراديكالي !..... |
| 485..... | أشياء لا يمكن إصلاحها..... |
| 487..... | الإنسان موقف..... |
| 489..... | خطاب المرأة السياسي..... |
| 492..... | شخييط..... |
| 494..... | قبل أن تحكم..... |
| 496..... | التربية وانعدام الثقة..... |
| 498..... | البدون وغربة وطن..... |
| 500..... | مهاتير محمد والقفز إلى الأمام..... |



نظرات

محمد هلال الخالدي